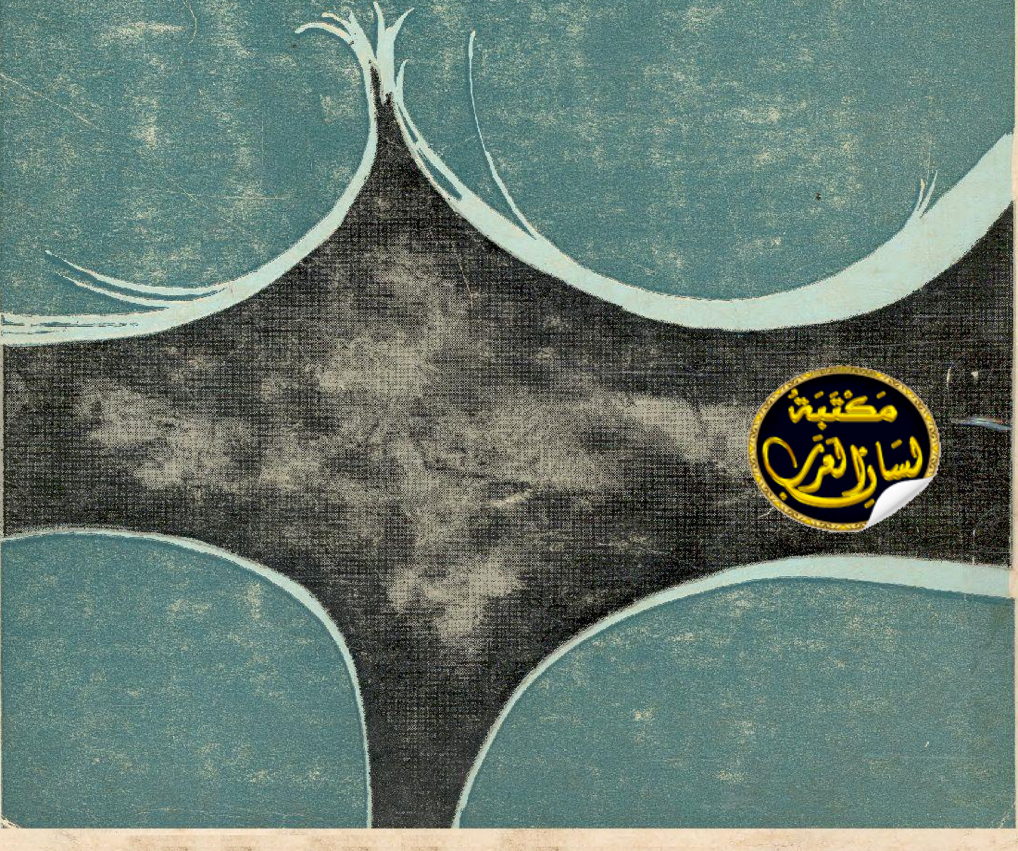
الانثروبولوجيا

وازمة العالم الحديث

تحرير رالف لنتون

ترجمة عبد الملك الناشف



الأنثربولوجيا
وأزمة العالم الحديث

نشر بالاشتراك مع
مؤسسة فرنكلين للطباعة والنشر
بيروت – نيويورك
١٩٦٧

رالف لنتون

الأنثروبولوجيا

وأزمة العالم الحديث

ترجمة

عبد الملك الناشف

المكتبة العصرية، صيدا - بيروت

المسهمون في هذا الكتاب

رالف لنتون
عبد الملك الناشف

المحرر : رالف لنتون

ولد عام ١٨٩٣ . ونال عام ١٩٢٥ درجة الدكتوراه من جامعة هارفرد . وقد قام ، بدافع من اهتمامه بعلم الآثار ، برحلات علمية الى مناطق مختلفة نمت فيه ميلا الى دراسة علم الانثربولوجيا .

بدأ حياته الاكاديمية مدرساً في جامعة وسكونسن ثم في جامعة كولومبيا في ولاية نيويورك. وفي عام ١٩٤٦ شغل منصب استاذ علم الانثربولوجيا في جامعة ييل .

كان عضواً في الاكاديمية القومية للعلوم ، وفي جمعيات علمية أخرى ، كما نال عديداً من درجات الشرف والأوسمة العلمية . وعد حين وفاته ، عام ١٩٥٣ ، واحداً من اعظم انثربولوجيي العالم .

المترجم : عبد الملك الناشف

نال عام ١٩٤٧ درجة بكالوريوس في العلوم الكلاسيكية من جامعة لندن ، ودرجة الماجستير ، عام ١٩٦٣ ، من الجامعة نفسها .

عمل في حقل التعليم في عدد من الاقطار العربية . وهو الآن مستشار لشؤون التربية في البلاد العربية في المعهد التربوي التابع لوكالة الغوث واليونيسكو في بيروت . وله عدد من الكتب المؤلفة والمترجمة .

تصدير

أدت الازمة العالمية الحالية الى تأليف كتب كثيرة عني معظمها بالتخطيط لاعادة تنظيم العالم . أما هدف هذا الكتاب فهو أقل طموحا . فكل واحد منا يدرك أن هذا التخطيط يحتاج الى كل ما تستطيع العلوم تقديمه من عون . غير أننا نلاحظ ، في الوقت نفسه ، ان المشكلات التي ينطوي عليها هذا التخطيط معقدة ومتعددة الجوانب ، بحيث لا يمكن حلها الا بتضافر جهود العاملين في مختلف ميادين البحث العلمي . ونلاحظ ايضا ان أي علم يحتاج عادة الى انقضاء جيل واحد تقريبا قبل ان تصبح اكتشافاته وأساليبه جزءا من مجموعة الوسائل التي يمكن للعلوم الاخرى الانتفاع بها بصورة عملية ومنتظمة . وهو يستغرق وقتا أطول قبل ان تصبح اكتشافاته مألوفة لدى الشخص غير الاحصائي أو قبل أن تحدث أثرا مهما في تفكيره . وما هذا الكتاب الذي نضعه بين أيدي القراء الا محاولة لتقصير هذه الفترة الزمنية . وهو موجه الى العلماء والمخططين ، وكذلك الى الجمهور الذي يعتبر تعاونه شرطا أساسيا لنجاح كل خطة .

ان علم الانثربولوجيا حديث العهد نسبيا ، وحصيلته من المعلومات تتزايد بسرعة كبيرة جدا حتى ان الكثير من اكتشافاته لم يصل بعد الى الباحثين في العلوم الاخرى ، بله رجل الشارع . ولا بد لنا من الاشارة ، في الوقت نفسه ، الى أن بعض هذه الاكتشافات ينطوي على أهمية كبرى بالنسبة للتخطيط الواعي للنظام العالمي الجديد الذي يبدو

الان أمرا حتميا ، كما انه ضروري جدا لتنفيذ أية خطة قد يضعها الانسان في المستقبل . ولا ريب في أن بناة هذا النظام سيخفقون في عملهم اذا هم عجزوا عن فهم امكانات وحدود المادة البشرية التي يخططون لها . وثمة عامل اخر يكاد يعادل العامل السابق في الاهمية ، وهو ضرورة معرفة الاتجاهات التي تلعب دورها خلال فترات زمنية طويلة ، وادراك المشكلات التي يستطيع الاخصائي التنبؤ بها قبل وقوعها او تمييزها قبل أن تشتد حدتها ويتطلب حلها اجراءات جذرية عنيفة . أضف الى كل ما تقدم أن أي مخطط ، حتى لو أخذ العاملين السابقين بعين الاعتبار ، لن يكتب له النجاح ما لم تستخدم فيه الاساليب الفنية المناسبة .

بوشر باعداد هذا الكتاب في أواخر الحرب العالمية الثانية . وكان من الطبيعي أن يواجه المحرر في هذا الظرف بعض القيود والصعوبات ، وبخاصة فيما يتعلق بحجم الكتاب وعدد الذين سيسهمون في اعداد ابحاثه . فنسبة كبيرة جدا من العلماء الناشئين الذين اختصوا بهذا الميدان كانت ملتحقة بخدمة الحكومة ، كما ان الكثيرين منهم جندوا للعمل مع القوات المسلحة . واستقر الرأي ، بعد تدارس الامر ، على الاكتفاء بتقديم عرض للمنجزات الرائدة التي حققتها المراكز الامامية والطلائعية في ميدان هذا العلم ، وعدم الخوض في تفاصيل الابحاث المعروفة التي تداولتها المراكز الظهيرة المستقرة . وبناء على هذه الخطة استبعدت موضوعات مختلفة كان من الممكن ادراجها في ظروف اخرى غير الظروف التي رافقت نهاية الحرب العالمية الثانية . وهذا يفسر لماذا لم نفرد اقساما خاصة لبعض المشكلات التي سبق تمييزها وبحثها على نطاق واسع ، كما يفسر لماذا لم نعرض لبعض الحقائق المعروفة الا لماما . ونذكر ، على سبيل المثال ، اننا افترضنا أن القارىء العادي يلم ويقر بالحقائق الاساسية المتصلة بأصل الانسان ونشوئه وتطوره ، ولذا لم نفرد فصلا خاصا لبحثها . وافترضنا في الوقت نفسه ان القارىء العادي لم يطلع بعد على

أحدث المعلومات الخاصة بالمشكلات العرقية ، ولذا رأينا ان نعالج هذا الموضوع بشيء من التفصيل . وقد تنتقد بعض الاوساط الخطة الانتقائية التي اتبعناها ، ولكننا نأمل بأن يقوم كتابنا على اساس الموضوعات التي يتناولها بالبحث ، وليس على اساس الموضوعات التي لم يعرض لها .

ويود المحرر ان يعرب عن امتنانه للمسهمين الكثيرين الذين تعاونوا معا على تزويد القارىء بنتائج الابحاث التي اجريت حديثا في ميادين اختصاصهم . ويرى من واجبه ايضا أن يخص بالشكر أولئك الذين أبدوا في هذا الظرف استعدادا للتعاون معه في اعداد المخطط العام للكتاب ، وذلك بالاضافة الى المقالات التي اسهموا بها في ميادين اختصاصهم . واخيرا أتوجه بالشكر الى الدكتور بول فيجوس ، مدير الابحاث العلمية التي يمولها صندوق فايكنج الذي كان أول من فكر في اقامة هذه الندوة الدراسية ، والى رئيس مجلس ادارة صندوق فايكنج الذي يعود اليه الفضل في تأمين الاعتمادات المالية اللازمة لاعداد هذا الكتاب ونشره .

رالف لنتون

دائرة الانثربولوجيا
جامعة كولومبيا
نيويـــورك

آب (اغسطس) ، ١٩٤٤

مجال علم الأنثروبولوجيا وأهدافه

رالف لنتون

العهد الحالي هو أول عهد في تاريخ العالم يلجأ فيه الانسان الى العلم بدلا من القوى الخارقة ، ويستعين به في حل مشكلاته . غير أن أولئك الذين ينشدون مساعدة العلم كثيرا ما يجدون أنفسهم ــ لسوء الحظ ــ في وضع أشبه ما يكون بوضع المريض الذي يتنقل من طبيب اخصائي الى آخر دون أن ينجح في الحصول على فكرة عامة عن مرضه أو على خطة موحدة للمعالجة . وقد بدأ العلم على هيئة فلسفة طبيعية استخدمت طرائق واساليب معينة في ملاحظة العالم ودراسته . وكان العلم ، في مستهل تطوره ، يمتاز بشمول مماثل لما نجده في النظام الديني الكنسي . ولكنه ما كاد يكتسب حقه في الحياة والبقاء حتى أخذ يتشعب الى فروع عديدة ويجتاز عملية شبيهة بعملية انشطار الاميبا في العلم البيولوجي . فالعلم لم يعد يشكل بحثا واحدا شاملا ، وانما اصبح سلسلة من العلوم ، يحصر كل منها اهتمامه في مجالات خاصة به ، ويتناول بالبحث مواد جرى تحديدها تحديدا صارما . ومع ان الاميبا نفسها تدرك بين الحين والاخر فائدة عملية التزاوج او التلاحم التي يخرج منها الطرفان المعنيان بمزيد من القوة والنشاط ، فان الكثيرين من العلماء لا يزالون بحاجة الى ادراك قيمة الشمول والربط بين العلوم المختلفة . ففي القرن الاخير كان كل علم يميل الى الاستقلال عن العلوم الاخرى ، وينزع الى ارتياد الكلأ في

مراع مختارة حددها لنفسه ، ويتجه الى تضييق مجال تخصصه مع تعميق معرفته عنه واكتشاف المزيد من الحقائق المتصلة به . ومما لا يرقى اليه شك ان هذا الميل يعود ، في بعض مظاهره ، الى الثروة الضخمة من الحقائق والمعارف العملية التي تم تجميعها خلال القرن الاخير ، غير أنه ، في الوقت نفسه ، يمثل موقفا معينا كان له أثر سلبي في الاتجاه الى النظر الى الظاهرات المختلفة نظرة كلية شاملة . اننا نقر بانه ما من عالم يستطيع بمفرده ان يلم بجميع آفاق المعرفة العلمية في شكلها الحاضر ، غير أنه يمكن لاي فرد أن يتعرف الى النتائج التي توصلت اليها عدة علوم خارج نطاق اختصاصه ، وأن يطبقها على مشكلاته الخاصة . فمعظم هذه النتائج بسيطة نسبيا ، ويبدو ان الوقت قد حان لاجراء تركيب جديد للعلوم المختلفة ، وبخاصة العلوم التي تعنى بالكائنات البشرية ومشكلاتها .

ويشدد علم الانثربولوجيا ــ كما يتضح من طبيعته وتعريفه ــ على ضرورة الشمول والربط بين العلوم المختلفة . وفي جميع الاقطار الناطقة باللغة الانجليزية يقصد بالانثربولوجيا « علم الانسان وأعماله » . أما في اوروبا ، فان للمصالح دلالة تختلف بعض الشيء عنها في الاقطار الناطقة بالانجليزية ، فهو يقتصر على دراسة الخصائص الجسمية للانسان . وسنعتمد في هذا البحث التعريف الأول ، وهو أعم وأوسع دلالة من التعريف الثاني . وثمة ناحية مهمة كانت ولا تزال تميز علم الانثربولوجيا عن بعض العلوم الاخرى المألوفة كعلم الحيوان وعلم وظائف الاعضاء وعلم الوراثة . فعلم الانثربولوجيا يركز اهتمامه على كائن واحد ، الانسان ، ويحاول فهم جميع انواع الظاهرات التي تؤثر فيه ، في حين تركز العلوم الاخرى اهتمامها على انواع محدودة من الظاهرات ، أنى وجدت في الطبيعة . وكان علم الانثربولوجيا ولا يزال يحاول فهم كل ما يمكن أن يعرف عن طبيعة هذا المخلوق الغريب الذي يسير على قدمين ، وكذلك فهم سلوكه الذي يفوق طبيعته الجسمية غرابة . ويميل الاخصائيون في

العلوم الطبيعية الى اعتبار عالم الانثربولوجيا ضربا من المفارقات الزمنية ، فتراهم ينظرون اليه كما لو كان من آخر مخلفات تلك الطبقة من السادة الظرفاء الذين عاشوا في القرن الثامن عشر وكانوا يعرفون نزرا يسيرا عن كل شيء دون ان يتعمقوا في أي جانب من جوانب المعرفة . غير انه يجوز لنا ، على نحو مماثل ، ان نعتبر الانثربولوجيا أول علم من سلسلة العلوم التركيبية التي أخذت الحاجة اليها تزداد وضوحا يوما بعد يوم . ويعتقد كاتب هذا المقال ان من مآثر علماء الانثربولوجيا ان معظمهم كان ولا يزال يميل الى استخدام اساليب العلوم الاخرى ونتائجها ، والى تقصي المشكلات وتتبعها أنى تقوده ، وذلك دون الالتفات كثيرا الى الحدود الصارمة التي تفصل بين العلوم المختلفة .

وعلى الرغم من رغبة الانثربولوجيين الصادقة في تخطي الحواجز الفاصلة بين العلوم المختلفة ، فانهم لم ينجحوا في تجنب الاتجاهات الانفصالية التي تميز العلوم عامة ، وما ذلك الا لان مجال علم الانثربولوجيا واسع جدا ، ويتناول ظاهرات كثيرة وشديدة التنوع حتى انه يتعذر على الفرد ان يحيط به كله بمفرده . وكان من جراء ذلك ان اتبع علم الانثربولوجيا النمط الانفصالي المألوف ، فانقسم الى علوم فرعية عدة اصبح كل منها محور اهتمام فريق معين من العلماء الاخصائيين . ومما يستلفت النظر ايضا انه نشبت خلافات داخلية حول الاهمية النسبية لكل من هذه العلوم الفرعية وحول تعيين الحدود التي تفصل بعضها عن البعض الآخر . ومهما يكن من أمر ، فان الاتجاه الحديث ينزع الى التقليل من أهمية الحدود الفاصلة ، والى الاعتراف بان جميع هذه العلوم الفرعية انما هي اجزاء من كل واحد متكامل . وبينما يقر علماء الانثربولوجيا اليوم بان العلوم المتفرعة من ميدان اختصاصهم تتباين في مدى فائدتها في حل المشكلات المختلفة ، تراهم يؤكدون أنها جميعا ضرورية لفهم سر الوجود البشري .

وأبرز انقسام في ميدان الانثربولوجيا هو ذلك الذي ساير تعريفه

هذا العلم ، وهو التعريف الذي يميز بين الانسان وأعماله . فدراسة الانسان ، بوصفه احد انواع الحيوانات اللبونة الكثيرة ، تكاد تعتمد كليا على الاساليب والنتائج التي طورتها العلوم الطبيعية . أما دراسة سلوكه وأعماله ، بوصفه كائنا بشريا ، فلا تستطيع الانتفاع كثيرا باساليب العلوم الطبيعية ، نظرا لان الكائنات البشرية لا تخضع بسهولة للتجارب التي تجرى على الحيوانات الاخرى . فعلم الانثربولوجيا اضطر ، المرة تلو المرة ، الى الانتظار ريثما تنجح العلوم الطبيعية في استجلاء نقطة معينة عن طريق التجارب التي تجرى على الحيوانات. غير ان تطبيق النتائج التي توصلت اليها العلوم الطبيعية على الكائنات البشرية، كطرق التحكم في النسل مثلا ، يشكل صعوبة كبيرة حتى في الدول الجماعية التي تفرض سيطرتها الكلية على الافراد . ومما لا شك فيه ان نتائج الابحاث التي اجراها علماء الوراثة على الجرذان وذباب الاشجار المثمرة هي التي مهدت الطريق لفهم قوانين الوراثة عند الكائنات البشرية ، ولجلاء مختلف المشكلات المتصلة بما يسمى « العروق او الاجناس البشرية » . غير أننا ، من جهة اخرى ، نستطيع القول ان الحقائق التي اكتشفتها العلوم الطبيعية لا تساعد كثيرا على فهم طبيعة السلوك الانساني . فمع اننا نستطيع الاستفادة من الحيوانات والاساليب التجريبية في دراسة عدد محدود من ابسط الظاهرات السلوكية ، كعمليات التعليم عند الاطفال ، فان اغلبية الظاهرات السلوكية البشرية لا تجد ما يماثلها مماثلة وثيقة على الصعيد الحيواني . ويصدق هذا بوجه خاص على الظاهرات المعقدة المتصلة بالحياة الاجتماعية المنظمة . فمع ان علماء الانثربولوجيا استطاعوا استخدام بعض الاساليب التي طورتها العلوم الاجتماعية ، فانهم قلما اضطروا الى انتظار تطور مثل هذه الاساليب . والواقع ان اسهامهم في تطور العلوم الاجتماعية لا يقل شأنا عن اسهام هذه العلوم في تطور علم الانثربولوجيا .

ينقسم علم الانثربولوجيا ــ كما اسلفنا اعلاه ــ الى قسمين كبيرين ،

يبحث اولهما في الانسان ويعرف بالانثربولوجيا الطبيعية ، في حين يتناول الثاني بالبحث اعمال الانسان ويعرف بالانثربولوجيا الثقافية او الحضارية. ويعود هذا التقسيم الى البدايات الاولى لعلم الانثربولوجيا ، وقد اتجه كل من القسمين خطا تطوريا خاصا به واستأثر باهتمام فريق معين من الاخصائيين ، بحيث ان عدد الافراد الذين عالجوا الميدانين والموا بهما الماما شاملا كان قليلا جدا . وكان من نتائج هذا الاتجاه ان كلا من القسمين كاد يفقد صلته بالآخر ، وبدا للبعض ، حينا من الزمن ، ان الانفصال سيكون دائما وان الانثربولوجيا الطبيعية ستنحاز كليا الى مجموعة العلوم الطبيعية ، وان الانثربولوجيا الثقافية ستصنف نهائيا مع العلوم الاجتماعية . غير ان ازدياد الوعي بالتأثير والتأثر المتبادلين بين العوامل الفسيولوجية والثقافية أدى في المدة الاخيرة الى ظهور اتجاه يدعو الى التقريب بين القسمين . ومما عزز هذا الاتجاه ظهور حركة تجديدية في ميدان الانثربولوجيا الطبيعية نفسها . فعلماء الانثربولوجيا الطبيعية ، بعد انشغالهم لعدة اجيال بالعظام والمقاسات الجسمية ونظم التصنيف العرقي ، اخذوا اليوم يلتفتون الى دراسات اكثر دينامية من دراساتهم السابقة ، كما اخذوا يدركون ضرورة الاهتمام بالعوامل الثقافية واثرها .

وتعرض كل من القسمين الرئيسيين لمزيد من التفرع والتشعب . فالانثربولوجيا الطبيعية انقسمت الى فرعين : علم الحفريات البشرية وعلم الاجسام البشرية . أما الانثربولوجيا الثقافية فقد انقسمت الى ثلاثة فروع : علم الآثار القديمة (الاركلوجيا) وعلم السلالات البشرية (الاثنولوجيا) وعلم اللغويات . وقد تبدو اسماء هذه العلوم الفرعية مفزعة لاول وهلة ، غير ان العلوم نفسها — او أبرز مكتشفاتها على أقل تقدير — مألوفة لدى معظم القراء . فعلم الحفريات البشرية (الباليونتولوجيا) يتناول بالبحث أصول نوعنا البشري واتجاهات

تطوره ، وبخاصة ما كان منها متصلاً بالنواحي التي تكشفها الاحافير . فكلما قرأ المرء عن اكتشاف شظية جديدة من شكل شبه بشري قديم وعن علاقتها بالانسان الحديث ، اصبح على صلة بهذا الفرع من علم الانثربولوجيا . ويعتبر هذا الفرع من اسرع ميادين الانثربولوجيا تطورا ، او بالحري كان يعتبر كذلك قبل الحرب الحالية . ففي كل سنة تكتشف احافير جديدة ، ويثور الجدل مجددا حتى حول الاحافير القديمة وموضعها في شجرة العائلة البشرية . ويفتقر الباحثون في هذا الميدان الى عدد كاف من الاحافير المتسلسلة ، ولكنهم يعوضون عن هذا النقص باندفاعهم الحماسي لجلاء الحقائق . والجدير بالذكر ان هنالك ثغرات واسعة في المكتشفات الاحفورية وان الكثير منها يمثل انواعا محدودة ، ولذا يجد علماء الحفريات في هذا الميدان مجالا واسعا للاجتهاد والجدل . ولم تتمخض الابحاث التي اجراها العلماء المختصون حتى اليوم الا عن عدد محدود من الحقائق التي لا يرقى اليها شك او جدل ، نخص بالذكر منها النظرية القائلة بانه ظهرت على وجه البسيطة انواع قديمة كانت وسطا بين الانسان والقردة ، وان الانسان الحديث ينحدر من احد هذه الانواع او ربما من اكثر من نوع واحد . ولم يستطع العلماء بعد تحديد النوع الذي يستأثر بشرف كونه سلف الانسان الحديث . ومهما يكن من أمر ، فان اكتشاف سر « الحلقة المفقودة » لن يسهم كثيرا في التغلب على الصعوبات التي تواجهها الاجيال الحالية من ابناء السلف الاصلي المشترك ، ولذا رأينا ان نستبعد هذا الفرع من علم الانثربولوجيا من مجموعة ابحاث هذا الكتاب .

أما علم الاجسام البشرية (السوماتولوجيا) فيبحث في جميع المظاهر الجسمية للانسان الحديث . وثمة علوم عامة ــ كعلمي التشريح ووظائف الاعضاء مثلا ــ تعنى بدراسة نوعنا بوصفه احد اصناف الحيوانات الفقارية واللبونة . ولذا كرس علماء الاجسام معظم جهودهم لدراسة

الاصناف البشرية ورصد الفروق بينها ، ومحاولة معرفة الاسباب المحتملة لهذه الفروق . ويلاحظ ان اهتمامهم قد انصب ، حتى عهد قريب جدا ، على تصنيف الاجناس البشرية المختلفة على اساس العرق ، وايجاد العلاقات المحتملة بين هذه الاجناس . ويمكن القول ان التصانيف العرقية التي طورها علماء الاجناس البشرية لا تزال تعتمد ، في المقام الاول ، على خصائص سطحية بسيطة كلون الجلد وشكل الشعر . وفي المدة الاخيرة اخذ الاهتمام يتحول الى فروق اقل وضوحا من الفروق السابقة ولكنها اكثر اهمية في جوهرها وأوثق ارتباطا بالمشكلات التي نواجهها كالفروق بين انواع الدم وبين الاجهزة العضلية وغيرها . وفي السنوات القليلة الماضية سار علماء الاجسام شوطا ابعد من ذلك ، اذ بدأوا يدرسون الفوارق بين الفئات المختلفة من حيث سرعة النمو وسن النضوج الجنسي وسرعة الايض ومدى المناعة ضد الامراض . ويمكن القول ان الكثير من اكتشافاتهم في هذه الميادين قد يكون ذا قيمة عملية مباشرة . فنحن ، مثلا ، لا نعلق اهمية كبيرة على شكل الرأس عند فئة بشرية معينة الا في الحالات التي يكتسب فيها هذا الأمر دلالة اجتماعية . أما تكيف فئة معينة على ارتفاع معين او تكيفها على درجة حرارة معينة او استعدادها الوراثي لمقاومة الملاريا ، فهذه كلها قد تكون على جانب كبير من الأهمية بالنسبة لاي من مشاريع الاستيطان .

ويقع مفهوم العرق بكامله ضمن نطاق علم الاجسام البشرية . وقد تمادت بعض الجهات في اساءة استخدام هذا المفهوم ، وينبغي لنا اليوم ان نستعين به من اجل التوصل الى تسوية نهائية للمشكلات المتصلة بالعرق على الصعيد الفسيولوجي باعتباره متميزا عن الصعيد الاجتماعي . ويلاحظ ، لسوء الحظ ، ان المشكلات المتصلة بالنواحي الفسيولوجية اقل كثيرا من المشكلات الاجتماعية . فاذا استثنينا الحقيقة القائلة بان بعض الفئات العرقية اكثر نجاحا ونشاطا من البعض الآخر في بيئات

معينة ، امكننا القول ان الدلالة الرئيسية للفوارق العرقية في عالمنا الحديث تكمن في القيم الاجتماعية التي‌تنسب اليها . والجدير بالذكر ان منازعاتنا الحالية لا تنشأ من اي من الاعتبارات الكامنة في الفوارق العرقية نفسها ، وانما من الاتجاه الى استعمال هذه الفوارق للدلالة على اوضاع اجتماعية . فالفرد الاوروبي العادي يعجز تماما عن التمييز بين مختلف الفئات العرقية التي ينتمي اليها معظم اصدقائه ، وما ذلك الا لان هذا الامر لا ينطوي ، في نظره ، على أية دلالة اجتماعية . اما اذا كانت الفوارق الجسمية تشير الى ان صاحبها ينتمي الى فئة متميزة اجتماعية كاليهود او الزنوج ، فان الفرد الاوروبي سرعان ما يدركها بالغة ما بلغت من البساطة او الصغر .

وحين ننتقل الى علم الانثربولوجيا الثقافية وفروعه المختلفة ، نلاحظ ان فرع اللغويات هو حاليا اكثرها استقلالا وانعزالا عن الفروع الاخرى . فدراسة اللغات يمكن ان تجري دون الاهتمام كثيرا بعلاقاتها مع الجوانب الاخرى من النشاط الانساني ، وهذا هو الواقع في اكثر الحالات . ومما لا شك فيه ان اللغات ــ بما فيها من تراكيب معقدة وغريبة وما تنطوي عليه من تنوع هائل وبخاصة عند ما يسمى بالشعوب البدائية ــ تزود الباحث بمادة دراسية غنية لا يمكن حصرها . وحين يجابه الشخص العادي بنتائج الابحاث التي اجراها علماء اللغة ، فانه على الاغلب سيتذكر قول آبي مارتن Abe Martin « يحتاج المرء الى سنوات عديدة ليصبح ماهرا في لعبة كالداما او الشطرنج ، ولكن ما قيمة مثل هذه المهارة في نهاية المطاف ؟ » ومهما يكن من أمر ، فان عملية تحليل اللغات وتصنيفها ، كعملية تحليل الاجناس البشرية وتصنيفها ، لا تشكل الا الخطوة الاولى لغيرها من الدراسات المهمة . فاللغات ، على اختلاف انواعها ، تمثل اداة قيمة في يد العالم ، ولا ريب في انها ستساعده في النهاية على التوصل الى فهم اعمق لسيكلوجية الافراد والجماعات .

فاللغة اداة للتفكير بالاضافة الى كونها وسيلة رئيسية للاتصال ، ويجدر بنا ان نولي الحقيقة الاولى ذات الاهمية التي اعتدنا ان نوليها للحقيقة الثانية . وهذا هو الميدان الذي تتجلى فيه الاهمية الكبرى للمدى الواسع من التباين بين الاشكال اللغوية الحالية . فمن الممكن ايصال اية فكرة الى الغير باية لغة ، اذا كان لدى المتكلم الوقت الكافي للتعبير عما يجول في فكره . أما المفهومات التي تشكل جزءا متكاملا من جميع الاشكال اللغوية ، فانها تؤثر في طريقة تفكير الفرد تأثيرا غريبا يصعب تحديده . وتتحكم هذه المفهومات في طريقة التفكير بصورة قسرية لانها لا تخضع لاية ارادة واعية .

ولنضرب الآن مثلا لتوضيح هذه النقطة . تفتقر اللغة الانجليزية الى شكل يدل على الجماد او على غير العاقل ، ولذلك ينزع تفكيرنا الى التصور بان للاشياء روحا . ويجب هنا الا نخلط بين الشكل الدال على غير العاقل وبين الشكل الحيادي الذي لا يدل على المذكر ولا على المؤنث . فالضمير «It» ، في اللغة الانجليزية ، يمكن ان يشير الى اشياء غير عاقلة ، ولكنه يمكن ان يشير ايضا الى اشياء عاقلة او اشياء لها روح كالاشباح او حتى الاطفال ، هذا مع العلم بان بعض الآباء والامهات قد لا يرتاحون الى استعمال هذا الضمير للدلالة على اطفالهم . اما الضميران «He» و «She» فيشيران ضمنا الى الجنس ، ولذا يوحيان دائما بان الشيء الذي يدلان عليه هو من الاشياء العاقلة . وينتج من هذا الوضع اننا لا نستطيع الاشارة الى اي شيء ، حتى ولو كان هذا الشيء من اكثر المفهومات تجريدا ، دون ان نسبغ عليه ــ بصورة غير واعية ــ ضربا من الحياة او من القدرة على العمل الارادي . وهكذا نرى انفسنا مضطرين الى تشخيص كل شيء نتكلم عنه او نفكر فيه . واذا حاولنا التعامل بالمجردات ، وجدنا انفسنا في كفاح مستمر مع نزعتنا الى التشخيص ، ومهما بالغنا في الحرص ، فان هذه النزعة تتسلل احيانا

الى تعابيرنا وتؤثر في وضوح افكارنا . ولو كان في اللغة الانجليزية شكل يدل على غير العاقل ، كما هي الحال في الكثير من اللغات الاخرى ، لامكن دائما الاستفادة من الكلمات الدالة على التجريد في تقويم نزعتنا الى التشخيص .

واخيرا لا بد من الاشارة الى اننا يجب الا نخلط بين دراسة اللغويات وبين عملية تعلم اللغات . فمن المسلم به ان فهم تركيب اية لغة من اللغات ليس ضروريا لتعلمها ، وان كان ذلك قد يساعد على تسهيل عملية التعلم . ولعل اوضح دليل على هذه الظاهرة هو ان الكثيرين من الاطفال والبالغين يستطيعون « اكتساب » لغة اجنبية دون تعلم قواعدها . وهناك افراد كثيرون يجيدون التكلم بعدة لغات ، ولكنهم لا يعلمون شيئا عن تركيب اي منها . ويكاد يكون في حكم المؤكد ان دراسة اللغويات ستعود علينا في المستقبل بفائدة كبيرة ، لانها ستساعدنا على فهم السلوك البشري ، وبخاصة عمليات التفكير الانساني . غير ان الدراسات التي اجريت في هذا الميدان ما زالت في طفولتها ، ولا يزال علم اللغويات عاجزا عن الاسهام بدور كبير في حل مشكلاتنا الحالية . ولهذا السبب رأينا من المناسب ان نستبعد هذا الموضوع من ابحاث هذا الكتاب .

أما الفرعان الآخران من علم الانثربولوجيا الثقافية فهما الارخلوجيا (علم الآثار القديمة) والاثنولوجيا (علم السلالات البشرية ومميزاتها الثقافية) . ونلاحظ ان العلاقة بين هذين الفرعين تكاد تماثل العلاقة بين الباليونتولوجيا (علم الحفريات البشرية) والسوماتولوجيا (علم الاجسام البشرية) . فعلم الارخلوجيا يبحث في الاصول الاولى للثقافة وفي الثقافات او الاطوار الثقافية المنقرضة ، في حين يبحث علم الاثنولوجيا في الثقافات الحالية لمختلف الاجناس البشرية . ولعل فرع الارخلوجيا اشيع فروع الانثربولوجيا ، وربما كانت مكتشفاته مألوفة لدى الشخص العادي اكثر من مكتشفات الفروع الاخرى . فنتائج اعمال الحفريات المختلفة

لا تنفك تسترعي انتباه قراء الصحف . وحسبنا ، في هذا المقام ، ان نذكر ان اسم توت عنخ آمون ، أحد ملوك قدماء المصريين ، يكاد يكون معروفا في جميع الاوساط . ويمكن القول ، بوجه عام ، ان علماء الآثار القديمة يحاولون اكتشاف وتفسير ذلك الجزء من التاريخ الماضي الذي لا تتعرض له السجلات المكتوبة . ومن المعروف ان السجلات المكتوبة لا تعود الى اكثر من ستة الاف سنة خلت ، في حين مضى على وجود الجنس البشري ١٠٠٠٠٠٠ سنة على أقل تقدير ، ولذا يجد عالم الآثار ميدانا واسعا للقيام بالمزيد من الحفريات والابحاث . اضف الى ذلك ان السجلات المكتوبة لا تخبرنا الكثير عن حياة الشخص العادي في اي مجتمع الا في ظروف خاصة محدودة . فالكتاب القدامى كانوا عادة يقتصرون على تدوين اخبار الملوك والكهنة او تدوين ما يمليه عليهم اسيادهم . وقد تناهت الينا وثائق كثيرة عن بعض الحضارات القديمة ، ولكننا نلاحظ ، حتى في هذه الحالة ، ان نتائج اعمال الحفريات اسهمت كثيرا في توسيع معلوماتنا عن هذه الحضارات . فاعمال الحفريات التي اجريت في بومبي ، مثلا ، القت اضواء جديدة على معالم الحضارة الرومانية التي تناهت الينا من السجلات المكتوبة .

ويقبل عالم الآثار القديمة على ميدان اختصاصه بحماسة لان عمله يقترن بمجموعة من الدوافع والمثيرات المغرية كالرغبة في اجراء ابحاث علمية شائقة واحتمال العثور على كنوز ثمينة ، هذا بالاضافة الى النفقات والمرتبات العالية التي يؤمنها له الممولون . اما بالنسبة للممول ، فإن هذا العلم يؤمن له مردودا ملموسا لاموال الموظفة ، ويمتاز عن غيره من ألوان النشاط في انه يظل دائما بعيدا على كل ما يمكن ان يعكر صفو الوضع الاجتماعي الراهن . وليس مستغربا إذا ان تكون الدراسات الاركيلوجية عادة سهلة التمويل ، او ان يسير علم الآثار قدما بخطوات واسعة وسريعة . وعلى الرغم من توقيف اعمال الحفريات في بعض

الجهات بسبب الحرب العالمية ، فمن المحتمل ، على ما يبدو ، اننا سنحصل في غضون الخمسين سنة القادمة على فكرة واضحة اجمالا عـن الماضي القديم للانسان في معظم اجزاء العالم . ويصدق هذا القول ، بطبيعـة الحال ، على تلك الجوانب من الماضي التي تكشفها لنا آثار لا تتعـرض للتلف او الفناء . فعلم الارخلوجيا ، مثلا ، يستطيع ان يكتشف نـوع الادوات التي استعملها مجتمع من المجتمعات القديمة ، ونوع الطعـام الذي اكله افراده ، وطراز البيوت التي عاشوا فيها ، وطريقة دفنهم للموتى، ولكنه لا يستطيع ان يخبرنا ما اذا كان رجال ذلك المجتمع كانوا يضربون زوجاتهم او يحسنون معاملتهن .

ومع ان الهدف القريب الواضح للابحاث الارخلوجية هو استكمال معارفنا ومعلوماتنا عن ماضي الانسان ، فان الهدف النهائي هو مساعدتنا على تفهم العمليات المتصلة بنمو الحضارات وازدهارها وانهيارها ،وادراك العوامل المسؤولة عن هذه الظاهرات التاريخية . وهذا هو ايضا هدف التاريخ ، غير ان عالم الآثار القديمة اضطر بسبب افتقاره الى سجـلات مكتوبة ، الى تطوير اساليب جديدة والى استعارة بعض الاسـاليب التي طورتها العلوم الاخرى . فهو يستطيع ، مثلا ، ان يستنتج بعـض الحقائق عن افتتاح طرق تجارية جديدة من التحليلات الكيميائية التي يجريها على شظايا الآنية المعدنية او الخزفية ، كما انه يستطيع ، بمساعدة علم اعمار الاشجار ، ان يعين تاريخ تدمير احدى المدن ، وذلك بمعاينـة قطع من الاشجار او الاخشاب المتفحمة . أضف الى ذلك ان طول الحقب التي يتناولها بالبحث يمكنه من رصد الاتجاهات والدورات التي يستغرق تطورها آلاف السنين . وهو يستطيع ان يتقصى أثر التغير المناخي او النتائج المترتبة على انهاك التربة بطريقة تستعصي على المؤرخ ، كمـا يستطيع ان يرصد خط التطور الحضاري على صعيد اوسع من الصعيد التاريخي . ومع ان هذا الكتاب لن يعرض بالتفصيل لمكتشفات اثريـة

معينة ، فان نتائج الدراسات الارخلوجيةالمتصلة بعمليات التطور اصبحت مألوفة لدى جميع العلماء الانثربولوجيين الذين يعنون بدراسة ظاهرات التغير الثقافي ، ولذا فمن المنتظر ان تنعكس هذه النتائج على ابحاث العلماء الذين اسهموا في تأليف هذا الكتاب .

ويبحث علم الاثنولوجيا في طرق حياة المجتمعات التي لا تزال موجودة في عصرنا الحاضر ، او المجتمعات التي يعود تاريخ انقراضها الى عهد قريب تتوافر لدينا عنه سجلات تكاد تكون كاملة . فلكل مجتمع طريقته الخاصة في الحياة ، وهي التي يطلق عليها العلماء الانثربولوجيون مصطلح « الثقافة » . ويعتبر مفهوم الثقافة من أهم الادوات التي يتعامل بها الباحث الانثربولوجي . وقد خصصت احدى مقالات هذا الكتاب لبحث هذا الموضوع ، ولذا لا نرى ضرورة للخوض في تفاصيله في هذا التمهيد العام . ولكن لا بد من الاشارة الى ان الثقافة مصطلح ملائم لتعيين المجموعة المنظمة من العادات والافكار والمواقف التي يشترك فيها اعضاء اي مجتمع ، ولذا يكاد يكون من المتعذر على اي عالم انثربولوجي ان يبحث هذه الامور دون استعمال هذا المصطلح . ويعنى العالم الاثنولوجي بدراسة الثقافات المختلفة التي لا تزال موضع اهتمام الباحثين ومقابلة بعضها بالبعض الآخر ، والاستفادة من هذه الدراسة في استخلاص نتائج تصدق على الظاهرات الثقافية عامة . وكما هي الحال في الابحاث العلمية الاخرى ، تنحصر الخطوة الاولى في جمع الحقائق عن مختلف الانماط الثقافية ، ويتطلب هذا من العالم الاثنولوجي القيام بابحاث ميدانية في اماكن نائية والى العمل في مختلف انواع المجتمعات . وقد درج الباحثون الاثنولوجيون ، حتى عهد قريب جدا على حصر نشاطهم الرامي الى استقصاء الحقائق في ما يعرف بمصطلح « الشعوب البدائية » ، اي الشعوب التي تعيش خارج النطاق المحدود للثقافات الغنية المعقدة التي نسميها « حضارات » . وكلما ازداد انعزال المجتمعات البدائية

عن غيرها واشتد التباين بين ثقافاتها وبين الثقافات الغربية ، تضاعف بالتالي اهتمام العالم الاثنولوجي بدراستها وجمع الحقائق عنها . ويشعر علماء الاثنولوجيا من الجيل القديم بنشوة بالغة حين يعثرون على جماعة لم يسبق لافرادها ان التقوا باي رجل ابيض ، وكلما انفتحت المجتمعات البدائية المنعزلة على العالم ، شعر هؤلاء بقلق شديد مماثل للقلق الذي ينتاب اصحاب الحرف حين يشعرون بان مورد رزقهم اصبح مهددا بالانقطاع . أما علماء الاثنولوجيا من الجيل الجديد ، فان سير الاحداث لا يسبب لهم مثل هذا الانزعاج . فدراسة الثقافات التي تختلف كثيرا عن الثقافة الغربية أدي الى تطوير اساليب جديدة لتحري الحقائق ، كما انها ، علاوة على ذلك ، ساعدت على خلق مواقف من التجرد والحياد لا تفقد شيئا من قيمتها حين تطبق على المجتمعات المتحضرة او الثقافات التي تجتاز مراحل انتقالية . اننا لا ننكر ان دراسة اوضاع السكان الوطنيين في جزيرة من جزر البحار الجنوبية اكثر استهواء لالباب الباحثين من دراسة مجتمع المزارعين في ولاية « أيوا » ، ولكن المهم في الامر هو أنه يمكن استعمال الطرق العلمية ذاتها في الحالين ، كما يمكن استخلاص نتائج مهمة من دراسة كلا المجتمعين . وطالما ان الكائنات البشرية تعيش في شكل مجتمعات ، وتطور طرقا خاصة في الحياة تتلاءم واوضاعها الخاصة ، فان علماء الاثنولوجيا سيظلون في مأمن من الوقوع في خطر البطالة التكنولوجية .

وقد يتساءل المرء عن السبب الذي يدفع علماء الاثنولوجيا الى دراسة الشعوب « البدائية » . وقد يبدو لنا لاول وهلة ان دراسة ثقافة احدى القبائل الآخذة بالانقراض والصائرة الى الزوال حتما ، كقبائل الهنود الامريكيين او السكان الاصليين في اوستراليا ، لن تزودنا بمعلومات من النوع الذي ينفعنا في معالجة مشكلاتنا الملحة . والواقع ان دراسة قبيلة بدائية على حدة لن تعود علينا بفائدة عملية كبيرة ، ولكن

دراسة سلسلة من القبائل البدائية ،مع ما يتبع ذلك من مقارنات وتحليلات، قد تزودنا بمعلومات قيمة للغاية . فالعلوم الاجتماعية ، بحكم طبيعة المواد التي تتعامل بها ، لا تستطيع استخدام اساليب العلوم الطبيعية التي تقوم على اجراء تجارب خاضعة لظروف معينة من النوع الذي يتحكم فيه العالم في مختبره . فما من شخص يستطيع وضع مجتمع بشري في مختبر وملاحظة كيفية استجابته لمثيرات مختلفة . والبديل الوحيد عن التجارب المخبرية هو دراسة المجتمعات كما نجدها وتدوين ملاحظاتنا عنها ، وكلما ازداد تنوع الظروف التي نلاحظ فيها هذه المجتمعات ، ازدادت امكانات الوصول الى نتائج تصدق على المجتمعات كافة .

أما الاهداف النهائية للعالم الاثنولوجي فهي ، في الاساس ، مماثلة لاهداف عالم الاجتماع وعالم الاقتصاد ، ومماثلة ، في بعض مظاهرها ، لاهداف المؤرخ . فكل من العلماء الاربعة يحاول ان يفهم كيف تعمل المجتمعات والثقافات ، وكيف ولماذا تتغير الثقافات ، كما يحاول ان يتوصل الى تعميمات معينة ــ او « قوانين » بحسب المصطلح الدارج للمفهوم ــ لتساعده على التنبؤ باتجاه سير الاحداث بقصد التحكم به في النهاية . والفرق الرئيسي بين علم الاثنولوجيا من جهة ، وبين علمي الاجتماع والاقتصاد من جهة اخرى ، هو ان العلمين الاخيرين واصلا ابحاثهما ضمن نطاق يكاد يكون محصورا في الاوضاع الخاصة بمجتمعنا وثقافتنا . وهكذا اتجه المختصون بهذين العلمين الى اعتبار الكثير من العوامل كما لو كانت من القضايا المسلم بها ، وبخاصة العوامل التي ميزت طريقتنا الخاصة في الحياة خلال القرنين الماضيين او القرون الثلاثة الماضية ، هذا مع العلم بان هذه العوامل لا يمكن اعتبارها من العناصر الثابتة التي تلازم الحياة الاجتماعية . وهذه الطريقة في المعالجة قد تصلح للتنبؤ بالاحداث المرتقبة في مجتمعنا او للتحكم فيها لو امكننا التأكد من أن معظم عناصر ثقافتنا ستدوم عهودا طويلة دون ان يلحقها

اي تغيير مهم . غير ان التعميمات القائمة على صعيد اجتماعي وثقافي ضيق كالذي وصفناه تفقد الكثير من قيمتها اذا كانت الظروف المسلم بوجودها تتعرض لتغيرات سريعة . فظهور انماط ثقافية جديدة وزوال اخرى قديمة يسلبان مثل هذه التعميمات الكثير من دلالتها واهميتها . واذا حاول عالم اقتصادي ، مثلا ، التنبؤ بما سيحدث في دولة جماعية تسيطر على جميع موارد البلاد استنادا الى التعميمات القائمة على خبرته بدورات الاعمال التجارية خلال الخمسين سنة الماضية ، فان محاولته هذه تمثل ضربا من المغالاة في التفاؤل . ولا بد للتعميمات الخاصة بالظاهرات الاجتماعية والثقافية ، اذا اريد لها ان تكتسب قيمة في ظل الاوضاع الحالية التي تمتاز بسرعة تغيراتها الجذرية ، لا بد لها من ان تقوم على دراسات مقارنة لبيئات مجتمعية اوسع نطاقا من المجال الذي حاولت العلوم الاجتماعية تغطيته حتى اليوم . وعلاوة على ذلك ، يجب ان تشمل هذه التعميمات المبادىء الاساسية التي تسير جميع الثقافات والمجتمعات ، اي الاسس المشتركة للوجود البشري بأسره .

ويتمتع عالم الاثنولوجيا ، لدى قيامه بالبحث عن الاسس المشتركة للثقافات ، ببعض المزايا الاولية . فالشعوب « البدائية » التي كانت ، حتى عهد قريب جدا ، محور اهتمامه ، تشكل على الاغلب مجتمعات صغيرة ومتضامة ، كما ان ثقافاتها ابسط وأكثر تكاملا واندماجا من ثقافتنا . ولذا يواجه عالم الاثنولوجيا عددا اقل من العوامل المتغيرة ، وتتاح له فرصة افضل للتحقق من العناصر الحقيقية التي تؤثر في عمل المجتمعات والثقافات البدائية . فمن القواعد العامة المعتمدة في العلوم ان البحث يجب ان يسير من البسيط الى المركب حيث امكن ذلك ، وهذا هو ما درج عليه عالم الاثنولوجيا في ابحاثه الاجتماعية والثقافية . وهو يأمل ويعتقد ان نتائج دراسته للمجتمعات البسيطة ستساعدنا على فهم مجتمعات اكثر تعقيدا كمجتمعاتنا الغربية . وثمة

مزية اخرى يتمتع بها العالم الاثنولوجي الذي يعنى بدراسة المجتمعات الغريبة عن مجتمعه ، وهي انه يستطيع اجراء ابحاثه بقسط من التجرد لا يمكن ان يتيسر له عند دراسته للمجتمع الذي ينتمي اليه . ومع انه يتعذر على اي شخص ان يدرس الجنس البشري بذات التجرد الذي قد يطبقه على دراسة النمل مثلا ، فانه يبلغ اقصى ما يمكن ان يبلغه من تجرد حين يدرس مجتمعا يختلف تماما عن المجتمع الذي نشأ فيه . وليس من المستبعد ان يصاب العالم الاثنولوجي بصدمة حين يكتشف لاول مرة ان الزوجات ، في بعض المجتمعات القائمة على تعدد الزوجات، تؤيد نظام تعدد الزوجات للرجل الواحد ، او ان الشيوخ الطاعنين في السن ، في بعض المجتمعات ، يطلبون الى ابنائهم ان يقتلوهم عندما تشتد عليهم وطأة الرثية (الروماتيزم) . ولكن سرعان ما يطور هذا العالم موقفا يمكن تلخيصه بالعبارة التالية : « لا داعي الى الاستغراب ، فالمجتمعات تختلف في عاداتها وتقاليدها » . ومع ان هذا الموقف قد يكون موضع استنكار شديد في الاوساط الاخلاقية المتحمسة ، فانه يساعدنا كثيرا على اكتساب معلومات دقيقة من النوع الذي نحتاج اليه في دراساتنا المقارنة . ومما لا شك فيه ان الاهداف الاخلاقية السامية لها فوائد واستعمالات في مواقف كثيرة ، ولكن مجالها يقع خارج نطاق البحث العلمي .

ان العلوم الفرعية التي ذكرنا تمثل محتوى مادة الانثربولوجيا بوصفها موضوعا دراسيا نظاميا ، كما تطابق المتطلبات المنهجية في الدورات الدراسية التي تنظمها معظم الجامعات . غير ان هناك تطورات جديدة في موضوعات مختلفة متفرعة من الميادين الرئيسية التي اعتمدها علماء الانثربولوجيا منذ مدة طويلة . وأهم هذه التطورات ، من وجهة نظر تقدم العلوم النظرية على اقل تقدير ، هو ظهور ميدان جديد يبحث في العلاقات المتبادلة بين الشخصية والثقافة . فعلماء الاثنولوجيا كانوا ،

حتى عهد قريب جدا ، يتعمـدون حصر ابحاثهم في الظاهرات الجماعية للمجتمعات والثقافات . وكانوا يعتبرون الفرد كما لو كان مجرد ناقل للثقافة ، او حلقة في سلسلة من الوحدات المتماثلة التي يمكن استبدال الواحدة منها بالاخرى . ولم يكلف هؤلاء العلماء انفسهم عناء الاجابة عن السؤالين التاليين : كيف اصبح الفرد ناقلا للثقافة ؟ وكيف تمكن ، في ظروف معينة ، من التحرر مـن دوره السلبي ومن مباشرة عمليـة التغير الثقافي . ومهما يكن من أمر ، فان اهمية هذه المشكلات اخذت ، على مر الايام ، تزداد وضوحا ، وذلك تبعا لازدياد فهم العلماء للظاهرات الثقافية . وبما ان عالم الاثنولوجيا يفتقر الى اساليب خاصة به لدراسة الفرد ، فانـه يتوجه الـى علماء النفس المختصـين بدراسة الشخصية ويحاول ان يستفيد من نتائج ابحاثهم .

ويلاحظ ان سيكلوجية الشخصية قد سارت في خط تطوري يكاد يكون مماثلا لخط تطور الاثنولوجيا . ففي بادىء الامر وقع هذا الفرع تحت تأثير العلوم الطبيعية ، فحصر اهتمامه في الفرد وحاول تفسير جميع المشابه والفروق الفردية على اسس نفسية ؟ ومع ان علماء النفس سرعان ما ادركوا اهمية البيئة في تشكيل الشخصية ، فان فائدتها اقتصرت ، في البدء ، على استعمالها في تفسير الفروق الفردية . واغفل هؤلاء العلماء ايضا اهمية الخبرات المشتركة بين جميع الافراد الذين تمت تنشئتهم في ظل الحضارة الغربية ، وذلك بسبب ضعف وعيهم لمفهوم الثقافة وقلـة اطلاعهم على الثقافات غير الاوروبية . والواقـع انهم اعتمدوا نتـائج ملاحظاتهم المحدودة كما لو انها قضايا مسلم بصحتها ، فافترضوا وجود غرائز عامة متنوعة لتعليل ما لاحظوه من ظاهرات . ثـم تبين لهـؤلاء العلماء ان معايير الشخصية تختلف باختـلاف المجتمعات والثقافات ، فكان هذا الاكتشاف بمثابة صدمة اضطرتهم الى اتخاذ خطوات جذرية لاعادة تنظيم مفهوماتهم . وفي اغلب الحـالات لم يكـن علماء النفس

المختصون بدراسة الشخصية في وضع يمكنهم من الحصول على معلومات مباشرة عن المجتمعات الغريبة ، كما انهم لم يطوروا اساليب خاصة لتنظيم المادة الثقافية . ولذا كان من الطبيعي ان يلتمسوا مساعدة علماء الاثنولوجيا .

وأدى هذا التقارب بين خطي التطور الى ظهور عهد جديد يمتاز بالتركيز والتفاعل . ولم يحن الوقت بعد للقول ما اذا كانت دراسة الشخصية والثقافة ستصبح علما فرعيا متميزا او ستظل تعالج على صعيدين مختلفين ، ولكن من الواضح انها اكتسبت قوة تجديدية شبيهة بالقوة التي يكتسبها المولد الهجين . فمع ان عمر هذه الدراسة لا يكاد يتجاوز عشرين عاما ، فانها اخذت تحدث اثرا كبيرا في كل من العلمين الاصليين : علم النفس وعلم الاثنولوجيا . فهي ، من جهة ، تساعد علماء النفس على الوصول الى فهم افضل للمبادىء التي يقوم عليها تشكيل الشخصية ، وبخاصة المدى الواسع من الاشكال التي قد تتخذها شخصيات الافراد « العاديين » . ومن جهة مقابلة ، اثارت هذه الدراسة اهتمام العالم الاثنولوجي بالفروق بين الانماط الاساسية للشخصية في المجتمعات المختلفة . وكان العالم الاثنولوجي في السابق قد ادرك وجود هذه الفروق ، ولكنه لم يحاول معالجتها او تفسيرها . وهذا الاتجاه الجديد في المعالجة من شأنه ان يساعد على حل مشكلة تعتبر من اصعب المشكلات التي يواجهها العالم الاثنولوجي . فمنذ البدايات الاولى لتطور الابحاث الاثنولوجية والعلماء يحاولون اكتشاف الاسباب التي تجعل مجتمعات معينة تطور محاور اهتمام خاصة بها ، وتتقبل او تنبذ تجديدات مختلفة من النوع الذي يبدو انه لا ينطوي على اي عوامل نفعية ، وكذلك الاسباب التي تجعل الثقافات المتنوعة تعكس ، بصورة ثابتة منتظمة ، اتجاهات مختلفة في تطورها . وساد الاعتقاد حينا من الزمن ان هذه الظاهرات يمكن عزوها الى وقائع

تاريخية عارضة ، غير ان هذه النظرية هي ضرب من الفرض الجدلي الذي لا يستند الى اي برهان او دليل . ومما لا شك فيه ان ادراك وجود انماط اساسية للشخصية وفهم كيفية نشوئها سيساعداننا على تفهم مثل هذه الظاهرات ، حتى على التنبؤ بها في حالات معينة . واننا لا نشتط في موقفنا ولا نعدو الحقيقة ، مهما بالغنا في التشديد على اهمية التقارب بين علم النفس وعلم الاثنولوجيا .

وتعاوَن علم الانثربولوجيا ايضا مع علوم اخرى في حل بعض المشكلات المشتركة ، هذا مع العلم ان التعاون بينه وبين علم النفس ربما كان اكثر انتاجا وأشد فعالية من جوانب التعاون الاخرى . ومن الامثلة على هذا التعاون تبادل الافكار والاساليب بين علم الاثنولوجيا وعلم الاجتماع . فعلم الاجتماع ، بوصفه اقدم العلمين وأشدهما نزوعا الى الاتجاه الفلسفي ، سجل تفوقا كبيرا على علم الاثنولوجيا في عدد ونوع المفهومات والنظريات التي طورها ، كما انه طور اساليبه الاحصائية الى مدى ابعد كثيرا مما هو مألوف عادة لدى علماء الاثنولوجيا . غير ان نشاطه كاد ينحصر كليا في دراسة مؤسساتنا الغربية ، حتى ان الكثير من النتائج التي انتهى اليها لا يمكن تطبيقه على البشر عامة ، ولا على المجتمعات الغربية التي تتعرض لتغير سريع في اوضاعها الثقافية والحضارية . وكان من نتائج الاحتكاك بين علم الاجتماع وعلم الاثنولوجيا ان تزود العلم الاول باساليب جديدة ثبت انها ذات قيمة خاصة للباحث الاجتماعي الذي يعنى بدراسة المجتمعات الحديثة الصغيرة . أضف الى ذلك ان الاحتكاك بين العلمين وسع مجال علم الاجتماع وأدى بالتالي الى تغيير بعض صيغه النظرية . والواقع ان التقارب بين العلمين على الصعيد النظري يجري بسرعة كبيرة جدا حتى انه يبدو من المحتمل أن تزول الفوارق المهمة بينهما في غضون السنوات القليلة القادمة .

وثمة مجال مهم آخر من مجالات التعاون بين الانثربولوجيا والعلوم الاخرى ، وهو التعاون القائم بين علم الاجسام البشرية وعلم وظائف الاعضاء وعلم الاثنولوجيا في دراسة مشكلة الغذاء . ويعود الفضل الاول في متابعة هذا النشاط التعاوني الى توجيه الدكتورة مرغريت ميد ورعاية المجلس الوطني للابحاث . ويلاحظ ان هذا النشاط قد وجه لتحقيق اغراض عملية لا نظرية ، اذ كان يهدف الى تزويد المسؤولين بمعلومات قد تساعدهم على تحسين مستويات التغذية في الولايات المتحدة الامريكية والى زيادة فعالية برامج التغذية في الاقطار الاخرى خلال الفترة التي عقبت الحرب العالمية الثانية . أما الاسهام الرئيسي لعلم الاثنولوجيا في هذا النشاط فيتجلى في انه دفع المسؤولين الى ادراك الحقيقة التالية ، وهي ان عادات الطعام قد لا تقل اهمية عن المؤن الغذائية في تقرير ما اذا كانت تغذية مجتمع معين وافية او ناقصة . ويبدو ، على أي حال ، ان هذه الدراسات تنطوي على مضاعفات هامة تتصل بامكان التكيف الفسيولوجي للجماعات البشرية المختلفة على اصناف الغذاء المتنوعة ، غير ان الابحاث التي تدور حول هذا الموضوع لا تزال في طفولتها .

وعلاوة على النشاط التعاوني بين هذه العلوم المتقاربة ، نلاحظ ان علم الانثربولوجيا بدأ ، في السنوات الأخيرة ، يغزو ميدان العلوم التطبيقية . ومن البديهي ان تكون الغزوات الاولى لعلم الانثربولوجيا في هذا الاتجاه مرتبطة بنظم الادارة الاستعمارية . فالدول الاستعمارية التي سبقت غيرها في خطواتها المتقدمة ، وبخاصة انجلترا وهولندا ، ادركت بعد سلسلة من التجارب الاليمة ان فهم المؤسسات الوطنية من مستلزمات الحكم الاستعماري الناشيء . واكتشفت هذه الدول ايضا ان الفرد العادي يحتاج الى سنوات كثيرة قبل اكتساب مثل هذا الفهم وانه قد يرتكب اخطاء خطيرة خلال فترة التدرب . اما العالم الاثنولوجي

المدرب فيستطيع التحقق من طبيعة المؤسسات الوطنيــة بسرعة ودقة ، كما يستطيع ايصال معلوماته الى الغير بشكل موجز وصالح للاستعمال. وقد اخذت الدول الاستعمارية ، قبل الحرب العالمية الثانية ، تكثر من استخــدام الخبراء الاثنولوجيين وتعينهــم مستشاريــن في الادارات الحكومية للبــلاد المستعمرة . وقــد تم ايضا تعيين عدد مــن الخبراء الاثنولوجيين في المصلحة المشرفة على شؤون الهنود الحمر في الولايات المتحدة الامريكية ، ويعود الفضل في ذلك الى القيادة التقدمية للمفوض جون كولير John Collier . ومهما يكن مــن أمر ، فان مثل هؤلاء الاخصائيين ، باستثناء عدد قليــل منهم ، استخدموا لاستنباط طرق ووسائل لتنفيذ سياسات موضوعة وليس لتطوير سياسات تصلح لاوضاع البــلاد المستعمرة . ولذا يمكــن القــول ان الخدمات التي استطاعوا اسداءها لتحقيق رفاه الشعوب المستعمرة اعتمدت ، في المقام الاول ، على سياسة رؤسائهم ونواياهم ، ولا بد من الاشارة هنا الى ان المعرفة التي تساعد الحاكم على ادارة مجتمع وطني بأدنى حــد مــن الاحتكاك والتوتر هي ذاتها التي يمكن ان تصبح سلاحا فتاكا في يد اولئك الذين يرغبون في تدمير ذلك المجتمع والعمل على تفكيك ثقافته من أجل تحقيق اغراضهم الانانية الخاصة .

وفي السنوات الاخــيرة اتجه بعض الافراد الذين تلقوا تدريبا في النظريات والاساليب الاثنولوجية ، اتجهــوا الى استخدام معــارفهم ومهاراتهم في دراسة العلاقات الصناعية ، والعلاقات العرقيــة ، ونشاط المؤسسات الاجتماعية المختلفة . ولم يحن الوقت بعد للتنبؤ عن مــا ستؤول اليه هذه المحاولات ، غــير ان اسهامهم الرئيسي حتى هــذا التاريخ انحصر ، على ما يبدو ، في تزويد هذا النــوع من الدراسات بطرق محسنة لتشخيص الاوضاع الاجتماعية قيد البحث .

ومــع ان معظم التطبيقات الحاليــة لعلم الانثربولوجيا تستخدم

المعلومات والاساليب التي طورها علم الاثنولوجيا ، فان هناك مجالات عملية كثيرة للاستعانة بالاكتشافات التي تحققت في ميدان علم الاجسام البشرية . ونذكر على سبيل المثال ان الدكتور م.ر. شتاين M.R. Stein احد علماء الانثربولوجيا ، اجرى دراسة واسعة عن الفروق العرقية في الاسنان وفي حجم وشكل القوس السني . واستغلت احدى الشركات الامريكية التجارية نتائج هذه الدراسة في تطوير طقوم من الاسنان الصناعية صممت خصيصا لتفي بحاجات فئات سكانية مختلفة ، فحصلت بذلك على ارباح مادية كبيرة . ويملك كاتب هذا المقال القسم العلوي من احد طقوم الاسنان السمراء التي صنعت خصيصا للاتجار بها في تايلاند ، وهو يحافظ عليه باعتباره احد مكتنزاته الثمينة . ويستطيع علماء الاجسام البشرية تزويد بعض المؤسسات التجارية بمعلومات عن الفروق المحلية والعرقية في حجم الجسم وبنائه ، وبذلك يساعدونها على التفوق على غيرها في تصريف بضائعها في الاسواق الاجنبية . وفي الحرب العالمية الثانية استخدمت نتائج الابحاث التي اجراها علماء الاجسام في تصميم نماذج افضل لوكن الطيار ولمقاعد جنود المظلات ، ومن المحتمل ايضا ان يستفاد من هذه النتائج في تطوير تصاميم جديدة لمختلف قطع الاثاث المنزلي والمكتبي .

ومهما يكن من أمر ، فان الاسهام الذي عرضنا له في الفقرة السابقة ذو اهمية ثانوية ، فهو يستهدف تأمين راحة الانسان وليس تأمين بقائه . وأهم من ذلك بكثير هو المعلومات التي يحصل عليها علماء الانثربولوجيا بشأن استعداد الجماعات البشرية المتباينة لمقاومة الامراض المختلفة ، والظروف المثلى التي تناسب هذه الجماعات من حيث درجة الحرارة ونسبة الرطوبة والارتفاع . ولا بد من اخذ هذه المعلومات بعين الاعتبار عند معالجة التحركات السكانية التي تأتي عادة في اعقاب الحروب الكبيرة . فمن الحقائق الثابتة ، مثلا ، ان زنوج

افريقية الغربية يحتملون الملاريا الخبيثة الى درجة عالية ، ولكنهم — باستثناء حالات قليلة — ينقلون هذا المرض . ومن الواضح ان الجماعات العرقية التي تفتقر الى مثل هذه الحصانة لا يمكن توطينها بنجاح في مناطق افريقية الغربية . ومن جهة اخرى ، فان ادخال جماعات من افريقية الغربية الى مناطق نظيفة من هذا المرض سيلحق اذى كبيرا بالسكان المحليين ، وبخاصة اذا كانت هذه المناطق توفر بيئة مناسبة لانتقال المرض من فرد الى آخر . ومن السهل الاستشهاد بامثلة كثيرة اخرى مشابهة لهذه الحالة .

قدمنا فيما سبق عرضا لمختلف ميادين البحث والعلوم التطبيقية التي يعنى بها علماء الانثربولوجيا ، ونعتقد ان هذا العرض يكفي لاعطاء القارىء صورة اجمالية عن مجال علم الانثربولوجيا كما هو معتمد اليوم . ومن الطبيعي ان يتساءل المرء عن الحدود التي يجب ان تفصل بين علم الانثربولوجيا وبين العلوم الاخرى . غير ان مثل هذا السؤال ، كما يبدو في نظر الكاتب ، يغلب عليه الطابع الاكاديمي المدرسي . فكل علم يمكن ان يسهم في تطوير عدة علوم اخرى كما يمكنه ، في الوقت نفسه ، ان يتلقى منها معونة مقابلة . أما الخطوط الحالية التي تفصل بين ميادين العلوم المختلفة ، فانها قلما تمثل عناصر متأصلة في الظاهرات التي اختارت هذه العلوم معالجتها . وعلى مر الزمن تكتسب هذه الخطوط الفاصلة نوعا من الدوام ، ويبدو ان قوة الاستمرار وحرص الدوائر الجامعية على التمسك بمصالحها اشد اثرا في الابقاء عليها من اي من الاعتبارات الاخرى . وغني عن البيان ان علم الانثربولوجيا ليس العلم الوحيد الذي يعنى بدراسة الانسان . فالانسان يشكل محور الاهتمام الاول لعدد من العلوم الاخرى ، نخص بالذكر منها الاجتماع والاقتصاد والتاريخ وعلم النفس ، وحتى علم الجغرافية بمفهومه الجديد . والفرق الرئيسي بين علم الانثربولوجيا والعلوم

الاخرى التي تعنى بالانسان هو ان علم الانثربولوجيا يتناول مجالاً اوسع من الاهتمامات ، ويبدي ميلا اشد لاستعارة الحقائق من اي مصدر ولدمجها في نظام واحد متكامل . وقد ادى ازدياد التعاون بين الانثربولوجيين وخبراء العلوم الاخرى الى اثارة قلق بعض اتباع المدرسة الانثربولوجية القديمة ، وزيادة تخوفهم من احتمال فقدان هذا العلم لكيانه المستقل . ويعتقد هؤلاء ان استمرار الاتجاهات الحالية سيؤدي في النهاية الى تمزيق علم الانثربولوجيا اربا اربا ، وان آرابه ستتوزع على علوم اخرى حليفة تعتبر اعرق منه واشد رسوخا وقوة . أما كاتب هذا المقال فيعتقد ان مثل هذه المخاوف لا تستند الى اي اساس . والدلائل المتوافرة ترجح امكان تحول الانثربولوجيا الى نواة علم جديد يعنى بالانسان ويتسع مجاله بحيث يضم جميع جوانب الوجود البشري ومختلف مظاهره الحضارية والبدائية . ونحن لا ننكر اننا سنظل دوما بحاجة الى اخصائيين في الفروع المختلفة ، ولكننا اليوم نشعر بحاجة ملحة الى عملية تركيبية تحقق التكامل بين الحقائق والمعلومات المتفرقة التي جمعها الاخصائيون .

والواقع ان مثل هذا العلم العام عن الانسان اخذ يتكون بفضل التعاون بين اعضاء مختلف الميادين العلمية التخصصية . وهدف هذا العلم مماثل لهدف جميع العلوم الاخرى ، فهو يرمي الى التحقق من العمليات وعناصر الاستمرار التي تشتمل عليها الظاهرات قيد البحث ، وذلك بقصد التنبؤ بالاحداث والسيطرة عليها في نهاية الامر . والجدير بالذكر ان ظاهرات الوجود البشري ، وبخاصة ظاهرات السلوك الانساني ، معقدة للغاية ، وان الجهود الرامية الى عرضها في نظام مفهوم لا تزال في بداية عهدها . وكان علماء الانثربولوجيا في الجيل الماضي قد بهرهم التنوع الغريب في الثقافات التي تعرفوا اليها ، فخامرهم الشك في امكان التوصل الى تعميمات صحيحة بشأنها . ولا بد

لنا من الاقرار ، في هذا المقام ، انه يكاد يكون من المستحيل صوغ تعميمات عن سلوك الجماعات البشرية ــ اي عن الظاهرات الاجتماعية والثقافية ــ دون ان تكون هناك بعض الاستثناءات الواضحة التي تشذ عن القاعدة العامة . غير ان هذا التحفظ لا يعني ان هذه الظاهرات لا تنتظم في ترتيب معين . فكل تعميم يجب ان يبدأ بافتراض اطار معين من الظروف ، او مجموعة الشروط التي يجب ان تتوافر ليصبح التعميم نافذا وساري المفعول . ولتوضيح هذه النقطة نستشهد بالمثال المألوف التالي : ان قانون الاجسام الساقطة ، كما هو مثبت في كتب الطبيعة الابتدائية ، يبدأ بافتراض ان الاجسام تسقط في الفراغ ، وهذا شرط لا نجابهه ابدا في حياتنا الفعلية اليومية . والظروف التي تضطر المجتمعات والثقافات الى العمل فيها معقدة جدا ، وتشتمل على عدد كبير من العوامل المتغيرة . وعلى الرغم من ذلك ، فانه يمكن التوصل الى تعميمات كثيرة تصدق على معظم الحالات التي خضعت للملاحظة . فمن الممكن ، مثلا ، صوغ مثل هذه التعميمات عن التعايش العادي والعلاقات الوظيفية المتبادلة بين ظاهرات معينة ، وكذلك عن العمليات المتنوعة التي تنطوي عليها . ومع ان هذه التعميمات تفتقر الى الصفة المطلقة التي ترتبط ، في اذهاننا ، بمصطلح « قانون » ، ومع ان درجة الاحتمال فيها اضعف منها في القوانين الطبيعية والبيولوجية ، فانها تزودنا بمرشد قيم يساعدنا على التنبؤ بالاحداث المقبلة . ولا شك في ان قيمتها الارشادية والتوجيهية ستتضاعف كلما حققنا مزيدا من الوضوح في تحديد مجموعة الظروف التي تكون فيها مثل هذه التعميمات صحيحة ونافذة .

ولا بد من الاشارة هنا الى ان جميع العلوم التي تعنى بالانسان قد طورت عددا كبيرا من التعميمات واثبتت قيمتها باختبارات عملية بسيطة. حتى في الحالات التي لم تحدد فيها هذه التعميمات على هيئة صيغ

نظرية ، فانها تكون متضمنة في اساليب هذه الفئة من العلوم ومجموعة المفهومات التي تقوم عليها . والوظيفة الرئيسية لعلم الانسان الذي اخذ يشق طريقه الى النور هي الجمع بين هذه التعميمات وتطوير تعميمات جديدة ادق واوسع مجالا من التعميمات السابقة . وبما ان عملية التوحيد لا تزال في بداية عهدها ، فاننا مضطرون الى مواصلة الاستعانة بكل من العلوم التخصصية ذات العلاقة والاستفادة من نتائج ابحاثه في ميدان اختصاصه . والواقع ان كلا من هذه العلوم يستطيع ان يسهم في حل مشكلاتنا الراهنة . وهذا هو السبب الذي من اجله لم نقم بمحاولة لقصر ابحاث هذا الكتاب على ميدان الانثربولوجيا النظامية أو لحصر مقالاته في اولئك الذين يطلقون على انفسهم « خبراء في علم الانثربولوجيا » . وحسبنا ان جميع المسهمين في هذا الكتاب هم من الزملاء الذين يعملون في ميدان « علم الانثربولوجيا » والذين يحاولون بطرق مختلفة التوصل الى فهم الانسان والظاهرات التي تؤثر فيه ، ويسعون الى ايجاد حلول لمشكلاته الراهنة .

المجتمع والانسان البيولوجي

ه . ل . شـابيرو

يبدو المجتمع البشري احيانا كما لو انه يمتلك حيـاة مستقلة ، ويتبع قوانين خاصة به ، ويصوغ الانسان على شاكلته . غير ان المجتمع، في الواقع ، ينشأ مـن حاجـات الكائن البشري ووظائفه . فالتنظيـم الاجتماعي يجب ان يسهم في تلبية حاجات الانسان الاساسية أو ، على أقل تقدير ، في القيام بأوده ، والا كان مصيره النبذ . واذا نجح المجتمع في اداء هذا المتطلب الاساسي ، فانه قد يتوسع ويظهر في اشكال متعددة ويتمتع بما يشبه الكيان المستقل ، وهذا ما يقع فعلا في أكثر الاحيان . فقد ينمي المجتمع منجزاته الحضارية ويسبغ عليها مزيـدا من الرونق والتهذيب فيطور نظاما معقدا من الطقوس والانماط السلوكية ، وقد يفرض بعض القيود على نفسه ، كما انه قد يشجع التطرف او يحث على الاعتدال . ومن الامور التي تستلفت النظر استعداد الانسان ، بوصفه ظاهرة بيولوجية ، لاحتمال هـذه الانماط المختلفة من الحيـاة بروح متسامحة . وهناك تنوع هائل في المجتمعات التـي يستطيع الانسان ان يعيش فيها ، وهي كلها تعكس الانسان البيولوجي ولكن على درجات متفاوتة .

ولهذا السبب نعلق اهمية كبيرة على ضرورة فهم هذا الجانب من الانسان . فكلما ازداد المجتمع تعقيـدا وتفرعا ، ازداد احتمـال فصل

المجتمع عن اصوله البيولوجية فصلا نهائيا . ودراسة الانسان من وجهة النظر هذه هي اليوم اكثر دلالة واهمية مما كانت عليه في اي وقت مضى ، ولذا لا شيء ادعى للاستغراب من الاهمال النسبي الذي تعاني منه هذه الدراسة في العصر الحديث . فالمجتمع قد يحدث ، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ، أثرا سيئا في الجوانب البيولوجية والوراثية من حياة افراده ، وذلك حتى في الحالات التي يحترم فيها المستلزمات الاولية لاستمرار بقائهم . فهو قد يعوق تطور بعض العناصر المرغوبة ، أو يقضي عليها ، وقد يعجز احيانا عن تأمين افضل الظروف المواتية للجودة البيولوجية . وسواء نشأت هذه الاتجاهات غير المرغوبة عن الجهل او الاهمال او عن مواقف ايجابية خاطئة ، فليس ثمة اي مبرر يسوّغ لنا — في عصر التقدم العلمي — ان نعتبر الانسان مجرد ظاهرة طارئة او جانب ثانوي من جوانب البحث العلمي . ولذا بات من الضروري ان نسعى في الحال الى اكتساب مجموعة وافية من الحقائق والمعلومات عن الخصائص البيولوجية الاساسية للافراد الذين تتكون منهم وحداتنا الاجتماعية .

وعلاوة على ما تقدم ، فان حصر المعرفة بهذه الامور في نفر قليل من الاخصائيين لا يكاد يفي بالغرض في عالم يتميز بشدة وعيه لأوجه معينة من التباين البيولوجي في الانسان . ويصدق هذا القول حتى حين نفترض ان الاخصائيين يملكون معرفة عميقة وشاملة بميدان اختصاصهم . ولعلنا لا نجانب الحقيقة اذا قلنا ان الاتصال اصبح ، لاول مرة في تاريخ البشرية ، ميسورا بين اعداد هائلة من سكان العالم مهما تنوعت مشاربهم وتباينت سماتهم الثقافية والبيولوجية . فتوسيع الآفاق الذي بدأ قبل حوالي خمسمائة عام اخذ يقترب من نهايته اليوم ، واصبحت الشعوب كلها منفتحة على سبل الاتصال والتبادل التي تربط انحاء العالم بعضها بالبعض الآخر . وهذا السبب وحده خليق ان

يدفعنا الى معالجة البيولوجيا البشرية معالجة سليمة ووافية ، هذا مع العلم بان هناك اسبابا اخرى كثيرة تحملنا علـــى زيادة اهتمامنا بهذا الموضوع .

ومن الواضح ان المجال لن يتسع في هـــذه المقالة القصيرة لبحث جميع جوانب البيولوجيا البشرية ، ولذلك سأقتصر عـلى معالجة جزء محدود من هذا الميـــدان الواسع . اما الموضوعات التـــي وقع عليهـــا الاختيار ، فلا تمثل بالضرورة اهم جوانب البيولوجيا البشرية ولكـــن كلا منها ، على ما يبدو لي ، ذو علاقة بالمشكلات التي يواجهها العالم اليوم . ولا يهدف هذا البحث الى رسم مخططات جاهزة لوضع الانسان البيولوجي في مجتمع المستقبل . فمعرفتنا الحالية أضعف من أن تساعدنا على تنفيذ مثل هذا المشروع الجليل . وحسبي ان اتمكن مـــن ايضاح بعض المشكلات التي تعترض البيولوجيا البشرية اليوم ، ويصدق هذا القول حتى على المشكلات التي لا تزال تنتظر الحل .

يبدو ان التباين العرقي بين بني البشر هو الخاصة البيولوجية التي تستأثر باهتمام العـــالم الحديث اكثر مـــن سائر الخواص البيولوجية الاخرى للانسان . واغلب الظن انه لم يأت علـــى الانسان حين مـــن الدهر كان فيه غافلا تماما عن الفوارق الجسمية بينـــه وبين الآخرين ، او بين الجماعة التي ينتمي اليها وبين الجماعات المجاورة . ولكن مـــن الانصاف ان نقول ايضا ان الانسان اصبح اليوم اشد حساسية واكثر وعيا لهذه الفوارق منه في اي وقت مضى . ومن الطريف ان نذكر هنا ان المحاولات الاولى التـــي بذلت في القرنين السابع عشر والثامن عشر لتصنيف الاجناس البشرية كانت ساذجة جدا حتى انها لـــم تميز بـــين الاوروبيين والهنود الامريكيين . وحتى مطلع القرن التاسع عشر كان جميع الاوروبيين ، باستثناء قبائل اللاب ، يعتبرون عرقا واحدا في نظر الاوروبيين انفسهم . وجرى بعـــد ذلك تصنيف الاوروبيين الى عـــدد

متزايد من الكيانات العرقية ، واخذ الناس يولون هـذا الامر اهتماما يكاد يكون متساويا في جميع الاقطار الاوروبية . ورافق هذه الحركة اشتداد الوعي العرقي الذي اخـذ يعكس بعض الشيء نشوء النزعات القومية الاوروبية . ومـع انني لا اريد بحث تاريـخ العرق ومفهومه الحيواني ، فانني سأعرض لجانب منه يصلح لان يكون مدخلا لموضوع ارغب في استقصائه .

ينزع الانسان ، شأنه شأن جميع الكائنات الحية الاخرى ، الى التوافق مع نمط معين . وعلى الرغم من هذه الظاهـرة ، فاننا لا نجد ابدا فردين يتماثلان تماثلا مطلقا في كـل التفاصيل . وعجز الفرد عن تحقيق تطابق تام مـع اي نوع معين يفسر ظاهرة التغاير ، وهي ظاهرة مميزة كالظاهرة الاولى التي اثبتناها . وهنا نواجه السؤال التالي : هل نعتبر الاشكال المغايرة انحرافات عـن نمط معين ، ام نعكس الترتيب فنقول ان النمط ينشأ عن توزيع الاصناف المتغايرة ؟ قد يكـون هذا السؤال موضع جدل وخلاف ، ولكن ايا كان الموقف الذي نتخذه تجاه هذا الازدواج الظـاهر ، فان الصلة الحتمية بـين النزعتين ، المركزية والانحرافية ، تشكل خاصة ثابتة من خصائص الحياة العضوية . ويمكن القول بوجه عام جدا ان ايضـاح النزعة المركزية وفهم مظاهر التغاير الفردي يمثلان المشكلة الاساسية التي تواجه عدة علـوم بيولوجية ، وربما ايضا جميع العلوم الطبيعية . وهذه الظاهرة المزدوجة هي مـن الشمول والطغيان بحيث يتعذر الاستشهاد بامثلة تشذ عن هذه القاعدة. وهكذا يمكن القول أن اي جانب من جوانب البحث العلمي يمكن في النهاية تحليله الى هذين العنصرين الاساسيين .

يتبين مما تقدم ان الكائن البشري ينطوي عـلى وجهين يتمم كل منهما الآخر . وهناك ميل الى التشديد على احد الوجهين علـى حساب الوجه الآخر ، ولعل هـذا هو السبب الذي يفسر انقسام الباحثين في

البيولوجيا البشرية الى مدرستين متعارضتين . ونلمس هذا التعارض في القضايا المتصلة بمشكلة العرق بصورة اوضح مما نلمسه في اي من القضايا الاخرى . فهناك فئة لا تزال تتمسك بالاتجاه التقليدي وهي دائبة في البحث عن نظام عرقي شامل يصنف المظاهر المعقدة للاشكال البشرية ويفسر في الوقت نفسه التناقضات التي لا مفر من ان يصطدم بها مثل هذا التصنيف الاعتباطي . ومن جهة اخرى هناك فئة ثانية تعارض الاولى كليا او جزئيا ، وهي تضم اولئك الباحثين الذين ينكرون وجود العرق اطلاقا ، او يرفضون الاقرار بفائدة هذا المفهوم في واقع الحياة ، او يستعينون بعبارات بديلة للتخلص من المساوىء التي اخذت تقترن بهذا المصطلح . وموقف المتطرفين من الفئة الثانية يمثل ، الى حد كبير ، نفورا من التمادي في تبسيط وضع معقد للغاية ، او بالحري ردة فعل ضد الشوائب الغريبة التي تراكمت حول فكرة العرق والتي لا تمت الى علم الحيوان باي صلة . وقد نلحق بهذه الفئة اولئك الذين راعهم التمسك بتصنيفات بشرية اولية وغير ثابتة واستغلالها استغلالا بشعا فاضحا من اجل تحقيق اغراض سياسية ، كما افزعهم الخطر الكامن في المحاولات التي يبذلها البعض ، دون اي مسوغ ، للتوسع في تطبيق المفهومات العرقية بحيث تشمل ميادين لا علاقة لها بالمشكلات المتصلة بالبيولوجيا البشرية . ان هؤلاء الافراد محقون في ما يذهبون اليه ، ولكنهم يسعون الى التخلص من جزء من المشكلة عن طريق انكار وجود المشكلة كلها ، مثلهم مثل الذي يلقي التبر للتخلص من الشوائب الغريبة التي علقت به .

ويبذل المصنفون العرقيون محاولات دائبة للتوصل الى تصنيف عرقي مثالي . ولعلنا نجانب الانصاف حين ننسب هذه المحاولات الى مجرد التشبث بآراء قديمة او الرغبة في متابعة جهود المصنفين

السابقين . فهناك فوارق تشريحية يمكن ان نعزو اليها الاهتمام الشديد بالتصنيف البشري ، ويبدو ان مفهوم العرق افضل سبيل لتفسير هذه الفوارق ، وذلك على الرغم مما قد ينطوي عليه هذا التفسير من نقائص . ولا بد من الاشارة هنا الى ان الخلاف بين وجهتي النظر يصبح اقرب الى الظاهر منه الى الحقيقة ، وذلك عندما نعيد النظر في المشكلات ذات العلاقة ونعرضها مجددا في ضوء معلوماتنا الحديثة . ويبدو ان هذا الخلاف ينشأ من التمادي في التشديد على جانب واحد فقط من جانبي الكائن البشري .

وكان من نتائج انشغال علماء الانثربولوجيا الجسمية بمشكلة العرق ان اكتسب مفهوم النوع او العرق رسوخا اعاق تفكيرنا عن الكائن البشري . فالاصناف العرقية البشرية ظلت ، الى عهد قريب ، تعتبر كيانات ثابتة نسبيا وقادرة على الصمود امام تأثيرات البيئة او قوى التغير الفطرية . ويلاحظ ان التطرف في تمجيد فكرة العرق ادى الى فرض عدد محدود من التصنيفات الصارمة على بني البشر الذين يمتازون بتنوع لا حد له ، وأدى بالتالي الى زج الافراد في هذه التصنيفات بصورة تطمس صفاتهم الاصيلة الخاصة . ولو ان عملية التصنيف لوجهت ضمن المجالات المناسبة لها ومن اجل الاضواء التي تلقيها على تطور الانسان ، ولو انها اقترنت ايضا بادراك لطبيعتها شبه الاعتباطية ، لكان من الممكن حصر نتائجها في استعمالات عملية مشروعة. ولكن هذه العملية ، لسوء الحظ ، تحمل في طياتها نزعة تلقائية الى المبالغة ؛ وما ذلك الا لان طبيعة التصنيف نفسها تقتضي اعتبار الشواذ والاشكال المغايرة كما لو كانت من الظاهرات المزعجة التي تستحق الاستهجان .

ومهما يكن من أمر ، فان هذه الاشكال المغايرة هي نفسها التي اكتسبت دلالة خاصة في التطورات الاخيرة لعلم البيولوجيا البشرية .

وكان الاتجاه ، في السابق ، يميل الى اهمال الشكل المنحرف او المغاير اهمالا كليا بحجة انه لا يمثل ظاهرة مهمة . واذا تعذر التهرب من الحقيقة الماثلة في وجوده الفعلي ، فانه كان يعتبر ظاهرة شاذة ، او ردة الى اصل سابق ، او مجرد تعبير طبيعي عن الميل العضوي الى التمايز والتغاير . ولاحظ داروين ان جميع اشكال الحياة متنوعة ، وان تنوعها من الشروط اللازمة لعملية التطور . ويبدو ان ملاحظة داروين ، بما انطوت عليه من شمول وتعميم ، قدمت تفسيرا جزئيا لحتمية التباين في الانسان ، ولكنها لم تزودنا باي تعليل لظاهرة التباين نفسها . وفي القرن الماضي استبعد علماء الانثربولوجيا الآراء التي قيلت في تباين بني الانسان ، وكرسوا جهودهم لتصنيف الانواع العرقية . صحيح ان هؤلاء العلماء ادركوا وجود اشكال مغايرة ، ولكنهم اكتفوا باستغلالها في سبيل استخلاص نماذج اصلية تصلح لان تلحق بها هذه الاشكال . وحين كان هؤلاء العلماء يناقشون آراءهم بصراحة ـ وقلما كانوا يفعلون ذلك ـ كانوا يفترضون ان الانواع العرقية والاشكال المغايرة التي تواكبها تمثّل ، على وجه الاجمال ، مظاهر ثابتة . وعلى مر الزمن ازدادت حصيلة الملاحظات البيولوجية العامة وتطورت التجارب التي كانت تجري على مرونة الحياة العضوية . غير ان تأويلات العالم البيولوجي الالماني فايسمان Weismann جمدت نتائج هذه الابحاث وابطلت مفعولها على الصعيد الانساني ، على اقل تقدير ، وأضعفت بالتالي اثرها في العقيدة المعتمدة بشأن ثبوت الانواع العرقية .

ثم ظهر العالم الانثربولوجي الامريكي بواس Boas ونشر نتائج البحث الذي اجراه عن الاشكال الجسمية المتغيرة لنسل المهاجرين الى الولايات المتحدة الامريكية . وكان من الطبيعي ان تثير هذه الدراسة ضجة في اوساط الدارسين المختصين بعلوم الانسان . فلاول مرة في تاريخ الانثربولوجيا نشر بحث مدعوم بالوثائق حاول فيه كاتبه

ان يبين ان بعض الفئات البشرية ، على اقل تقديـر ، لا تحافظ عـلى الثبوت الذي كان يعتقد انه يلازم الانواع العرقية التـي تنتمي اليها وانما ، على النقيض من ذلك ، تعكس ميلا ملحوظا الى التغير تبعا لتغير الظروف البيئية . وهكذا تبين ان التعبير العضوي للانسان مرن وخاضع لاثر الوسط الذي يتطور فيـه الكائن الحي ، كما تبين ان اثر البيئـة يزداد تبعا لتقادم العهود والاجيال . ومع ان الكثيرين اشتطوا في تفسير النتائج التي توصل اليها بواس وقرأوا فيها اكثر مما انتهى اليـه هو نفسه ، فان البلبلة التي اثارها كانت كافية لاستقطاب تعليقـات واسعة النطاق وردود فعل عنيفة . وظهرت تعليقات حاول فيهـا كاتبوهـا الاستخفاف باهمية هذه النتائـج والبرهنة عـلى ان ملاحظات بواس لا تعكر صفو الوضع الراهن . غير ان الدراسات المماثلة اللاحقة التي اجريت على نطاق اوسع اكدت الجانب الرئيسي من نظرية بواس ، اي ان الكائن البشري يتصف بالمرونة ويخضع لظروف البيئة . وكذلك الامر بالنسبة للبيانات التي جمعها باولز Bowles من سجلات الاحوال الجسمية لطلاب هارفرد على مدى ثلاثة أجيال ، فهذه ايضا تقيم الدليل على صحة ما انتهى اليه بواس بشأن المرونة العضوية . وتمكن باولز ، من خلال استعراضه لاجيـال متتالية ، ان يثبت وجود زيـادة حقيقية طردية في الحجم ، وكذلك بعض التغيرات في النسب الجسمية . واجريت في الوقت نفسه دراسة مماثلة لسجلات الطالبات في كليـات البنات ، فكانت النتائج مشابهة لنتائج الطلاب . ونشر مارتن بيانات عن متوسط القامة عند فريق من المجندين ، وهذه البيانات جديرة بالاهتمـام على الرغم من أنها كثيـرا ما تغفل في الابحاث التي تدور حول قابليـة الانسان للتغير العضوي ، ففي خلال الفترة بين ١٧٩٢ و ١٨٧٢ ازداد متوسط القامة من ١٥٥،٥ سم الى ١٦٥ سم ، اي بمقدار ٩،٥ سم . وفي جميع الاماكن الاوروبية والامريكية التـي اجريت فيها اختبارات

جسمية وسجلت نتائجها علـى مدى فترة مـن الزمن ـ في المدارس والكليات والمؤسسات العسكرية وغيرها ـ تبين ان هنـاك نموا في متوسط القامة عند اعضاء هذه المؤسسات . ولا تقتصر هـذه الظاهرة على الجنس الابيض ، فقد سجلت نتائج مماثلة بالنسبة لمجموعات من الصينيين واليابانيين .

يتضح مما تقـدم انه لا بد من تعديـل الرأي السابق القائل ان الكائن البشري يرتبط ارتبـاطا صارما بمستويات ثابتة مـن التطور تحددها له البلازما الجرثومية التي نشأ منها . وينبغـي لنا ، عوضا عن ذلك ، ان نعتمد النظرية القائلة ان هناك تحكما وراثيا فيه من المرونة ما يترك للكائن مجالا واسعا للتكيف في خطه التطوري . ولا يعني هذا القول ان الكائن البشري قابل للتحور في كـل الاتجاهات والمجالات بالغة ما بلغت من الابتعاد عن النوع الاصلي ، كما لا يعني ان الفرد ، اذا خضع لمنبهات بيئية ملائمة ، يمكن ان يتغير من نوع عرقي الى آخر. ولعل النص التالي هو افضل تعبير لهذه النظريـة : اذا افترضنا وجود طراز جيني معين (أو مجموعة مؤتلفة من العوامل الوراثية) ، فان لهذا الطراز مدارا من المرونة او الطواعية يمكن ان يتطور فيه تطورا عاديا . أما مدى هذا المدار فلا يزال مجهولا .

ومع ان هذه النتيجة التي استخلصناها من دلائـل قاطعة تبدو معقولة ، فان فهمنا لاسباب المرونة العضوية لا يزال بحاجة الى تحديد نوعي . وقد بذلت محاولات كثيرة لتفسير التعديلات التـي تطرأ على شكل الجسم ، فذكرت جوانب مختلفة من البيئة المحيطـة ، كالتغذية والمناخ والمستوى الاقتصادي والوسط المحلي . واقترحت ايضا عوامل مسببة اخرى كتحسن اوضاع الحياة ، وارتفاع مستوى المعيشة ، وتقدم المعرفة الطبية . ونحن لا ننكر ان هذه العوامل كلها ، واخرى غيرها ، تؤثر فرديا في تطور الكائن البشري ، غير انه من المرجح ان يتبين لدى

التحليل ان الكثير من هذه العوامل يمثل عناصر مشتركة ، وانه يمكن اختصار المنبهات البيئية الهامة الى عدد قليل نسبيا من العناصر المتشابكة .

وعلى الرغم من طغيان الاتجاه الى نسبة المظاهر المختلفة للمرونة الجسمية الى البيئة العامة او الى جانب خاص منها ، فان البعض يرى فيها ظاهرة دورية تعمل ، على وجه الاجمال ، مستقلة عن الوسط الذي تنشأ فيه . وبناء على هذا الرأي ، قد تكـون الزيادة في حجم الجسم ناشئة في الاصل عن مظهر من مظاهر التراوح الجيني . ومع انه يصعب في الوقت الحاضر استبعاد هـذا الرأي كليا ، فانه لا يكفـي لتفسير ملاحظاتنا عن التكيف الجسمي . فالبيانات التي جمعت عن نمو الاطفال تبين ان اختلاف مستويات التغذية يسبب فروقا هامـة في النمو . ومن الامثلة على ذلك ان سنوات المجاعة ابان الحرب العالمية الاخيرة وبعدها كان لها اثر سيىء في نمو الاطفال الذين اخضعوا للملاحظة في كـل من المانيا وروسيا . ولم يقتصر هذا الاثر على تخفيض القامة والوزن الى مستويات ادنى من المستويات السابقة ، وانما تسبب ايضا في احداث تغييرات في النسب الرأسية . واجرى كاتب هذا المقـال دراسات على الافراد اليابانيين في جزائر هاواي ، وقرنها بابحاث مماثلة اجريت عـلى اقربائهم في اليابان ، وتبين مـن نتائـج هذه الدراسات ان الاحجـام الجسمية ونسبها تعرضت لتغييرات كبيرة .

وتعتبر نظرية الاستاذ ملز Mills مـن اهم النظريات التـي استأثرت باهتمام الباحثين في اثر البيئة في التطور الجسمي . قـام ملز بابحاث عن الانسان ، وتحقق من نتائجها باجراء تجارب عـلى الجرذان وغيرها من الحيوانات المخبرية . وتشير نتائج ابحاثه ، على ما يبدو ، الى ان المنـاخ ودرجة الحرارة والرطوبة تؤثر في تنظيـم حرارة الجسم ، وتؤدي بالتالي الى تعديلات هامـة في نشاط الجسم الانساني وقدرته على استيعاب المواد الغذائية . ويعتقد ملز ان هناك تشابكا معقدا بين

نمو الجسم وعادات الغذاء وسن النضوج والشيخوخة والنشاط الجسمي ومدى التأثر بالامراض ، وان هذه العوامل كلها ترتبط بالفروق في الظروف المناخية . ومما لا يرقى اليه شك ان آراء ملز هي ، على اقل تقدير ، جديرة بالاهتمام ، وبخاصة اذا امكن تطبيق نتائج مثل هذه التجارب المختبرية على الانسان . وحين نقرن هذه النتائج بالدلائل الاضافية الكثيرة التي توافرت لدينا عن العلاقة بين الفوارق الجسمية وبين العوامل الجغرافية والمستوى الاقتصادي والاجتماعي والتغذية والمناخ والصحة والمجموعة الكبيرة من العناصر البيئية الاخرى ، فانه لا يبقى مجال كبير للشك في قدرة الكائن البشري على الاستجابة للفوارق البيئية ضمن نطاق امكاناته الوراثية .

اقتصر الكلام حتى الآن على الاشارة الى عدد بسيط من الدلائل التي تبين دور الوسط البيئي في توجيه وتشكيل الميول الوراثية للكائن البشري . ومن المفروض ان التغيرات المختلفة الناشئة عن العوامل البيئية لا تتناول الطراز الجيني الاساسي الذي يحافظ على سلامته وقابليته للتكيف على تعديلات بيئية اخرى قد يحتاج الى مواجهتها . فالتغيرات الناشئة عن العوامل البيئية ، بالغة ما بلغت من الاهمية ، لا تكفي لتفسير مختلف مظاهر التعقيد والتشعب في حياة الكائن البشري . وهناك تغيرات تنشأ من عوامل جينية بحتة ، وهذه تلعب دورا مهما في احداث المدى الواسع من الفوارق التي نلاحظها بين الكائنات البشرية . ومن المعروف جيدا ان الجينات ، بمجموعاتها وتعبيراتها المنوعة ، تقرر الكثير من الاشكال المختلفة لخصائص الانسان العادية والشاذة . والواقع ان بعض السمات تبدو جينية في معظم مظاهرها المتباينة ، وتشكل سدا منيعا في وجه الاثر الذي تحدثه البيئة . فمعلوماتنا الحالية تشير الى أن لون العين ، مثلا ، لا يخضع لاثر البيئة ، وان ظلال الاختضاب في العين تعود الى عوامل جينية . وكذلك

الامر بالنسبة لقصر الاصابع حين يكون شاذا عن المألوف ، فهذا ايضا لا ينشأ الا من عوامل جينية معينة .

أما المنشأ الاصلي للفوارق الجينية فلا يزال غامضا . ولم يثبت بعد ما اذا كانت التغيرات الجينية ناشئة من أثر مصادر خارجية كالمواد المشعة او من عوامل أخرى . غير أن ذلك لا يتناول التمييز الاساسي بين التغيرات الناجمة عن الدور الذي تلعبه البيئة في التأثير في الطراز الجيني دون تغيره من جهة ، وبين تلك التغيرات التي تنشأ مباشرة من تغير الجين او من التبدلات الكثيرة التي لا تحصي في المجموعات الجينية ، من جهة أخرى .

ويعتبر الاختلاط العرقي من أغنى مصادر التغاير الجيني في الانسان . ومع ان هذا المصطلح قد يكون ضربا من التسمية الخاطئة ، فان استعماله اصبح ثابتا ومنتشرا . والواقع ان هذا المصطلح يطلق على كل انواع الزواج المختلط ، من زواج وارثة امريكية غنية من نبيل بريطاني ، الى التزاوج المختلط بين الاوروبيين وسكان اوستراليا الاصليين . والاختلاط العرقي لا يمثل في أي حالة ما يعرف بالتسافد المختبري بين خطين عرقيين نقيين ، نظرا لانه لا توجد سلالات عرقية نقية بين بني البشر . وهذه الظاهرة تدين كثيرا لعملية الاختلاط العرقي ، وهي نفسها التي يستحيل بسببها رسم خط واضح يفصل بين التزاوج المختلط بين شعوب متقاربة من جهة ، والتسافد بين مجموعات سكانية متمايزة وراثيا من الجهة الاخرى . وسواء كانت عملية الاختلاط بين سلالات متقاربة أو بين سلالات متباعدة ، فان من شأنها ان تخلق مجموعات جينية جديدة وتؤدي بالتالي الى زيادة التغاير بين الناس . وهناك دلائل وافرة تدعم الاعتقاد القائل ان الاختلاط لعب دورا مهما في تاريخ تطور الانسان ، نخص بالذكر منها التوزيعات الجينية المعروفة لدينا ، والاستمرار الجغرافي لبعض مظاهر التغاير الجسمي ، والسجلات

التي تناهت الينا عن العهود التاريخية وعهود ما قبل التاريـخ . ومن المرجح ان تشمل ظاهـرة الاختلاط نسبة أكبر من سكان العـالم في المستقبل ، وذلك بسبب ازديـاد الاتصال بـين الشعوب . ففي العالم الجديد هنالك مناطق واسعة تسكنها اليوم مجموعات سكانية مـن دم مختلط . وفي الامبراطوريات التي اسستها الدول الأوروبية الاستعمارية سرعان مـا نشأت فئات مـن المولدين بسبب التزاوج المختلط بـين الأوروبيين والسكان الوطنيين . ومن الاحداث التـي فتحت آفـاقا واسعة للاختلاط واعادت توزيع المجموعات الجينية في العالم ، التحركات السكانية الكبيرة التي وقعت بسبب الحرب العالمية الاخـيرة ، وفتح روسيا الأسيويـة ، وهجرة الملايين مـن مختلف الامم الأوروبيـة واستيطانها في الولايات المتحدة الامريكية . ولسوء الحظ لم يعن حتى الآن بدراسة نتائج الاختلاط العرقي الا نفر قليل من الباحثين . وظهر افراد من انصار النقاوة العرقية ومن الميالين الى الشعوب النوردية مثل ماديسون وردد هؤلاء الدعاية العرقية التي ظهرت في المانيا وزعموا ان الاختلاط العرقي لا يجلب الا الشر . وذهب البعض الى ان الاختلاط العرقي يعود بالضرر الحتمي على الشعوب النوردية ، على اقل تقدير ، نظرا لان هذه الشعوب ، على حد زعمهم ، تتفوق على غيرها ولا مفر من ان تسير في طريق التدهور في حالة اختلاطها مـع اي من الشعوب الاخرى التي لا تبلغ مستوى جودتها النوعية . ومـع ان اغلب الذين اخذوا بهذه النظرة المتطرفة هم كتاب معينون اشتهروا بغيرتهم العنصرية اكثر مما اشتهروا بتحصيلهم العلمي ، فان عدة افراد من علماء الوراثة رجحوا امكان حدوث تنافر خطير نتيجة عمليات التسافد بـين الانواع العرقية المتباعدة . وقدم كاسل (Castle) وغيره من الباحثين براهين فعالة تثبت بطلان هـذه المزاعم ، ولكن بعض الاوساط لا تزال تعتقد ان المولد الخلاسي ، مثـلا ، دون مستوى الرجل الزنجـي او الرجل

الابيض ، من الناحية الجسمية على اقل تقدير . وتستشهد هذه الاوساط ، لدعم رأيها ، بارتفاع نسبة الاصابات بمرض السل بين المولدين الخلاسيين . غير انه تبين من الدراسات الدقيقة التي اجريت على اثر البيئة ان هذه الظاهرة تعود الى عوامل اخرى غير عامل العرق.

وتبين في بعض الحالات ان المولدين يتمتعون بتفوق فعلي على غيرهم ، وهذه الظاهرة تناقض الاعتقاد القائل بان الاختلاط العرقي يؤدي الى التدهور . فالدراسة التي اجراها فشر (Fisher) على النسل الهجين الذي نشأ من حالات التزاوج المختلط بين البوير والهوتنتوت في افريقية الجنوبية اثبتت ان المولدين يتمتعون بقوة تناسلية تتفوق على القوة التناسلية لدى اي من الشعبين الاصليين . واجريت دراسة مماثلة على نسل ملاحي السفينة باوتني (Bounty) الذين تمردوا على قبطانهم وتزوجوا من فتيات بولينيزيات ، فتبين ان الاجيال الاولى كانت تتمتع بتفوق ملحوظ على سلفيها الاصليين ليس في حجم الجسم فحسب ، وانما ايضا في نسبة الولادات . وتشير الابحاث التي اجراها بواس (Boas) على المولدين من الهنود والانجليز الى نتائج مماثلة اجمالا للنتائج السابقة . هذا وان القوة الزائدة التي نلاحظها في النسل الهجين ظاهرة معروفة في البيولوجيا ، ويجري اليوم تطبيقها في اغراض تجارية ، كتعميم استعمال الحبوب الهجينة المحسنة في الزراعة بعد ان ثبت ان مردودها اكثر من مردود الحبوب ذات الارومة النقية . ولوحظ ايضا ان الحيوانات المختبرية تعطي نتائج مماثلة في حالات معينة من التسافد . وثمة اسباب قوية تحملنا على الاعتقاد بان الزيادة في الحجم والقوة والخصب التي نلاحظها احيانا في الهجناء البشريين تمثل جانبا من المبدأ البيولوجي العام . وقد يكون من الخطأ ان نفترض ان الاختلاط العرقي يؤدي في كل حالة الى تحسن في الوضع البيولوجي ، غير انه خليق ان يعتبر احد التفسيرات الممكنة

لعهود التنور التي تكررت في التاريــخ الاوروبي وامتازت بازدهــار الحركات الفكريــة . فاختلاط السلالات المختلفــة الذي سبق نشوء الحضارة الكلاسيكية في بلاد الاغريق او الذي رافق هجرات البرابرة في الالف سنة التي سبقت عصر النهضة الاوروبية ، هذا الاختلاط يوحي بان حدوث تعديل فعال في توزيع الجينات ينتج حيوية فائقة لا تلبث ان تعبر عن نفسها في منجزات حضارية باهرة . وهذا التفسير لعهود التنور في التاريخ الاوروبي ليس جديــدا ، ولكنــه يكتسب دعما واعتمادا اضافيين من الملاحظات الحديثة عن نتائج عمليات الاختلاط العرقي .

وسواء كانت العهــود المشرقة في التاريــخ البشري تدين الــى الاختلاط الفعال بين السلالات المتقاربة او الــى عوامل اخرى ، فانــه يبدو من الواضح ان عملية الاختلاط تساعد على زيــادة تنوع الطرز الظاهرية ، وذلك باتاحة الفرص لتلاقي جينات جديدة بعضها مع البعض الآخر وفتح آفاق واسعة للتبادل والاتصال . وهكذا نرى ان التزاوج المختلط يزيد من قدرة البشر عــلى التغير ويضاعف امكانات التطور بالنسبة لكل من المجموعات الجينية المتفوقة والمتخلفة على حد سواء .

ومع ان اتساع مجال الاختلاط العرقي يتيح فرصا كثيرة للانتقاء والتطور ، فمن المشكوك فيه ما اذا كــانت الوثبات الكبرى في تطور البشرية يمكن تحقيقها عن هذه الطريق . فعامل الانتقاء وحده لا يستطيع استحضار نوع جديد راق ، وكل ما يستطيع فعله هو انتاج امثلة افضل علــى الامكانات الوراثية الموجودة . ولــولا الطفرات لما احرز مربو الحيوانات ما احرزوه من تقــدم . فهم لا يستطيعون احداث تغييرات اساسية في النوع الا باستغلال التطورات الوراثية الجديــدة . ولهذا السبب نلاحظ ان التقدم عن طريق الانتقاء وحــده سرعان مــا يأخــذ بالتلاشي بعد انقضاء المراحل الاولى من عملية الانتقاء . وكذلك الامر بالنسبة للانسان ، فان التحسين القائم على انتقــاء الجينات الموجودة

لا يؤدي الا الى تهذيب النوع وتنقيته . ولا تتحقق تعديلات اساسية الا بعد وقوع طفرات جينية فعلية .

على اننا يجب الا نستخف بامكانات الانتقاء في مجال تحسين سواد البشر ، حتى في الحالات التي يعمل فيها هذا العنصر بمفرده . ولكن مهما كان مثل هذا البرنامج مرغوبا ، فان عمله يرتبط بعوامل ومشكلات اجتماعية ، لا يقل حلها اهمية عن حل المشكلات البيولوجية.

ويرى الكثيرون ان الاختلاط العرقي قد يحمل في طياته حلا للمشكلات العرقية التي نواجهها اليوم . ولهذا الرأي مزاياه لو ان العلاج لمشكلاتنا القائمة يكمن فعلا في ايجاد موروث عرقي مشترك لجميع سكان العالم . واذا نظرنا الى اسباب المنازعات الدولية ، اتضح لنا ان الامل الذي نعلقه على الحل العرقي يقوم على اسس واهية . فالتاريخ الاوروبي حافل بالحروب التي نشبت بين شعوب متقاربة من الناحية العرقية . أضف الى ذلك اننا نجد في تاريخ الامم المختلفة ما يقيم الدليل على ان التنافر المحلي بين فئات الشعب الواحد يمكن ان يصل الى درجة عالية من التوتر ، حتى اذا كان هذا الشعب ينحدر من اصل عرقي واحد . ومن الامثلة على ذلك الحرب الاهلية التي نشبت في الولايات المتحدة الامريكية . صحيح ان المشكلة العرقية كانت احد الاسباب التي ادت الى نشوب هذه الحرب ، غير ان الطرفين المتحاربين كانا ينحدران من أصل عرقي واحد . ويمكن القول ، بعبارة اخرى ، ان المنازعات والانشقاقات بين بني البشر تعود الى اسباب دينية واجتماعية اكثر ما تعود الى اسباب عرقية . والتعصب العنصري لا يكون عادة من الاسباب الحاسمة التي تقرر الحروب ، بقدر ما هو اداة ملائمة للتعبير العاطفي . وهكذا يبدو ان الاختلاط العرقي لا يمكن الاعتماد عليه كعلاج لتسوية المنازعات التي تنشأ من التنافس الدولي .

غير أن الامر يختلف بالنسبة لما يجري داخل الامة الواحدة حيث

اللغة المشتركة والتقاليد وانظمة الحكم والقوى الموحّدة الاخرى تعمل على خلق ولاء مشترك ومصالح مشتركة . في هذه الحالة تشكل الفوارق العرقيــة الواضحة المعــالم ، سواء كانت عــلى الصعيد الجغرافي او الاجتماعي ، عوائق خطيرة في وجه القوى الوحدوية . فهذه الفوارق ، حين تكون واضحة وسهلة الملاحظة ، سرعان ما تصبح نواة ملائمة تتبلور حولها اشكال مختلفة من التعصب . ومع ان الفوارق العرقية قد لا تمثل السبب الاساسي للنزاع ، فان من السهل اتخاذها ذريعة له بحيث تصبح في النهاية مصدر شقاق قد يشطر الامــة الى وحدتين يتعذر التوفيــق بينهما . وفي هذه الحالة قد نكون على حق اذا اخذنا بالرأي القائل ان ازالة الفوارق العرقية عن طريق التزاوج المختلط داخل الامة الواحدة من شأنها ان تحرر الامــة من الرواسب المتراكمة التي تفصل بين فئاتها المختلفة ، ذلك لان ازالة محور الخلاف لا بد من ان تؤدي الى اذابــة رواسب التعصب التي تجمعت حوله . غير ان هذا الحل لا يمكن تحقيقه الا اذا تعدلت المواقف الاجتماعيــة واصبح النــاس يجيزون التزاوج المختلط وينظرون الى الاختلاط العرقي نظرة متسامحة . والواقــع ان تطور مثل هذه النظرة المتسامحة مــن شأنه ان ينفي الحاجة الــى حل المشكلات العرقية .

ولدى بحث عملية الاختلاط العرقي يتبــادر الى الذهن السؤال التالي : هل تؤثر هذه العملية ، بالاضافة الى مضاعفاتها الاجتماعية ، في النواحي البيولوجية للمجموعات السكانيــة ؟ ان المجموعات العرقيــة او السكانية تتمايز ليس في لون وشكل الشعر ولــون العين فحسب ، وانما ايضا في طرق عملهــا وفي خصائصها الايجابية والسلبية . ومــن الواضح اذن ان التهجين ، في هذه الحالة ، يفسح المجال لظهور مجموعات جديدة قد تفضل المجموعات السابقة او تماثلها او تتخلف عنها ، وهذه الحقيقة تنطوي على اهمية حيوية بالنسبة للمجتمع .. ولا بد من ان نؤكد

هنا ما قلناه سابقا وهو ان التصنيف العرقي هو في اساسه مفهوم زؤولوجي يعتمد ، في المقام الاول ، على معايير جسمية . فالسمات التي تميز الزنوج عن البيض ، او الصينيين عن سكان استراليا الاصليين ، هي في الاصل سمات جسمية بحتة . ولا تظهر مشكلة الربط بين الفوارق المختلفة الا بعد اثبات الاصناف العرقية واسناد مجموعات من الصفات التشريحية المميزة لكل منها . هذا وان توسيع نطاق الفوارق العرقية بحيث تشمل مجالات الشخصية والذكاء والفسيولوجيا يبدو كما لو انه عملية حتمية من عمليات العقل الانساني . اما تبرير هذا التوسيع فلا يزال ، حتى يومنا هذا ، بعيدا كل البعد عن الوضوح .

وما كاد برايام (Brigham) ينشر تقريره عن نسب الذكاء عند افراد القوات المسلحة حتى ثارت ضجة حول نتائج الاختبارات التي تجري على اساس المجموعات العرقية ، وبدا للناس لأول وهلة ان الفوارق في القدرات العقلية تتفق والخطوط التقليدية التي رسمت بين الاصناف العرقية . وصنفت القدرات العقلية للمجموعات السكانية المختلفة في الولايات المتحدة تصنيفا يساير اصولها القومية او بالحري اصولها العرقية ، فزعم ان الاوروبيين الشماليين الغربيين يحتلون مراتب عالية في قائمة القدرات العقلية ، في حين وضع الايطاليون في مرتبة قريبة من المرتبة الاخيرة . وبدا من نتائج الدراسة الاولى التي اجراها جارث Garth ان الهندي الامريكي متخلف عن الرجل الابيض العادي . واجرى بورتلوس (Portellus) دراسة على جزر هواي حيث يتكلم السكان لغات مختلفة ، ونشر نتائج دراسته في تقرير حاول ان يثبت فيه مسايرة الذكاء للقيم العرقية .

وكان من المحتم ان يقابَل هذا الاتجاه في البحث برد فعل عنيف ، اذ سرعان ما لفت النقاد الانظار الى أثر العوامل التربوية والاجتماعية ، والعوامل البيئية الاخرى ، في مستوى الاداء العقلي . ولاحظ هؤلاء

النقاد ، بوجه خاص ، ان نسبة الذكاء تأثرت لدى هجرة بعض الزنوج من البيئة المكبوتة في الجنوب الى بيئة الشمال التي وفرت لهم فرصا اكثر للانطلاق والتحرر . وتبين كذلك ، ان للبيئة اثرا في تقديرات نسب الذكاء لدى البيض . فقد اجريت دراسات على الابناء التوائم ، وبخاصة المتماثلين الذين نشأوا في بيئات منفصلة . واتضح من البيانات التي جمعها نيومان (Newman) ان الوسط الذي يعيش فيه التوائم يؤثر في تقديرات نسب الذكاء . وكان كلينبرج (Klineberg) في طليعة النقاد الذين حاولوا الرد على جميع الآراء التي نادى بها اتباع المدرسة السيكلوجية العرقية . وقد اسهمت الابحاث الخاصة التي اجراها على الزنوج الامريكيين وعلى مجموعات سكانية مختلفة في اوروبا ، اسهمت في القاء ظلال من الشك حول الزعم القائل بان الاصناف العرقية تختلف اختلافا ملحوظا في القدرات الفطرية التي يمكن قياسها باختبارات الذكاء .

ويميل معظم علماء الانثربولوجيا اليوم الى نبذ حتى الفكرة القائلة بان تقدم شعب من الشعوب في مدارج الحضارة يقيم دليلا غير مباشر على قدراته الفطرية . وقد تأثر هؤلاء العلماء بالدور الذي يلعبه انتشار الثقافات في تحقيق التقدم وبأثر « الاحداث العرضية » في توجيه التطور . ولذلك تراهم يميلون الى اهمال ما يسمى بالقدرات الفطرية لشعوب العالم ، ويؤثرون كتابة تاريخ الحضارة في ضوء عوامل البيئة والحظ وتسلسل الاحداث المترابطة . ولعله من المشكوك فيه ما اذا كان في مقدورنا الادلاء برأي قاطع جازم حول هذه المشكلة ، ولهذا السبب تتعذر الموازنة بين الثقافات والحضارات وتتباين الاحكام الذاتية عن فضائلها . فاذا تحدث شخص عن انخفاض مستوى ثقافة السكان الاستراليين الاصليين ، تصدى له عالم الانثربولوجيا الاجتماعية مطريا نظامهم الزواجي المعقد ومشيرا الى ان قدراتهم سلكت اتجاهات

تخصصية معينة وان لديهم القدرة على التعبير عن انفسهم تعبيرا أوفى في ظروف بيئية اكثر مواءمة من ظروفهم الاصلية . واذا قابل شخص بين الثقافات والحضارات الافريقية من جهة وبين الثقافات والحضارات الاوروبية الغربية من جهة اخرى ، ورأى ان يرجح كفة الاولى على الثانية ، رد عليه آخر بقوله ان الفنون الافريقية كالنحت والموسيقى والرقص تشهد على بطلان زعمه . واذا بدأ لشخص ان يعزو انخفاض المستوى الثقافي لشعب معاصر الى نقص في قدراته العقلية ، فانه يصطدم بمشكلة المقابلة بين البريتون البرابرة ابان العهد الروماني وبين الشعب البريطاني المعاصر الذي قطع شوطا بعيدا في تطوره الحضاري . وهكذا يتضح انه لا يوجد مقياس موضوعي لتقدير الحضارات ، وانه يفترض في جميع الشعوب ان تكون لديها القابلية لتحقيق التقدم الذي احرزه احدها في الفنون الحضارية .

وهكذا نرى انه يمكن الرد على جميع الحجج التي تدعو الى الربط بين الاعتبارات العرقية والقدرات الفطرية . وعلى الرغم من ذلك ، فان هناك نزعة خفية لا تزال تراودنا وتدفعنا الى الاعتقاد بان الاجناس البشرية او الشعوب تختلف بعض الشيء في قدراتها الموروثة . أما كاتب هذا المقال فيميل الى الاعتقاد بان التطرف في اي من الاتجاهين ــ المبالغة في التشديد على اهمية الفروق العرقية او انكار اهميتها كليا ــ لا يفي بالغرض ولا يكفي لايضاح العلاقة بين العرق والقدرة والحضارة . فمن الواضح ان الاتجاه الى تفسير كل دقائق الثقافة في ضوء الفروق في القدرة بين الاصناف العرقية يمثل محاولة عقيمة لا تنسجم مع الحقائق الماثلة . كذلك الامر بالنسبة للاتجاه الرامي الى تفسير جميع اوجه الحضارة والمجتمع على اساس عوامل تقع خارج نطاق الجينات فانه ، على ما يبدو ، لا يمثل الا تفسيرا جزئيا لنظام من العلاقات المتبادلة التي تمتاز بشدة تعقيدها وتشابكها .

أما محاولة ارساء الفروق العرقية على قواعد فسيولوجية ، فهي ايضا لا تفي بالغرض . ويمكن القول ان المشكلة التي تعترضنا هنا اسهل من المشكلة السابقة نظرا لان الوظائف الجسمية يمكن اخضاعها ـ في بعض الحالات على اقل تقدير ـ للتسجيل الموضوعي الدقيق . غير ان المعلومات المتوافرة لدينا عن هذا الموضوع شحيحة ، وفي اغلب الحالات لم يجر التحقق منها في ضوء اثر العوامل البيئية . وذكر في هذا الصدد ان الاصناف العرقية تختلف في الوظائف الفسيولوجية ، وان هذا الاختلاف يشمل ايضا معدل الايض والطاقة الانتاجية ومدى التعرض للامراض وتوازن الهرمونات ونشاط الغدد الصماء والتهيج العصبي والادراك الحسي .

وبدا للناس قبل بضع سنوات ان الادلة التي جمعها العلماء الفسيولوجيون كادت تكفي للبرهنة على انه من الممكن استخدام معدل الايض لتمييز الفئات العرقية المختلفة بعضها عن البعض الآخر . وذكر في هذا الصدد ان متوسط الايض عند الصينيين اقل كثيرا منه عند الامريكيين ، وان نسب الايض عند قبائل المايا الهندية ـ وهي ايضا من الشعوب المغولية ـ تختلف عن المعايير المألوفة عند الاوروبيين . غير ان دلالة هذه النتائج من وجهة النظر العرقية سرعان ما تلاشت بعد ان اتضح ان معدلات الايض تتأثر بالاحوال المناخية وان المعدلات الفردية تتراوح تبعا لاختلاف البيئة .

ويصر ملز (Mills) ان للمناخ اثرا في الايض وفي ناتج الطاقة ، كما يعتقد بوجود علاقة بين الطقس وبين الخمول الذي يتميز به سكان المناطق الحارة او النشاط الاندفاعي لدى سكان المناطق الباردة والعاصفة . وقام الدكتور وليم بيترسن (Dr. William Petersen) مؤخرا باجراء تحليل دقيق للارتباط الوثيق بين الطقس والوظائف الفسيولوجية ، وبنى دراسته على التقدم الذي احرزه المرضى الذين

كان يشرف على معالجتهم . وتبين من نتائج ابحاثه ان تقلبات حالة المرضى تتبع نمطا مشابها لتراوحات الضغط البارومتري ، وبدا كما لو أن الظاهرة الاولى تتأثر بالثانية .

وكثيرا ما ذكر في التقارير ان نسبة الامراض تختلف باختلاف الشعوب والاجناس ، وينطبق هذا القول حتى على مدى التعرض لبعض الاضطرابات العضوية والمعدية . ويبدو ان مثل هذا الاختلاف يشكل حقيقة موضوعية يصعب الشك فيها ، والشواهد التي تقيم الدليل عليه مألوفة ، بمظاهرها المفجعة ، لدى كل المطلعين على تاريخ احتكاك الأوروبيين بالشعوب البدائية . فمرضا السل والحصبة ، مثلا ، اوديا بحياة الكثيرين من أبناء البولينيزيين . ومن المعروف ان الشعوب البولينيزية لم تكن تتمتع بمناعة قوية ضد الامراض التي ادخلها الاوروبيون بسبب انعزالها مدة طويلة عن انحاء العالم الاخرى . ولذلك فتكت الامراض بهم فتكا ذريعا ، حتى ان قرى برمتها خلت من سكانها، فتداعت منازلها وتحولت الى اطلال ينعق فيها البوم . ولاقى الهنود الأمريكيون مصيرا مماثلا ، فقد وقعوا فريسة سهلة للامراض التي جلبها المستوطنون الاوروبيون الى شطآنهم . وكذلك الامر بالنسبة للاوروبيين الذين يستقرون في المناطق الموبوءة بالملاريا ، فهم اكثر عرضة لاخطار هذا المرض من الوطنيين . واذا صح ما يقوله بعض المؤرخين الطبيين ، فان قابلية التأثر بمرض الزهري كانت من السمات البارزة التي ميزت سكان العالم القديم عن سكان العالم الجديد . ومن اليسير علينا ان نستشهد بالكثير من الامثلة الاخرى المشابهة . فالتقارير الاحصائية الطبية تشير الى ارتفاع نسبة الاصابات بالسل عند الزنوج ، وانخفاضها عند اليهود مقابل ارتفاع نسبة الاصابات بمرض السكري عندهم . وتدل الابحاث التي اجريت حديثا في افريقية الجنوبية ان هنالك نسبا خاصة بالزنوج الذين يسكنون ذلك الجزء من القارة

الافريقية .

ولنترك جانبا الامراض التي تتصل بالحرف التي يزاولها السكان او بالبيئة التي يعيشون فيها ، وهي الامراض التي قد تنتشر مؤقتا بين فئات سكانية معينة لانها تمارس الوانا خاصة من النشاط او تعيش في مناطق تزيد من قابليتها للاصابة بنمط معين من الامراض كالكشم وتضخم الغدة الدرقية عند اهالي سويسرا . اذا صرفنا النظر عن هذا النمط من الامراض ، فاننا لا نزال نواجه انماطا اخرى من نسب الاصابات يختلف باختلاف الشعوب والاجناس البشرية . غير انه من المشكوك فيه ما اذا كانت هذه الانماط المتنوعة تعود كلها في الاصل الى اعتبارات عرقية . لا ريب في ان بعضها يبدو انه ينشأ مباشرة من صفات عرقية خاصة ، كالمناعة النسبية التي يكتسبها الزنوج ضد بعض الامراض الجلدية نتيجة شدة اختضاب جلودهم باللون الاسود . وهناك حالات مميزة اخرى يمكن ردها الى اعتبارات عرقية ، وذلك على الرغم من صعوبة الاهتداء الى علاقات سببية واضحة ، ومن الامثلة على ذلك انتشار نوع من فقر الدم عند الزنوج وندرته عند البيض . ومن جهة اخرى ، يمكن القول ان ارتفاع نسبة الوفيات من الحصبة عند البولينيزيين الذين تم اكتشافهم حديثا ، لا يمكن رده الى اعتبارات عرقية صرفة ، ومن الافضل ، من الوجهة المنطقية ، تفسير العلاقة بين الظاهرتين على اسس اخرى . فالبولينيزيون ، بسبب انعزالهم الجغرافي الطويل ، لم يطوروا قط مناعة كافية ضد الحصبة ، ولذا يمكن القول ان شدة فتك هذا المرض فيهم يعود الى عوامل طارئة وليس الى خصائص اصيلة . هذا وان ندرة الاصابة بمرض معين قد تنشأ من محاولات انتقائية مركزة . فالاصابات بمرض السل قليلة نسبيا عند اليهود ، وكثيرا ما تعزى هذه الظاهرة الى تكيفهم الطويل على حياة المدن والى استبعاد كل ما من شأنه ان يزيد من قابلية التأثر بهذا

المرض . ومن المحتمل ، في بعض الحالات ، ان تنشأ بعض الاضطرابات العضوية ذات الطبيعة الوراثية من حالات الطفرات . ومهما يكن من أمر ، فان الانماط المرضية التي تنشأ بهذه الطريقة ، حتى الوراثية منها ، لا تعتبر عرقية الا اذا كانت من الخصائص التي تتساوى فيها جميع فئات الصنف العرقي قيد البحث . وهكذا نخلص الى القول بان توزيع نسب الامراض ، شأنها شأن الظاهرات الاخرى المختلفة ، يتطلب تفسيره الرجوع الى اكثر من عامل واحد . فالعوامل البيئية والانتقائية والاعتبارات العرقية والطفرات اسهمت كلها في تطوير الانماط الحالية .

ومنذ ان نشر كيث (Keith) مقاله عن أثر الغدد الصماء في الفروق العرقية ، والناس يشتبهون في ان لهرمونات الغدد الصماء انماطا عرقية ، ولا سيما فيما يختص بعمليات الافراز والتوازن . وكان من نتائج التقدم الذي احرزناه في اكتناه اسرار هذه الغدد ان اتضحت لنا اهمية الدور الذي تلعبه في نمو الفرد وتطوره . فالطول الزائد للقامة تبين انه يرتبط بنشاط الفص النخامي الامامي ، كما تبين ان احد انواع السمنة يرجع الى خمول الغدة النخامية ، وان نوعا آخر ينشأ من ضعف نشاط الغدة الدرقية . وقد تم ، على سبيل التجربة ، استحداث اشكال نغاشية بازالة الغدة النخامية . وهكذا تبين ان سمات مميزة مختلفة ، كالحجم والنسب الجسمية وسرعة النمو وسن بدء الرشد ، يمكن ارجاعها الى هرمونات معينة او الى التوازن بين الهرمونات . ويمثل هذا التقدم خطوة ثورية ذات دلالة بالغة الخطورة . وبدا للناس امكان تفسير معظم الفروق الفردية في التشريح والشخصية ـ ان لم يكن كلها ـ بالرجوع الى جهاز الغدد الصماء . واستهوت هذه الفكرة خيال الكثيرين حتى ان بعض الكتاب المعروفين تبنوها فعلا . ومع ان التيار المندفع في هذا الاتجاه قد انحسر الآن بعض الشيء ، فانه لا يمكن صرف النظر عن الشواهد التي تقيم الدليل على ان الهرمونات تلعب دورا كبيرا في تكوين

الفرد ، ويصدق هذا القول حتى على الحالات التي يثبت فيها ان الوراثة والبيئة والتغذية والعوامل الاخرى تلعب دورا نهائيا وحاسما في التأثير على عمل جهاز الغدد الصماء . والبحث عن العوامل التي تتحكم في أثر الغدد الصماء يعود بنا ثانية الى المشكلة الاساسية المتصلة بدور كل من الوراثة والبيئة في تكوين الفرد .

وكان من الطبيعي ان يتجه بعض الباحثين اتجاها منطقيا في تفكيرهم وان يفترض بان الهرمونات يمكن ان تفسر الفروق العرقية اذا ثبت انه يمكن الرجوع اليها في تفسير الفروق الفردية . واستند هؤلاء الى النظرية القائلة بان الفروق العرقية انما تمثل ، في نهاية المطاف ، امتدادا لظاهرة الفروق الفردية . فالعالم كيث ، مثلا ، رأى امكان الرجوع الى أثر الهرمونات في تفسير الانماط العرقية . ومن اليسير علينا اليوم ، بما لدينا من معلومات مفصلة حول هذا الموضوع ، انتقاد الفرضية التي طورها كيث على الصعيد التطبيقي . وأغلب الظن ان كيث تسرع في المحاولات التي بذلها لتعيين الغدد المسؤولة عن الفروق بين البيض والزنوج والمنغوليين . ومن الانصاف ان نشير في هذا المقام الى ان خط التفكير الذي بدأه كيث لم يتابع قط بصورة جدية مركزة . وقد حاول كاتب هذا المقال ذات يوم استقصاء الجوانب العرقية لانماط الغدد الصماء ، ولكن الاساليب الفنية المتوافرة آنئذ لم تكف للتغلب على المشكلات القائمة ولا للتحقق من صحة الاختبارات العادية . ولهذا يتعذر علينا تقويم هذا الجانب من البيولوجيا البشرية الى مدى ابعد من القول بانه يشكل ميدانا واسعا لابحاث مشوقة .

وكثيرا ما يلاحظ الرحالة والمسافرون ان الشعوب البدائية اقل حساسية للالم وارهف في ادراكاتها الحسية من الشعوب المتحضرة . غير ان الابحاث التي اجريت على عدد من الشعوب المختلفة للتحقق من مثل هذه الجوانب من الجهاز العصبي والاعضاء الحسية كانت تفتقر الى

المتابعة والانتظام ، فلم تؤد الى نتائج قطعية . ويمكن القول هنا ايضا ان اثر التدريب والتهيئة والبيئـة يلعب دورا مهما في تكييف مثل هـذه الوظائف . فمن الشائع ، مثلا ، ان سكان المدن اشد قابلية للتهييج من ابناء الريف .

ومن المسلم به ان الادلة المتوافرة لدينا عن الفسيولوجيا العرقية غير وافية ، ولذلك لا يمكن اعتمادها بصورة قاطعة لتفسير الفروق بين الشعوب على اسس عرقية صارمة . فالفروق الفسيولوجية لا تبدو ظاهرة ملازمة للفروق التشريحية بقدر ما تبدو ضربا مـن التكيف المحلي على البيئة . ومهما يكن من أمر ، فانه من المجازفة ان نبدي رأيا قاطعا في هذا الموضوع نظرا لان ميدان الفسيولوجيا العرقية يكاد يقـع كله خارج نطاق الابحاث التي اجراها العلماء الانثربولوجيون . ولا بد للمرء من أن يكون رحب التفكير بشأن هـذه القضية ، ولا سيما حـين يدرك التساؤلات الكثيرة التي لا تزال تثار حول امكان اعتماد الوظائف التي يؤديها جهاز الغدد الصماء في تفسير التنوع الكبير الذي نشاهده بـين بني البشر . ومن جهة اخرى ، اذا كـانت القدرة على التكيف عـلى الظروف البيئية فطريـة في التركيب التشريحي للانسان ، فمن حقنا ان نتوقع ان تكون لدى الفسيولوجيا البشرية قدرة مساوية ــ ان لم تكن قدرة أكبر ــ على التكيف على الوسط الذي توجد فيـه . وثمة مدى واسع جدا من الظروف التي يستطيع الفرد التعود عليها بسهولة ، وهذه الظاهرة نفسها توحي بشدة ان مجموعات سكانية باكملها يمكن ايضـا ان تملك قدرة مماثلة على التأقلم والتكيف . والواقع ان من اهم المظاهر التي تستلفت نظرنا في عمـل الكائن البشري هي : مرونته ، وتنظيـم اجزائه تنظيما دقيقا يضمن له سلامته في الظروف الصعبة ، والوسائـل المختلفة التي يستخدمها للتغلب على الاجهـاد الذي تسببه له تقلبات البيئة .

صحيح ان وظائف الانسان الفسيولوجية قابلة للتكيف الى درجة تكاد تمكنه مـن السكن في اي نوع مـن انواع البيئة المعروفة ، من المناطق القطبية الى المناطق الاستوائية الحـارة ، ومن مرتفعات جبـال الانديز المشهورة بهوائها المخلخل الى منـاطق الدلتا عنـد مصب نهر الامازون . غير ان ذلـك لا يعني ان الانسان يصيب في كل مـن هذه البيئات حظا وافرا مـن الفـلاح والازدهار . وقبل بضع سنوات بدأ هنتنجتون (Huntington) كتابة سلسلة من الكتب شدد فيها على اهمية البيئات المثلى لازدهار الانسان ورفاهه . وذهب هنتنجتون الى ان الطاقة البشرية تبلغ الاوج في المناطـق المعتدلة التي تكـون عرضة لعواصف وتغيرات مناخية منعشة ، وان الحضارة تزدهر فيها الى اقصى الحدود نظرا لان الميل الى النشاط والمبـادرة يفترض ان يكون عـلى أشده في هـذه المناطـق . ويرى هنتنجتون ايضا ان التقـدم والطاقة ظاهرتان مترابطتان ، ليس لان الطاقة تملك في ذاتها قوة خفيـة قادرة على خلق الحضارات ، وانما لانها تزود الانسان بالقوة اللازمة للخيال الخلاق . وما كاد هنتنجتون ينشر آراءه حتى سارع النقاد الى الاشارة الى ان الحضارات الاولى في تاريخ البشرية ، كالحضارات التي ازدهرت في وادي النيل ووادي ما بين النهرين ، انما تطورت في مناطق تختلف عن المناطق المعتدلة المعرضة لهبوب العواصف حيث تزدهر الآن الحضارات الغربيـة . وعلى الرغم مـن سهولة الرد عـلى الحجج التـي اوردها هنتنجتون ، فأنها تنطوي على دلالة تستحق النظـر . فاذا ادخلنـا تعديلا عـلى نظريته بحيث تتضمن اقرارا بان الاحوال تتغير تبعا لتغير الظروف ، فاننا بذلك قد نستطيع التوفيق بـين فرضيته الاساسية وبين حقائق التاريخ .

ومن السهل علينا ان نتصور ان بعض جوانب البيئة يمكـن ان تكـون اكثر اهمية من البعض الآخر في مراحل معينة من تاريخ التطور

الحضاري والثقافي . فخصب السهول التـي ترويها ميـاه الفيضان في اوديـة النيل ودجلة والفرات ، مـع سهولة استغلالها زراعيا ، كـان ذا اهمية بالغة بالنسبة للانسان القديم الذي كان يكافح من اجل الانتقال الى حضارة تقوم على الزراعة . ومما لا شك فيه ان اهمية هذا العامل من الناحية الحضارية طغت ، بصورة مؤقتة على اقل تقدير ، على اهمية توافر الاحوال المناخية المواتية . واغلب الظن ان المزارعين الاوائل لم يدركوا ان جهودهم الرائدة أحدثت ثورة في نظام الوجود البشري ، وانهم كانوا يشقون طريقهم الى نمط من الحياة يسمح بحدوث تطورات من النوع الذي كان يتعذر عـلى الانسان الصياد او الراعي تحقيقه . ولولا هذه البيئة الزراعية المواتيـة ، لما امكنهم السير قدما في مدارج الحضارة والتفوق عـلى الشعوب الاخرى حينا طويلا مـن الدهر بلغ آلاف السنين . ففي العصر الحجري القديم ، اي قبل اكتشافهم لكيفية حراثة الارض ، لم يسجلوا اي تفوق على غيرهم من الشعوب ، وربما كانوا متخلفين بالنسبة لمعاصريهم من سكان المناطق الغربية من فرنسا . وعلى مر السنين انتشرت الفنون الزراعية ، وتعلم سكان المناطق التـي كانت اقـل ملاءمة للزراعة كيفيـة الاستفادة مـن حقولهم ، وتقدمت الصناعة ، واكتشف سكان البلاد غير الصالحة للزراعة او طوروا موارد جديدة للثروة . وهكذا لعب عاملا الطاقة والمبادرة دورا حاسما في نقل مراكز الحضارة الى مناطق اخرى . ومن وجهة النظر هـذه وفي ضوء هذه التعديـلات يمكننا ان تنظر في اثر البيئات المناخية المثلى . فمما لا يرقى اليه شك ان للاحوال المناخية اهمية رئيسية على صعيـد الطاقة الانتاجية وحدها . ونحن لا نزال بحاجة الى اثبات نسب دقيقة للطاقة في احوال مناخية مختلفـة ، هذا مـع العلم بانه بوشر بالقيـام ببعض محاولات في هذا الاتجاه واننا قد نستفيد مـن الابحاث التي اجريت لاغراض تتصل بالحرب العالمية الثانية . غير ان المشكلة فيها شيء مـن

التعقيد بسبب الفروق الفردية في ردود الفعل ، زد على ذلك احتمال وجود فروق عرقية . ولكن يبدو ، على وجه العموم ، ان المناطق المناخية الباردة تنشط الايض وتساعد على انتاج الطاقة بسبب اثرها في تسهيل عملية التخلص من حرارة الجسم . فالعواصف تبدد السياق الرتيب الممل للاحوال المناخية غير المتقلبة وتساعد على زيادة النشاط . ويمكن القول ان مثل هذه المناطق المناخية توفر للاوروبيين على اقل تقدير ، افضل بيئة للعمل والانتاج .

ولعبت الرغبة في اختيار الاحوال المناخية المثلى دورا حاسما في عمليات الاستيطان في اجزاء كبيرة من العالم . ومع ان البعض يعتقد ان الرجل الابيض يستطيع ان يستقر في مناطق حارة وان يفلح في حياته اذا ما اتخذ بعض الاجراءات الوقائية في مجالي الصحة والتغذية ، فان الواقع يشير الى ان معظم الاوروبيين يفضلون الاستقرار في مناطق مناخية ابرد من المناطق الاستوائية او المدارية . واذا نظرنا الى توزيع مراكز استيطان الاوروبيين في العالم الجديد ، اتضح لنا مدى فعالية العوامل المناخية . هذا وان ايثار الاوروبيين للمناطق المعتدلة الباردة لا يعني بالطبع ان الاجناس الاخرى قد لا تفلح في مناطق مناخية اخرى. فقبائل الاسكيمو ، مثلا ، تبدو اكثر نجاحا في المناطق القطبية الباردة منها في المناطق المعتدلة الواقعة جنوب بلادها . وقد لاحظ كاتب هذا المقال بنفسه ان الاسكيمو يشكون من شدة الحر في الاوقات التي ترتفع فيها درجة الحرارة الى ٦٠ درجة فهرنهيت . وكذلك الحال بالنسبة للزنوج ، فان ازدهارهم في منطقة البحر الكاريبي والمناطق الحارة في الاقسام الساحلية الشمالية من امريكا الجنوبية لم يكن من قبيل المصادفة . ومع ان ادخال الزنوج الى هذه المناطق تم في الاصل على يد المزارعين الاسبانيين والبرتغاليين ، فانهم عملوا بنشاط على توسيع نطاق استيطانهم ، وفي بعض المناطق اقصوا الهنود الذين نجوا من الفتح

الاسباني وحلوا محلهم . وفي افريقيا ايضا استوطن المهاجرون الاوروبيون مناطق ملائمة لهم من الناحية المناخية .

لهذه الاسباب يستبعد ان يقوم الاوروبيون الذين اقصوا عن ديارهم في اعقاب الحرب العالمية الثانية بهجرات واسعة النطاق نحو المناطق الاستوائية والمدارية الحارة . وفي سيبريا لا تزال هناك مناطق واسعة غير مستغلة ، وتعتبر هذه اكثر ملاءمة لاستقرار الاوروبيين من المناطق الحارة بسبب وجود بعض الشبه بين مناخها ومناخ بلادهم الاصلية . اما مدى فتح باب الهجرة الى هذه المناطق ، فيعود تقريره الى حكومة الاتحاد السوفييتي . والواقع ان مشكلة التحركات السكانية باسرها لم تعد من القضايا التي يبت فيها الافراد حسب رغباتهم واختيارهم . ويمكن القول ان الاقسام الملائمة لاستيطان الاوروبيين من المناطق التي ما زالت خالية او قليلة السكان اصبحت اليوم محدودة جدا وخاضعة لقيود الحكومات واشرافها . وبعبارة اخرى لم يعد من السهل اللجوء الى هجرات واسعة النطاق لحل المشكلات الناجمة عن الضغط السكاني او الاستياء الديني والاجتماعي او الكسادالاقتصادي.

وفي عالم تمزقه المنازعات وينشر اله الحرب بين شعوبه الهلاك والتشريد والمجاعة ، لا يمكن انكار اثر مثل هذه الويلات في الاوضاع السكانية في المستقبل . ويشكل هذا الموضوع ميدانا واسعا للبحث ، ويجدر بنا ان نشجع علماء البيولوجيا البشرية على استقصائه . فنحن نجتاز حاليا ازمة تنطوي على خطورة بالغة بالنسبة لاوضاعنا المستقبلة ، ومن دواعي الاسف الشديد ان تكون معلوماتنا عن هذا الموضوع ناقصة . وكثيرا ما يؤكد البعض ان للحروب اثرا وراثيا ضارا في الشعوب التي تشترك فيها ، غير اننا في الواقع نفتقر الى البيانات اللازمة لاجراء تقويم دقيق لمدى الضرر الذي تحدثه الحروب في هذه الناحية . ويقول انصار هذا الرأي ان الامة التي تخوض غمار الحرب تفقد صفوة

شبابها ، وبذلك تخسر خيرة من يمكن ان ينجب لها افضل نسل للتعويض عن الذين تفقدهم عن طريق الوفيات ، وبذلك تفسح المجال لعناصر اقل جودة لانجاب نسبة اكبر من مجموع افراد الاجيـال اللاحقة . وهذا الاختلال في التوازن من شأنه ان يضعف مستوى النسل ويزيد امكانات التخلف في القدرة الكامنة في مجموع افراد الامة . ومن المحتمل جدا ، على ما يبدو ، أن تؤدي الحروب الى مثل هذه المضاعفات العملية ، وان كان يصعب اخضاعها لقياس دقيق . ومهما يكن مـن أمر ، فان هنـاك ظروفا مخففة لا يجوز التغاضي عنها حتى لو افترضنا صحة النظرية في مجملها . فنحن لا نملك من الادلة ما يجيز لنا ان نفترض ان الذيـن لا يجندون للحرب او الذين يظلون في منازلهم متخلفون من الناحية الجينية عن الذين يشتركون في القتـال او انهـم لا يستطيعون سد النقص في السكان الا بذرية من مستوى اضعف من المستويات المرغوبة . فتوزيع الجينات في مجموعة سكانية ، حتى في الفئة التي تبدو في الظاهر متخلفة عن الفئات الاخرى ، يتبع نمطا يمكنها من الناحية النظرية مـن انجاب نسل يقترب في مستواه من المستويات المعيارية . أما مدى تحقيق ذلك عمليا فيتوقف على الكارثة التي حلت بالمجموعة السكانية . واقـل ما يمكن ان يقال في هذا الصدد انها لا تفقد كل امكاناتها التعويضية حتى في الحالات التي تخسر فيها نسبة كبـيرة من افرادها . واذا ما سببت الحرب هبوطا في مستويات النسل ، فان المشكلة التي يواجهها المجتمع تتعلق بكيفية اعادة بناء الشعب وتنظيمه من الناحية البيولوجية .

يتضح مما تقدم من الملاحظات ان البيولوجيا البشرية تشكل ميدانا لابحاث ضرورية قد تعـود نتائجها بفوائد كبـيرة على المجتمع . ومن المحتمل ان تمدنا نتائج هذه الابحاث بمعلومات قد ترشدنا الى اصوب السبل لمعالجة المشكلات المتصلة برفاهية السكان ، كما انها تلقي شعاعا هاديا على الحاجات المستقبلة للمجتمع ، وبذلك تسـاعده على اتخـاذ

الاجراءات اللازمة بثقة واطمئنان . ولكن لا بد من الاشارة ، في ختام هذا المقال ، الى ان البرامج البيولوجية المتصلة بالانسان تمثل مشكلة اجتماعية لا يستطيع حلها الا المجتمع .

مفهوم العِـرْق

ولتون ماريون كروجمان

نواجه ، لدى استهلال بحثنا عن مفهوم العِرق ، ثلاثـة احتمالات ممكنة هي : (١) العرق موجـود في المجتمع البشري ، (٢) العرق غـير موجود في المجتمع البشري ، (٣) حتى لو كان العرق موجودا في المجتمع البشري ، فانه لا ينطوي على اية دلالة الا في ضوء الفكرة التي يحملها عنه الناس وكيفية استجابتهم لهـذه الفكرة . وبالنسبة للاحتمال الاول سنستمع الى ما يقوله علماء الانثربولوجيا الطبيعية الذين يعتبرون العرق ظاهرة بيولوجية ويصنفون بني البشر في فئات على اساس معايير وصفية وقياسية معينة . أما بالنسبة للاحتمـال الثاني ، فاننا سنتجه الى فريـق صغير من علماء الوراثة وفريـق آخر أصغر مـن علماء الانثربولوجيا الطبيعية الذين اذا تحدثوا عـن البشرية استعملوا مصطلح « العرق » ضمن علامتي حصر ، كما لو أنهـم بعملهم هـذا يستطيعون الاعتراف بوجود العرق مع انكار ما يمكن ان يتضمنه من دلالات . وأما بالنسبة للاحتمال الثالث ، فاننا سنتجه نحو علماء الانثربولوجيا الاجتماعية الذين يبنون معالجتهم الرئيسية لمشكلة العرق عـلى اعتبارات تتصل بالتفاعل الاجتماعي .

ويعود هذا المصطلح ، بمفهومه الحديث ، الى عهد قريب نسبيا . وقد ذكر ان الكتابات الهيروغليفية كانت تشير الى قدماء المصريين باسم

« روت » وتعني هذه الكلمة الجنس البشري باعتباره كائنا قائما بذاته . وأغلب الظن ان تفسير النقوش المصرية القديمة تأثر بالمصطلحات الحديثة، ولعلـه مـن الافضل ان نترجم الكلمـة الـى « الشعب » . وظهرت كلمة «race» التي تعني اليوم « العرق » لاول مرة في احدى اللغات المتفرعة من اللغة اللاتينية التـي دخلت فرنسا في القرن السادس عشر . ويبدو ان المصطلح ليس مشتقا مـن الكلمة اللاتينية «radix» التـي تعني « جذر » ولا من «reiza» التي تعني « خط » . ومن المحتمل ان لكلمة «race» صلة بالكلمة التشيكية «raz» التي تعني « شريان » او « دم » أو بكلمة «generatio» في اللغة اللاتينية أو «generace» في اللغة الفرنسية . ويبدو ايضا انه يمكن ارجاعها ، بصورة تكاد تكون مباشرة ، الى كلمة «arraca» أو «arraze» التي تعني في لغة الباسك « فحل الخيل » . ونجد في اللغة الاسبانية الجنوبية كلمة «ras» المشتقة من كلمـة « رأس » في اللغة العربية التـي تعني « رأس الجسم » او « الاصل » . ومن كلمة «ras» اشتقت «raza» في اللغة الاسبانية و «raca» في البرتغالية و «raz» في القشتالية القديمـة ، وهذه كلها تعني « رأس » او قطعة . وفي القرن الرابع عشر استعملت كلمة «razza» في الادب الايطالي . وفي عام ١٦٨٤ استعملت عبارة «especes ou races d'homme» في فرنسا للدلالة عـلى العائلـة او سلسلة النسب . وفي عـام ١٧١٦ استعمل ليبنتز (Liebnitz) كلمة «race» كما لو كـانت مرادفة لكلمة «generationes» ، هذا مع العلم أنه في عام ١٦٩٦ استعمل كلمة «race» (التي اصبحت فيما بعـد «Rasse») لاول مرة في تاريـخ اللغة الالمانية . وفي عـام ١٧٧٥ كتب الفيلسوف الالماني كانت (Kant) «von den verschiedenen Racen der Menschen»

ومنذ ذلك والكلمة تستعمل في ألمانيا بدلالتها البيولوجية . وفي الترجمة المعتمدة للتوراة استعيض عن كلمة «race» التي كانت تدل في الاصل على النسل المنحدر من شخص واحد (كقولنا نسل ابراهيم) ، استعيض عنها بكلمة تعني « ذرية » او « جيل » [1] .

ويبدو اذن ان الدلالة المعنوية لكلمة «race» تضمنت منذ البدء فكرة النوع البيولوجي الذي يمكن ان ينتقل من جيل الى آخر . وعلى مر الزمن تطورت فكرة الانحدار والتسلسل التي بدأت على اساس فردي ، فاصبحت تطبق على الجماعات وقرنت بخصائص مشتركة معينة يفترض انه يمكن تقصيها الى سلف أصلي مشترك .

ان المشكلة المتصلة بصحة التصنيفات البشرية تعتمد على مفهومنا عن النوع . والجدير بالذكر أن لنايوس (Linnaeus) ، عالم التاريخ الطبيعي المشهور ، قام بمحاولات لتصنيف الكائنات الحية فقال عن الانسان ان جنسه هو «homo» (الانسان) وأن نوعه هو «sapiens» (العاقل) . ويحتل « النوع » مكانا معينا في أدنى سلم النظام الهرمي الذي وضعه لنايوس للفئات المختلفة . أما مفهوم النوع عند لنايوس (١٥٧٨) ، فتوضحه العبارة اللاتينية التالية : ـ

«species tot sunt quot diversas formas ab initio produxit infinitum Ens.»*

وهكذا يمكن القول ان مفهوم النوع عند لنايوس كان شكليا وثابتا نسبيا . ولم يستعمل لنايوس مصطلح « الضرب » او « النوع الفرعي » الا في حالات نادرة وبدلالة يكتنفها شيء من الغموض والشك . ومن المهم اذن ان ندرك ان التصنيف الاصلي لبني البشر لم يتعد تمييز البشر

---

(١) E. Oberhummer, «Die Herkunft des Wortes Rasse», Zeitschrift für Rassenkunde, I (1935), 92-93; J.S. Huxley and A.D. Haddon, «We Europeans» (New York, 1936).

* تساوي الانواع في عددها الاشكال المختلفة التي ابتدعها الواحد اللانهائي منذ البداية (المترجم) .

بمجموعهم عن غيرهم من الكائنات الحية . وعلى الرغم من أنه ظهرت تكهنات أولية عن بعض التقسيمات الفرعية ، فانه من المؤكد انه لم يفترض في الاصل وجود فئة معينة دون مستوى النوع . وهكذا نرى ان في نظريات لنايوس ما يدعم موقف بعض المصنفين الانثربولوجيين الذين يصرون على أن هناك جنسا واحدا فقط هو الجنس البشري .

أما المبادىء التطورية فقد اتجهت الى التركيز على الفئات النوعية الدنيا . فكنسي (Kinsey) ، مثلا ، يعرف النوع بقوله :

« انه الوحدة التي لا نجد دونها في الطبيعة تقسيمات فرعية تستطيع المحافظة على نفسها لاية مدة وفي اية منطقة جغرافية كبيرة نسبيا . ويطلق علماء التصنيف على هذه الوحدة اسماء مختلفة كالنوع والنوع الفرعي والضرب والعرق والجنس الجغرافي . وبعبارة اخرى انه الوحدة التي تتصل مباشرة بمسألة اصل الانواع »[٢] .

وتحدى كل من جولدشمدت (Goldschmidt) وماير (Mayr) هذا التعريف ، الاول على اساس ان النوع لا يمثل الوحدة الدنيا « التي تتصل مباشرة بمسألة اصل الانواع »[٣] ، والثاني بالاشارة الى الزعم القائل بان النوع هو « الوحدة التي لا نجد دونها في الطبيعة تقسيمات فرعية . »[٤] ويردف ماير قائلا :

« ان أهمية النوع باعتباره كيانا قائما بذاته قد تناقصت في علم التصنيف الحديث ، نظرا لان معظم الابحاث الفعلية تجرى على التقسيمات الفرعية للانواع كالانواع الفرعية والمجموعات السكانية ...

---

(٢) A.C.Kinsey, «Supra-specific Variations in Nature and in Classification: from the Viewpoint of Zoology», American Naturalist, LXXI (1937), 206-22.

(٣) R. Goldschmidt, «Cynips and Lymantria», American Naturalist, LXXI (1937), 508-14.

(٤) F. Mayr, «Systematics and the Origin of Species» (New York, 1942).

والواقع ان المجموعة السكانية اصبحت الوحدة التصنيفية الاساسية . اما تعريف النوع القائم كليا على اسس شكلية ، فقد استعيض عنه بتعريف بيولوجي يأخذ بعين الاعتبار عوامل مختلفة كالعوامل البيئية والجغرافية والوراثية » .

ويستعمل ماير « الجنس الجغرافي » كما لو كان الفئة النوعية الدنيا الوحيدة ، ويعادله مع مصطلح « النوع الفرعي » . أما كنسي فيبدو انه يعادله مع مصطلح « النوع » .

ويبدو ان علماء الحيوان يواجهون ، في تحديد مفهوم النوع ، ذات الصعوبة التي يواجهها علماء الانثربولوجيا في المحاولات التي يبذلونها لتحديد مفهوم العرق او الجنس البشري . فالعالم لوتسي ، مثلا ، اعتمد تفسيرا تكوينيا وقال : « النوع هو مجموعة من الافراد المتماثلين من الناحية التكوينية »[٥] . ويستند كثيرون في تفسيرهم الى ظاهرة الاخصاب فيقولون : « تنتمي جميع الاشكال الى نوع واحد اذا كانت قادرة على انتاج نسل هجين خصب »[٦] . أما دوبزهانسكي فيقدم تفسيرا يقوم على اعتبارات بيولوجية دينامية ، فهو يقول : « النوع هو تلك المرحلة من العملية التطورية التي تنقسم فيها مجموعة من الاشكال التي كانت تمتلك قدرة فعلية أو كامنة على التهجين ، الى مجموعتين او أكثر من المجموعات المنفصلة التي تعجز من الناحية الفسيولوجية عن التهجين او التناسل الداخلي »[٧] . ويلاحظ ماير ، في معرض الرد على دوبزهانسكي ، ان « النوع ليس مرحلة في عملية ، وانما نتيجة عملية »

---

(٥) J.P. Lotsy, «Qu'est-ce qu'une espèce», «Archives Néerlandaises des Sciences Exactes», Ser. 3B, III (1918), 57-110.

(٦) غير ان زكرمان بلغ عن ٩ حالات من التسافد بين اجناس الرئيسات في حديقة الحيوان في لندن ، وعن ٨ حالات من التسافد بين انواع القردة . وهكذا نرى اننا بحاجة الى اعادة تصنيف اجناس الرئيسات وانواعها ، قبل ان نتمكن من اعتماد التفسير القائم على الاخصاب .

(٧) T. Dobzhansky, «What Is a Species», Scientia, 1937, pp. 280-86.

ويعرف الانواع بقوله « انها فئات من المجموعات السكانية الطبيعية التي تملك قدرة فعلية او كامنة على التناسل الداخلي ، وتكون في الوقت نفسه منعزلة تناسليا عن الفئات الاخرى . اما داهلبرج (Dahlberg) فيعرف الانواع كما يلي :

« الانواع هي اصغر الوحدات التي تفصل بينها خطوط واضحة المعالم . وقد نجد داخل الانواع فئات اصغر لا تفصل بينها مثل هذه الخطوط المحددة الواضحة . وقد نسمي هذه الوحدات اجناسا بشرية او فئات جغرافية حين تكون موجودة في الطبيعة ، وعروقا او سلالات او انسالا نقية حين تكون من صنع الانسان »[٨] .

وتكمن اهمية الاشارات السابقة ـ عدا عن كونها سجلا لظلال الشك التي تكتنف عمليات التصنيف ـ في الحقيقة التالية : اذا كان النوع يمثل لبنة رئيسية في أي بناء او مخطط تصنيفي ، فان هناك احتمالا قويا جدا بان تستعمل لبنات اصغر (اذا جاز لنا استعمال ذات التشبيه) في تشييد صرح يقوم على اعتبارات عرقية او عنصرية . ويتضح مما تقدم ان محاولات التعريف تتعثر في المجالات التي تقع دون مستوى النوع ، وان التمادي في الملاحقة امر مشكوك في سلامته ، وان قابلية انتقال الصفات المميزة تتباين من حالة لاخرى . وبعبارة اخرى ، ان تصنيف الانسان العاقل (Homo sapiens) الى فئات فرعية يمثل مغامرة محفوفة بالمخاطر[٩] ، وان المخاطر تشتد حين نقدم على تجزئة

---

(٨) G. Dahlberg, «Race, Reason and Rubbish» (New York, 1942), p. 195.

(٩) قال بلومنباخ (Blumenbach) في عام ١٧٧٥ : « لا ريب في ان اصناف البشر المختلفة التي اعتمدها كتاب مشهورون اعتباطية من حيث العدد والتعريف » . وفي عام ١٧٩٥ أضاف قائلا : « ما من صنف بشري ينفرد في اللون او الملامح او القامة الخ الى درجة يتعذر معها ايجاد صلة بينه وبين اصناف اخرى من النوع نفسه . ومن الواضح جدا ان الاصناف البشرية يرتبط بعضها بالبعض الآخر وانها لا تختلف الا في الدرجة » . انظر :

«On the Natural Variety of Mankind», trans. and ed. by T. Bendyshe (London, 1865).

النوع الى عروق وسلالات ، وربما ايضا الى عروق فرعية و (أو) عروق مختلطة او ثانوية .

وما من شيء ايسر علينا من أن نقول ان البشر يشكلون جنسا واحدا او نوعا واحدا ، وان جميع الناس يتشابهون في صفاتهم المورفولوجية . وهذا القول صحيح ، فالبشر يلتقون في جميع التفصيلات الجسمية الرئيسية والمهمة ــ في الدماغ ، والجهاز العصبي المحيطي ، والدم والاوعية الدموية ، وجميع الاحشاء ، والعضلات ، حتى في التفصيلات الخاصة بالتصميم الهيكلي . وهذا يعني في الواقع اننا نلتقي في النمط التكويني الاساسي . فهناك مجموعة كبيرة من الانماط الجسمية المورثة التي ترتبط بصلات بشرية قبل ارتباطها بصلات عرقية ، والتي ترتبط ايضا بصلات عرقية قبل ارتباطها بصلات سلالية . وقد نذهب الى مدى ابعد من ذلك فنقول ان الناس جميعا يتشابهون في ٩٩ ٤٤/١٠٠ في المائة من مجموع الخصائص الجسمية الاساسية وانهم لا يختلفون الا في ٥٦/١٠٠ في المائة من هذه الخصائص[١٠] . ومن الواضح ان عبارة كهذه يقصد بها احداث اثر خطابي اكثر مما يقصد بها بيان علاقات نسبية دقيقة . فمعلوماتنا في علم الوراثة تزداد يوما بعد يوم ، وقد نكون اقرب الى الصواب اذا قلنا ان نسبة المشابه تبلغ ٩٠ في المائة مقابل ١٠ في المائة للفوارق . ولكن حتى هذه العلاقة النسبية لا تغير الموقف ، وهو ان أوجه الشبه تطغي كثيرا على اوجه الاختلاف .

ومما لا يرقى اليه الشك ان هناك اساسا تكوينيا تقوم عليه جميع

(١٠) تذكرنا هذه العبارة بالابيات التالية لشكسبير :

Strange it is that our bloods
Of color, weight, and heat, poured all together,
Would quite confound distinction, yet stand off
In differences so mighty.
— «All's Well that Ends Well, II, 3.»

الخصائص الجسمية البشرية ، وبالتالي جميع السمات التي يفترض فيها ان تساعدنا على تشخيص الفوارق العرقية والسلالية وتقويمها . وقال دوبزهانسكي في هذا الصدد : « ان الوحدات الاساسية الكامنة وراء التباين العرقي هي المجموعات السكانية والجينات ، وليس المجموعات المعقدة من الصفات التي تدل ، بحسب المفهومات الدارجة ، على وجود تمييز عنصري »(١١) . أما داهلبرج فيلاحظ ما يلي :

« اذا اردنا اجراء تحليل كامل لمجموعتين سكانيتين من وجهة النظر الوراثية ، وجب علينا ان نميز الاوضاع التي تكون فيها جينات معينة موجودة في مجموعة ومفقودة في الاخرى ، عن الاوضاع التي لا تكون الفوارق اساسية وانما تقتصر على كون بعض الجينات اكثر شيوعا في مجموعة منها في الاخرى »(١٢) .

وتؤكد النظرية التكوينية الحديثة ان ظاهرة التتابع لا تنطبق على التطور فحسب ، وانما ايضا على عملية التشعب الى انواع اصلية وفرعية. فهناك عملية عامة تتضمن تغير الجين الواحد بمفرده ، وتجدد طريقة اتحاد المركبات الجينية ، ودخول تعديلات على نظام تكرر الجينات ، وقد جرت عملية توال او تدرج ، وهي تمثل التتابع التطوري(١٣) . وتجري ايضا عملية تنوع وتباين ، وهي تمثل ظهور العروق والسلالات . والجينات ، أو بالحري مجموعات الجينات ، اساسية في كل من العمليتين .

أما عمل الجهاز الجيني فهو تحديد البناء الوراثي لأية مجموعة

---

(١١) «Genetics and the Origin of Species», 2d. ed. rev. (New York, 1941) p. 78.

(١٢) «Race, Reason and Rubbish».

(١٣) اجرى Weidenreich تحليلا نقادا للاحافير البشرية في كتابه (The Skull of Sinanthropus pekinensis, Lancaster Press, 1944) وفيه تجاوز ببراعة مشكلة الترتيب التكويني الهرمي ، وذلك حين استعمل المصطلح «Sinanthropus pekinensis» كما لو كان « اسما بدون اية دلالة جنسية او نوعية » .

سكانية معينة بطرق متعددة . فالطفرات تؤدي الى ظهور خاصة جديدة كليا . ولكن سرعة حدوث الطفرات عند الانسان ابطأ مـن أن تشكل عاملا هاما ، ولا سيما حين تعمل لوحدها أو لمدة قصيرة نسبيا . ويعتبر الانتقاء عاملا هاما نظرا لأنه قد يحدث اثرا قويا وسريعا جدا ، وبخاصة اذا تناول صفات مشتركة نسبيا . والتزاوج بين عائلات متقاربة لا يؤثر كثيرا الا في الخصائص النادرة نسبيا . ولكن لما كانت هذه الخصائص قليلة الاهمية نسبيا ، فان العملية لا تنطوي على اهمية كبيرة(١٤) . أمـا التزاوج بين فئات متنوعة فيمكن ان يكـون عاملا هاما ، لا سيما حين ينجذب الشخص الى شبيهه ، كما هي الحال في الانتقاء الاجتماعي الذي نجده بـين الزنوج الامريكيين . واما الانعزال ، أو « أثر العزلة » كما يسميه داهلبرج ، فهو عامل قوي جدا ، ولكنه ينزع اليوم الى التلاشي بسرعة . ويمكن القول ان جميـع اشكال التزاوج التي تقدم ذكرها ، باستثناء الطفرات ، تعمل في النهاية على زيادة التجانس بين الامشاج وعلى انقاص امكانات التباين بينها . فالعملية ، في هذه الحالات ، لا تنطوي على تغير الجينات ، وانما على اعادة توزيعها او خلطها . ومهما يكن مـن أمر ، فانه يصعب تمييز الاثر النهائي في المراحل الاولى من العملية .

وتكمن فائدة البيانات السابقة في أنها تلقي ضوءا على المشكلـة المتصلـة بشدة القابلية للتغير التـي يتميز بهـا « الانسان العـاقل » (Homo Sapiens) . ففي الاوضاع الطبيعية نلاحظ ان مدى التباين في مجموعة سكانية تسكن منطقة واحدة صغير نسبيا . وحين ننتقل من منطقة الى اخرى ، نلاحظ فوارق بين المجموعات السكانية التي سبق ان اصطلحنا عـلى تسميتها بالسلالات او العروق او الانـواع الفرعيـة الجغرافية . وقد تتداخل هذه المجموعات في حالة وجود اتصالات بينها ،

(١٤) من الامثلة على ذلك « عظمة انكا » التي سميت بهذا الاسم بسبب انتشار هذه العظمة بين قبائل الانكا القديمة .

وقد تكون متمايزة بسبب انعزال بعضها عن البعض الآخر . ومن الممكن للانواع الفرعية المختلفة ان تتداخل في بعض المجالات ، حتى في الحالات التي يكــون فيها الاختلاف ملحوظا . والجديــر بالذكر ان الانسان ، بسبب نزعته الى الهجرة والتنقل ، سار شوطا ابعد من معظم الحيوانات البرية في التنوع الجسمي لانماطه المحلية ، دون ان يؤدي ذلك الى حالات من العقم المتبادل . فالتسافد بين البشر ادى الى تنوع شديد بفضل تعدد الطرق التي تتحد بها الجينات . وهذا يعنــي ، في الواقع ، انهيــار اثر العوامل العازلة ، وبالتالي صعوبة وضع نظــام صارم لتصنيف البشر . ولنضرب الآن امثلة مستمدة من الحيوانات البائــدة المتحجرة . يذكر سمبســون (Simpson) [١٥] ان الهنريكوسبورنيــا لوفودونتــــا (Henricosbornia lophodonta) صنفت في البدء الى ٣ عائــلات و ٧ اجناس و ١٧ نوعا . ولدى اعادة دراسة الموضــوع واثبات مدى جديد لقابلية التغير ، تبين انه يمكن تصنيفها جميعا في نــوع واحد . واجرى جريجوري (Gregory) دراسة عــلى سلسلة مــن المستحاثات الحفرية لجماجم الكركدن التــي تعــود الى عصر الاوليجوسين في كولورادو ، واختارها كلها من محجر واحد في منطقة معينة ، فلم يجد شبها تاما بــين اي جمجمتين منها ، حتى في الحالات التي تساوت فيها الاعمار والاحجام والاجناس . ولكنه عندما تحرى توزيع السمات في الجمجمة والاسنان ، تبين له أن المنحنيات تتبع نسقا واحدا ، وكان هذا ، في رأيه ، دليلا على انه يمكن تصنيفها في « نوع واحد قابل للتغير »[١٦] .

---

(١٥) G.G. Simpson, «Supra-specific Variation in Nature and in Classification: from the Viewpoint of Paleontology», «American Naturalist», LXXI (1937), 236-67.

(١٦) W.K. Gregory, «Supra-specific Variation in Nature and in Classification: a Few Examples from Mammalian Paleontology,» «American Naturalist», LXXI (1937), 268-76.

وبات من المؤكد اننا لا نستطيع بعد اليوم اعتبار اي تصنيف كما لو انــه تصنيف ثابت قطعــي لا يخضع الى اي تغيير او تبديــل . فماريت (Marett) ، مثلا ، يعرف العرق على أنه « نتاج مستقر مؤقتا لسلف مختلط ، لا يخضع في الوقت الحاضر للتزاوج بــين سلالات متقاربة ولا لعمليات الانتقاء الشديد »(١٧) . ويقدم اشلي مونتاجو (Ashley Montagu) تعريفا مماثلا ، فيقول : « ما العرق الا مجرد تعبير عن التغيرات الوراثية داخل منطقة بيئية معينة » . ويقول ايضا : « لا تمثل الاصنــاف العرقية الا انواعا مختلفة من الاختلاط المؤقت بين العناصر الوراثية المشتركة بين جميع البشر »(١٨) .

ويمكن تلخيص مشكلة الوراثة على النحو التالي : من المعروف ان هناك اســاسا وراثيا وجينيا لاي من السمات التــي قد نعتمدها في اي تصنيف نجريه للمجموعات البشرية ، بالغا ما بلغ مستوى هذا التصنيف . ولكن هل نعرف عــن الجوانب الوراثية والتكوينية للانسان ما يكفــي ليمكننا من تصنيف اجناس البشر واصنافهم العرقية على اساس وراثي وجيني ؟ . وقد يبدو اننا ندور في حلقة مفرغة ، ولكن الواقع هو اننــا ، على الرغم من ادراكنا لاهمية الجوانب الوراثية ، لا نعرف عن وضعها وعملها في « الانسان العاقل » (هو مو سابينس) ما يكفي لاصدار احكام قطعية باتة . فنحن نعرف ، مثلا ، ان السمات الوراثية التي يقــدم عليها تصنيف نوعين متقاربين هي ، كقاعدة عامة ، اكثر عددا مــن تلك التي تفصل بين عرقين داخل اي من النوعين . ولكن ذلك لا يعني ان الفوارق بين السمات المميزة للنوعين مساوية للفوارق التــي تفصل بــين العرقين

(١٧) J.R. de la H. Marett, «Race, Sex and Environment». (London, 1936).

(١٨) M.F. Ashley Montagu, «Man's Most Dangerous Myth : The Fallacy of Race» (New York, 1942).

او اكثر منها . ومن المحتمل ، كما يبدو ، ان يكون النوعان اقل تباعدا من العرقين اللذين ينتظمان داخل احد النوعين . وقد يعـود ذلك جزئيا الى ان الفوارق النوعيـة اكثر تعميما واقـل تخصيصا مـن الفوارق العرقية . ولذا يتوجب علينا ، عنـد تشكيل الفئات ، ان نكـون مهيئين لمواجهة احتمال التباين في درجة التنوع والانفصال . ويصدق هذا القول على مجموعات السمات المترابطة مثلما يصدق علـى السمات الفردية ، وربما كان انطباقه في الحالة الاولى اشد منه في الحالة الثانيـة . وكلما تحددت الخصائص التي نستعملها في تعريف فئة من الكائنات البشرية وقل تجانسها ، ضعف احتمال افتراض النقاوة من الوجهة الوراثية .

ومن الممكن ان نعتمد الطريقتين التاليتين في المحاولات التي نبذلها لتعريف الجانب الوراثي للمجموعات البشرية : (١) عن طريـق الصفات التي تظهرها هذه المجموعات ، و (٢) عن طريـق الجينات التي تحويها . والواقع ان جهودنا في هذا السبيل اقتصرت حتى الآن عـلى استخدام الطريقة الاولى التي تنطوي عـلى نقائص واضحة نخص بالذكر منها : أولا ، ان الصفات المتشابهة قد تكون من فعل جينات تختلف فيما بينها اختلافا كبيرا ، وثانيا ، قد يؤدي ذات الجين ، عند اتحاده بجينات اخرى، الى صفات متباعدة جدا . وثالثا وأخيرا ، ان اية صفة معينة قد تكـون عرضة للتعديل من حيث شدة انعكاسها ، نظرا لانها تنتج من التفاعل بين البنية الداخلية والبيئة الخارجية . ومهما يكن مـن أمر ، فان تحليـل وملاحظة الصفات البادية للعيان يجب ان يستند ، في الاساس ، الى تقويم للاساس الوراثي والجيني . غير ان الصعوبة تكمن في اننا لا نستطيـع في الواقع التوصل الى تقدير تفصيلي دقيق لهذا الاساس . ولننظر الآن الى الآثـار المورفولوجية للاختلاط العرقي ، اي لنتبع الطريقـة الحالية الواضحة التي يستخدمها علماء الانثربولوجيا الطبيعية في تقويـم عامل

الوراثة عند البشر .

من المفروض ، عند التحدث عن الاختلاط العرقي ، ان السمات التي « تبرز » أو تظل بارزة في هجين هي « الغالبة » . فمثلا ، اذا جرى تسافد بين شخص رأسه طويل وشخص رأسه قصير او عريض ، فان هناك ميلا لان يتغلب القصر او العرض على الطول . ويصدق القول نفسه ، بالنسبة لرجحان الانف العريض المنبسط على الانف الدقيق الطويل ، والشفاه الغليظة على الشفاه الرقيقة ، واللون الغامق على اللون الفاتح ، وهلم جرا . ولنفترض الآن ان هناك جينا لطول الرأس ، وآخر لقصره ، وثالثا لعرضه ، وبذلك نحصل على ما يسمى « الحالة الجينية » او البنية الجينية . ولكن معلوماتنا الحالية لا تكفي لتبرير مثل هذا الافتراض بالنسبة للاحوال الجينيــة . فنحن لا نعرف الا « الحالة الظاهرية » أو المظهر الجسمي . وبعبارة اخرى ، ان ما نعرفه هو النتيجة النهائية كما تبدو لنا ، وليس كما هي في الواقع من الناحية الجينية . هذا وان معلوماتنا المحدودة عن هذا الموضوع تنطوي على مضاعفات اخرى اعمق اثرا من السابقة . فنحن ، عند قيامنا بتصنيف البشر ، لا نشاهد الا النتيجة النهائية لاثر عدد محدود من ازواج الجينات قد لا يتجاوز ١٢ زوجا ، في حين يبلغ عدد ازواج الجينات في الواقع الآلاف . ونحن لا نبني تشخيصنا السلالي والعرقي الا على هذا العدد المحدود من الانعكاسات التي نراها في الواقع في الرأس والعينين والشعر والانف والشفتين وما شاكل ذلك من المظاهر الخارجية . أما العوامل الجينية الاخرى فلا نعرف عنها كثيرا ، ومن المحتمل ان تكون ثابتة بالنسبة لجميع الفئات البشرية .

وتزودنا فئات الدم البشري بمثال ممتاز يوضح كيفية انتقال العوامل الجينية . ففي فئة A ـ B يتخذ اتحاد الجينات الشكل التالي :

اتحاد الجينات	فئة دم
I^AI^B	AB
I^AI^A or I^Ai	A
I^BI^B or I^Bi	B
ii	O

أما في فئة M-N فتظهر تشكيلة الجينات على النحو التالي :

اتحاد الجينات	فئة الدم
A^mA^m	MM
A^mA^n	MN
A^nA^n	NN

ومن المهم الحصول على معلومات دقيقة عن النمط الجيني من الناحية البيولوجية ، لان هناك اسبابا وجيهة تحملنا على الافتراض بان جميع الكائنات البشرية تتشابه في هذا المجال . فوراثة فئات الدم تنطبق على جميع السلالات والعروق ، وهذا يعني ان جميع فئات الدم توجد لدى جميع الشعوب ، ولكن في مجموعات متباينة النسب . والفرق في فئات الدم هو ، في ذاته ، مجرد تفاوت نسبي يتمثل في رجحان AB أو A أو B أو O ، في المجموعات السكانية المختلفة .

ويتوقع من عالم الانثربولوجيا الطبيعية ان يكون أول من يعترف بان الخصائص الجسمية المميزة للمجموعات البشرية ترجع الى اصول جينية وان يقر النتيجة التي انتهى اليها هكسلي ، وهي : « لا نستطيع بعد اليوم التفكير في سلف مشترك او عنصر اصلي واحد واعتباره من العلامات الاساسية المميزة للعرق »(١٩) . وأغلب الظن انه سيميل الى

(١٩) J. Huxley, «Evolution : the Modern Synthesis» (New York, 1942).

الافتراض ان المجموعة السكانية الاصلية من نوع « الانسان العاقل » ، اي المجموعة التـي تطورت منها الاصناف العرقية الحديثـة ، كـانت متجانسة ، وان الفئات الجينية المختلفة نشأت عن طريق الطفرات والانعزال والانتقاء واعـادة نمط ائتلاف الجينات . وعلى الرغم مـن القول بان الجماعة السكانية الاصلية ربما كـانت متجانسة نسبيا ، فاننا لا نجـد سببا يمنعنا من الافتراض بان هـذه الجماعة كانت تملك قابليـة فطرية للتغير وان بعض المركبات الجينية ربما نشأت بصورة عفوية او عشوائية .

وليس من العسير علينا ، في الواقع ، ان تتصور المفهوم الجيني . لنفترض ، مثلا ، ان الاختضاب يتراوح بين الغامق والفاتح ، وان شكل الرأس يتراوح بين الطول والقصر او بين الطول والعرض ، وان الشعر يتراوح بين الاستقامة وشدة التجعد ، وهلم جرا . فما الذي يمنـع في هذه الحالة من تجمع عناصر مختلفـة ، كاختضاب الجلد وطول الرأس وشدة التجعد ، لتمهد لظهور نوع شبيه بالنوع الزنجي ، وذلك بمجرد حدوث تغير وائتلاف عفويين مضافا اليهما اشتداد الاثر الناتج من التزاوج بين اعضاء السلالة الواحـدة ؟ والعملية الجينية نفسها منطقيـة وقابلة للفهم ، ونحن نعلم انها جرت فعلا في الماضي ، ولكننا لا نعلم الخطوات المتدرجة التي مرت بها . وموقفنا منها اشبه ما يكون بموقفنا حين ننظر الى حوالة قيمتها دولار واحـد . فنحن نعرف انها تمثل ١٠٠ بني او ٢٠ نكلة او ١٠ ديمات او ٤ أرباع دولار او نصفي دولار (أو اية مجموعة اخرى من هذه الاجزاء) ، ولكـن ليس لدينا الا ورقة نقدية مـن فئة الدولار ، ولذا نفترض ما يمكن ان تتضمنه هذه الورقة من اجزاء نقدية كسرية . وكذلك الامر بالنسبة للزنوج ، فاننا نقـول ان انوفهم عريضة

لاننا نستطيع ان نلاحظ انبساط الانف عندهم ، وفي هذه الحالة نفترض ان هناك جينا لهذه الخاصة التي تناقلتها الاجيال . ونستطيع ان نذهب الى مدى ابعد من ذلك فنقول : عندما يتسافد شخص مستدق الانف مع شخص منبسط الانف ، فان خاصة الثاني قد تبدو « غالبة » . هل هناك اذا مبرر كاف يجيز لنا ان نستنتج ان الغلبة تكون عادة الى جانب الجين او المركب الجيني الخاص بانبساط الانف ؟ اغلب الظن اننا محقون في هذا الاستنتاج .

ومما يزيد من تعقيد الاتجاه الى معالجة العرق على اساس الجين ان القابلية الفطرية للتغير تأثرت تأثرا شديدا بتعدد حالات الاختلاط التي بلغت مدى لا يكاد يصدق . ويشير داهلبرج[٢٠] في هذا الصدد ان الارتباط المتبادل بين جينين يضعف بمقدار ٥٠ في المائة في كل جيل تكثر فيه حوادث التزاوج الحر . ويذكر سنايدر[٢١] (Snyder) ان أمون (Ammon) اورد المثال التالي : لنفترض ان جماعة سكانية تتألف من عرقين « أ » و « ب » نسبة كل منهما الى مجموع السكان تساوي ١/٣ و ٢/٣ على التوالي ، وان التزاوج بين العرقين حر ولا يخضع لاي قيود . بعد مرور « ن » من الاجيال يصبح عدد الافراد النقيين ٢/٣ ٢ن من فئة « أ » و ١/٣ من فئة « ب » . وفي الجيل الرابع يصبح عدد الافراد المختلطين ٩٦ في المائة من مجموع السكان ، وفي الجيل الخامس ترتفع نسبة الاختلاط الى مائة في المائة . واذا استمر الاختلاط الحر لمدة لا تتجاوز ٣٠٠ عام ، فانه لن نجد فردا « نقي » العرق في اي من الفئتين « أ » و « ب » .

---

(٢٠) «Race, Reason and Rubbish».

(٢١) L.L. Snyder, «Race: a History of Modern Ethnic Theories» (New York, 1939).

يتبين من كل ما تقدم من ابحـاث عن المفهوم الجيني للعرق انـه لا توجد جماعات بشرية نقية مهما كانت الفئة التي تنتمي اليهـا ، اي انه لا توجد جماعة بشرية يتماثل افرادها تماثلا تاما في خصائصهم الجينية . وهذا يقودنا الى استنتاج آخر ، وهو أن اي نظام نضعه للتصنيف على اساس الاشكال الظاهرية يكون ناقص التحديد كما انه لا ينطبق تماما على الواقع الجيني . فالقابلية للتغير الجيني هي القاعدة ، ولذا لا معدى عن أن نقر مبدأ التداخل بين الانواع . وقد يبدو هذا الحكم اعتباطيا ، ولكنه في الحقيقة اثبات لقولنا السابق وهو اننا نقوم بمحاولات لتصنيف البشر على اساس الشكل الظاهري دون ان نتحقق من صحة هذا التصنيف في ضوء الاعتبارات الجينية . واذا عدنا الى التشبيه بالنقد ، تبين لنا ان للورقة النقدية من فئة الدولار قوة شرائية حتى لو لم يبرز لنا الوضع الفعلي بالنسبة للعملة النقدية المعدنية . فالعملة النقدية المعدنية هي بمثابة « ظهير » للنقد الورقي ، ونحن نعرفها ونقرها . وكذلك الحـال بالنسبة للجينات ، فهي « ظهير » الفئات السلالية والعرقيـة . وكلما تقـدم علم الجينات ازداد عدد ما نعرفه من الجينات بحيث تعد ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ وهلم جرا حتى المائة ، وبذلـك تنمو قدرتنا عـلى تفسير الاشكال العرقيـة الظاهرية في ضوء الاعتبارات الجينية .

وبامكاننا ان نقول هنا اننا نجد بـين البشر فئات رئيسية واخرى فرعية تفصل بينها بدرجات متفاوتة خصائص جسمية مميزة تستند الـى اسس جينية . وقد اكد اشلي مونتاجو هذا الرأي عـلى النحو التالي : « يمكن القـول ، مـن وجهة النظر البيولوجية ، ان الاصناف العرقية موجودة عند البشر . ويعني ذلـك ان البشرية تتألف من فئات عديـدة كثيرا ما يكون التمايز الجسمي بينها كافيا لتبرير تصنيفها الى فئات عرقية

منفصلة »[٢٢] . وهناك اتفـاق اسـاسي بين جميـع علماء الانثربولوجيا الطبيعية حول هذه النقطة ، فهم لا يختلفون الا في تفاصيل التصنيف وفي مفهومهم عن مدى صرامته و (أو) نهائيته .

أما الخصائص الجسمية التي نستعملها في تصنيف البشر الى فئات عرقية فهي كثيرة ومتنوعة . ويمكن القول ، على افضل تقدير ، انها شديدة التغير ، ولا تمثل الا صفات ثانوية لا تكاد تنطوي على اية اهمية مـن الناحية البيولوجية (يجوز لنا ان نستثني من هذا الحكم اللون الاسود الواقي او اختضاب الجلد الذي يمتاز به سكان المناطق الحارة) . ففرص البقاء على قيد الحياة التي تتيحها لنا الطبيعة بوجه عـام لا تتوقف على طول الرأس او قصره ، ولا على ضيق الانف او انبساطه . والعامل الذي يلعب دور الحكم في تثبيت التصنيفات العرقية هو المجتمع وليس الطبيعة. فنحن ، عند اجراء التصنيف ، نستعمل معايير مختلفة كشكل الرأس ، كأن يكون طويلا او قصيرا او عريضا ، أو لون الجلد ، كأن يكون ابيض او اسود او اصفر او بنيا ، او شكل الشعر ، كأن يكون أملس او مستقيما او متموجا او متجعدا او صوفيا ، او شكل الانف ، كأن يكون عريضا او ضيقا او معتدلا ، او تكون قصبته منخفضة او معتدلة العلو أو عالية ، أو شكل الوجه ، كأن يكون ضيقا أو معتدلا أو عريضا ، أو القامة كأن تكون طويلة أو طويلة جدا أو قصـيرة أو نغاشية أو معتدلة ، أو لـون العين ، كأن يتراوح لون القزحية من الفاتح الى الغامق . ومن الممكن ان نطيل هذه القائمة ، ولكن ذلك لن يضيف شيئا الى قولنا السابق ، وهو ان هناك خصائص جسمية متغيرة من شأن مركباتها او مجموعاتها ان تميز الفئات البشرية بعضها عن البعض الآخر . فكل سمـة مفردة قابلة للتغير

(٢٢) «Man's Most Dangerous Myth».

الشديد حتى ان مداها قد يتناول جميع الفئات . وكل جماعة تكون قابلة للتغير الشديد حتى ان افرادها قد يجدون من يمثلهم في جماعة مجاورة . وهكذا يمكن القول ان في كل فئة فرعيــة تدرج داخلي او خط متصل الاجزاء يشير الى وجود وحدة تقــوم على اساس تكويني بيولوجي . وسبق ان اشرنا الى هذه النقطة حين قلنا ان هنــاك جينات تربط بــين البشر على صعيد اعلى من الجينات التي تربط بين السلالات والاصناف العرقية .

ذكرنا ان هنــاك شعورا ثابتا بان النــوع هو الوحدة التصنيفية الاساسية ، وأن الانواع الفرعية (بما في ذلك الاصناف العرقية الجغرافية والعناصر والمجموعات السكانية) تعتمد على اساس تصنيفي فيه شيء من الصحة . واذا نقلنا هذه الفكرة الى صعيد البشر ، وجدنا اننا قد اثبتنا من حيث المبدأ العناصر البشرية على مستوى الانواع الفرعية ، والاصناف العرقية الفرعية ضمن العناصر وعلى مستوى الانواع الفرعية الثانوية . وهكذا يمكن أن نضع اساسا للتصنيف عــلى النحو التالي : الجنس ــ الانسان ، النوع ــ العــاقل (سابينس) ، العنصر ــ أ ، العرق ــ أ ١. واذا تمادينا في مراعاة هذه المبادىء التصنيفية وطبقناها بصرامة شديدة ، فان التحديد يقل وضوحا كلما ابتعدنا عن النوع ، أي ان تحديد النوع يكون جيدا ، وتحديد العنصر يكون مقبــولا ، وتحديد العرق يكون ناقصا . فكل فئة فرعية يجب ان تتضمن السمات العامــة للفئة الرئيسية التي تعلوها في جدول التصنيف ، مضافا اليها بعض السمات الخاصة بها التي تبرر تمييزها واعتبارها فئة فرعية منفصلة . ولما كانت قابلية التغير في النظام الجيني هامة جدا ، فان التمادي في التحديد والتضييق يجعــل عملية التصنيف مصطنعة . صحيح انــه كلما كانت الفئــة أكبر أو أكثر شمولا ، اتسع المدى الاجمالي للتغير . غير انه ، مــن جهة أخرى ، كلما

صغرت الفئة ، ازداد احتمال التداخل في مدى التغير ، وذلك على الرغم من انحصاره ضمن حدود ضيقة . ولعله من المفيد ان نوضح هذه النقطة بمثال ملموس . لنفترض ان هناك فئتين « أ » و « ب » ، وان مدى الفئة الاولى « أ » هو أ١ ، أ٢ ، أ٣ وهلم جرا حتى أ ن ، وان مدى الثانية « ب » هو ب١ ، ب٢ ، ب٣ وهلم جرا حتى ب ن . وعلى الرغم من أن مدى كل من الفئتين أ١ الى أن و ب١ الى ب ن كبير ، فان احتمال تداخلهما مستبعد . ومع ان المدى بين أ١ الى أن و ب١ الى ب ن اضيق من المدى السابق ، فان احتمال التداخل بين هذه الفئات الفرعية قوي جدا . ومن ثم نلاحظ ان قابلية التغير ، مع انها نسبية ، تؤدي الى التمييز بين فئتي « أ » و « ب » بصورة اوضح من التمييز الذي نلاحظه بين فئاتهما الفرعية .

وسار لنتون (Linton) خطوة ابعد من ذلك في عملية التصنيف فميز ثلاث فئات هي : النسل والعرق والعنصر . وعرف النسل بانه « مجموعة من الافراد الذين يتباينون ، بالنسبة الى معيار معين ، في كل من خصائصهم الجسمية » . أما العرق « فيتألف من عدد من الانسال التي تلتقي انماطها المثالية في سلسلة من الخصائص المشتركة » . واما العنصر فهو « مجموعة من الاصناف العرقية ، حيث يتقرر محتوى اي عنصر منها بالاساليب الفنية نفسها التي تستعمل في اثبات التصنيفات العرقية »(٢٣) . هذا النوع من الترتيب الهرمي هو ، في اساسه ، تسليم بفكرة التدجين ، وهو يعكس الشعور بان اختيار الفئات الرئيسية والفرعية عند البشر يجري على وجه العموم بشكل مصطنع ، مثلما يجري

---

(٢٣) R. Linton, «The Study of Man» (New York, 1936).

الاختيار في حالات كثيرة بالنسبة للكلاب والماشية[٢٤] . ويؤكد لنتون ، في بحثه عن النسل ، فعالية عاملي الانعزال والتزاوج الداخلي ضمن الفئة الواحدة ، وهما عاملان يحققان « اثر الانعزال » الذي ذكره داهلبرج في سياق حديثه عن نشوء العرق . ولا بد لمفهوم النسل البشري ـــ كي يكون صحيحا من الناحية البيولوجية ـــ مـــن أن يحقق ذات الشروط الخاصة بتجانس الصفات التي تتطلبها ، مثلا ، حين تتشـدد في انتقـاء الكلاب . فكلب الصيد المسمى «Boston Terrier» هو أولا من عائلة الكلاب ، وثانيا من صنف كلاب الصيد . وقـد أدى الانتقاء الشديد الـى ظهور سمات خاصة في بنية جينية عامـة . وبما ان عملية الانتقاء ، في هـذه الحالة ، موجهة الى ايجاد « عرق نقي » ، فانه مـن اليسير علينا دائما تمييز كلب من صنف «Boston Terrier» . أما بالنسبة للبشر ، فاننا لا نستطيع تحقيق مثل هـذه الشروط الجينية الصارمة ، ولذا لا نجـد كائنات بشرية يمكن وصفها بانها تشكل « عرقا نقيا » . واذا صح مـا قلناه ، فان النسل عند الانسان (Homo) لا يمثل الا تجريدا نسبيا ، في حين يعتبر العرق اقرب الى الحقيقة من النسل . أما العنصر فهو قريب جدا من الواقع ، واما النوع فهو اساس هذا التصنيف كله . ونحن ، اذ نثبت هذه الامور ، نأخذ دائما بعين الاعتبار اننا لا نزال نحـاول البقاء ضمن اطار المفهوم الخاص بالتصنيف الحيواني .

يبدو اذن ان هناك اعتبارات تصنيفية وجينية قد تبرر تعريف العرق عند البشر على النحو التالي :

---

(٢٤) اذا اردنا ان يكون التشبيه منسجما مع الواقع ، وجب علينا ان نقر بأن جميع الكلاب هي من نوع Canis familiaris وان نقف عند هذا الحد . وهكذا ، يتعين علينا انْنقف عند Homo sapiens وان نقر اننا تعثرنا بسبب تعقيدات الجينات وتغيراتها . غير اننا لم نشر الى وجود اتفاق تام لان هناك فوارق اساسية في طريق نشوء الفئات الفرعية لكل من الجنسيـين Canis و (Homo) .

« العرق هو جماعة فرعية مــن الناس تملك مجموعة محددة مــن الصفات الجسمية التي تعود الى اصل جيني . وهذه المجموعة من الصفات تساعدنا ، بدرجات متفاوتة ، على تمييز الجماعة الفرعية عن غيرها مــن الجماعات الفرعية ، وهي تنتقل من جيل الى آخر بالوراثة شريطة ان تظل جميع العوامل التي أدت في الاصل الــى ظهورها ثابتة نسبيا . ويمكــن القول ، على وجه العموم ، ان الجماعة البشرية التي تملك هذه الصفات تسكن ــ او سكنت في الماضي ــ في منطقة جغرافية ذات حدود واضحة المعالم نسبيا »(٢٥) .

يبدو ان التعريف السابق مؤلف من عدة اجزاء . فقد ذكر فيه ان الصنف العرقي هو مجموعة او مركب مــن الخصائص الجسمية . أمــا الاصل الجيني فقد عبر عنه بالرجوع الى قابليته للانتقال التي تعتمد على مدى الدوام النسبي لبعض العوامل الاشتراطية . وأما « اثر الانعزال » فقد عبر عنه بالاشارة الى اثر البيئة ومكان السكن . ومن الواضح ان العنصر الذي يمثل فئة اشمل مــن العرق يخضع لهــذه المبادىء العامة نفسها ، ولكن يجب ان نذكر دائما ان مدى التغاير في العنصر واسع جدا حتى انه يشمل جميع المجالات العرقية المتنوعة التي يتألف منها .

ولنلاحظ الآن الوضــع العنصري والعرقي عنــد البشر في ضوء التعريف السابق للعرق وفي ضوء ما اوجزناه عن علاقته بالعنصر . ولنذكر في هذا المقــام اننا اشد اهتماما بمفهوم التصنيف العرقــي منا بتطبيقاته العملية(٢٦) .

---

(٢٥) W.M. Krogman, «What We Do Not Know about Race», «Scientific Monthly», LVII (1943), 97-104.

(٢٦) وهذا هو السبب الذي جعلنا نتغاضى هنا عن التصنيف الجريء للعروق الاوروبية الذي وضعه C.S. Coon في كتابه : «Races of Europe» (New York, 1939).

الخصائص الجسمية للعناصر البشرية الثلاثة

السمة	الابيض	الاصفر	الاسود
لون الجلد	ابيض شاحب مائل الى الحمرة الى بني زيتوني .	زعفراني الى بني اصفر ، في بعض الحالات بني مائل الى الحمرة .	بني الى اسود بني ، في بعض الحالات بني مائل الى الحمرة .
القامة	معتدل الى طويل .	معتدل الطول الى معتدل القصر .	طويل الى قصير جدا .
شكل الرأس	طويل الى عريض وقصير ، معتدل العلو الى عال جدا ،	يغلب عليه العرض ، أما العلو فمعتدل .	يغلب عليه الطول ، اما العلو فمنخفض الى معتدل
الوجه	ضيق الى معتدل العرض ، يميل الى العلو ، غير بارز الفكين .	معتدل العرض الى عريض جدا ، الوجن عال ومنبسط يميل الى الطول المعتدل .	معتدل العرض الى ضيق ، يميل الى العلو المعتدل ، بروز شديد في الفكين .
الشعر	شعر الرأس : لونه أشقر فاتح الى بني غامق ، نسيجه دقيق الى معتدل ، شكله مستقيم الى متموج . شعر الجسم : معتدل الى كثيف .	شعر الرأس : لونه بني الى بني اسود ، نسيجه خشن ، شكله مستقيم . شعر الجسم : قليل الكثافة .	شعر الرأس : لونه بني اسود ، نسيجه خشن ، شكله خفيف التجعد الى صوفي الى شديد التجعد . شعر الجسم : قليل الكثافة .
العين	اللون أزرق فاتح الى بني غامق ، ثنية العين الجانبية عرضية .	اللون بني الى بني غامق ، الثنية الجانبية شائعة جدا .	اللون بني الى اسود بني ، الثنية الرأسية شائعة .
الانف	القصبة عادة عالية ، الشكل ضيق الى معتدل العرض .	القصبة عادة منخفضة الى معتدلة ، الشكل متوسط العرض .	القصبة عادة منخفضة ، الشكل متوسط العرض الى عريض جدا .
بنية الجسم	خطي الى جانبي ، اهيف الى مخشوشن .	يميل الى ان يكون جانبيا ، بعض الاتجاهات الخطية واضحة .	يميل الى ان يكون جانبيا وعضليا ، بعض الاتجاهات الخطية واضحة.

هناك اذن ثلاثة عناصر او اجناس بشرية معروفة علـى هذا النحو منذ زمن بعيد جدا حتى انهـا اصبحت تقليدية . وهـذه العناصر هي : الابيض والاصفر والاسود ، أو القوقازي والمغولي والزنجي . (أضاف هويلز « Howells » [٢٧] عنصرا رابعـا ، وهو سكـان اوستراليـا الاصليون . ولكن يبدو انه فعل ذلك بسبب كثرة خصائصهم الجسمية البدائية وليس على اساس انهم يشكلون عنصرا منفصلا) . ويبين جدول الخصائص الجسمية المثبت اعلاه ، بعبارات عامة جدا ، الفوارق العنصرية الاساسية بالنسبة لاختضاب الجلد والشعر والعينين ، وبالنسبة للقامـة وبنية الجسم وشكل الشعر وتركيبـه وبعض التفاصيل الخاصة بالرأس والأنف والعينين . وهذه العناصر هي ، في الواقع ، انواع فرعية ، ولذا من المنتظر ان يكون لها وضع تصنيفي واضح المعالم نسبيا . فاذا اخذنا عينات تمثل بعض الشيء العناصر التي تنتمي اليها ، كان من السهل جدا علينا ان نميز الفوارق بين هذه العناصر الكبـيرة . لنأخذ ، مثـلا ، ١٠٠ شخص من القوقازيين من سكان منطقة البحر الابيض المتوسط (ايطاليا) ، و ٤٠٠ شخص من سكان افريقيا الغربية (داهومي) ، و ١٠٠ من المغوليين من سكان آسيا الشرقية (الصين) . في هذه الحالة لن نحتاج الى خبير مدرب لتمييز اعضاء كل فئة وفصلهم عن اعضاء الفئتين الاخريين . وقد يكون هناك بعض التداخل ، ولكن مثل هذا الاحتمـال ضعيف . ومن المرجح ان نجد حالات من التداخل بين بعض الافراد ، ويكاد يكون من المؤكد ان نجـد تداخلا ايضا في بعض السمات الفرديـة . ولكن مـن المستبعد جدا ان نجد تداخلا بـين الفئات الثلاث في مجموعات السمات او مركباتها .

ويمثـل الجـدول التـالي تصنيفـا للجمـاعـات العـرقية

(٢٧) W.W. Howells, «Mankind So Far» (New York, 1944).

الموجودة ، أعد من زاوية تختلف قليلا عن الزاوية السابقة . فالحكم الرئيسي هنا لون الجلد : الابيض ، والبني ـ الاصفر ، والبني ، والاسود ـ البني . وتقابل فئات اللون ، الاولى والثانية والرابعة ، العناصر الرئيسية الثلاثة . أما الفئة الثالثة فتمثل ابناء الفئات الهجينة التي ينطوي تصنيفها على بعض المشكلات بسبب صعوبة تحديد وضعها العنصري تحديدا دقيقا . ويلاحظ هنا ان معاييرنا التشخيصية تقتصر على لون الجلد وشكل الرأس والقامة وشكل الانف وشكل الشعر . وقد استعملنا في هذا الجدول الدليل الرأسي المشهور ، اي نسبة عرض الرأس × ١٠٠/ طول الرأس ، بحيث تصنف محصلة الدليل على النحو التالي :

× – ٩٩و٧٤ = طويل الرأس (D)

٠و٧٥– ٩٩ و ٧٩ = ذو رأس متوسط الطول (M)

٠و٨٠ – × = مستدير الرأس أو قصير الرأس (B)

أما بالنسبة لشكل الانف ، فان الدليل المستعمل هو نسبة عرض الانف ١٠٠/ علو الانف، وبذلك تصنف محصلة الدليل على النحو التالي :

× – ٩٩ و ٦٩ = ضيق الانف (L)

٠ و ٧٠ – ٩٩ و ٨٤ = ذو انف متوسط الطول (Me)

٠ و٨٥–×= عريض الانف (C)

وأما بالنسبة لشكل الشعر ، فان الفئات التي يمكن تمييزها هي : فئة الشعر المستقيم ويرمز اليها بالحرف (S) ، وفئة الشعر المتموج ويرمز اليها بالحرف (W) ، وفئة الشعر المجعد ويرمز اليها بالحرف (C) وفئة الشعر الصوفي ويرمز اليها بالحرفين (WO) .

والجدير بالذكر ان الاصناف العرقية العديدة التي اثبتت هنا هي ،

تصنيف الأعراق

الاختضاب من فاتح إلى غامق	الفئة	شكل الرأس D	شكل الرأس M	شكل الرأس B	القامة	شكل الأنف L	شكل الأنف Me	شكل الأنف P	شكل الشعر S	شكل الشعر W	شكل الشعر C	شكل الشعر Wo
أشقر إلى بني فاتح	الأبيض: D إلى L، B متموج				+١٧٠-١٦٠							
	نوردي	x	x		+١٧٠	x			x	x		
	ألبي			x	١٦٥		x		x	x		
	ديناري			x	١٧٠		x		x	x		
	أرمني			xx	١٧٠		x		x	xx		
	البحر المتوسط	x	x		١٦٠	x				x		
بني - أصفر إلى بني	بني - أصفر: B، Me، مستقيم				+١٧٠-١٦٠							
	منغولي			x	١٦٠		x		x			
	هندي - ملاوي		x	x	١٧٠		x		x			
	أمريكي	x		x	١٧٠		x		x			
	بولينيزي			x	+١٧٠		x			x		
بني فاتح إلى بني غامق	بني: M، Me، مجعد				١٦٥-١٥٥							
	آينو			x	١٥٥		x			x		
	درافيدي	x			١٥٥		x				x	
	أوسترالي	x			١٦٥			x			x	
بني - أصفر إلى أسود	أسود - بني: D، P، صوفي				١٧٠-١٤٠							
	بوشمان	x			١٤٠			x				x
	زنجي قصير			x	١٤٠			x				x
	ميلانيزي	x			١٦٠			x				x
	زنجي	x			١٧٠			x				x

من الناحية التصنيفية ، على صعيــد دون صعيــد النوع . وقد ابتعدت كثيرا عنه حتى ان تعريفها فقد الكثير من وضوحه . وهي بعبارة اخرى ، تفتقر الى التجانس من حيث احوالها الجينية . أما من حيث احوالهـــا الظاهرية ، فهي شديـــدة القابلية للتغير . وسبق ان ذكرنا ان التغير ضمن العناصر مستبعد ، وان هذا القول صحيح على اساس النظر الى المركبات الجينية للمجموعات الكبـــيرة نظرة كليتــة . أما التغير ضمن الاصناف العرقية ، فلا نستطيـــع القول بانـــه مستبعد ، وما ذلك الا لان هـــذه الاصناف تعرضت لاختلاط شديد جدا حتى انه مـــن المحتمل ان يتغير الائتلاف الجيني بحيث ينتـــج فردا أقرب في سماته الجسمية الى الفئـــة العرقية المجاورة منه الى الفئة التي نشأ فيها . ولتوضيح هذه النقطة نورد المثال التالي : اذا تزاوج مائة من الذكور والاناث الذين يصنفون مـــع سكـــان حوض الابيض المتوسط ، وتزاوج مائة آخرون مـــن الذكور والاناث من العرق الالبي ، فمن المحتمل جدا ان يضم نسل الجماعة التي تنتمي الى عرق البحر الابيض المتوسط افرادا يعكسون سمات ألبيـــة والعكس بالعكس . ان الاساس الذي يعتمـــد في التصنيف العرقي هو مركب للسمات التـــي قد تنطبق على مجموعة مـــن الناس ، ولكن ذلك لا يمكننا من اجراء تحديد لوضع اي فرد بالنسبة لفئة تحددها المجموعة الكبرى التي يفترض فيه ان يكـــون جزءا منها . نخلص من ذلك الـــى القول بان الاصناف العرقية لا يمكـــن تحديدها تحديدا دقيقا ، وهذه حقيقة لا مفر من الاقرار بها من الناحيتين التصنيفية والجينية . فالاصناف العرقية مـــا هي الا مجموعات شائبـــة تفتقر في تفاصيلها الى الاحكام والدقة[٢٨] .

---

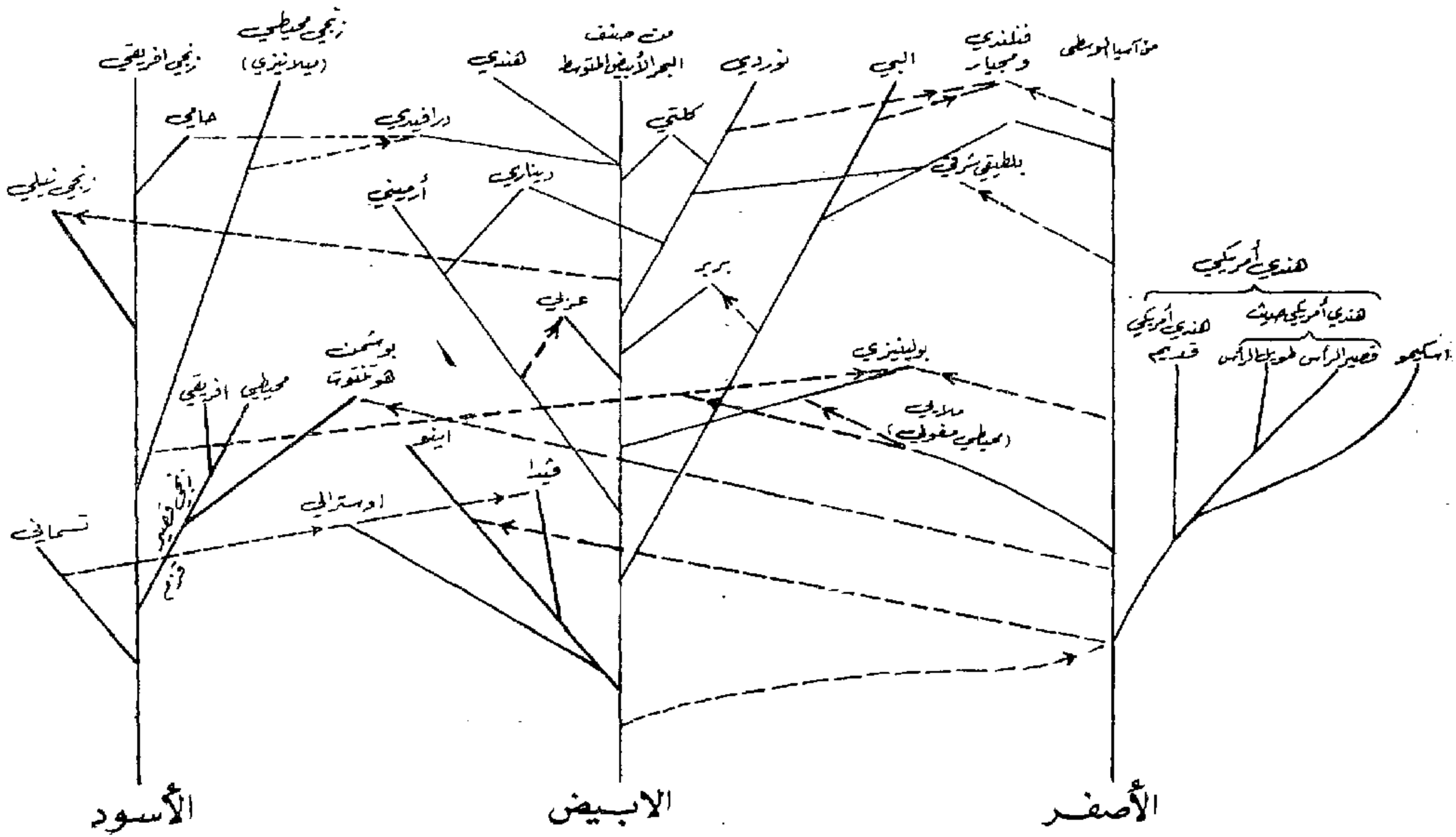
(٢٨) لم نبحث هنا الطرق الاحصائية المتبعة في اثبات المجموعات العرقية . ومن الامثلة الجيدة على هذه الطرق في المعالجة :
H. Field, «Iranian Plateau Race» (Asia, April, 1940).

أما الخريطة المثبتة على الصفحة التالية ، فهي رسم بياني كثير الخطوط يمثل الفوارق العنصرية والعلاقات بين الاجزاء العرقية التي يتألف منها كل عنصر . وتمثل الخطوط المتصلة تقسيمات وتدرجات داخلية واضحة المعالم نسبيا . وتشير الخطوط المقطعة اما الى احتمال دخول عنصر اساسي او عامل عرقي واما الى احتمال التزاوج بين عرقين . ويشير السهم الى الجهة التي تسرب منها الاثر العرقي(٢٩) . وتعطي الخريطة ، بتعقيداتها العرقية المتداخلة ، فكرة واضحة عن مدى الاختلاط العرقي الذي تحدثنا عنه سابقا . ويلاحظ اننا لم نشر ، على وجه التعيين ، الى وجود عرق « يهودي » او « سامي » . وسبب ذلك واضح وبسيط ، وهو انه لا يوجد عرق « يهودي » أو « سامي » — انما توجد فئات من الناس تدين باليهودية ، وتجمعها روابط دينية واجتماعية مشتركة . ويذكر كوون (Coon) (٣٠) ان هذه الفئات تنتمي في الاصل الى شعوب البحر الابيض المتوسط ولكنها ، على مر السنين ، تعرضت لاختلاط شديد حتى انه اصبح من المتعذر اعتبارها عرقا منفصلا ، لا من حيث فئة الدم ولا من حيث اي من الخصائص الجسمية المميزة ، سواء اخذت منفردة او مجتمعة . حتى الانف « السامي » يفترض فيه اليوم ان يكون صفة جينية غالبة جاءت نتيجة لامتداد الانفية المحدبة لفئة سكانية عاشت في آسيا الصغرى وربما كانت تنتمي الى الصنف الارمني او الى سكان الهضبة الايرانية . أما الفكرة السائدة عن سهولة تمييز

---

(٢٩) يمثل محتوى الخريطة محاولة لعرض خلاصة الدراسة التي اجريتها على حوالي ٢٥ تصنيفا عرقيا . اما شكل الخريطة فقد استوحيته من لوحات الدكتور فكتور لبزلتر Dr. Viktor Lebzelter المعروضة في متحف التاريخ الطبيعي في شيكاجو .

(٣٠) « Races of Europe ». See also Coon's « Have the Jews a Racial Identity ? » in J. Graeber and S.H. Britt, «Jews in a Gentile World» (New York, 1942), pp. 20-37.



الفوارق العنصرية والعلاقات العرقية المتبادلة

« اليهودي » فتعود الى ما اصطلح « كوون » على وصفه بالعبارة العامة الغامضة : « النظرة اليهودية او الملامح التعبيرية اليهوديــة » . ويضيف جاكوبز (Jacobs) الى ذلك بقوله : « ان سهولة التعرف الى اليهودي بالنظر تعود الى ردود الفعل الانفعالية والحالات الاخرى مــن التكيف الاشتراطي التي تنعكس كلها على شكل سلوك وجهي مميز ، وتصنع في هيئة الجسم وحركاته ، وصفــات مزاجية وخلقية خاصة ، ونغمة خاصة في الكلام »(٣١) .

بحثنا في الجوانب الوراثية والجينيــة لمفهــوم العرق ، وأشرنا في سياق بحثنا الى ان المجموعات العرقية ليست دائمة كالعناصر والاجناس . وسنبحث الآن في هذه المشكلة بمزيد من الدقة والتفصيل .

يقــال ان كوفييه (Cuvier) ، الخبــير الفرنسي بعلم التشريح المقارن ، قام في مطلع القرن التاسع عشر بفحص عدة مئات مــن الجماجم المصرية التي تعود الى ما قبل ٦٠٠٠ عام تقريبا ، وقابل بينها وبين سلسلة من جماجم الفلاحين المصريين في العصر الحديث ، ثم ذكر انه لم يستطع ايجاد فرق يذكر في الطراز الجمجمي على الرغم مــن انقضاء هذه المدة الطويلة . واستنتج ، استنادا الى ملاحظاته ، انه لم يحدث تطور في شكل الانسان او ان التطور كان بطيئا جدا بحيث تعذر على الانسان قياسه . ومن جهة اخرى كشفت الابحاث التي اجراها مورانت (Morant) (٣٢) ودارت (Dart) (٣٣) وزملاؤهما ، كشفت النقــاب عــن التفسيــر

(٣١) M. Jacobs, «Jewish Blood and Culture», in Graeber and Britt, op. cit., pp. 38-55.

(٣٢) «Study of Egyptian Craniology from Prehistoric to Roman Times», Biometrika, XVII 1925, I-52.

(٣٣) «Population Fluctuations over 7000 Years in Egypt», «Transactions of the Royal Society of South Africa», XXVII (1939), 95-145.

الصحيح للمشكلة . ويمكن تلخيص النتائج التي توصلا اليها كما يلي : ان ما قـام به كوفييه هو مجرد تقويم النتيجة النهائية لتجانس عرقـي يستلفت النظر ــ تجانس ظل ، على غير العادة ، مستقرا خلال مدة طويلة جدا . ومهما يكن من أمر ، فان ٦٠٠٠ سنة ، مـن وجهة نظر التطور عبر الاجيال ، تمثل مدة قصيرة نسبيا ، وليس لنا ان نتوقـع حدوث تطور حتمي في كل حالة خلال هذه المدة . فبالنسبة للانسان تمثـل هذه المدة ٢٠٠ جيل ، في حين انها تمثل ١٢٠٠ جيل عنـد الحصان ، و ٥ الاف جيل عند الكلب ، و ٢٤٠٠٠ عند الفأر . وأخيرا لا بد من أن نذكر ان الانسان ليس حيوانا مختبريا يمكن اخضاعه للتجارب العلمية .

وظلت آراء كوفييه عن ثبات الاصناف العرقية تسيطر عـلى عقول العلماء الانثربولوجيين مدة طويلـة . ثـم أخذت الادلة تتراكم تدريجا لتثبت امكان حدوث تغيرات في طراز الجمجمة . فالعالـم شويدتزكـي (Schwidetzky) [٣٤] ، مثلا ، يقدم بينات تقيـم الدليل على حدوث تغير جمجمي عند النورديين والاوروبيين الشرقيين :

الدليل الجمجمي

التاريـخ	النورديون	الاوروبيون الشرقيون
١٢٠٠ ق٠م٠	٦٩ر٢	٧٦ر١
٣٠٠ ب٠م٠	٦٩ر٦	٧٧ر١
١٢٠٠ ب٠م٠	٧٣ر٥	٧٨ر٦
١٩٣٥ ب٠م٠	٨١ تقريبا	٨٦ تقريبا

ويلاحظ ان استدارة الرأس قـد ازدادت بمقـدار ١٢ نقطة للفئة الاولى و ١٠ نقاط للفئة الثانيـة . ويبين الجدول التالـي تفصيل الطول

(٣٤) J. Schwidetzky, « Die schlesische Kurz — kopfigkeit », « Verband Deutsche Gesellschaft für Rassenforschung», X (1940), 65-74.

والعرض الجمجميين بالملمترات ، وبالتالي يكشف النقاب عن اصل هذا الاتجاه في التطور :

البعـد	النورديون		الاوروبيون الشرقيون	
	١٢٠٠	١٩٣٥	١٢٠٠	١٩٣٥
الطول الجمجمي	١٨٩ر٠	١٨٣ر٣	١٨٢ر٣	١٧٦ر٥
العرض الجمجمي	١٣٧ر٦	١٥٧ر١	١٤٤ر٨	١٥٢ر٧

يتضح من الجدول السابق ان التغير في الدليل الجمجمي (وبالتالي التغير في شكل الرأس) نشأ من عملية مزدوجة : تناقص الطول الجمجمي من جهة ، وازدياد العرض الجمجمي من جهة اخرى . ويبدو كما لو ان الجينات ، بما احدثته من أثر على مر الزمن وعبر الاجيال ، تشكل عقبة من شأنها ان تثني عشاق التصنيف العرقي عن التيار الذي انساقوا فيه . فقد ثبت الآن ان شكل الرأس البشري يتغير عبر القرون ، وهذه حقيقة لا يمكـن تجاهلها . ومن الواضح ان الانسياق الجيني ليس بالضرورة العامل الوحيد الذي يمكن ان نعزو اليه هـذا التغير المتصل بالزمن ، اذ يكاد يكون في حكم المؤكد انه حدث اختلاط مع عناصر خارجية ، ادى الى ادخال جينات جديدة او مختلفة ، وبالتالي الى اعادة توزيع الجينات و (أو) تعديل طرق ائتلافها .

وفي عـام ١٩١١ فجر بواس (Boas) [٣٥] قنبلته المشهورة بـين صفوف المتشبثين بالنظرية القائلة بثبات التصنيف العرقـي ، وذلك حين بين ان التغير لا يتوقف دائما على انقضاء فترة طويلـة ، وانما يمكن ان يحدث في فترة لا تتجاوز جيلا او جيلين . وكان بواس قد اجرى دراسات على لون الشعر ، والطول والعرض ، وطـول الرأس وعرضه ، وعرض الوجه ، عند مهاجرين بوهيميين وسلوفاكيين ومجريين وبولنديين ويهود

(٣٥) F. Boas, Changes in Bodily Form of Descendants of Immigrants. Senate Doc. 208, 61st Cong., 2d Sess. Washington, D.C., 1911.

وصقليين ونابوليتانيين (من نابولي في ايطاليا) واسكتلنديين ولدوا كلهم خارج الولايات المتحدة الامريكيــة ، كما اجرى دراسات مماثلــة على اطفالهم الذين ولدوا خارج الولايات المتحدة وداخلها . وتبين من نتائج هذه الدراسات ان هناك فوارق في الرأس بــين المهاجرين مــن مواليد الاقطار الاجنبية وبين اطفالهم ، وان الفوارق تزداد تبعا لازدياد مدة اقامة الوالدين في الولايات المتحدة الامريكية . ويوضح الجدول التالي مدى التغير الذي حدث في شكل الرأس عند فئتين تعتبران مــن اهم الفئات المذكورة .

	مواليد اقطار اجنبية	مواليد الولايات المتحدة الامريكية
	(الجميع من سن العشرين فما فوق)	
آباء صقليون واطفالهم	٧٧ر٨	٨٠ر٩
آباء يهود واطفالهم	٨٣ر٣	٨١ر٠

ومما لا ريب فيه ان هذه النتائج توحي ايحاء شديدا بوجود نوع مــن العمليات الانتقائية . وقــد اجريت ، منذ عــام ١٩١١ حتى يومنا الحاضر ، ابحاث كثيرة لتدقيق النتائج التي توصل اليها بواس والتحقق من مدى صحتها .

ففي عام ١٩١٨ نشر جوث (Guthe) [٣٦] بحثا ايد فيــه ما انتهى اليه بواس . وفي عام ١٩٢٧ ، اجرى هرش (Hirsch) [٣٧] دراسات على اطفال من أصل ايطالي جنوبي ويهودي روسي وسويدي من المقيمين في ولايات تشيلي وبروكتون ومساتشوستس . ولم ينشر هرش تقريــرا

---

(٣٦) C.E. Guthe, « Notes on the Cephalic Index of Jews in Boston », «American Journal of Physical Anthropology», I (1918), 213-23.

(٣٧) N.D.M. Hirsch, «Cephalic Index of American-born Children of Three Foreign Groups», «American Journal of Physical Anthropology», X (1927), 79-90.

عن وضع الاطفال الايطاليين . أما نتائج الدراسة التي اجراها على الاطفال اليهود فقد ايدت ما توصل اليه بواس ، اذ كشفت النقاب عن وجود فرق في دليل الرأس يتراوح من ٢،٥ الى ٣ نقاط في الجيل الواحد . وأما نتائج الدراسة التي اجراها على الاطفال السويديين فلم تشر الى حدوث اي تغير . ويعتقد هرش ان العوامل النفسية تؤثر في نشاط الغدد الصماء ، وتعدل بالتالي نمط النمو الجمجمي .

وفي عام ١٩٢٤ درس بيرسون (Pearsop) وتيبت (Tippett) (٣٨) شكل الرأس عند عدد من الاطفال والراشدين في انجلترا ، فاكتشفا ان دليل الرأس مستقر عند الفئات الاجتماعية المختلفة ، وذلك على اساس انهما لم يعثرا على اية بينة تقيم الدليل على حدوث اي تغيير في نمط النمو من جيل الى آخر . والجدير بالذكر انه يشترط في تغير القيمة المتوسطة لدليل الرأس حدوث تغير ملحوظ وثابت في الطول والعرض ينطبق على مجموعة كبيرة من العينات .

وفي عام ١٩٣٥ نشر كابرز (Kappers) (٣٩) ملاحظاته عن بيانات بواس الأولية ، كما نشر كلاين (Klein) (٤٠) نتائج الدراسة التي اجراها على اليهود الهولنديين الاشكيناز . وقام كابرز ، علاوة على ذلك ، باستعمال ما أمكن توافره لديه من المعطيات المقارنة الخاصة بدليل الرأس. واستنتج كل من هذين الباحثين انه قد تنتقى قيم « عرقية » معينة تتصل

---

(٣٨) K. Pearson and L.H.G. Tippett, «On Stability of the Cephalic Indices within the Race», «Biometrika», XVI (1924), 118-38.

(٣٩) C.U.A. Kappers, «The Degree of the Changes in the Cephalic Index Correlated with Age and Environment», «Proceedings Koninjikle Akademie te Wetenschappen Amsterdam», XXXVIII (1935), 989-1001.

(٤٠) W. Klein, «The Degree of the Developmental Changes in the Length-Breadth Index of the Head of Dutch Askenazim Jews», «Proceedings Koninjikle Akademie te Wetenschappen Amsterdam», XXXVIII (1935), 1021-26.

بشكل الرأس ، وذلك في سياق عملية النمو التي تجري في الاجيال اللاحقة . ويذكر ، على وجه التحديد ، أن الحدود الذروية للدليل الرأسي عند الاطفال (٨٣ — ٨٦) هي آسيوية وسطى في طبيعتها ، ومع تقدم العمر يصبح الحد الذروي الغالب اسيويا قديما . ويبدو انه توجد هنا نزعة انتقائية تستند الى اساس نشوئي وتهدف ، في تاريخ نمو الفرد ، الى تفضيل نسل على آخر . غير أنه يصعب علينا قبول هذا التفسير مثلما يصعب علينا تقويمه . فالافتراض الاساسي هنا يقوم ، كما يبدو ، على المفهوم القائل بان تاريخ الحياة يعكس بصورة مصغرة تاريخ حياة الاصل ، اي ان الطفل يمثل مرحلة سلفية معينة ، بينا يمثل البالغ مرحلة اخرى . ويعتقد كاتب هذا المقال ان هناك خلطا بين اطوار النمو وبين مراحل التطور العام ، وانه لا توجد اسس نظرية او واقعية تبرر تبني هذا التفسير .

وفي عام ١٩٣٦ قام مورانت (Morant) وسامسون (Samson) [٤١] باعادة تدقيق البيانات الأساسية التي جمعها فشبرج (Fishberg) وبواس عن الدليل الرأسي لليهود المقيمين في نيويورك . واستنتج هذان الباحثان ان الفرق في الدليل الرأسي بين الآباء المهاجرين وابنائهم من مواليد امريكا ليس كبيرا الى درجة تجعله ينطوي على اهمية احصائية بالنسبة للتكيف البيئي . وفي السنة نفسها نشر بيرسون (Pearson) [٤٢] بيانات عن مدى الاختلاط بين اليهود وغير اليهود ، مع الاشارة بوجه خاص الى اثر التزاوج في الدليل الرأسي . واستنتج

(٤١) G.M. Morant and O. Samson, «An Examination of Investigations by Dr. Maurice Fishberg and Prof. Franz Boas Dealing with Measurements of Jews in New York», Biometrika, XXVIII (1936), 1-31.

(٤٢) K. Pearson, «On Jewish-Gentile Relationships» «Biometrika», XXVII (1936), 32-33.

ان الاختـلاط يكفي لتفسيـر التغيرات التي تحدث من جيل الـى آخر .

وظل الباحثون يعلقون على نتائـج دراسات بواس ما بـين مؤيد ومعارض ، حتى نشر هـ.ل. شابيرو (بمساعدة زميله ف. هولس) نتائج الابحاث التي اجراها على اليابانيين وابنائهم في جزر هاواي(٤٣) . وتناول شابيرو بالبحث ثلاث فئات : مواطنـون ولدوا في اليابان ولا يزالـون يقيمون فيها ، ومهاجرون من مواليد اليابان يقيمون في جزر هاواي منذ عام ١٨٨٤ ، ومهاجرون من مواليد جزر هاواي ينحدرون من آباء ولدوا في اليابان . وأجرى شابيرو ، في سياق بحثه ، ٤١ قياسا ، واستعمل ٢١ دليلا ، وأجرى ٤١ ملاحظة ، بالنسبة لكل من الرجال والنساء والاطفال الذين شملتهم الدراسة والذين يبلـغ عددهم ٢٥٩٤ شخصا . وكـانت النتائج التي توصل اليها شابيرو مذهلة حقا . ويمكـن تلخيص بياناته ذات العلاقة على النحو التالي :

الفرق بين الفئتين الاولى والثانية (اي بـين المواطنـين اليابانيين المقيمين في اليابان والمهاجرين اليابانيين الى جزر هاواي)

الجنس	القياسات	الأدلـة
ذكـور	فرق في ٢١ من ٢٩ حالة ، اي ٧٢٫٤٪	فرق في ١٦ من ٢١ حالة ، أي ٧٦٫٢٪ .
انـاث	فرق في ١٩ من ٢٨ حالة ، اي ٦٧٫٩٪	فرق في ٩ من ٢٠ حالة ، اي ٤٥ ٪ .

(٤٣) «Migration and Environment» (New York, 1939). In «Demographic and Bodily Changes» (Austin, Texas, 1943).

والجدير بالذكر هنا ان م. ل. جولدشتاين M. L. Goldstein أجـرى دراسات على المهاجرين المكسيكيين ونسلهم ، وتوصل الى نتائج تدعـم النتائج الرئيسية التي توصل اليها شابيرو .

الفرق بين الفئتين الثانية والثالثة (أي بين المهاجرين من مواليد اليابان والمهاجرين من مواليد جزر هاواي) .

الجنس	القياسات	الأدلة
ذكور	فرق في ١٦ من ٢٩ حالة ، أي ٥٥٫٢ ٪	فرق في ٩ من ٢١ حالة ، أي ٤٢٫٩ ٪
اناث	فرق في ١٣ من ٢٨ حالة ، أي ٤٦٫٤ ٪	فرق في ٩ من ٢٠ حالة ، أو ٤٥ ٪ .

ومما يستلفت النظر انه وجد بين المواطنين المقيمين في اليابان والمهاجرين اليابانيين المقيمين في هاواي فرق يشمل حوالي ٧٥ في المائة من القياسات والادلة . ومن جهة اخرى شمل الفرق بين المهاجرين من مواليد اليابان والمهاجرين من مواليد هاواي حوالي ٥٠ في المائة من الحالات المدروسة . وثمة أمر آخر يستأثر باهتمامنا ، وهو ان التغيرات كانت في الحالة الثانية متناسبة ، وفي الحالة الأولى غير متناسبة . وهذا يعني وجود اتجاه الى الاختلاف في النوع بين المواطنين المقيمين فياليابان والمهاجرين اليابانيين المقيمين في هاواي ، واتجاه الى الاختلاف في الدرجة بين المهاجرين من مواليد هاواي والمهاجرين من مواليد اليابان . وبعبارة اخرى ، نلاحظ ان الاتجاهات ، حالما تنشأ ، تنزع الى الدوام او الاستمرار . أما الحقيقة الثالثة التي يجب ان نذكرها ، فهي ان جانبا من التغير المتناسب سجل على شكل تغير عام في حجم الجسم .

واذا استعرضنا جميع هذه الدراسات ــ سواء تناولت التغير الذي يحتاج الى آماد طويلة او التغير الذي يحدث من جيل لآخر ــ تجلى لنا مفهوم لا مفر لنا من أن نقر به ، وهو المفهوم الخاص بمرونة الانماط العرقية وقابليتها الاساسية للتغير . وقد يشير البعض الى ان الفئات المهاجرة لا تمثل تماما المجموعات السكانية التي كانت تنتمي اليها في

الإصل ، ولكن ذلك لا يكفي وحده للاجابة عن كل سؤال . فالواقع الذي لا مفر منه هو ان « اثر الانعزال » ينهار على درجات متفاوتة في وجه أثر الهجرة ، ويعني انهياره انهيار النظرة الصارمة التي نستند اليها في تصنيف البشر الى فئات رئيسية وفرعية . ويمكن القول ان العرق هو ــ على افضل تقدير ــ كيان بيولوجي تكويني لا يمكن تحديده تحديداً واضح المعالم ، كما لا يمكن تعريفه بحدود ثابتة دائمة ، فقد تبين لنا الآن انه مرن ومطواع وقابل للتغير تبعا لتغير المكان والزمان والظروف . ولعله من المفيد ، في هذا المقام ، ان نشير الى فكرة كيث (Keith) التي تقول ان قابلية العرق للتغير قد تكمن في تجميع عدد هائل من التغيرات الكيميائية الدقيقة التي لا تكاد تدرك ، في مركب جيني وغدي اصم ، اي في تغيرات كيميائية في الجينات والصبغيات تؤثر في توازن الغدد الصماء والعكس بالعكس(٤٤) . واذا اثبتنا هذه الحقائق الاساسية ، ادركنا ان فئاتنا البشرية ، حتى لو كانت صحيحة من الناحية النشوئية الاحيائية ، لا يمكن ان تشبه بمجموعات النجوم الثابتة التي ترصع صفحة السماء . وهذا ، في رأيي ، هو المبدأ الهام الذي يجب ان نذكره كلما بدا لنا ان نقدم على تصنيف « الانسان العاقل » (الهوموسابينس) الى عناصر وعروق . وهذا ، في رأيي ، هو المبدأ الذي يجب ان نستعين به لتوجيه ضربتنا القاضية الى كل المزاعم التي لا تزال تتشبث بما يسمى « النقاوة العرقية » أو « التفوق العرقي » ، وكذلك الى كل المحاولات التي تبذل لاستغلال الاعتبارات النشوئية والاحيائية لاقامة نظام هرمي عرقي على اساس التفرقة العنصرية .

(٤٤) Sir Arthur Keith, «The Differentiation of Mankind into Racial Types», (Annual Report of the Smithsonian Institution for 1919. Washington, D.C., 1921).

ويقودنا هـذا البحث ـ كما هو متوقـع منطقيا ـ الى المفهـوم الاجتماعي للعرق ، او الى « الاصناف العرقية التـي يفترض المجتمـع وجودهـا » ـ عـلى حـد التعبـير الموفـق الذي استعمله ردفيلد (Redfield) [٤٥] . ويقـول ردفيلد في هـذا الصدد : « ان الفوارق الحقيقية بين الجماعات التي تتباين من الناحية البيولوجية قد لا تنطوي عـلى مضاعفـات تذكر بالنسبة لشؤون النـاس . أما الفوارق المتصلة بمعتقدات الناس واوهامهم ، والفوارق المنظورة التي تستلفت انتباههم ، فهي التي تؤثر في شؤونهم وتصرفاتهم ... ويمكن القول اذن ان العرق هو من اختراع الانسان . »

وينعكس رد الفعل العنصري او العرقي على المجتمع ـ وبخاصة في المجتمع الذي ينقسم اعضاؤه الى اكثرية وأقلية ـ بطريقتين تربطهما علاقة متبادلة : أولا ، اذا كانت هناك سمات شكلية تسهل ملاحظتها كلون الجلد وشكل الشعر ، فان ذلك قـد يميز فئة عـن غيرها مـن الفئات السكانية ويفصلها عنها اجتماعيا ، وهذا من شأنه ان يعزز شعور التضامن او التماسك الجماعي بين اعضاء الفئـة الواحدة تجـاه الفئة او الفئات الاخرى . واذا تساوت جميـع العوامل الاخرى ، فان ازديـاد وضوح الفوارق الجسمية الشكلية وسهولة ملاحظتها من شأنهما ان يساعدا على تقوية الوعي الجماعي وتوثيق التكتل بين اعضاء الفئة الواحـدة . ومن الامثلة على هذه الظاهرة ان رد فعل الجندي الامريكي تجـاه الجندي الياباني في الحرب العالمية الاخيرة كـان اعنف كثيرا منه تجـاه الجندي الالماني النازي . ثانيا ، تفترض الاكثرية خطأ ان الفوارق الجسمية التي تلاحظها في الاقلية تشكل اسبابا كافيـة لتبرير الشعور والموقف اللذين تظهرهما تجاه الاقلية ذات السمات الجسمية المختلفة . واذا كانت الاكثرية

---

(٤٥) R. Redfield, «What We Do Know about Race», Scientific Monthly, LVII (1943), 193-201.

تبني معاييرها عـلى اسس تتصل بطرازها الجسمي ومستواها الثقافي ، فانها تفترض ايضا ان الاقليـة متخلفة في مستواها الثقافي وتعزو تخلفها الى الفوارق الجسمية بينها وبين الفئة الغالبـة . ولتوضيح هذه النقطة نذكر ، على سبيل المثال ، ان الرجل الابيض قد يستعمل المنطق الاعوج التالي : ان لون جلد الزنجي اسود ، فهو اذن يختلف عن الرجل الابيض من الناحية البيولوجية ، ولا بد من النظر اليه كما لو انه ينتمي الى فئة منفصلة تختلف ايضا ، بطريقة غامضة خفيـة ، في مدى قابليتها الثقافية والاجتماعية . وهذا يعني ان الزنجي يعتبر « متخلفا » في مستواه الثقافي ليس لان لون جلده اسود ، وانما لان البيض ينظرون الى اللون الاسود كما لو أنه يمثل فارقا اجتماعيا وبيولوجيا رئيسيا . وهكذا نخلص الى القول ان النقص لا يكمن في الفرق في لـون الجلد ، وانما في الموقف الاجتماعي تجاه هذا الفرق .

لا ننكر ان هناك فروقا جسمية بين البشر يمكن قياسها مثلما تمكن ملاحظتها ، وانها قد تجيز لنا اجراء تصانيف عنصرية وعرقية . ولكن هذه الفروق لا تنطوي على اية اهمية بيولوجية وقد تكون ، حتى من الناحية الجينية والنشوئية ، عابرة وزائلة[٤٦] . ومن الواضح ان الطبيعة ، التي تلعب دورها عن طريق التطور والانتقاء ، لا يمكن ان تعتبر مسؤولة عن المواقف التي تتخذها من الفوارق العرقية والعنصرية . ولا بد مـن ان نسلم هنا بان المجتمع ، لسوء الحظ ، هو الذي يقرر معظم هذه المواقف ، وذلـك بسبب خضوعه لتيارات التعصب والتحزب والضغط الاجتماعي

---

(٤٦) يجد القارىء في القصيدة الخامسة (الابيات ١ ــ ٨) تعبيرا جميلا عن فكرة التغير : « ليس ثمة خير ولا شر ، فهذان المفهومان هما من نتاج نزوات الانسان الفاني واوهامه . وما يعود علي بالنفع اسميه « خيرا » ، وما يعود علي بالضرر والاذى اسميه « شرا » . وتختلف نزوات الانسان واوهامه تبعا لاختلاف المكان والزمان والاجناس البشرية ... الخ . »

والاقتصادي . ويحسن بنا ، في هذا المقام ، ان نستشهد بالملاحظة التالية التي اوردها دافيس : « اذا اراد المرء ان يعرف ما يمكن ان نتوقعه من شخص ما ، فما عليه الا ان يعرف نوع الثقافة التي نشأ فيها ، وليس الصنف العرقي الذي ينتمي اليه »(٤٧) .

اقتصر معظم بحثنا عن مفهوم العرق على الجوانب البيولوجية والنشوئية . فنحن نعتقد ان الالمام بنصيب واف من المعلومات العملية عن الاسس البيولوجية والوراثية للتصنيف البشري هو خطوة في الاتجاه الصحيح . واذا سلمنا بوجود اصناف عنصرية وعرقية ، وجب علينا ايضا ان نقر ان مثل هذه الاصناف لا تخضع لتعريف صارم ولا يمكن تحديدها تحديدا واضح المعالم ، ومن المؤكد انها لا تمثل تصنيفا هرميا اجتماعيا . ان عالم الانثربولوجيا الطبيعية يقصر جهوده على تصنيف البشر وليس على تقويمهم ، فهو ، لسوء الحظ ، كثيرا ما يترك هذا الامر للاحكام الجائرة التي يصدرها المجتمع . غير أنه ، من جهة اخرى ، يستطيع ان يلقي شعاعا هاديا على مشكلة التقويم ، وذلك حين يؤكد انه لا توجد ، من الناحية البيولوجية ، فوارق جسمية اساسية بين الاصناف العنصرية والعرقية ، بالغة ما بلغت في كثرتها وتنوعها ، وان هذه الاصناف كافة تلتقي في امكاناتها البيولوجية والنشوئية . نعود فنؤكد ثانية ان عالم الانثربولوجيا الطبيعية يستطيع ان يلعب دورا في عملية التقويم ، وهو يؤدي هذا الدور فعلا حين يؤكد لزملائه من بني الانسان ان البشر كافة يتساوون من الناحية البيولوجية .

وقد يعلق البعض على هذا الكلام بقوله : « ما شأننا بكل ذلك . ان المهم في الامر ليس الحقيقة البيولوجية ، وانما كيفية استجابة المجتمع وردود فعله » . ونحن ، اذ نسلم بوجاهة هذه الملاحظة ، لا يسعنا الا ان

---

(٤٧) A. Davis, «Racial Status and Personality Development», «Scientific Monthly», XVII (1943), 354-62.

نضيف اليها ما يلي : « لما كانت الاستجابات وردود الفعل الاجتماعية تقوم على افتراض وجـود فوارق بيولوجية وتفاوت في الامكانات النشوئية والاحيائية ، فاننا نأمل ـ عن طريق اثبات مبدأ المساواة البيولوجية ـ ان نقضي الى الابد على الاعتبارات الواهية المزعومة التـي اتخذت اساسا لتطوير مواقف اجتماعية مستهجنة تقوم على التعصب والتحزب . »

ان تطور المعرفـة بطيء نسبيا ، ولكـن تطور الحكمة ابطأ ، فهي تجرر اذيالها في اعقاب المعرفة . ومهما يكن من أمر ، فان الحقيقة الهامة التي تستقطب انظارنا هي ان هناك مسيرة تسعى سعيا حثيثا نحو المساواة، وان سرعة هذه المسيرة تزداد كلما اميط اللثام عن حقائق ونظريات جديدة في ميادين العلوم الاجتماعية والبيولوجية التـي تتضافر جهودها لتحقيق الهدف المشترك الذي تصبو اليه الانسانية ، وهو ايجاد عالم جديد يقوم على السلام والتفاهم على الصعيدين الوطني والدولي .

السيكلوجيا العرقية

اوتو كلينبرج

الفروق السيكلوجية بين الاصناف العرقية هي من المشكلات التي يعنى بها علم الانثربولوجيا وغيره من العلوم الاخرى ذات العلاقة. ولعلها اكثر هذه المشكلات استثارة لاهتمام الناس، وابعدها مدى في مضاعفاتها العملية. فاعتقاد شعب ما بتمتعه بتفوق فطري على غيره من الشعوب ـ وهو اعتقاد لا يقوم على اي نقد ذاتي سليم ـ ساعد على تفسير نسبة هامة من الاعمال العدوانية المنظمة التي جرت في العالم او، على اقل تقدير، ساعد على ايجاد تبرير لمثل هذه الاعمال. ويمثل هذا الاعتقاد جانبا اساسيا من مجموعة المعتقدات التي اعتنقها النازيون والعسكريون اليابانيون، كما انه يلعب دورا هاما في موقف الامريكيين تجاه الاقليات وطريقة معاملتهم لها. وقد لا يكون هذا الاعتقاد السبب الرئيسي للاعمال العدوانية، ولكن لا ريب في انه اسهم بنصيب في تعبئة الذخيرة النفسية اللازمة لتنفيذ الاغراض العدوانية.

ان الاعتقاد بوجود فروق سيكلوجية موروثة بين الجماعات البشرية واسع الانتشار. ففي ايلول (سبتمبر) أُجري استفتاء (بطلب من جمعية كارنيجي لدراسة احوال الزنوج في امريكا) وجه فيه السؤال التالي: «هل تعتقد ان الزنوج اليوم، بوجه عام، اشد او اقل ذكاء من البيض، أم هل تعتقد انهم يستوون معهم في الذكاء؟» وفي جميع

مناطق الاستفتاء كـان رأي اغلبية الذيـن جرت مقابلتهم ان الزنوج متخلفون عـن البيض في الذكاء ، واختلفت نسبة اصحاب هذا الرأي تبعا لاختلاف المناطق ، اذ تراوحت من ٦٠ الى ٧٦٫٩ في المائة . ثم وجه السؤال التالي الى الذين اعربوا عن اعتقادهم بان الزنوج متخلفون عن البيض في الذكاء : « هل تعتقـد ان تخلف الزنوج في الذكاء يعـود (١) الى انه لم تتح لهم فرص كافية ، او (٢) الى انهم يولدون اقل ذكاء من البيض ، أو (٣) الى العاملين معا ؟ » وتراوحت نسبة الذين عزوا التخلف الى العامل الاول وحده من ٢٨٫٧ الى ٥٤٫٨ في المائة . أما نسبة الذين اعربوا عن اعتقادهم بان التخلف يعود ـــ جزئيا على اقل تقدير ـــ الى عامل الوراثة (أي الذين اجابـوا « نعم » عن القسمين الثاني والثالث من السؤال الثاني) فقد تراوحت من ٥٥٫٥ الى ٧٩٫٢ في المائة[1] . ويجب الا نسيء فهم الارقام الاخيرة ، فهي لا تمثل نسبا مئوية من مجموع السكان ، وانما نسبا مئوية من مجموع الذين اعربوا عن اعتقادهم بان الزنوج متخلفون عن البيض في الذكاء . ومهما يكن من أمر ، فان هذه النسب تشير بعض الشيء الى مدى انتشار الاعتقاد ، بين عامة الناس ، بوجود تباين بيولوجي بين الفئات العرقية .

أما بالنسبة للموقف الحالي للعلماء الامريكيين ، فيبدو ان اغلبيتهم الساحقة تقف الى جانب اولئك الذين يعتقدون انه ليس ثمة ما يثبت ان الفوارق السلوكية بين الفئات العرقية او الوطنية المختلفة تعود في الاصل الى عوامل بيولوجية . واذا استثنينا حالات قليلة جدا ، وجدنا انه من الممكن تفسير مثل هـذه الفوارق ، ان وجدت ، عـلى اسس ترتبط بالاوضاع التاريخية والثقافية وبتفاوت فرص التعليـم والخبرة المتاحة

---

(١) E.L. Horowitz, «Race Attitudes», in «Characteristics of the American Negro», ed. Otto Klineberg (New York, 1944).

للفئات المختلفة . ولعله من المفيد ان نذكر ما قاله جونار مردال (Gunnar Myrdal) في هذا الصدد : « هناك فجوة كبيرة بين التفكير العلمي وبين معتقدات عامة الناس . وتكاد تكون هذه الفجوة ، بالنسبة لقضية الزنوج في امريكا ، اوسع منها في اي مجال آخر ، وذلك على الرغم من الجهود المركزة الحميدة التي تبذل لتعميم نتائج البحث العلمي »[٢] . وسنحاول في الصفحات التالية تقديم بعض الادلة التي تستند اليها وجهة النظر الانثربولوجية الحالية .

ونحن ، اذ نشدد على كلمة « الحالية » في هذا المقام ، لا نعني ان الموقف الذي نتبناه هنا مؤقت أو انه ينتظر ان يخلفه موقف آخر في المستقبل القريب ، انما نقصد بذلك اجراء مقابلة بين الوضع الحالي والوضع السابق . فمن « اخطاء علم الاجتماع » ، التي وفق أودم (Odum) في عرضها في مجمل مفيد ، « الافتراض بان الفوارق بين الاصناف العرقية متأصلة فيها وملازمة لها ، وليست نتاجا جماعيا للتباين الناجم عن تراكم أثر العوامل المتصلة بالبيئة الجغرافية والثقافية »[٣] . ونضيف هنا ان الوقوع في هذا الخطأ لم يقتصر على علماء الاجتماع ، وانما تعداهم حتى شمل ايضا الكثيرين من علماء النفس وبعض علماء الانثربولوجيا . ونستطيع ان نستشهد بعدة امثلة لكتاب تبنوا في مؤلفاتهم الاولى الرأي الدارج عن الفوارق السيكلوجية بين الاصناف العرقية ، ثم تخلوا عنه كليا في مؤلفاتهم المتأخرة . ولعل هذه الحقيقة افضل دليل على التغير الذي حدث في هذا الميدان من الابحاث .

وقبل ان نختتم هذه المقدمة ، نلفت نظر القارىء الى ان المصطلحين « عرق » و « عرقي » استعملا باللغة الدارجة استعمالا سائبا يفتقر الى

---

(٢) Myrdal, «An American Dilemma» (New York, 1944), p. 93.

(٣) H.W. Odum, «The Errors of Sociology», «Social Forces», XV (1936-37), 327-42.

التحديد الواضح . وفي الفصل السابق من هذا المؤلف ، تناول الكاتب بالبحث بعض الصعوبات والتعقيدات المتصلة بمفهوم العرق . ولعل النقطة الوحيدة التي تحتاج الى تأكيد في هذا الفصل هي ان الاصناف العرقية فئات بيولوجية يجب ألا نخلط بينها وبين الامم (كالانجليزية والامريكية والروسية واليابانية) ، ولا بينها وبين الاسر اللغوية (كالآرية واللاتينية والسامية) ، وسنحاول في الفقرات القادمة ان نحدد ، بشيء من الدقة ، طبيعة الفئات التي سندرس سيكلوجيتها .

عولجت مشكلة السيكلوجيا العرقية من زوايا مختلفة ، كما طبقت عليها عدة معايير متمايزة او مبادىء مختلفة في التقويم . فدراسة الخصائص الجسمية للفئات العرقية ، مثلا ، دفعت بعض الباحثين الاوائل الى الاستنتاج بان هذه الفئات تختلف في تطورها النشوئي ، اي انها تتفاوت في مدى « بدائيتها » او مدى تقدمها . وخلص هؤلاء الباحثون الى الاعتقاد بان المستوى السيكلوجي لهذه الفئات يختلف تبعا لاختلاف خصائصها الجسمية . غير انه اتضح من نتائج الابحاث المتكررة التي اجريت حول هذا الموضوع (راجع بحث كروجمان) ان النظام الهرمي المزعوم للبنية الشكلية للاصناف العرقية الموجودة يستند الى نظرة ضيقة والى فهم ناقص للادلة ، كما تبين ان الاعتقاد بوجود نظام هرمي ينهار لدى اجراء دراسة شاملة تأخذ بعين الاعتبار جميع المعطيات المتوافرة . أما البيانات الخاصة بالفسيولوجيا العرقية ، فهي ايضا مرتبطة بالقرار الذي تتخذه بشأن مشكلة السيكلوجيا العرقية ، وقد جرى تحليلها في الفصل السابق من هذا الكتاب . ويكفي ان نشير في هذا المقام الى ان معظم الفوارق الفسيولوجية الملحوظة تبدو ثانوية الاهمية بالمقارنة مع العوامل الاخرى . ونذكر ، على سبيل المثال لا الحصر ، ان التباين في عملية الايض الاساسية تتأثر ، على ما يبدو ، بتباين المناخ والحرفة ونسق النشاط والخبرات الانفعالية وما شاكل ذلك من العوامل،

ولذا لا يمكن الاستناد اليها في تفسير الفروق السلوكية تفسيرا مقنعا .

وثمة طريقة أخرى في المعالجة تتمثل في المحاولة التي يبذلها البعض لتفسير الفروق في السيكلوجيا العرقية على اساس مدى اسهام الفئات العرقية المختلفة في المجموع الاجمالي لثقافة العالم وحضارته . ولعل ابرز مثال تاريخي على هذه المحاولة البحث الذي نشره غوبينو (Gobineau) في منتصف القرن الماضي بعنوان « مقال عن تباين الاصناف العرقية البشرية » . وكان لهذا المقال اثر في تطوير اتجاه خاص يقوم على معالجة نظرية بعيدة عن الواقع ، وما زالت آثار هذا الاتجاه ملموسة في عصرنا الحاضر . وقد مجد غوبينو « الآريين » مع العلم بانهم لا يشكلون عرقا واحدا بالمعنى الدقيق للمصطلح . وعلاوة على هذا النقص ، فان هناك اسبابا كثيرة اخرى تجعلنا نشك في وجاهة هذا النمط في المعالجة . أولا ، ليس ثمة معيار مرض نستطيع على اساسه ان نحكم ما اذا كانت ثقافة معينة متفوقة او متخلفة . ثانيا ، ان اي قرار بشأن انواع الاسهام الثقافي التي تمكن نسبتها الى تفوق بيولوجي يختلف تبعا لاختلاف تحزب الكتاب وتباين ميولهم وأهوائهم. ثالثا ، ان اي شعب قد يتعرض ، خلال تاريخه الطويل ، لتقلبات كثيرة جدا حتى ان اي حكم بشأن قدراته يعتمد ليس على الاعتبارات المغرضة فحسب ، وانما ايضا على الفترة التي صدر فيها هذا الحكم . ومن الامثلة على ذلك التباين الغريب بين موقفي ارسطوطاليس وهوستون ستيوارت تشمبرلن (Houston Stewart Chamberlain) تجاه الشعوب الاوروبية الشمالية . فقد وصفها الاول بعبارات تنال من سمعتها ، في حين افترض الثاني في كتابه « اسس القرن التاسع عشر » ان هذه الشعوب ، وبخاصة الشعوب التوتونية ، تتفوق على سائر الشعوب الاخرى . رابعا ، قد تضم جماعة عرقية واحدة فئتين تمثلان ثقافتين متباعدتين جدا ، وهذا من شأنه ان يزيد من الصعوبات التي

نواجهها حين نحاول ايجاد علاقة بين الثقافة والعرق . ففي ادغال بورما ، مثلا ، نجد قبائل ساذجة بدائية تشبه في نمطها الجسمي الصينيين الذين طوروا حضارة تعتبر من أكثر الحضارات العالمية تعقيدا . وفي المناطق الجنوبية الغربية من الولايات المتحدة الامريكية نلاحظ ان قبائل الاباش التي تنزع الى القتال والحرب تنتمي الى ذات « العرق » الذي تنتمي اليه قبائل البويبلوس التي تنزع الى الهدوء والسلم .

ومن جهة اخرى عبر البعض عن اعتقاده بان تباين الفئات البشرية من الناحية الجسمية يزيد كثيرا من احتمال تباينها من الناحية السيكلوجية أيضا . وساد هذا الاعتقاد بين الكثيرين من عامة الناس ، وفي بعض اوساط العلماء ، حتى ان فرانز بواس **(Franz Boas)** كتب في الطبعة الاولى من كتابه « عقل الانسان البدائي » ما يلي :

« اذا تباينت الاصناف العرقية في تركيبها التشريحي ، فانه من المستبعد ـ على ما يبدو ـ ان تعمل عقولها بذات الطريقة في جميع الحالات . فالفروق في التركيب لا بد من أن تقترن بفروق في الوظائف الفسيولوجية والسيكلوجية . وبما اننا اكتشفنا بينات واضحة تقيم الدليل على وجود فروق تركيبية بين الاصناف العرقية ، فانه ينبغي لنا ان نتوقع وجود فروق في الخصائص العقلية »[٤] .

والجدير بالذكر ان هذه الفقرة لا تظهر في طبعة ١٩٣٨ من هذا الكتاب ، ومن المرجح جدا ان بواس غير رأيه في هذا الموضوع . ومهما يكن من أمر ، فان ربط الفوارق السيكلوجية بالفوارق الجسمية أمر مشكوك في صحته . ويمكن القول اننا ما زلنا نفتقر الى برهان مقبول يثبت وجود علاقة بين بنية الجسم والشخصية ضمن المدى العادي للتباين الفردي . وقد بذلت محاولات للربط بين سمات الذكاء أو المزاج

---

(٤) New York, 1911, pp. 114-15.

وبين الخصائص التشريحية (القامة ، ولون الجلد ، وشكل الرأس وحجمه ، وارتفاع الجبهة ، وما شاكل ذلك) . غير ان نتائج هذه المحاولات لا تكاد تنطوي على اية قيمة تنبؤية . وحاول كرتشمر[٥] (Kretschmer) معالجة المشكلة على اساس طراز البنية ، ولكنه اخفق في تحقيق ما تعهد به ، كما انه اخفق في تطبيق طريقته في المعالجة على الشخصيات العادية . وتبع ذلك محاولة قام بها شلدن (Shelden) وزملاؤه للربط بين بنية الجسم والنواحي السيكلوجية[٦] . وتعتبر ابحاث شلدن خطوة الى الامام فيما يختص بوصف انماط البنية البشرية. أما العلاقة المزعومة بين هذه الانماط وبين الضروب المزاجية المختلفة ، فلا تزال مثار جدل ولا يمكن اعتبارها ثابتة بالبرهان . وبعبارة اخرى ، ان القول بان « الفروق التركيبية لا بد من أن تقترن بفروق وظيفية » لا يزال فرضية بحاجة الى برهان بالنسبة للمدى العادي للخصائص الجسمية البشرية .

ومن جهة اخرى ، قد توجد علاقة من النوع الذي افترضه بعض الكتاب الذين تقدم ذكرهم ، اذا توافرت ظروف خاصة معينة . ففي مجتمع صغير منعزل درج على حصر التزاوج في نطاقه الضيق نسبيا ، قد تتوقع وجود درجة ملحوظة من التجانس في السمات الجسمية بين اعضائه ، يرافقه تجانس في السمات السلوكية التي تتأثر بعامل الوراثة . ان مجتمعا كهذا يمثل ، في الواقع ، عائلة موسعة . واذا استمر التزاوج محصورا ضمن نطاق هذا المجتمع ، فليس من المستبعد ان يكون الشبه بين اعضائه ، من الناحيتين الجسمية والسيكلوجية ، أشد منه حتى بين اعضاء العائلة الكبيرة العادية . في هذه الحالة فقط واستنادا الى هذا

---

(٥) Ernst Kretschmer, «Physique and Character», trans. W.J.H. Sprott (New York, 1925).

(٦) W.H.Shelden, S.S. Stevens, and W.B. Tucker, « The Varieties of Human Physique» (New York, 1940).

المفهوم ، يمكن القول ان هنـاك ضربا من « السيكلوجيا العرقية » . وهذه الاعتبارات نفسها تكاد تنطبق ايضا على الفروق « السيكلوجية » التي نلاحظها بـين « أنسال » الكلاب . فالتكويـن الجيني « للنسل النقي » متجانس نسبيا ، نظرا لانـه لا يسمح للجينات الخارجية بان تختلط مـع جينات انواع معينة مـن كلاب الصيد . وليس مستغربا ، والحالة هذه ، ان يظهر احد انواع الكلاب ميلا فطريا الى طراز معين من السلوك . حتى في « انسال نقية » كهذه ، هناك مجال كبير للتباين الفردي . ومهما يكن مـن أمر ، يجب ان يتضح في اذهاننا ان اقتران النواحي الجسمية بالنواحي السيكلوجية ، سواء في المجتمعات البشرية المنعزلة او في الانسال المتجانسة مـن الحيوانات ، لا يمكن ان يقيم الدليل على وجود ظاهرة مماثلة في مجموعات بشرية اكبر واشد تباينا من المجموعات الصغيرة المنعزلة ، اي في ما يعرف بمصطلح « الاصناف العرقية البشرية » .

وثمة ملاحظة اخيرة نوردها في هـذا الصدد ، وهي : اذا كانت الفروق التشريحية التي تؤلف اساس التصنيف العرقي تعود في الاصل الى عوامل مرتبطة باثر البيئة الجغرافية ، فان ذلك يجب الا يحملنا على الافتراض بان لهذه الفروق دلالة سيكلوجية . ولتوضيح هذه النقطة نستشهد بالمثال المحدد التالي : قيل ان التباين في لون الجلد قد يعود الى مظاهر متفاوتة لعملية الانتقاء ترتبط باثر اشعة الشمس الاكتينية . فاذا كان الجلد قليل الاختضاب ، كما هي الحال في اوروبا الشمالية ، فان ذلك ميزة تساعد على البقـاء نظرا لان الجلد يكـون اقدر على امتصاص الاشعة الاكتينية الضعيفة نسبيا . والعكس صحيح ، اي ان لون الجلد في المناطق الحارة يعتبر ميزة تساعد على البقـاء ، نظرا لان الاختضاب يقي الجسم من احتمـال امتصاص قدر كبير مـن هـذه الاشعة . ومن المتوقع ، بعد انقضاء زمن كاف ، ان يكتسب ذوو الجلد

الابيض قدرة على البقاء في المناطق الشمالية ، وذوو الجلد الملون قدرة على البقاء في المناطق الحارة . وفي ظروف كهذه (أو تحت تأثير عوامل انتقائية مماثلـة) لا نجد سببا يحملنا عـلى الافتراض بان العوامـل السيكلوجية لعبت اي دور هام في تطور الفروق التشريحية . وبناء على ذلك ، ليس هنـاك ما يبرر لنا ان نتوقع وجود اية علاقة بـين سمات الشخصية وبين مقدار الصبغ السافع او اي اختضاب آخر في الجلد .

ولا بد لنا من الاشارة هنا الى ان الوصف الذي قدمناه للطرق المختلفة في معالجة السيكلوجيا العرقية ليس شاملا ولا مستوفيا لجميع جوانب المشكلة . ومهما يكن من أمر ، فانه يعطينا فكرة عن تعقيدات المشكلـة وعـن اسباب عزوف الكثيريـن مـن العلماء الاجتماعيين والبيولوجيين عن قبول الرأي الدارج الذي يقول ان الاصناف العرقية تختلف في صفاتها العقلية الموروثة . على ان هناك طريقة جديدة في البحث تستدعي منا دراسة اوسع من الطرق السابقـة ، وذلك نظرا للاهتمام الكبير الذي استأثرت به في السنوات الاخيرة .

ان الطريقة القائمة على استعمال الاختبارات العقلية في هذا الميدان الذي كان ولا يزال مثار جدل تتمتع ، على ما يبدو ، بميزات تجعلها تتفوق على معظم الطرق الاخرى المقترحة ، ان لـم يكن عليها كلها . فالاختبار يتمتع بقدر كبير من الموضوعية ، وهو يزودنا بنتائج يمكن ان يتحقق منها باحث آخر عن طريق اعادة الدراسة واجراء اختبارات مماثلة على فئات تكاد تشبه الفئات التي اجريت عليها الدراسة الاولى . وهو يمدنا بتقديرات كمية تصلح اساسا لتحليل احصائي يساعدنا على الحكم على الفروق بـين الامم او الاصناف العرقيـة في ضوء تحقيقها لمعايير احصائية ذات دلالة معينة . وهو ، علاوة على ذلك ، يلقي ضوءا ليس على متوسط الاداء فحسب ، وانما ايضا على مدى التباين في التقديرات والنتائج التي يحصل عليها افراد الفئة التي اجري عليها الاختبار . الا ان

له عيبا واحدا ربما كان من الصعب التغلب عليه . فهو يزودنا بنتائج متباينة للافراد والجماعات . ولكن هذه النتائج المتباينة لا يمكن ان نعزوها باطمئنان الى عامل الوراثة الا اذا كانت الظروف البيئية التي يعيش فيها الافراد المعنيون (أو الجماعات المعنية) متشابهة الى ابعد حدود التشابه . فاذا كانت الفئة التي نجري عليها اختبارات عقلية متجانسة نسبيا ، فان التباين الكبير في العلامات التي نحصل عليها من تطبيق هذا النوع من الاختبارات يشير ــ على نحو لا يكاد يتطرق اليه أي شك ــ الى وجود تباين كبير في القدرات العقلية الموروثة . أما اذا اجرينا المقابلة بين امتين او مجموعتين سكانيتين متمايزتين ، فانه يكاد يكون من المتعذر ايجاد هذه الدرجة من التجانس ، ولذا ينتظر ، في مثل هذه الحالات ، ان تكون الفروق في علامات الاختبار عرضة لتفسيرات شديدة التباعد .

وقد اجريت اختبارات عقلية على فئات عرقية مختلفة في الولايات المتحدة الامريكية ، وتبين من النتائج ان هنالك فروقا في معدلات العلامات . فالعلامات التي حصل عليها الامريكيون الذين ينتمون الى اصل انجليزي او اسكتلندي او الماني أو صيني أو ياباني تماثل أو تقترب من المعايير الامريكية . أما الفئات الاخرى فمعدلاتها دون المعايير الامريكية . فقد اجريت ، مثلا ، ٢٧ دراسة مختلفة على الزنوج الامريكيين فكانت النتيجة الوسطية حاصل ذكاء قدره ٨٦ (المعيار ، بطبيعة الحال ، هو ١٠٠) . ويجدر بنا ان نلاحظ هنا ان مدى المعدلات التي سجلت في هذه الدراسات تراوح بين حاصل ذكاء قدره ٥٨ (في تنسي) وحاصل ذكاء قدره ١٠٥ (عند الاطفال الزنوج الذين اجري عليهم الاختبار في لوس انجلس) . ومن الفئات التي حصلت ايضا على معدلات ادنى من المعايير الامريكية ، الامريكيون الذين هم من أصل ايطالي . وقد اجريت عليهم ١٦ دراسة مختلفة ، فكان حاصل

الذكاء الوسطي ٨٥ ، في حين تراوحت نتائج الدراسات الفردية من ٧٩ الى ٩٩ . وفيما يلي جدولا بعدد الدراسات التي اجريت على فئات اخرى مع بيان نتائجها :

الفئة	عدد الدراسات	حاصل الذكاء الوسطي	مدى نتائج الدراسات الفردية
امريكيون من أصل برتغالي	٦	٨٤	٨٣ ــ ٩٦
امريكيون من أصل مكسيكي	٩	٨٣ر٤	٧٨ ــ ١٠١
هنود امريكيون	١١	٨٠ر٥	٦٥ ــ ١٠٠

ومن الامور التي تستلفت انتباهنا المدى الواسع في المعدلات التي حصلت عليها فئات مختلفة من الزنوج الامريكيين ، اذ تراوح حاصل الذكاء من ٥٨ الى ١٠٥ . ويثير هذا الامر مشكلة التباين داخل الجماعة « العرقية » الواحدة التي يعيش افرادها في ظروف بيئية مختلفة . وقد لوحظ منذ زمن طويل ان الزنوج الشماليين يحصلون على علامات متوسطها اعلى من متوسط العلامات التي يحصل عليها الزنوج في المناطق الجنوبية . ومن البينات التي تقيم الدليل القاطع على هذا التفوق نتائج الفحوص التي اجريت على مجندي الجيش في الحرب العالمية الاخيرة[٧] . وفي الوقت نفسه هناك دلائل تشير الى ان الزنوج المجندين من بعض الولايات الشمالية حصلوا على علامات متوسطها اعلى من متوسط العلامات التي حصل عليها البيض المجندون من بعض الولايات الجنوبية . وتنطبق هذه الملاحظة ، على اقل تقدير ، على اولئك الذين تقدموا لاختبار « الفا » الذي اجراه الجيش . فقد تردد كثيرا ان الزنوج

(٧) R.M. Yerkes, ed., «Psychological Examining in the U.S. Army», «Memoirs of the National Academy of Science», XV (1921).

المجندين من اوهايو والينوي ونيويورك سجلوا في هذا الاختبار علامات اعلى من العلامات التي سجلها البيض المجندون من بعض الولايات الجنوبية كمسيسيبي وكنتوكي واركنساس . وفي الابحاث المقارنة السابقة التي دارت حول هذا الموضوع ، لم يشر الكتاب (بما فيهم كاتب هذا المقال) بوضوح كاف الى ان هذه المقارنات لا تستند الا الى اختبار « الفا » الذي وضعه الجيش . وبما ان الاختبار كان اختبار « لغة » ، فانه لم يتقدم اليه جميع المجندين . ولعلنا نكون اقرب الى الصواب اذا نحن عبرنا عن النتيجة على النحو التالي : ان المجندين من زنوج بعض الولايات الشمالية الذين يعرفون القراءة والكتابة سجلوا في اختبار « الفا » للجيش علامات متوسطها اعلى من متوسط العلامات التي سجلها زملاؤهم البيض الذين جندوا من بعض الولايات الجنوبية والذين تقدموا للاختبار ذاته .

ولو أمكن الجمع بين نتائج جميع الاختبارات التي اجريت خلال الحرب العالمية الاخيرة ، لكان في مقدورنا ان نعتمد اساسا اوفى للمقابلة . غير انه يتعذر علينا القيام بذلك على وجه مرض ، نظرا لان الاختبارات الاخرى (كامتحان « بيتا » ، مثلا ، الذي لا يختبر القدرة اللغوية) تقيس قدرات قد تختلف عن القدرات التي يقيسها اختبار « الفا » . ونذكر في هذا المقام ان سي. سي. برايام (C.C. Brigham) استعمل في بحثه « دراسة الذكاء الامريكي » (١٩٢٢) مجموعة من نتائج الاختبارات المختلفة التي اجراها الجيش ، واخضعها للتحليل الدقيق ، ولكنه استنتج في وقت لاحق ان هناك مفارقات كثيرة حتى في نتائج اختبار « الفا » نفسه ، وهذا دفعه الى الاعتقاد بانه « من العبث ملاحقة الامر الى ابعد من هذه النقطة ، أو محاولة الجمع بين نتائج اختبارات ألفا وبيتا وستانفورد ـ بينيه واختبارات الاداء الفردي

بقصد التوصل الى ما يسمى « الميزان او السلم الموحد » »[8] . وكان من جراء هذه الصعوبات وغيرها من الصعوبات المماثلة ان تخلى برايام كليا عن فكرة « النظام الهرمي العرقي » التـــي حاول اثباتها في ابحاثه الاولى . وهذا يعيد الى اذهاننا الموقف الذي اتخذه أودم (Odum) في بحثه « اخطاء علم الاجتماع » ، ويقـــدم لنا دليلا آخر عـــلى التغير الذي طرأ على موقف العلماء الاجتماعيين الامريكيين في هذا الميدان .

وبناء على الانتقادات التي اوردها برايام ، يبدو انه من الافضل الا نحاول الجمع بين نتائج الاختبارات المنفصلة . غير انه من الممكن ان نتوصل الى النتيجة ذاتها بالنظر الى متوسط العلامات التي سجلتها اي فئة من الزنوج الشماليين في كلا الاختبارين الفا وبيتا ، ومقابلته مـــع متوسط العلامات التي سجلتها اي فئة مـــن البيض الجنوبيين في كلا هذيـــن الاختبارين . واذا تفحصنا النتائـــج الاصلية في الجداول ٢٠٠ و ٢٠١ و ٢٤٧ و ٢٥٠ في مذكـــرة يركس (Yerkes' Memoir) ، تبين لنا ان بعض الفئات من الزنوج الشماليين تفوقت على بعض الفئات من البيض الجنوبيين . فالزنوج الذين جندوا من ولايتي اوهايو وانديانا ، مثلا ، سجلوا تفوقا في كلا الاختبارين على البيض الذين جندوا مـــن ولايتي كنتوكي ومسيسيبـــي . وهذا يدعم ما انتهينا اليه وهو ان الزنوج المجندين من بعض الولايات الشمالية حصلـــوا ، في اختبارات الذكاء التي اجراها الجيش ، على علامات اعلى من العلامات التي حصل عليها البيض المجندون من بعض الولايات الجنوبية .

ولعل افضل تفسير لهذا الاكتشاف هو ان النتائج تتأثر بالظروف البيئية والمعيشية . فالزنوج الامريكيون الذين يعيشون في ظروف بيئية مواتية نسبيا يحصلون على نتائج عالية في الاختبارات ، في حين يحصل

---

(٨) Brigham, «Intelligence Tests of Immigrant Groups», «Psychological Review», XXXVII (1930), 158-65.

البيض الذيـن يعيشون في ظروف سيئة نسبيا عـلى نتائج منخفضة . وهكذا يبدو ان العامل المتغير الذي يلعب دورا حاسما في المشكلة هو البيئة وليس « العرق » . وهناك عوامل بيئية رئيسية تؤثر في نتائج مثل هذه الاختبارات ، ويرجح ان نوعية الخدمات التعليمية المتوافرة تلعب دورا هاما في هـذا المضمار . فاذا القينا نظرة سريعـة عـلى البيانات الاحصائية الخاصة بمعدل التكلفة الفعليـة للطفل الواحد في المدارس الخاصة بالزنوج والمدارس الخاصة بالبيض في الولايات الجنوبيـة ، لاتضح لنا البون الشاسع بين مستويي الخدمات التعليمية المتوفرة في هذين النظامين التعليميين المنفصلين . ولاتضحت كذلك العوائق التـي تقف في وجه الاطفال الزنوج . وتكشف البيانات الاحصائية النقـاب ايضا عن أن الاطفال البيض في الجنوب اقل حظا من زملائهم في الشمال، هذا مع انهم اوفر حظـا من زملائهم السـود في الجنوب . وفي العـام الدراسي ١٩٣٥ ـ ١٩٣٦ بلغ متوسط النفقات التعليمية للطفل الواحد في جميع المدارس العامة في الولايات المتحدة ٧٤ دولارا . ويلاحظ المرء مدى التفاوت الكبير في متوسط النفقات بين الولايات المختلفة. فولايات نيويورك ونيفادا وكاليفورنيا انفقت في ذلك العام أكثر من ١١٥ دولارا على الطفل الواحد ، في حين انفقت ولايات الباما ومسيسيبي واركنساس اقل من ٣٠ دولارا . أما في حالة الاطفال الزنوج ، فان متوسط النفقات في ١٠ ولايات جنوبية بلغ ١٧٫٠٤ دولار ، في حـين بلغ ٤٩٫٣ دولار بالنسبة للاطفـال البيض في الولايات نفسهـا . وفي ولايتي مسيسيبي وجورجيا لم ينفق على تعليم الاطفال الزنوج في العام الواحد الا بمعدل ٩ دولارات تقريبا للطفل الواحد(٩) . واذا اخذنا بعين الاعتبار العلاقة المعروفة بين التعليم الجيد ومستوى الاداء في اختبارات الذكاء ، فانه من غير المستغرب ان تكون نتـائج البيض افضل في الشمال منها في

(٩) Myrdal, «An American Dilemma».

الجنوب ، أو ان تكون نتائج الزنوج في الجنوب ضعيفة على وجه العموم .

وثمة احتمال آخر لا بد من الاشارة اليه في سياق هذا البحث ، وهو ان تفوق الزنوج الشماليين على زملائهم الجنوبيين قد لا يعود الى ارتفاع مستوى الخدمات التعليمية الميسرة لهم بقدر ما يعود الى « عامل الانتقاء » في حركات الهجرة ـ أي هجرة أذكى الزنوج من الجنوب الى الشمال . فالكاتبان بيترسون (Peterson) ولانيير (Lanier) [١٠] مثلا ، تبنيا هذه النظرة في سياق تفسيرهما للظاهرات التي لاحظاها خلال الابحاث التي قاما بها في عدد من المدن . فقد تبين لهما ان البيض في ناشفيل كانوا يتمتعون بتفوق ملحوظ على الزنوج في المدينة نفسها ، في حين لم يتمتع البيض في شيكاجو الا بتفوق ضئيل على الزنوج من سكان هذه المدينة ، أما في مدينة نيويورك فلم تسجل فروق تذكر بين الجماعتين العرقيتين . وعلق هذان الكاتبان على هذه الظاهرة بقولهما : « يبدو ان مدينة نيويورك تشهد ، في ظل الكفاح الشديد من أجل الوجود ، تطور صفوة مختارة من السكان الزنوج الذين يمثلون افضل الجينات في العرق الاسود » . على ان هذا الرأي لا يزال على صعيد الفرضيات ، اذ لم تتوافر بعد بينات ملموسة تقيم الدليل على صحته . فالناس يهاجرون لاسباب كثيرة مختلفة ، ولم يثبت بالبرهان بعد ان المع الافراد هم الذين يهجرون ديارهم ، او ان اقلهم ذكاء هم الذين يلازمون مواطنهم الاصلية . وقد اجريت سلسلة من الدراسات على هذه المشكلة[١١] ، ولكنها لم تنجح في اقامة الدليل على ان هجرة الزنوج الجنوبيين الى الشمال جرت على اسس « انتقائية » تتصل

---

(١٠) J. Peterson and L.H. Lanier, «Studies in the Comparative Abilities of Whites and Negroes», «Mental Measurement Monographs», V (1929), 1-156.

(١١) Otto Klineberg, «Negro Intelligence and Selective Migration» (New York, 1935).

بالذكاء . ومن جهة اخرى ، استطاع الباحثون ان يثبتوا ان هناك علاقة وثيقة بين نتائج الاختبارات التي اجريت على الاطفال الزنوج الذين ولدوا في الجنوب ثم انتقلوا للاقامة في نيويورك ، وبين المدة التي قضاها هؤلاء الاطفال في البيئة الشمالية المتفوقة . وبعبارة اخرى ، ان الاطفال الزنوج الذين هاجروا من الجنوب الى الشمال لم يقدموا اي دليل على تفوقهم في « الذكاء » (كما تقيسه الاختبارات العقلية) اثر انتقالهم الى الشمال لاول مرة . ولكنهم اكتسبوا هذا التفوق على مر الزمن نتيجة لتحسن نوعية التعليم وازدياد الفرص المتاحة لهم للتعلم في بيئتهم الجديدة .

ان النتيجة التي اثبتناها في الفقرات السابقة لا تدعو الى الاستغراب . فقد توافرت لدينا دلائل كثيرة تشير الى مدى تباين نتائج الاختبارات تبعا لتباين البيئة . ولعل اشهر الدراسات في هذا الميدان ، واشدها استثارة للجدل ، هي الدراسة التي اجراها ب. ل. ولمان (B.L. Wellman) وزملاؤه في جامعة أيوا (Iowa) (١٢) . ولا ننكر هنا ان بعض التغييرات التي سجلت بالنسبة للموضوعات الفردية كبيرة جدا حتى انها توحي بان هناك عوامل اخرى تلعب دورها ، كالحالة الانفعالية او الصحية للفرد اثناء تأدية الامتحانات المختلفة . ولكن معدل التغير الناتج عن الدوام في مدارس الحضانة يبدو انه يقع ضمن الحدود المتوقعة . ومهما يكن من أمر ، فان هذه النتيجة العامة تنسجم انسجاما كليا مع نتائج الكثير من الدراسات الاخرى حتى ان اي جدل يثور حولها لا يجد ما يبرره الا بالنسبة لمقدار التغير المشار اليه في التقارير ، وليس بالنسبة للحقيقة القائلة بان التغيرات البيئية قد تؤثر تأثيرا هاما في نتائج اختبارات الذكاء .

---

(١٢) يجد القارىء موجزا لهذه الدراسات والانتقادات التي وجهت اليها في: «Intelligence : Its Nature and Nurture»; the 39th Yearbook of the National Society for the Study of Education, published in 1940.

ومن الممكن اثبات وجود اثر البيئة حتى في حالة الأطفال البيض المنحدرين من أصل امريكي ابيض . ولذا ليس من الضروري ان تفصل القول حول النتيجة التي توصلنا اليها ، وهي ان المقابلة بين الاصناف العرقية المختلفة على اساس اختبارات الذكاء ستظل موضع شك طالما ان التباين موجود في الفرص البيئية المتاحة للفئات المتنوعة التي تجرى عليها الاختبارات . وسبق ان اشرنا الى مدى التفاوت في نوعية التعليم وفرصه ، وبخاصة الى انخفاض مستوى التعليم في حالة الزنوج الموجودين في الولايات الجنوبية . الا ان التعليم لا يمثل الا واحدا من العوامل المختلفة التي تؤثر في نتائج اختبارات الذكاء . فقد تبين من الدراسات الكثيرة التي اجريت حول هذا الموضوع ان هناك تفاوتا في حاصل ذكاء الاطفال الذين يعيشون في اوضاع اقتصادية مختلفة . فابناء المزارعين والعمال اليوميين لا يحصلون في اختبارات الذكاء على نتائج من مستوى نتائج ابناء الاطباء او اصحاب المصارف . ومن المحتمل ايضا ان تسهم العوامل الوراثية في التأثير على نتائج اختبارات الذكاء ، هذا مع العلم بان هذا الاثر لم يثبت بعد على نحو يقيني جازم . ويكفي ، في هذا المقام ، ان نؤكد ان البيئة تلعب دورا مهما ، وان نضيف الى ذلك ان هذا القول صحيح بغض النظر عن الاثر الذي تتركه الوراثة . وتبرز هذه النقطة بوضوح في الدراسات التي اجريت على الابناء بالتبني . فقد تبين ان العلامات التي يحصلون عليها في اختبارات الذكاء ترتفع حين تشرف على تربيتهم عائلات ميسورة الحال . واذا صح هذا الكلام ، فان الوضع الاقتصادي المتخلف للزنوج والايطاليين والبولنديين والبرتغاليين وغيرهم من الذين لم يحققوا معايير الاختبارات، يجب ان يؤخذ بعين الاعتبار في كل محاولة تبذل لتفسير النتائج .

ويجب ان ننتبه ايضا الى حقيقة اخرى ، وهي ان الكثيرين من أفراد هذه الفئات يتكلمون لغتين ، وهذا يقف عائقا في سبيل تحصيلهم

على نتائج افضل في اختبارات الذكاء[13] . ونذكر على سبيل المثال انه اجريت دراسة على فئة من هنود اتناريو الذين كانـوا جميعا يتكلمون الانجليزية ، ولكن بشيء من الصعوبة . وتبين مـن هذه الدراسة ان حاصل الذكاء عند هذه الفئة من الهنود كان اقل في الاختبارات اللغوية منه في الاختبارات التي لا تتطلب قدرة لغوية عالية . أما الاطفال الهنود الذين لم يتكلموا الا لغة واحدة (وهي اللغة الانجليزية) فقد سجلوا تفوقا على الاطفال الثنائيي اللغة في جميـع الاختبارات ما عدا اختبار الانجاز العملي من اعداد بنتنر وباترسون (Pintner-Paterson) [14] .

وتكررت هذه النتيجة في الاختبارات التـي اجريت عـلى فئات كثيرة اخرى . ومجمل القول ، ان الاطفال الثنائيي اللغة لا يتمتعون ، في معظم الحالات ، بذات المزية التي يتمتع بها الاطفال الاحاديي اللغة ، وذلك حين تجرى عليهم اختبارات ذكاء من النوع المألوف . أما في اختبارات الانجاز العملـي ، فان تخلفهم يتضاءل كثـيرا ، وفي اغلب الحـالات يختفي كليا .

هذا الموضـوع يقودنا الى السؤال التالي : هل يمكن اعـداد اختبارات ذكاء تخلو كليا مـن الاثر الثقافي او البيئي ؟ لقـد بذلت محاولات كثيرة لاعداد اختبارات « خالية من الاثر الثقافي » ، ولكن من المستبعد ، على ما يبدو ، ان يكتب لها النجاح . حتى لو كان محتوى الاختبارات مألوفا (او غريبا) علـى درجة متساوية بالنسبة لجميـع الفئات المعنية ، فانه يظل من المستحيل ضمـان تساوي الفئات بالنسبة للعوامل الاخرى غير المباشرة . فالفئات قد تختلف في امور كثيرة خارجة عن نطاق محتوى الاختبار كقوة الدافع ، وشدة الرغبة في النجـاح ،

(١٣) S. Arsenian, «Bilingualism and Mental Development », «Teachers College Contributions to Education», No. 712 (New York, 1937).

(١٤) E. Jamieson and P. Sandiford, «The Mental Capacity of Southern Ontario Indians», «Journal of Educational Psychology», XIX (1928), 536-51.

والموقف الودي او غير الودي تجاه المشرف على الاختبار ، ومدى مواتاة الظرف الذي يجري فيه الاختبار ، ومدى التعود على اعمال تقوم على التنافس بين الافراد ، ومدى التعود على السرعة في انجاز الاعمال . ان مثل هذه الفوارق مألوفة لدى جميع العلماء الاثنولوجيين ، ولكن من المشكوك فيه ما اذا كان في مقدورنا اخضاع اثرها لقياس صحيح أو حتى لتقدير مناسب يمكننا من تقويم الدور الذي تلعبه في تقرير النتائج النهائية لمثل هذه الاختبارات . وما لم ننجح في تقويم أثر هذه العوامل ، وغيرها من العوامل القائمة والمحتملة ، فان امكان اعداد اختبار « خال » حقا من الاثر الثقافي يكاد يبدو ضربا من التناقض في المصطلحات .

وثمة مشكلة اخرى يتغلغل اثرها الى جميع المقابلات التي نجريها بين نتائج اختبارات الذكاء ، وهي مشكلة الحصول على عينة ممثلة . لنفترض اننا اجرينا اختبارات على فئة من الاطفال الايطاليين في احدى المدارس الموجودة في مدينة نيويورك . ما الذي يضمن لنا في هذه الحالة ان هذه الفئة تمثل جميع الاطفال الايطاليين ؟ أو جميع الاطفال الايطاليين المقيمين في الولايات المتحدة الامريكية ؟ أو جميع الاطفال الايطاليين المقيمين في نيويورك ؟ أو حتى جميع الاطفال الايطاليين الذين يتلقون تعليمهم في المدرسة ذاتها التي طبق عليها الاختبار ؟ والواقع ان هناك دلائل تشير الى ان الفئات الايطالية المقيمة في الولايات المتحدة الامريكية قد تختلف اختلافا بينا بعضها عن البعض الاخر ، كما تبين ان الفتيات الايطاليات اللواتي يختبرن في روما يحصلن على نتائج افضل من اللواتي يختبرن في مدينة نيويورك . وسبق ان ذكرنا ان متوسط حاصل الذكاء عند الاطفال الزنوج الذين تقدموا لاختبارات الذكاء في الولايات المتحدة تراوح من ٥٨ في تنسي الى ١٠٥ في لوس انجلس . ولعله من المفيد ان نطبق هنا بعض الطرق المستخدمة في الحصول على

عينات من أجل استطلاع الرأي العام . هذا وان مجرد زيادة عدد الافراد الذين يجرى عليهم الاستفتاء او الاختبار لا يفي بالغرض ، ومما يثبت ذلك اخفاق الاستفتاء السياسي الذي اجرته مجلة « المختارات الادبية » في عام ١٩٣٦ حين ادلى حوالي مليوني شخص باصواتهم . وقد ننجح في اختيار عينة تمثل الواقع تمثيلا صادقا ، ولكن مجرد استعمال مثل هذه العينة لا يكفي للتغلب على الصعوبات الاخرى التي اشرنا اليها في هذا المقال .

واذا ثبت ان العينات المستعملة وافية وصادقة التمثيل ، فان نتائج الاختبارات قد تكون مفيدة جدا في قياس مدى الانجاز او التحصيل الفعلي في قدرات معينة (هذا مع العلم بانها قد لا تكون وسيلة صالحة لقياس الطاقة او القدرة الموروثة) . وعلى هذا الاساس تسهم هذه الاختبارات في بيان مدى تخلف بعض الافراد والجماعات بالمقارنة مع المعايير المعتمدة في ثقافة معينة . فهي قد تميط اللثام عن نقاط الضعف وترشدنا الى انفع الخطوات العلاجية واشدها فعالية في معالجة التخلف. ففي حالة الزنوج في الولايات الجنوبية ، مثلا ، قد نكون محقين اذا استخدمنا النتائج المنخفضة لاقامة الدليل على وجود شعور بالنقص مرده ، في المقام الاول ، الى انخفاض مستوى الخدمات التعليمية . وعلى هذا الاساس يمكننا ان نعتبر التعليم أول مشكلة يجب ان نتصدى لحلها اذا ما اردنا تحقيق المزيد من الاندماج والتفاعل بين الزنوج وبين سائر فئات المجتمع الامريكي الذي يعيشون فيه . ولن نستطيع الاستفادة من نتائج الاختبارات في الحكم على احتمال وجود تفاوت في القدرة على التعلم الا اذا اتيحت للزنوج الفرص التعليمية ذاتها المتاحة لزملائهم من المواطنين البيض .

ويجب الا يغيب عن بالنا ، عند القيام باية محاولة لتفسير نتائج الاختبارات ، ان التفاوت الذي نلاحظه بين الجماعات المختلفة هو تفاوت

في متوسط العلامات ، وان هناك مجالا كبيرا للتداخل . فمهما كانت العوامل البيئية معاكسة فاننا سنجد دائما حالات يتفوق فيها افراد من الزنوج على بعض زملائهم من البيض . والواقع ان هناك افرادا من الزنوج يحصلون على نتائج تكاد تكون دائما افضل من نتائج منافسيهم من البيض . ويجدر بالذكر هنا ان الحدين الاقصى والادنى للتحصيل يطبقان على الزنوج والبيض على حد سواء ، حتى في الظروف الحالية التي تجري فيها الاختبارات . وهناك افراد من السود والبيض متخلفون بلغ تخلفهم العقلي مبلغا جعلهم يعجزون عن معالجة اي من المشكلات التي تثيرها الاختبارات . ومن جهة اخرى ، هناك اطفال زنوج يسجلون حاصل ذكاء يساوي الحاصل الذي يسجله اكثر الاطفال البيض تفوقا ونجاحا . ولدينا تقرير عن فتاة زنجية تقدمت لاختبار ستاندفورد ـ بينيه في سن ٩ سنوات و ٤ اشهر واحرزت حاصل ذكاء بلغ ٢٠٠[١٥] . ويبدو ان هذه الفتاة تنحدر من أصل زنجي نقي ، اذ ليس ثمة ما يشير الى اختلاط اسلافها من كلتا جهتي الاب والام باي من البيض . أما الوسط الذي نشأت فيه هذه الفتاة فكان راقيا من الناحية العلمية ، فقد شغل والدها منصب استاذ في كلية ثم عمل مهندسا كهربائيا ، وكانت امها ، قبل زواجها من أبيها ، تعمل مدرسة في احدى المدن الكبيرة . ومن الواضح إن مثل هذه الحالة تعتبر شاذة في اي فئة تظهر فيها . ولكنها ، على اقل تقدير ، تبين ان الحد الاقصى للقدرات التي تقيسها الاختبارات عال عند الزنوج مثلما هو عال عند البيض .

هذا وان الانتقادات التي وجهت الى استعمال اختبارات الذكاء في ميدان السيكلوجيا العرقية تنطبق ، بصورة اوضح واقوى ، على معظم اختبارات الشخصية . فهذه الاختبارات تتأثر تأثرا شديدا بثقافة

---

(١٥) P.A. Witty and M.A. Jenkins, «The Case of 'B' — a Gifted Negro Girl,» «Journal of Social Psychology», VI (1935), 117-24.

واضعيها ومقدميها حتى ان تطبيقها على فئات او ثقافات اخرى يؤدي الى نتائج قد تكون مضللة غاية في التضليل . ونذكر هنا ، على سبيل المثال ، ان اختبار (Pressey X - O) الذي اعد لقياس الاستجابات الانفعالية اجري على هنود ينتسبون الى قبائل مختلفة ويعيشون الآن في مونتانا وكاليفورنيا ونيومكسيكو واوكلاهوما[١٦] . وذكر الباحثون في تقاريرهم ان الهنود كانوا ، من الناحية الانفعالية ، اقل نضوجا من البيض الذين تقدموا للاختبار ذاته . وقيل ايضا : « ينزع الهندي الى ان يظل متخلفا في نضجه ، فهو اما انه غير قادر على تحقيق درجة اعلى من التكيف الناضج ، واما ان بيئته جرى تبسيطها كثيرا حتى ان التكيف على مستوى الاطفال اصبح يفي بالغرض . » ويبدو ان هذا القول لا ينطوي على دلالة خاصة في ضوء النسبية الثقافية لمفهوم النضوج الانفعالي . حتى لو سلمنا ان هذا الاختبار المعين سليم في مجتمع امريكي متجانس على وجه الاجمال ، فان استعماله في بيئات ثقافية مختلفة ومتعارضة سيظل دائما موضع شك . وقد لاحظ الباحثون انفسهم جانبا من هذه الحقيقة ، على اقل تقدير . فقد ذكروا في دراسة لاحقة[١٧] ان القبائل التي كانت تحتك بالبيض على نطاق واسع (كقبيلة الكرو) كانت ، من الناحية الانفعالية « اقل تخلفا » من القبائل التي ظلت منعزلة نسبيا (كقبيلة الهوبي) . وهذه النتيجة شديدة الشبه بالنتيجة التي توصلنا اليها في بحثنا عن اختبارات الذكاء ، اي انه كلما ازداد الشبه بين بيئات الفئات التي نخضعها للدراسة المقارنة ، قل الفرق بينها في متوسط العلامات التي تحصلها في الاختبارات .

ولا بأس في ان نستشهد بمثال آخر على أثر المتكأ الثقافي في نتائج

---

(١٦) S.L. Pressey and L.C. Pressey, « A Comparative Study of the Emotional Attitudes and Interests of Indian and White Children», «Journal of Applied Psychology», XVII (1933), 227-38.

(١٧) «A Comparison of the Emotional Development of Indians Belonging to Different Tribes», «Journal of Applied Psychology, XVII (1933), 535-41.

الاختبارات . ترجم استبيان ثرستـون (Thurstone) المعد لقياس مدى اختلال الاعصاب الى اللغة الصينية ، ثم وجه الى طلاب يتلقون علومهم في جامعات صينية مختلفة . وتبين من النتائج ان « الاضطراب العصبي » اكثر انتشارا عند الطلاب الصينيين منه عند الطلاب الامريكيين الذين اجابوا عن الاسئلة المدرجة في الاستبيان نفسه[١٨] . ويبدو ان الباحثين يتقبلون هذه النتيجة استنادا الى دلالتها الظاهرية دون تحليل العوامل المؤثرة فيها ، فتراهم يعربون عن قلقهم بشأن ما يسمونه « نقص القدرة على التكيف » عند الطلاب الصينيين ، وينادون بضرورة اتخاذ اجراء علاجي على شكل برنامج لتنمية الصحة النفسية . وليس هناك ما يبرر مثل هذا التفسير الا اذا كانت البنود الواردة في الاستبيان تنطوي على ذات الاهمية وتنسجم مع « الاطار الثقافي » لكل من الصين والولايات المتحدة الامريكية . وادرك باحثون آخرون النقص في هذا النوع من الاستبيان[١٩] فقد حصلوا هم ايضا علـى نتائج مماثلـة للتي حصل عليها شو (Chou) ومي (Mi) ، ولكنهم اوضحوا ان الاجابات ، في كثير من الحالات ، لم تتأثر باي « اختلال في الاعصاب » وانما بوجهات نظر معينة منبثقة من المبادىء والتعاليم الكنفوشية السائدة في الصين .

هذه الاعتبارات ، وغيرها من الاعتبارات المماثلـة ، تنطبق على أمثلة كثيرة جدا من اختبارات الذكاء ، حتى انه لا يسعنا الا ان نستبعد امكان استخـدام نتائجها كوسيلة لقيـاس « السيكلوجيا العرقية » . ولكنها قد تنطوي على فائدة كبيرة بوصفها وسيلة للدلالة على الفروق الجماعية في المواقف التـي تتحكم فيها عوامل ثقافية مختلفة . فالنتائج

---

(١٨) S.K. Chou and C.Y. Mi, «Relative Neurotic Tendency of Chinese and American Students», «Journal of Social Psychology», VIII (1937), 155-84.

(١٩) T. Pai, S.M. Sung, and E. H. Hsü, The Application of Thurstone's Personality Schedule to Chinese Students», «Journal of Social Psychology», VIII (1937), 47-72.

التي توصل اليها بريبي وشو ومي قد تنطوي على قيمـة كبيرة حين تقترن بفكرة اثنولوجية صحيحة ووافية عن الفئات التـي تجرى عليها الاختبارات . فهي ، في هذه الحالة ، تساعد على اظهار الفروق الجماعية بمزيد من التفصيل ، كما توضح مدى التباين بين الافراد الذين ينضوون تحت لواء ثقافة واحدة .

وهناك دلائل تشير الى ان اختبار رورشاخ (Rorschach) قد يتفوق ، في تطبيقاته العملية على الشخصية ، على الاختبارات الاخرى التي بحثناها في مدى « تحرره من أثر العوامل الثقافية » . واذا صح هذا القول ، فانه يعني في الغالب ان اختبار رورشاخ يمكن استعماله في اكتشاف التنظيم الداخلي لشخصية الفرد ، بصرف النظر عن أثر الثقافة فيه . ولكن ذلك لا يعني ان الفوارق الثقافية لا علاقة لها بالمقابلات التي نجريها بـين الفئات المختلفة ، كما انه لا يعنـي ان الفوارق الجماعية « العرقية » او الوراثية يمكـن اكتشافها بهـذه الطريقـة . فالخبراء المختصون باجراء اختبارات رورشاخ لا يدعون انهم يستطيعون بهذه الطريقة التمييز بين أثري العوامل الوراثية والبيئية في تنظيم الشخصية . ويرى هؤلاء الباحثون ان هذا القـول يصدق حتى على الفئات التي تشترك في ثقافة واحدة كالثقافة الأمريكية .

هناك اذن اسباب تبرر النتيجة التـي توصلنا اليها ، وهي : ان الاختبارات العقلية ، سواء كانت لاختبار الذكاء او لاختبار الشخصية ، لا يمكن استخدامها اساسا للسيكلوجيا العرقية . وهذه الطريقة ، شأنها شأن الطرق الاخرى التي سبق بحثها ، فيها من الثغرات والمثالب ما يجيز لنا ان نستنتج ايضا ان الفروق العرقية في المجال السيكلوجي لم يجر بعد ايضاحها على اسس سليمة ، وربما كان من المتعذر إثباتها بالبرهان.

وفي الوقت نفسه يكاد يكون من الصعب ان ننكر ان هناك فروقا سيكلوجية بين الفئات السلالية . فالمواد الغنية والمتنوعة التـي جمعها

علماء الاثنولوجيا ، وتاريخ حياة بعض الافراد الذين ينتمون الى الاقليات كالزنوج في الولايات المتحدة الامريكية ، والتقارير التي تصف التباين في « الخلق القومي » — كل هذه تشير الى وجود مثل هذه الفروق ، هذا مع العلم بان هذه الطرق في المعالجة تثير مشكلات منهجية من النوع الذي يدور حوله جدل كثير . ومهما يكن من أمر ، فان هذه الفروق لا تشكل ما يسمى « سيكلوجيا عرقية » ، اذ يكاد يكون من المؤكد انها لم تنتج من عوامل وراثية او عرقية ، وانما من عوامل تاريخية وبيئية . ولا يستطيع المرء ان يتحدث ، بشيء من الترجيح ، عن السيكلوجيا العرقية الا في حالة المجتمعات المنعزلة والصغيرة نسبيا التي تحصر التزاوج في داخل نطاقها المحدود . اما في المجتمعات الاكبر التي لا نجد فيها مثل هذا التجانس — وهي المجتمعات المألوفة لدينا — فيبدو ، بناء على المعلومات الحالية المتوافرة لدينا ، انه لا توجد علاقة بين « العرق » والسيكلوجيا .

ولهذه النتيجة بعض المضاعفات العملية الهامة . فاذا صح انه لا توجد سيكلوجيا عرقية ، فمعنى ذلك : أولا ، ليس هناك اي مبرر على الاطلاق للتمييز العنصري ضد الاقليات على اساس الزعم بانها تعاني نقصا وراثيا . ثانيا ، ان سلوك المجتمعات القومية الكبيرة يمكن ان ينسب الى العوامل البيئية باوسع دلالتها ، وليس الى البلازما الجرثومية، وهذا يعني ان السلوك قد يتغير تبعا لتغير الزمن والظروف ، ثالثا ، ان اي امل يراودنا بشأن توسيع نطاق ديمقراطيتنا وزيادة فعاليتها لا يكمن في تحسين الاصناف العنصرية أو السلالية بقدر ما يكمن في اتاحة الفرص التعليمية والاقتصادية لجميع فئات المجتمع على نحو يمهد لها الطريق للاستمتاع بحياة افضل واغنى من حياتها الحالية .

مفهوم الثقافة

كلايد كلكهوهن
وليم هـ. كيلي

المحامي :

في الاجتماع الاخير لهذه الحلقة الدراسية الصغيرة عرضنا « للثقافة » بوصفها مصطلحا فنيا في علم الانثربولوجيا ، ودخلنا في جدل طويل حولها . ومن الاسئلة التي طرحناها في ذلك الاجتماع : ما الذي يعنيه علماء الانثربولوجيا بمصطلح « الثقافة » ؟ وهل تنطوي الثقافة على اية فائدة عملية ؟ استشرنا المعاجم الكبيرة ، وكذلك كتب الانثربولوجيا في مكتبة النادي ، ولكننا لم نجد فيها اجابات شافية عن جميع الاسئلة التي كانت تجول في اذهاننا . عرفنا ، مثلا ، ان الثقافة ــ كما يفهمها علماء الانثربولوجيا وكما تستعملها الاوساط العلمية وغير العلمية ــ تحمل في طياتها فكرة التدخل الانساني ، اي اضافة شيء الى حالة من حالات الطبيعة او ادخال تعديل عليها . ولكننا كنا نتطلع الى اجابات توضح لنا بعض النقاط التي لم تتصد لها مثل هذه العبارات المجردة او لم تشر اليها الا اشارات قصيرة عابرة . وهذا ، ايها السادة ، هو السبب الذي دفعنا الى تنظيم هذا الاجتماع وتوجيه الدعوة اليكم لحضوره والاجابة مباشرة عن الاسئلة التي سنطرحها عليكم .

المؤرخ :

هل كنتُ محقا عندما اكدت في الاجتماع الاخير ان فهم العالم الانثربولوجي للثقافة اكثر شمولا من فهم المؤرخ لها ؟

العالم الانثربولوجي الأول :

نعم ، والدليل على ذلك ان قدر الطبخ يمثل ، في نظر العالم الانثربولوجي ، تناجا ثقافيا يستوي في الاهمية مع اية قطعة موسيقية من تلحين بتهوفن .

رجل الاعمال :

يسرني ان اسمع هذه العبارة ، فانْ زوجتي تعتقد ان الشخص لا يكون « مثقفا » الا اذا استطاع التحدث عن ديبوسي واليوت وبيكاسو وغيرهم من الفنانين والادباء .

المحامي :

هل يستعمل علماء الانثربولوجيا مصطلح « الثقافة » للدلالة على حضارتنا ؟ بعبارة اخرى ، هل ثمة فرق بين « الحضارة » و « الثقافة » ؟

العالم الانثربولوجي الثاني :

يعتقد معظم علماء الانثربولوجيا ان الحضارة ما هي الا مجرد نوع خاص من الثقافة ، او بالحري شكل معقد او « راق » من اشكال الثقافة . واذا اردنا المزيد من التحديد ، امكننا القول ان الحضارة ـ كما يوحي اشتقاق الكلمة ـ هي ثقافة اهل الحضر اي الناس الذين يعيشون في المدن . ومن المعروف ان سكان المدن اتجهوا دائما الى تطوير نمط معقد نسبيا من الحياة كما انهم نجحوا ، في اغلب الحالات ، في تطوير لغة مكتوبة .

العالم الانثربولوجي الثالث :

ولعله من المفيد ان نذكر في هذا المقام ايضا ان علماء الانثربولوجيا

لم يعتمدوا قط التمييز الذي وضعه بعض علماء الاجتماع بين الثقافة والحضـارة . فمن المعروف ان بعض علماء الاجتماع يميزون بين « الحضارة » بوصفها المجموع الاجمالي « للوسائل » البشرية ، وبين « الثقافة » باعتبارها المجموع الاجمالي « للغايات » البشرية .

العالم الانثربولوجي الاول :

يبدو ان الكثيرين من المتعلمين يعتقدون ان « الثقافة » انما تعني انماطا غريبة في الحياة او انها لا تنطبق الا على المجتمعات التـي تمتاز بسذاجة نسبية وبتجانس نسبي بين افرادها . فهناك رجال متحذلقون من الارساليات التبشيرية ، مثلا ، يستعينون بالمفهومات الانثربولوجية عند بحث الانماط الخاصة في حياة سكان جزر البحار الجنوبية ، ولكن يبدو ان الدهشة تعتريهم حين يسمعون ان هذه المفهومات نفسها يمكن تطبيقها على سكان مدينة نيويورك . وكذلك الحال بالنسبة للعاملين في ميدان الخدمات الاجتماعية ، فتراهـم يتحدثون عن « ثقافة » فئـة متماسكة غريبة الاطوار من فئات المهاجرين ، ولكنهم ينتحلون الاعذار والصعوبات حين يقال لهم انه من الممكن استعمال المفهومات الثقافية في المحاولات التي تبذل لفهم سلوك الموظفين العاملين في دائرة الشؤون الاجتماعية نفسها .

الاقتصادي :

استعملت ، قبل قليل ، مصطلح « المجتمع » . وهذا يذكرني بنقطة كـانت موضع التبـاس وغموض في المؤلفات الدارجـة لبعض علماء الانثربولوجيا . فقد بدا لي ، عند مطالعة هذه المؤلفات ، ان المصطلحين « الثقافة » و « المجتمع » استعملا كما لو كانا مصطلحين مترادفين .

العالم الانثربولوجي الاول :

هناك اتجاه في اوساط العلماء الأنثربولوجيين الى الاجماع على

استنكار الخلط بين هذين المصطلحين . اما الاستعمال الذي يكاد يحظى بموافقة جميع العلماء الانثربولوجيين ، فيمكن التعبير عنه على النحو التالي : يدل مصطلح « المجتمع » على جماعة من الناس تعلم اعضاؤها أن يعملوا معا ، في حين يدل مصطلح « الثقافة » على النمط المميز للحياة التي تعيشها هذه الجماعة . تكتفي الآن بهذا التعريف السهل ، على الرغم من انه ليس دقيقا الى ابعد حدود الدقة .

الفيلسوف :

يعني هذا ، بلغتنا الفلسفية ، ان « الثقافة » ضرب من التجريد ، اما « المجتمع » فلا يدل على مفهوم مجرد .

العالم الانثربولوجي الثالث :

هذا صحيح تماما على اساس انك تستطيع ان ترى الافراد الذين يتألف منهم المجتمع ، ولكنك لا تستطيع ابدا ان ترى « الثقافة » او تلمسها . غير ان هذا التفسير لا يعني بالضرورة ان عمليات الاستدلال والتجريد لا تدخل في الكثير من المشكلات الخاصة المتصلة بتقرير الحدود التي ينتهي عندها مجتمع معين ، ويبدأ عندها مجتمع آخر . ويؤكد بعض الانثربولوجيين ان مثل هذه المشكلات يمكن حلها دائما باجراء ملاحظات دقيقة وافية للحالات المتكررة التي تتفاعل فيها الكائنات البشرية في منطقة محددة . ومما لا يرقى اليه شك ان هذه الطريقة سليمة ، فهي تساعدنا على تقرير اي الافراد يؤلفون « مجتمعا » . ولكننا نخادع انفسنا اذا تبنينا الزعم القائل بان الاستدلال ليس ضروريا كالملاحظة في تحديد مقومات المجتمع .

العالم الانثربولوجي الثاني :

يؤسفني انني لا اوافق على الشق الاول من بيانك حيث تقول ان الثقافة لا تمكن ملاحظتها ملاحظة مباشرة . ترى ما الذي يفعله عالم

الانثربولوجيا حين يعمل في الميدان ؟ صحيح انه يرى الكائنات البشرية التي يتألف منها المجتمع . وهو لا يراهـا فحسب ، وانما يلاحظ ايضا سلوكها . وهو ، علاوة على ذلك ، يرى الاشياء التـي صنعها اعضاء المجتمع ويلاحظ التغييرات التي ادخلها على بيئته الطبيعية . ان ما يفعله عالم الانثربولوجيا في الميدان هو تدوين ما يلاحظه من طرق متميزة في السلوك ، وما ينجم عن هذا السلوك من النتائج التي تستأثر باهتمامه . هذه هي مقومات الثقافة في المجتمع قيد الدراسة .

العالم الانثربولوجي الثالث :

لا ريب في انك أجدت وصف الاعمـال التي يقوم بهـا علمـاء الانثربولوجيا فعلا في الميدان . غير انني افضل ان انظر الى الاشياء التي ذكرت كما لو كانت المواد الخام التي يتعامل بها عامل الانثربولوجيا . فكلا مفهومـي « المجتمع » و « الثقافة » هو ضرب مـن التركيب التجريدي . ففي كلا الحالين يقوم العـالم الانثربولوجي بالقاء اضواء جديدة على الاشياء التي يشاهدها فعلا ، او باهمـال جوانب منها لا تستأثر باهتمامه . فهو اذن يصور كلا من المجتمع او الثقافة كما لو كان انموذجا يتوصل اليه بالتجريد ، ومن الواضح ان دوره لا يقتصر علـى مجرد تدوين جميع الاشياء التي يلاحظها بصورة مباشرة .

عالم النفس :

دعني اعرف مفهوم الثقافة بلغة علم النفس . تعني الثقافة مجموعة العادات الاجتماعية .

العالم الانثربولوجي الاول :

« العادة » مصطلح حيادي اكثر من اللازم في لغة الانثربولوجيا . ولعله من الافضل ان نقول « العادات الاثيرة لدى المجتمع او العادات التي يعلق عليها المجتمع قيمة كبيرة » . فالمجتمـع لا يقف ابدا موقفا

«١٠»

حياديا من ثقافته .

عالم النفس :

يبدو لي ان اقرب فروع علم النفس صلة « بالثقافة » هو ما نسميه اليوم « نظرية التعلم » . هل توافقني ان انتقال الثقافة لا يمكن فهمه الا بقدر ما يمكن فهم عمليتي التعليم والتعلم .

العالم الانثربولوجي الأول :

أجل ، فالكائنات البشرية ، مهما اختلفت اعراقها ، تكاد تملك ذات الاجهزة العصبية والبيولوجية ، ولذا نتوقع ان تكون عمليات التعلم الاساسية متشابهة جدا عند جميع الفئات ، او بالحري متماثلة . ونحن بالتالي نتوقع من عالم النفس ان يبين لنا قوانين التعلم . ومن جهة اخرى نستطيع ، نحن معشر العلماء الأنثربولوجيين ، ان نبين ان هناك امورا تختلف تبعا لاختلاف الثقافة ، وهي : المواد الثقافية التي تعلم ، والاوساط التي تعلمها ، والفترات التي يجري فيها عادة تعلم مهارات معينة . وأود بهذه المناسبة ان اشير الى خطر قد تتعرض له حين تتحدث عن الثقافة على اعتبار انها يمكن ان « تعلم » . « فالتعليم » لا يقتصر على التدريس الواعي او على المفهوم الدارج لهذا المصطلح . فالافراد يتعلمون جانبا كبيرا من ثقافتهم عن طريق محاكاة انماط اصلية او منقولة ، ولعله من الافضل ان نستعمل كلمة « يتشربون » للدلالة على هذه العملية ، وذلك على الرغم من أنها لا تمثل مصطلحا فنيا . خذ ، مثلا ، ما نلاحظه من الايماءات والحركات التعبيرية (عادات حركية) التي تميز مجتمعات معينة . فمع ان كل عالم أنثربولوجي يعتبرها ظاهرات ثقافية ، فانها لا تعلم بشكل مباشر الا في مدارس الرقص والمدارس العسكرية وغيرها من المؤسسات التي تعنى بهيئة الجسم وانتصاب قامته وحركاته الأيقاعية وما شاكل ذلك من الأمور .

عالم النفس :

ذكر سي . اس . فورد (C. S. Ford) في تعريفه للثقافة انها تتألف من « الطرق التقليدية المتبعة في حل المشكلات » أو « الحلول المتعلمة للمشكلات » . واني ارجو الا اكون مخطئا في روايتي هذه .

العالم الانثربولوجي الثالث :

أوافق على ان الثقافة هي ، بالاضافة الى اشياء اخرى ، مجموعة من الاساليب التي تساعد الفرد على التكيف على البيئة الخارجية وعلى العمل مع زملائه من اعضاء مجتمعه . وتعريف فورد هو نعم العون بقدر ما يلقي ضوءا على هذه الحقيقة ، ولكنه لا يعطينا فكرة اجمالية عن مفهوم الثقافة . فالثقافات لا تحل المشكلات فحسب ، بل تخلقها ايضا . فاذا كانت التقاليد الشعبية لاحد المجتمعات تقول ان الضفادع تجلب الشر او ان الادلاج محفوف بالاخطار بسبب انتشار الاشباح والغيلان في الليل ، فمعنى ذلك ان المجتمع يواجه تهديدات لا تنشأ من حقائق العالم الخارجي التي لا مفر منها . وبناء على ذلك يمكن القول ان جميع التعاريف « الوظيفية » لا تفي كثيرا بالغرض ، وما ذلك الا لانها لا تأخذ بعين الاعتبار ان الثقافات تخلق الحاجات مثلما تهيىء الوسائل لتلبيتها .

طبيب الامراض العقلية :

اصارحكم القول ان اطباء الامراض العقلية كانوا وما زالوا يميلون الى النظر الى الثقافة كما لو كانت وسيلة لكبت طبيعة الانسان « الفطرية » ، او عاملا يؤدي الى اضطرابات عصبية لا لزوم لها بسبب ما ينطوي عليه من متطلبات ومعاكسات خلال عملية تكييف الافراد على انماط لا تتواءم في الاصل وامزجتهم الفطرية .

العالم الانثربولوجي الثالث :

هذا التفسير ، كما يبدو لي ، لا يمثل الا جانبا من الحقيقة .

فالثقافة هي محققة لنزعات الافراد ، ومخيِّبة لها في آن واحد .

العالم الانثربولوجي الرابع :

لقد التزمت جانب السكوت حتى هذه اللحظة ، ولكنني اشعر الآن انه يتوجب علي ان اسجل اعتراضاتي على ما سمعت . ترى اين هـذه الثقافة التي تتحدثون عنها وتقولون انها تفعل هذا الامر او ذاك ؟ اذا اريد للانثربولوجيا ان تصبح علما طبيعيا ، وجب عليهـا الا تعنى الا بكيانات مبنية على الخبرة والملاحظة . وعلى الرغم من ان معظم علماء الارخلوجيا والاثنولوجيا والانثربولوجيا الاجتماعية لا يزالون يعتقدون ان « الثقافة » تمثل مفهومهم الرئيسي ، فاني أرى اننا نستطيع احراز تقدم اكبر اذا ركزنا اهتمامنا على الظاهرات المتصلة بتفاعل الانسان مع بيئته الطبيعية ومع زملائه من اعضاء المجتمع الآخرين . انكم تستطيعون رؤية هذه الاشياء ، ولكن هل سبق لاحدكم ان رأى « الثقافة » ؟

العالم الانثربولوجي الاول :

اني مستعد للاقرار بان التحدث عن « الثقافة » كما لو انها تفعل هذا الشيء او ذاك هو طريقة مجازية وغير دقيقة في الكلام . ولكن هذه الطريقة في الكلام ، على الرغم من انها ليست دقيقـة الى ابعد حدود الدقة ، ما هي الا تعبير مقتضب مناسب يوفر علينا استعمال عبارة مطولة مثل : « ان ممثلي الجماعة البشرية التي تشترك في هذه الثقافة يفعلون هذا الامر او ذاك . » أما بالنسبة « للرؤية » ، فانه لا يسعك الا الاقرار بان العلماء الطبيعيين لم يروا قط « الجاذبية » ولا « التطور » ، ولكنهم لا يستطيعون الاستغناء عن مثل هذه المفهومات من أجل توضيح الحقائق وتسهيل فهمها والتنبؤ بها . وهكذا يمكن القول ان « الثقافة » مفهوم مجرد يستعمل للتعميم ، وان ضرورتها لفهم الاحداث في العالم البشري والتنبؤ بها لا تقل عن ضرورة « الجاذبية » لفهم احداث العالم الطبيعي والتنبؤ بها .

العالم الانثربولوجي الثاني :

مع انني اقر مفهوم « الثقافة » واستعمله ، فانني اميل الى الابتعاد عن مثل هذه التجريدات العالية . واعتقد انه مــن الافضل ان نعتمد تعريفا اقرب الى التعاريف التقليدية كقولنا ، مثلا : « الثقافة هي كـــل مركب يضم الاشغال اليدوية ، والمعتقدات ، والفنون ، وجميع العادات الاخرى التي يكتسبها الانسان بوصفه عضوا في مجتمع ، وكــل مــا ينتجه النشاط العادي من الاشياء التي تقررها هذه العادات . »

العالم الانثربولوجي الاول :

اذا اردنا ان نقدم وصفا لما بحثه دارسو الثقافة ، فان هذه العبارة تفي بالغرض ، ولكنها لا تصلح لان تكون تعريفا . فهي لا تستوفي سرد جميع الاشياء التي تدخل في الثقافة . وثمة نقص آخر في التعاريف التي تقوم على التعداد او السرد ، وهو اننا ننزع عــادة الى نسيان العناصر التي لا يرد ذكرها صراحة في التعريف ، حتى وان كان التعريف ينطوي على اشارات ضمنية اليها . وخير مثل على ذلك انه فاتك ان تشير الى اللغة في التعريف الذي اوردته .

العالم الانثربولوجي الثالث :

اود ان اسجل اعتراضا آخر على التعريف . فهو يشدد على ناحية ذهنية واحدة ، ولا يبين ان دور الافراد قد لا يقتصر على اتخاذ موقف المستقبل او المحايد من ثقافتهم . وثمة اعتراض آخر ، وهو ان التعريف هو مجرد قائمة بمحتويات الثقافة . فاذا استثنينا كلمة « كل » ، تبين لنا ان التعريف يكاد يخلو تماما من الاشارة الى ان الثقافة تنطوي على « تنظيم » مثلما تنطوي على « محتوى » .

الاقتصادي :

ما رأيكم في « الوراثة الاجتماعية » ؟ هل يصلح هذا التعبير المجرد الموجز لان نعتمده تعريفا للثقافة ؟

العالم الانثربولوجي الثالث :

انتشر هذا التعريف انتشارا واسعا ، وكان ذا نفع كبير في لفت انتباه الناس الى ان الكائنات البشرية تملك ارثا اجتماعيا مثلما تملك ارثا بيولوجيا . والنقص الرئيسي فيه هو انه ينزع ، في دلالته ، الى التمادي في ابراز عنصر الاستقرار في الثقافة والى المغالاة في التشديد على الجانب السلبي من دور الانسان . فهو يوحي الينا ان الانسان يكتسب ثقافته مثلما يكتسب جيناته ـ دون ان يبذل اي جهد في التكيف عليها او في مقاومتها . والتمادي في هذا الاتجاه قد يحملنا على الاعتقاد بان الانسان هو ـ كما وصفه دولارد (Dollard) ـ مجرد « ناقل سلبي للتقاليد الثقافية » . ويجدر بنا في هذا المقام ان نستشهد بما نبهنا اليه سيمونس (Simmons) مؤخرا ، وهو ان دور الانسان لا يقتصر على نقل الثقافة او توفير الوقود لها ، وانما هو ايضا خلقها وممارستها . وخلاصة القول ، ان التعريف « الوراثة الاجتماعية » ، يشتط في التشديد على استقرار الثقافة وعلى اثر التقاليد الموروثة فيها.

طبيب الامراض العقلية :

اوافق على ملاحظاتك ، واضيف اليها ان الثقافة ليست مجرد أمر « مفروض » أو « مسلم به » . واذا تأملنا معناها الحرفي ، تبين لنا انها لا يمكن ان تدل على شيء « مفروض » أو « مسلم به » . فكل ما في الامر هو انها متوافرة ، ويجب على المرء ـ بحسب التعريف الذي اورده اورتيجا اي جاست (Ortega y Gasset) ـ « ان يسعى الى اكتسابها . وقد يتراءى لنا ان نستعمل تعبير « الارث الاجتماعي » لنتجنب بعض هذه الصعوبات ، ولكن الصيغة الجديدة لا تفي كثيرا بالغرض . ان التعريف الذي نريده يجب ان يبين ان المعطية او المادة الاولية التي يتعامل بها العالم الاجتماعي هي الفرد وسلوكه . فمن وجهة

نظر السيكلوجيا الفرديـــة يعتبر كل تعريف للثقافة ناقصا ما لم يبين لنا ان للفرد دورا فعالا بالنسبة لثقافته وحياة تمتاز باندفاع غير ارادي .

رجل الاعمال :

إن الكثير مما قيل كان ميليا باعتباره عرضا لاشكال من البراعة المنطقية . أما أنا ، فاصارحكم القول انـــي لا ارى اسبابا مقنعة تدفع أيا منا الى الاهتمام بمفهوم « الثقافة » .

العالم الانثربولوجي الاول :

من الاشياء التي تستلفت النظر في الكائن البشري هو انه يسعى الى فهم نفسه وفهم سلوكه . ومع ان هذا القول يصدق ، بوجه خاص ، على الاوروبيين في العهود الاخيرة ، فان كل جماعة طورت طرقا خاصة لتفسير اعمال الانسان . وانا اعتقد ان مفهوم الثقافة ضروري لتحقيق مثل هذا الفهم .

العالم الانثربولوجي الثاني :

نستطيع ان نصوغ عبارات زميلي على نحو آخر ، فنقول : يعنى العلم بجميع الظاهرات التي تمكن ملاحظتها ، بما في ذلك الانسان نفسه وسلوكه . و « الثقافة » هي مفهـــوم وصفي مناسب لتنظيـــم تقاريرنا الموضوعية عن السلوك الانساني .

الفيلسوف :

يبدو لي ان البيانين الاخيرين يزودانا بدليل يساعدنا على تسوية جانب كبير مـــن خلافنا الظاهري . ففي نظر بعض علماء الانثربولوجيا تمثل الثقافة ، في المقام الاول ، مفهوما وصفيا ، بينما تمثل ، في نظر البعض الآخر ، مفهوما ايضاحيا . وما نسميه تعريفا يصاغ دائما مـــن وجهة نظر معينة كثيرا ما يغفل ذكرها . والتعاريف الوصفية والايضاحية لا تتضمن جميع انواع التعاريف . فمن التعاريف التـــي صيغت جزئيا

او اشير اليها ضمنا في بحثنا ما يمكن وصفه بانه وظيفي . ومنها ما يمكن ان نصنفه في فئة التعاريف « المعرفية » ، اي التعاريف التي ترمي الى ابراز انماط معينة من الظاهرات التي تحصل منها على معلوماتنا عن « الثقافة » . ومن التعاريف ما يعنى باعمال الفرد باعتبارها منطلقا لكل ما نصدره من أحكام ، ومنها ما ينطلق من تجريدات منسوبة الى الجماعات ، وذلك على الرغم من اقرارنا بان اعمال الفرد هي المرجع النهائي . ومهما يكن من أمر ، فان معظم اهتمامنا يجب ان ينصب على التمييز بين التعاريف « الوصفية » والتعاريف « الايضاحية » .

« الثقافة » بوصفها مفهوما ايضاحيا

العالم الانثربولوجي الثالث :

نقصد بالثقافة عمليات انتقائية تاريخية المنشأ توجه ردود فعل الناس تجاه المنبهات الداخلية والخارجية .

العالم الانثربولوجي الثاني :

لا شك في ان هذا التعريف يمثل « تجريدا تحليليا » .

العالم الانثربولوجي الثالث :

وهذا هو ما نرمي اليه في الواقع . فبناء على هذا المفهوم ، نستطيع الآن تحليل جوانب معينة من الظاهرات المحسوسة ، وبالتالي احراز نجاح اكبر في « توضيح » مجموعة الحوادث او التنبؤ بها .

العالم الانثربولوجي الاول :

يبدو لي ان التعريف موفق لانه يستوفي العناصر التي نريدها . وهو ، علاوة على ذلك ، يجنبنا الصعوبة الكامنة في الكثير من التعريفات التي تستخدم العبارة الآتية : « التي يكتسبها الانسان بوصفه عضوا في المجتمع » . فهذه العبارة ، كما يبدو لي ، توحي بان الثقافة ، باعتبارها مفهوما ايضاحيا ، لا تشير الا الى ابعاد سلوك الافراد الناجم عن

انتسابهم الى عضوية مجتمع معين (اما بالولادة واما نتيجة انضمامهم الى المجتمع في وقت لاحق) . فالثقافة ، بالاضافة الى ما تقدم ، تساعدنا على فهم عمليات اخرى كالانتشار أو الاحتكاك او التمثل الثقافي .

العالم الانثربولوجي الثالث :

أضف الى ذلك ان الثقافة ، باعتبارها مفهوما ايضاحيا ، تفيدنا في تحليل اعمال الافراد (سواء درسناها على اساس جماعي او على اساس فردي) ، وفي توضيح التوزيع الجغرافي للاشغال اليدوية ، وفي القاء ضوء على التتابع التاريخي .

العالم الانثربولوجي الاول :

يمكن ان نصوغ تعريفك على نحو آخر اقرب الى الفهم ، كأن نقول مثلا : نقصد بالثقافة تحديدات تاريخية المنشأ للوضع الذي ينزع الافراد الى اكتسابه بسبب انضمامهم الى جماعات معينة او احتكاكهم بفئات معينة تجمعها انماط من الحياة تتصف ، في بعض نواحيها ، بخصائص مميزة .

العالم الانثربولوجي الرابع :

حتى انا اجد بعض المحاسن في التعريف الايضاحي المقترح . فانك، على اقل تقدير ، تسلم بوجود طريقة سلوكية في المعالجة ، وذلك حين تتحدث عن « ردود الفعل » و « المنبهات » .

العالم الانثربولوجي الثالث :

لا يسعني الا أن اوافق على ان اي مفهوم او افتراض في العلوم الاجتماعية يجب ان يكون ، في النهاية ، قابلا لان يُنسَب الى السلوك الانساني . وعلينا الا ننسى ، حتى عند بحثنا لتوزيع «السمات الثقافية»، اننا نعالج نتاج الايدي البشرية وما يخلفه لنا النشاط الانساني من آثار.

العالم الانثربولوجي الرابع :

ولكن لماذا كان من الضروري ان تضمن تعريفك اشارة الى « المنبهات الداخلية » ؟

العالم الانثربولوجي الثالث :

ان عملية الاكل عند الانسان ، مثلا ، هي ردة فعل او استجابة لدافع داخلي ، اي ، الانقباضات المتصلة بالجوع والناجمة عن انخفاض سكر الدم وما الى ذلك من الاسباب . ولكن معلوماتنا الفسيولوجية لا تكفي وحدها للتنبؤ بالشكل الدقيق الذي ستتخذه ردة الفعل لمثل هذه المنبهات الداخلية . فقد يحس شخص بالغ سليم الجسم بالجوع مرتين او ثلاث أو اربع مرات في اليوم الواحد ، وقد تختلف اوقات الوجبات من مجتمع لآخر ، كما قد تختلف الاوقات التي يتكرر فيها الاحساس بالجوع . هذه الامور تدخل ضمن اختصاص الثقافة ، ومع ان الطعام الذي يأكله الفرد يعتمد في الغالب على نوع الاغذية المتوافرة فعلا ، فانه يتأثر جزئيا ايضا بثقافة المجتمع الذي يعيش فيه . من الحقائق المعروفة ان بعض انواع ثمر العليق سام ، وهذه الحقيقة تمثل ظاهرة بيولوجية لا ثقافية . ومن الحقائق المعروفة ايضا ان معظم الامريكيين كانوا ، قبل بضعة اجيال ، يعتقدون ان انواعا من الطماطم سامة ، ويرفضون اكلها ، هذه الحقيقة تمثل ظاهرة ثقافية لا بيولوجية . ومن الامثلة الاخرى على اختلاف اذواق المجتمعات ان الامريكيين يعتبرون الحليب غذاء صحيا شهيا ، بينما تعتبره بعض المجتمعات خطرا او مثيرا للاشمئزاز . هذه الطريقة في استعمال مصادر البيئة ، القائمة على الانتقاء والتمييز ، تشكل خاصة بيولوجية . ويمكن القول ، على وجه الاجمال ، ان الثقافة توجه عملية الاكل . فاذا كان الشخص يأكل ليعيش ، أو يعيش ليأكل ، أو يأكل ويعيش ، فان مثل هذه الامور تعود جزئيا الى

ما فطر عليه الفرد ، ولكن هناك ايضا علاقة ملحوظة بين نزعات الافراد ونزعات الفئات الثقافية التي ينتمون اليها .

العالم الانثربولوجي الثاني :

لماذا تستعمل المصطلح « ردة الفعل » بدلا من المصطلح القصير المباشر « الفعل » ؟

العالم الانثربولوجي الثالث :

لان مصطلح « ردة الفعل » يقرّب الى فهمنا الشعور الذي يقترن بالتخطيط الانتقائي الذي نرسمه لحياتنا .

العالم الانثربولوجي الرابع :

مع انني اقتنعت جزئيا ، فانني اود ان اكرر السؤال الذي طرحته سابقا : لماذا ادخلت فكرة « الثقافة » غير المنظورة ؟

العالم الانثربولوجي الثالث :

ما من كائن بشري ، بالغا ما بلغ من الصغر ، تصدر عنه ردات فعل جديدة كليا ، ايا كان وضع المنبه الذي يحركه . ولن نجد الا حالات قليلة جدا من الاستجابات الانسانية التي يمكن تفسيرها كليا عن طريق معلوماتنا عن اجهزة الفرد البيولوجية ، بالغا ما بلغت هذه المعلومات من الكمال ، أو بالرجوع فقط الى الخبرة الفردية او الحقائق الموضوعية لحالة معينة .

العالم الانثربولوجي الرابع :

ولكن من أين تأتي « الثقافة » ؟ يبدو انك تستدعيها كما يستدعي كتاب المسرحيات عاملا الهيا أو « الها من الآلة » .

العالم الانثربولوجي الثالث :

قد لا نبتعد كثيرا عن الصواب اذا قلنا ان الثقافة هي « راسب » التاريخ . فهي تضم تلك الجوانب من الماضي التي ظلت قائمة حتى

عصرنا الحاضر ، مع العلم بانها تتعرض عادة لبعض التعديلات . فالتاريخ يمثل ، من أكثر من زاوية ، شيئا « اشبه ما يكون بالمنخل او المصفاة » .

العالم البيولوجي :

هل تعني ان الثقافة تتألف من الطرق المتبعة في مواجهة الاوضاع المتصلة برغبة الانسان في البقاء على قيد الحياة .

العالم الانثربولوجي الثالث :

ان ما تقوله يشكل جانبا كبيرا وهاما من الحقيقة ، اذ من الممكن ان نعتبر عملية الثقافة كما لو انها شيء يضاف الى طاقات الانسان البيولوجية الفطرية . فهي تزودنا بادوات توسع الوظائف البيولوجية أو تقدم بديلا عنها او تعوض الى درجة محدودة عن بعض اشكال القصور البيولوجي كأن تضمن لنا ان الحقيقة البيولوجية المتمثلة بالموت لا تعني دائما ان البشرية ستخسر ما يتعلمه الفرد بمجرد وفاته .

ومهما يكن من أمر ، فاني اعتقد ان هذه الصيغة قد تكون خطرة ومضللة اذا لم يجر تعديلها وشرحها على نحو صحيح . فمن الملاحظ ، أولا ، ان معظم المجتمعات تسهم في جوانب معينة من ثقافتها الى مدى ابعد بكثير من الحد الاقصى لمنفعتها النسبية او لقيمها المتصلة بفكرة البقاء ، وهذا ما اثبته لنتون وغيره من الباحثين بالوثائق والادلة . وبعبارة اخرى ، لا يقتصر دور الثقافة على التكيف ، او على الاسهام في مساعدة الانسان على البقاء على قيد الحياة . والواقع انها تلعب احيانا دورا معاكسا تماما لهذا الدور . وعلى هذا يتوجب علينا ان نستعين بمفهوم الانسجام او الملاءمة (ونقصد به هنا تخفيض التوتر) بالاضافة الى مفهوم التكيف . ثانيا ، هناك جوانب من الثقافة كانت فيما مضى تتصل اتصالا مباشرا بفكرة البقاء ، وظلت قائمة على الرغم من انها لم تعد تتمتع باية قيمة بقائية . فاذا اجرينا تحليلا لثقافة النفاهو المعاصرة ،

تبين لنا انها لا تزال تحتفظ بسمات لا يمكن تفسيرها على انها تكيف على مجموع الظروف البيئية التي تعيش فيها قبائل النفاهو اليوم . ومن المرجح ان هذه السمات تمثل مخلفات لاشكال ثقافية كانت تكيفية في البيئات التي عاش فيها اسلاف المعاصرين من قبائل النفاهو في العهود السابقة لهجرتهم الى المناطق الجنوبية الغربية من الولايات المتحدة الامريكية . وبطبيعة الحال لم تظل هذه الاشكال على حالها بل تعرضت، على مر القرون ، لبعض التعديلات .

العالم الانثربولوجي الاول :

افهم من قولك ان اية ردة فعل يظهرها المجتمع يجب ان تنطوي على قيمة تكيفية او انسجامية مباشرة بالنسبة للانسان (بوصفه فردا او عضوا في جماعة) في الوقت الذي فيه يكتسي مخطط الحياة شكلا ثقافيا .

العالم الانثربولوجي الثالث :

هذا صحيح . وأود في هذه المناسبة ان اشير الى نقطة كثيرا ما اكدها بواس (Boas) ، وهي اننا لا نستطيع الاعتماد على صيغة بسيطة واحدة في تفسير التغييرات التاريخية المعقدة . صحيح ان هناك انماطا كثيرة من ردود الفعل التي تمثل استجابات ـ تكاد تكون حتمية ـ للبيئة الخارجية التي يعيش فيها المجتمع او عاش فيها في الماضي . ولكن من المؤكد ان هناك اوضاعا بيئية كثيرة تعجز ، على الرغم من حتميتها ، عن فرض نمط واحد فقط من انماط التكيف ، وينحصر اثرها في تحديد امكانات الاستجابة . ومن المحتمل ان تكون « امكانات الاختيار » نفسها محددة ـ هذا اذا وسعنا نظامنا النظري بحيث يشمل جميع انواع العوامل المحتملة . ولكنها تمثل ، ضمن الاطار المألوف للاسناد ، « احداثا عارضة في التاريخ » .

ولتوضيح ما ذهبت اليه ، سأضرب المثال التالـي : لنفترض ان هناك مجتمعا يمارس فيه زعماؤه سلطة كبيرة . ولنفترض ايضا ان هذا المجتمع انجب زعيما معينا مصابا باختلال في الغدد الصماء مـن النوع الذي ينطوي على خصال فطريـة شاذة في الشخصية . ان زعيما كهذا يستطيع ، بفضل مركزه ، ان يدخل تعديلات معينة علـى نمط حيـاة مجتمعه بحيث يتواءم ومزاجه وطباعـه (كأن يدخـل ، مثلا ، بعض الاصلاحات الدينية) . ويرى الكثيرون انه ما من سلطة ، بالغة ما بلغت من القوة ، تستطيع ضمان دوام مثل هذه التعديلات ما لـم تنطو في ذاتها على قيمة تكيفية او انسجامية بالنسبة لاكثر من فرد واحد . وقد يكون هؤلاء على صواب فيما يرون . اما انا فاعتقد ان البينات القائمة على الخبرات والمتصلة بهذه المشكلة لم تحلل تحليلا كافيا لان يجيز لنا تقديم جواب بات محدد عن هذا السؤال . غير انه من المؤكد ان حالة كهذه كانت تعقبها عادة تغييرات مؤقتة او دائمة نسبيا في مخططات حياة المجتمع ، وان هذه التغييرات كانت في الغالب تظهر علـى شكل ردود فعل قوية . ويمكن القول أن مركز الزعيم ، وما يترتب عليه من نتائج ، لا يشكل حادثا عارضا من وجهة نظر النظم النظرية التي تستخدم عادة في تحليل مثل هذه الخطوات . أما المزاج غـير العادي ، فمرده الـى « حادث عارض في العملية الوراثية » .

ولنفترض ، من جهة اخرى ، ان زعيم هـذا المجتمع توفي وهو صغير نسبيا ، مخلفا وراءه وارثا ما زال طفلا غض الأهـاب . ان مـا يحدث في مثل هذه الحالات هو انه يظهر بـين صفوف الشيوخ مـن اقرباء الزعيم الراحل رجلان يتنافسان على الزعامة ويكـاد كل منهما يستوي مع الآخر في حقه في المطالبة بالوصاية . اما المجتمع فينقسم الى حزبين يتكتل كل منهما حول احد الخصمين المتنافسين . وكثيرا ما يؤدي هذا الانقسام الى انفصال تام دائم بين الفئتين ، فتنتهج كل منهما سبيلا

خاصا بها ، وبذلك يظهر في النهاية شكلان متغايران متمايزان لثقافة كانت فيما مضى متجانسة ومتكاملة . ومن المحتمل جدا ان يكون الانقسام الاول ناجما في الاصل عن عوامل اقتصادية او سكانية او عن عوامل خارجية اخرى . ولكن لولا « الحادث العرضي » الذي تمثل بوفاة الزعيم في سن مبكرة ، لظل المجتمع متماسكا الى اجل غير محدود ولظل التوازن قائما بين الاتجاهات المتعارضة . وخلاصة القول ، ان العناصر الثقافية التي تسربت الينا من « مصفاة » التاريخ لا تتأثر فحسب بمجموع العوامل البيئية السائدة في وقت معين ، وانما ايضا بالعوامل « السيكلوجية » الفردية والحوادث « العرضية » .

العالم الانثربولوجي الاول :

هل نستطيع ان نقول ان الثقافة تضم جميع طرق الشعور والتفكير والعمل التي لا تكون حتمية نتيجة للاجهزة والعمليات البيولوجية عند الانسان و « أو » نتيجة لظروف خارجية موضوعية ؟

العالم الانثربولوجي الثالث :

اليك الاعتراضين الآتيين على هذا التعريف : أولا ، يصور هذا التعريف الثقافة كما لو انها « صنف من الأشياء المتبقية » ، وهذا غير محبذ من الناحية المنطقية . ثانيا ، اعتقد انه من الافضل ان نشير صراحة الى البعد الزمني الذي ابرزناه باستعمال عبارة « عمليات تاريخية المنشأ » .

العالم الانثربولوجي الأول :

هل يوحي هذا بالطبيعة التجمعية او التراكمية للثقافة ؟

العالم الانثربولوجي الثالث :

أجل ، ولكن علينا ان نذكر ان الثقافة ، اذا نظرنا اليها من زاوية اخرى ، ليست « تراكمية » تماما . فهي في اي وقت معين ، تتحلى ايضا

بصفات فريدة . ولهذا كان مـن الضروري جدا ان نضمن اي تعريف نورده كلمة « انتقائية » .

المحامي :

أدرك انه وقع الاختيار على انساق محتملة مـن السلوك ، وان الانساق المختارة قد تصبح راسخة في حياة احد المجتمعات . ولكن الا تعتقد إنك تغالي في التشديد على هذه الناحية ، ويبدو لي اننا نحسن صنعا لو اننا نظرنا الى الطبيعة الانسانية نظرة عملية تقـوم على الفطرة السليمة واعتمدنا في تفسيراتنا على اوضاع محسوسة .

العالم الانثربولوجي الاول :

لا اوافقك على هذا الرأي . فانك لو نظرت الى مدى ابعد مـن نطاق السجلات الخاصة بالزمان والمكان اللذين نعيش فيهما ، لتبين لك ان المسألة ليست بهـذه البساطة . فهنـاك مشكلات انسانية حتميـة ومتكررة ، والطرق التي بها يستطيع الانسان مواجهة هذه المشكلات تحددها اجهزته البيولوجية وبعض الحقائق المتصلة بالعالم الخارجي . ومن المحتمل ، على ما يبـدو ، ان علماء الانثربولوجيا انساقـوا ، في السنوات الاخيرة ، في تيار الاهتمام بالتنوع الموجود على ظهر البسيطة، فاهملوا المشابه الاساسية . غـير اننا اذا استثنينا بعض المشابه الهامـة والعامة جدا ، تبين لنا ان الصورة التـي نحملها في اذهاننا عن وجود « طبيعة انسانية » واحدة وغير متغيرة هي اشبه ما تكون باسطورة من اساطير الادب الشعبي التي ترتاح انفسنا لسماعها . فاذا نحن نظرنا الى التفصيلات ، وجدنا ان هناك « طبائع انسانية » . فالشيخوخة ، مثلا ، هي وضع يجب ان يتكيف عليه كل من يبلغ مـن العمر عتيا . غير اننا نلاحظ ان احد المجتمعات ينظر الى الشيوخ بعين الاحترام ويقر اهليتهم لتولى السلطة ، بينا ينظر اليهم مجتمع آخر بشيء من اللامبالاة ، وقد

يعمد الى اساءة معاملتهم وازدرائهم . وفي كلا الحالين لا يرتبط هــذا الموقف بالمنجزات الفردية التي حققها الشيوخ ابــان شبابهم . وثمــة مجتمعات لا تأخذ عامل التقدم في السن بعين الاعتبار ، فتراها تحترم الشيوخ او تهملهم على اساس تصرفاتهم ومنجزاتهم الفردية السابقــة . وهكذا نرى الثقافة تؤثر في موقف المجتمعات من العمر ، وذلك علــى الرغم من انه يمثل حقيقة بيولوجية . وبناء على ما تقدم ، يمكن القول ان مرونة « الطبيعة الانسانية » هي اوسع الظاهرات الثقافية انتشارا ، وهي بالتالي تمثــل نتيجة يوثق بها اكثر مــن النتائج الاخرى التــي يستخلصها علماء الانثربولوجيا من دراسة الانماط الثقافية المتباينة .

ويكاد يكــون من المتعذر حصر عدد الاشكال الدقيقة التحديد التي تتخذها العمليات البيولوجية والاجتماعية ، وهذه الاشكال كلها ثقافية . ولنأخذ على سبيل المثال الحالات التــي تتشابك فيها الحقائق البيولوجية والاجتماعية ، وهي حالات تتكرر كثيرا . ففي الكثير مــن المجتمعات التي وصفها لنا الباحثــون نلاحظ ان ضعــاف الاجسام لا يتمتعون ـ في اغلب الحالات ـ بذات الفرص المتاحــة لزملائهم مــن ذوي الاجسام القوية . ونلاحظ ايضا ان بعض المجتمعات قــد اتخذت اجراءات رادعة لمنع الاقوياء من استغلال الضعفاء ، وهي تنظر باستهجان شديد الى كل من تسول له نفسه من « القبضايات » ان يعتو او يتجبر ، ولذا كانت حالات الاعتداء على الضعفاء نادرة . وتتجه مجتمعات قليلة الى منح امتيازات خاصة لضعاف الاجسام او الذين يشكون من عاهات معينة .

تبين لنا ان الاوضاع الاجتماعية البيولوجية والاوضاع الاجتماعية الصرفة يمكن ان تتأثر بالثقافــة . كذلك الحــال بالنسبة للاوضــاع البيولوجية الصرفة ، فانها ايضا قد تتأثر بالثقافة وتكتسب نسقا معينا . فالتقيؤ ، مثلا ظاهرة بيولوجية يمكن ان تحدث نتيجة لاسباب بيولوجية

صرفة. غير ان معلوماتنا البيولوجية لا تكفي وحدها ـ في بعض الحالات ـ لمساعدتنا على التنبؤ بتتابع الحوادث التي قد تؤدي الى التقيؤ ، وذلك على الرغم من ان الفروق الفردية في الاجهزة العصبية والخبرات السابقة قد تلعب دورها في هذا المجـال . فمن المعروف ان بعض الامريكيين ، مثلا ، يتقيأون حين يخبرهم مضيفهم ان الطعام الذي تناولوه هو لحم حية الجرس . وبما ان لحم حية الجرس مغذ من وجوه مختلفة ، فان التقيؤ في هذه الحالة مرده الى عامل غير بيولوجي .

ومن الممكن الاستشهاد بامثلة ايضاحية لعمليات بيولوجية اخرى كالبكاء والاغماء وغيرهما من العمليات التـي تتأثر باعتبارات ثقافية متشابكة . ولعل المثل الآتي اوضح من غيره في بيان ما ارمي اليه . مـن المعروف ان الطفل حديث الولادة يتغوط حين يبلغ التوتر في القولون او المثانة مستوى معينا من الشدة . غير ان حركات الانقباض والانبساط البيولوجية لا تلبث ان تبدأ بالتأثر بعوامل خارجيـة لا تتصل مباشرة بالحقائق البيولوجية . فمعظم البالغين الذيـن يتمتعون بصحة سليمة لا يتغوطون الا مرة واحدة او مرتـين ، على اكثر تقدير ، في اليـوم الواحد . وهم ينزعون ، في الكثير من المجتمعات البشرية ، الى القيام بهذه العملية في اوقات تكاد تكون محددة ، وفي اماكن مخصصة لهذا الغرض ، وفي ظروف معينة . فمن المعروف ، مثلا ، ان بعض الاشخاص لا يستطيعون القيام بهذه العملية في حالة وجود شخص آخر او في حالة وجود شخص من غير الذين تجيز التقاليد وجودهم . والواقع ان العلاقة المتبادلة بين الابعاد البيولوجية والابعاد الثقافية شائقة وحيوية جدا حتى ان بعض العلماء الانثربولوجيين يعتقدون ان دراسة مظاهر هذه العلاقة تشكل السمة التـي تميز علم الانثربولوجيا عـن غيره من العلـوم الاجتماعية .

عالم النفس :

أليس هذا ضربا من « الاقتران » ؟

العالم البيولوجي :

بلى ، ومن الممكن ان نطلق عليه مصطلح « الاقتران البيئي » .

العالم الانثربولوجي الاول :

انه في الواقع نوع خاص جدا من الاقتران . فما من جماعة بشرية تعمل عامدة على تدريب اطفالها على التقيؤ في ظروف معينة . فهذه الظاهرة هي نتيجة جانبية لنسق خاص في الحياة او لمظهر خاص منه .

العالم الانثربولوجي الثالث :

من النظريات الساذجة التي تهيمن على عقول الكثيرين نظرية تقول ان لدينا كائنات فردية (من الممكن مشاهدتها) وان هذه الكائنات توجد في عالم خارجي (من الممكن ايضا مشاهدته ووصفه) . هذه النظرية ينادي بها اصحاب « الفطرة السليمة » ومن العسير جدا النيل من صيغة تبدو في ظاهرها معقولة كهذه الصيغة . غير انها في الواقع لا يمكن ان تستوفي جميع الحقائق ، فالشعور بالبيئة الخارجية يعتمد على عامل الانتقاء اعتمادا كبيرا جدا حتى انه يتعذر تحقيق مثل هذا الاستيفاء على الوجه الاكمل . فاذا اخترنا فئات مختلفة من البالغين الذين تلقوا تدريبهم في ظل تقاليد اجتماعية مختلفة ، ووضعناها في جزيرة واحدة ، فانها ستتباين في استجاباتها للبيئة الجديدة وفي الاساليب التي تحاول بها التكيف عليها . ويبدو انه يوجد بين افراد المجتمع وبيئتهم ساتر يمكن وصفه بانه حقيقي ، وذلك على الرغم من انه غير محسوس .

عالم النفس :

اذا اردنا فهم اي عمل يقوم به الفرد على حدة وجب علينا ، كما تبين لي ، ان نطرح الاسئلة الآتية :

١ . ما هي المواهب الفطرية التي يتمتع بها الفرد وما هي مظاهر قصوره ؟

٢ . ما حصيلة خبراته السابقة للعمل قيد الدراسة ؟
٣ . ما الوضع الذي يرتبط ارتباطا مباشرا بالعمل ؟

العالم الانثربولوجي الاول :

لا يمكن توضيح اي من هـذه التغيرات على نحو مرض بـدون الاستعانة بمفهوم « الثقافة » .

١ . اذا استثنينا الاطفال حديثي الولادة والافراد الذين ولدوا وهم يعانون من شذوذ بنياني او وظيفي واضح ، امكننا القول اننا لا نستطيع ملاحظة « المواهب الفطرية » بمعزل عن التدريب الثقافي الذي يؤثر فيها ويعدلها . ففي مستشفيات نيومكسيكو يولد اطفال ينتمون الى قبيلة هنود الزوني ، واطفال ينتمون الى قبيلـة هنـود النفاهو ، وأطفال من الامريكيين البيض . ومن الممكن تصنيف هؤلاء المواليد من حيث النشاط في ثلاث فئات : فوق المتوسط ، متوسط ، دون المتوسط . ونعني بذلك اننا نجد مواليد من كـل من الاعراق الثلاثة في كل مـن الفئات الثلاث ، هذا مع العلم باننا نجد عادة نسبة اعلى مـن الاطفال البيض ضمن الفئة التي تتمتع بنشاط فوق المتوسط . ولنفترض الآن ان ثلاثة اطفال (الاول من النفاهو ، والثاني من الزوني ، والثالث مـن البيض) صنفوا عند الولادة في الفئة التي تتمتع بنشاط فوق المتوسط وانهم كانوا متساوين من هذه الناحية . يلاحظ ، عند انتهاء السنـة الثانية من العمر ، ان الطفل من قبيلة الزوني يبدو اقل نشاطا وحركة من لدته الابيض ، مع انه قد يتفوق على لداته من اطفال الزوني الآخرين في هذه الناحية . أما طفل النفاهو فيحتمل ان يحتل مكانا وسطا بـين لدته الابيض ولدته من أطفال الزوني ، مع انه قد يتفوق على معدل النشاط الغالب على لداته من اطفال النفاهو الآخرين .

٢ . أن مجرد الاكتفاء بوصف واقعـي لخبرة الفرد لا يساعدنا كثيرا على تحقيق ما نصبو اليه . فنحن لا غنى لنا عن تفسير الفرد نفسه

لخبرته ، وهذا يعتمد ــ جزئيا على اقل تقدير ــ على المعايير السائدة في مجتمعه . فردة فعل الفرد تجاه حادثة معينة كفقد امه ، مثلا ، قد تختلف كثيرا تبعا لاختلاف المجتمعات .

٣ . ومن الطبيعي ان ردة فعل الفرد تجاه وضع مباشر او تجاه الخبرات السابقة لا تتأثر بالاعتبارات الموضوعية او العقلية وحسب ، وانما ايضا بالوضع كما يحدده ويفهمه صاحب العلاقة . ونحن لا نكاد نجد اشخاصا ينظرون الى الاوضاع البشرية نظرة تعتمد كليا على حصيلة خبراتهم الفردية السابقة . فالثقافة هي ــ بالاضافة الى اشياء اخرى ــ عبارة عن مجموعة من التعريفات الجاهزة للوضع المباشر الذي يجد الفرد نفسه فيه ، وهي تعريفات لا يعدلها الفرد الا تعديلا طفيفا ينسجم مع طرقه ومفهوماته الاصطلاحية الخاصة .

العالم البيولوجي :

هلا ضربت لنا مزيدا من الامثلة ؟

العالم الانثربولوجي الثالث :

لعلنا نحسن صنعا اذا عدنا الى نقطة البداية وانطلقنا من ملاحظتنا الاساسية حول تنوع السلوك الانساني .

ولد طفل من والدين امريكيين ، ولكنه نشأ وتربى منذ نعومة اظفاره في كنف عائلة صينية . وما كاد الفتى يبلغ اشده حتى قام بزيارته الاولى الى امريكا . وعلق المراقبون والمخبرون على الدهشة التامة التي اعترت الفتى عندما احتك بطريقة الحياة الامريكية ، لا بل انهم قالوا ان مشيته وحركات ذراعيه ويديه وتعبيرات وجهه كانت صينية اكثر منها امريكية . واكدوا كذلك انه كان من العسير على المرء ان يتحقق من انتمائه الى الجنس الابيض ما لم يلفت انتباهه الى شعره الاشقر وعينيه الزرقاوين . وخلاصة القول ، ان هذا الفرد كان في اعماله ومواقفه اشد شبها باعضاء فئة عرقية غريبة منه باقربائه المقربين او اعضاء الفئة العرقية

التي ينتمي اليها .

ولنضرب الآن مثالا ايضاحيا آخر قد يكون اقل اثارة من المثال السابق ، ولكنه مألوف اكثر عند المواطنين الامريكيين . اذا قضت عائلة ايطالية مهاجرة اكثر من جيلين في امريكا ، فان اي فرد من الجيل الثالث لهذه العائلة يعكس « عادات اجتماعية » اشد شبها بعادات « الامريكيين العرقيين » منها بعادات الايطاليين المقيمين في ايطاليا . ولا ينطبق هذا القول ، بطبيعة الحال ، على الافراد الذين ينشأون ويترعرعون في الاحياء الخاصة بالايطاليين في المدن الامريكية الكبيرة . صحيح ان اثر البيئات المحلية والجغرافية المختلفة التي نشأ فيها الامريكيون الايطاليو الاصل لم يكن قويا جدا ، غير اننا نستطيع ان نميز اتجاهات مشتركة عند جميع افراد هذه الجالية يمكن وصفها بانها اقرب الى اتجاهات الامريكيين الآخرين منها الى اتجاهات الايطاليين .

ولا بد لنا من توضيح اوجه التباين والتشابه بين الفئات المهاجرة والفئات التي ظلت مقيمة في وطنها الاصلي . ويلاحظ ان الفئات المهاجرة التي تنتمي الى عرق واحد تعكس فروقا كبيرة في المعايير السلوكية ، بينا تعكس الفئات التي تنتمي الى اعراق مختلفة مشابه كبيرة . فقد لاحظ كثيرون من المراقبين في مراكز تأهيل اليابانيين ، مثلا ، ان اليابانيين الذين ولدوا ونشأوا في الولايات المتحدة الامريكية ــ وبخاصة اولئك الذين نشأوا بعيدا عن الاحياء او المستعمرات اليابانية ــ اقرب الى جيرانهم البيض في جميع خصائصهم السلوكية منهم الى اقربائهم اليابانيين الذين تلقوا تعليمهم وتربيتهم في اليابان ثم هاجروا الى الولايات المتحدة الامريكية .

عالم النفس :

هذا يثبت ان الكائنات البشرية تستطيع ان تتعلم بعضها من البعض الآخر ، وهذه حقيقة معروفة . ولكن لو افترضنا جدلا ان جميع

الامريكيين ابيدوا ، فكيف تستطيع ان تثبت ان الامريكيين اليابانيين لن يرتدوا الى نسق في الحياة شبيه جدا بنسق حياة اليابانيين في اليابان ؟

العالم الانثربولوجي الثالث :

من الواضح انه لا يمكن تقديم جواب بات عن مثل هذا السؤال الفرضي . ولكن لاحظ جيدا ان تعريف الثقافة ، كما صغته ، لا ينفي باي حال من الاحوال الاهمية المحتملة للعوامل الفطرية . فهو لا يؤكد الزعم الباطل بان هناك تماثلا تاما ، في مختلف التفاصيل السلوكية ، بين جميع اليابانيين في اليابان ، او بين جميع الامريكيين البيض . وكل ما يقوله هذا التعريف في هذا الصدد هو : على الرغم من الفروق الفردية الكثيرة ، فان هناك تباينا شديدا بين فئة واخرى في بعض الاتجاهات المشتركة التي نلاحظها في كل منهما . وبما ان الاتجاهات المشتركة للامريكيين البيض تنعكس ايضا على اعداد كبيرة من الافراد الامريكيين الذين هم من اصل ياباني ، فمن حقنا ان نستنتج ان المنازع المشتركة التي تلتقي فيها الفئتان يمكن ان تنسب الى اثر الانماط الحياتية الموجودة وقابليتها للانتقال من فرد لآخر . وبالطبع لا يعني هذا القول ان سلوك الامريكيين الذين هم من اصل ياباني ينطبق انطباقا تاما ، في جميع تفاصيله ، على النسق الذي يسير عليه الامريكيون البيض .

الاقتصادي :

لو افترضنا ان اليابانيين اقصوا من بلادهم وان مستوطنين من الامريكيين البيض حلوا محلهم ، فان الامريكيين البيض قد يطورون بعد عدد معين من الاجيال مفهومات اجتماعية متصلة بوضعهم الجديد قد يكون من الصعب تمييزها عن المفهومات الخاصة باليابانيين اليوم .

العالم الانثربولوجي الثالث :

ان البيئات الطبيعية في الولايات المتحدة الامريكية متنوعة جدا ،

وعلى الرغم من ذلك نلاحظ ان الامريكيين من سكان المنطقة الجنوبية الغربية ومنطقة اوريجون الماطرة ينتهجون انماطا سلوكية يمكن تمييزها بسهولة عن الانماط السلوكية لسكان الصحارى الاوسترالية او سكان المروج الخضراء في انجلترا .

وثمة قبائل ـ كقبيلتي البويبلو والنفاهو ـ تعيش في بيئات طبيعية وبيولوجية متماثلة ولكنها ، رغم ذلك ، تتباين كثيرا في انماط حياتها . ومن جهة اخرى نلاحظ ان الانجليز الذين يعيشون في منطقة خليج هدسون ما زالوا يلتقون ، في الكثير من انماط حياتهم ، مع الانجليز الذين يعيشون في الصومال . ونحن لا ننكر ان البيئات الطبيعية المختلفة مسؤولة عن بعض التغييرات التي نلاحظها . ولكن الحقيقة التي تستلفت نظرنا هي استمرار بعض الانماط المشتركة في الحياة على الرغم من التباين الشديد بين البيئات الطبيعية .

ولنضرب الآن مثالا آخر . هناك قريتان في نيومكسيكو لا تفصل بينهما مسافة كبيرة ، الاولى اسمها رامة والثانية فنس ليك . وينتمي سكان هاتين القريتين الى ما يسمى احيانا « سلالة الامريكيين البيض العريقين » ، ولو درس اي عالم انثربولوجي مختص بالاجسام البشرية السمات الجسمية لسكان القريتين ، لقال انهم يمثلون على وجه الاجمال عينات عشوائية من فئة عرقية . ومن جهة اخرى لا يكاد يلاحظ اي تباين جوهري بين بيئتي القريتين من حيث التضاريس الصخرية وكمية الامطار السنوية وتوزيعها والحيوانات والنباتات المحلية في المنطقة المحيطة بالقريتين . وتكاد كثافة السكان تكون واحدة في الحالتين ، وكذلك الامر بالنسبة لبعد كل من القريتين عن الطريق العمومية الرئيسية . وعلى الرغم من هذه المشابه ، فان الزائر العابر سرعان ما يلاحظ بعض الفروق ، وبخاصة في الازياء وطراز البيوت ، وفي عادة افراد ديوان او بهو خاص للاستقبال . واذا اكملنا قائمة الفروق ، فانها

ستقيم دليلا قاطعا على ان القريتين تختلفـان اختلافا كبـيرا في نمط حياتهما . ويعود ذلك ، في المقام الاول ، الى ان القريتين تمثلان شكلين متغايرين من التقاليد الاجتماعية الانجلو امريكية . وهذا يفسر الاختلاف البسيط بين ثقافتي القريتين .

الفيلسوف :

هناك سؤالان اريد عن كـل منهما جوابا محددا ، اولهما : اين المحل الهندسي للثقافة ــ هل هو في المجتمع ام في الفرد ؟

العالم الانثربولوجي الثالث :

ان طرح السؤال على هذا الشكل ينطوي على مغالطة منطقية . لنذكر دوما ان « الثقافة » ضرب من التجريد . ولذا يمكن القول ان الثقافة لا توجد في اي مكان على شكل كيان ملموس قابل للمشاهدة ، اللهم الا اذا بدا للمرء ان يقول انها توجد في « اذهان » اولئك الذيـن يقومون بعملية التجريد . اما الاشياء والحوادث التـي نستخلص منها الحقائق المجردة ، فتملك وجـودا فعليا قابلا للمشاهدة . واما الثقافة فهي اشبه ما تكون بالخريطة . فالخريطة ليست اقليما ، وانما هي تمثيل مجرد لاحد الاقاليم . وكذلك الحال بالنسبة للثقافة ، فهي ايضا وصف مجرد لمنازع الفئات البشرية نحو الاتساق في الكلام والافعال والاشغال اليدوية . وعلى هذا ، فان المعطيات التـي نستقي منها معرفتنا بالثقافة لا نشتقها من مفهومات مجردة كمفهوم « المجتمع » ، وانما من سلوك يخضع للملاحظة المباشرة ، او من نتاج هذا السلوك . ولكن علينا ان نذكر ايضا ان « الثقافة » يمكن ان توصف بانها « فوق فردية » بما لا يقل عن معنيين تجريبيين بعيديـن كل البعد عـن المعاني الصوفية او الرمزية ، وهذان المعنيان هما :

١ . الافراد ، شأنهم شأن الاشياء ، يعبرون عن الثقافة .

٢ . ان استمرار الثقافة لا يعتمد على استمرار وجود افراد معينين .

الفيلسوف :

احسنت . والآن انتقل الى سؤالي الثاني ، وهو : هل يمكن ، باي حال من الاحوال ، وصف « الثقافة » بانها سبب اي شيء ؟

العالم الانثربولوجي الثالث :

اذا توخينا الدقة في التعبير ، فانه يتعذر علينا ان ننسب للثقافة مثل هذا الوصف . والواقع انني اشك دائما فيما اذا كان من المناسب استعمال مصطلح « السبب » عند بحث اية نظرية من نظريات العلوم الاجتماعية . فهذا المصطلح يوحي ، اكثر من اللازم ، بوجود قوة مندفعة في اتجاه واحد . واني أوثر ، في هذا المقام ، استعمال مصطلح« المحدد » لان دلالته توحي بوجود تأثير وتأثر متبادلين بين القوى ذات العلاقة . حتى التعبير « الثقافة تحدد » يمثل طريقة مقتضبة وغير دقيقة جدا في الكلام ، وقد لا نجد ما يبررها الا في حالات معينة تقتضي الايجاز . والسبب الذي دفعنا الى القول بان هذه الطريقة في التعبير غير دقيقة هو ان الثقافة لا تنفرد كليا في تحديد اية ظاهرة محسوسة . ونحن لا ننكر ان الثقافة قد تكون احيانا « عاملا ستراتيجيا » ، اي انها قد تكون عنصرا حاسما في تقرير ما اذا كانت فئة معينة ستقوم بعمل معين على نحو مختلف عن طريقة تأديته في فئات اخرى ، او ما اذا كان هذا العمل سينحرف بعض الشيء عن الاتجاه الذي نتوقعه له استنادا الى معرفتنا بالقوى المؤثرة ، طبيعية كانت او بيولوجية . ومهما يكن من شيء فان « الحتمية الثقافية » ــ بالغا ما بلغ المعنى الذي تتخذه من البساطة او الحرفية ــ خليقة ان تواجه الاعتراضات ذاتها التي يمكن ان نوجهها الى اي نوع من الحتمية المقيدة باتجاه واحد « كالحتمية

الجغرافية او الاقتصادية » .

ومما لا شك فيه ان اثر الثقافة ينتقل ، على صعيد المحسوسات ، بوساطة الافـراد والشغال اليدوية . ولكـن ليس ثمة ما يمنعنا مـن التحدث عن الثقافة بوصفها عاملا محددا للاحداث ، وذلك عندما يرتقي البحث الى درجة عالية من التجريد . ويشترط في هذه الحالة الا نغفل درجة التجريد التي نعتمدها . ولعل التشبيه التالي يوضح ما ارمي اليه، هذا مع العلم بان جميع التشابيه (بما فيهـا التشبيه الذي سأورده) لا تخلو من بعض المخاطر . لنفترض ان رجلا اصيب بمرض وبائي ناجم عن احد الفيروسات ، وانه دخل احدى المدن ونقل اليها الوباء . مـا « سبب » الوباء في هـذه الحالة ؟ هل هو الرجل ام الفيروس ؟ مـن الواضح ان كلا الجوابين صحيح ، اذ ان ذلك يتوقف عـلى مستوى المفهومات التي نعتمدها في البحث والتفكير . أما بالنسبة للثقافة ، فاننا نضعف درجة التجريد حين نقول ان الافراد (او الاشياء) يمكـن ان يصبحوا « مضيفين » لها . اضف الى ذلك ان هذا التشبيه ــ مثله مثل القول بان الثقافة « وراثة اجتماعية » ــ يتمادى في التشديد على العلاقة السلبية بين الافراد والثقافة ، اذ يجعلنا ننظر الى الثقافة كما لو كانت بكتيريا تكتسب في جميع الحالات بالاحتكاك او الملامسة عـلى نحو عرضي خارج عـن وعي الافراد وارادتهم . وعلى الرغم مـن هذيـن الاعتراضين ، فان التشبيه يستهوينا لانه قد يكون اكثر توفيقا من غيره، لا بل يمكن القول انه اقل تضليلا من عبارة « الوراثة الاجتماعية » . فالجينات تتخذ شكلا ثابتا لا يتغير منذ اكتسابها للمرة الاولى والاخيرة عند الميلاد ، بينا تتغير البكتيريا تبعا لتغير ناقليها او تغير الاوقات ، هذا مع العلم بان اي نوع معين يظل قابلا للتمييز على الرغم من التغير الذي قد ينتاب افراده .

الفيلسوف :

هل تستطيع ان تربط بين ما ذكرته الآن وبين الجدل الذي ثار حول نظريات شبنجلر وسوروكين وغيرهما القائلة بان للثقافات قوانينها الخاصة بالنمو والانحلال ؟

العالم الانثربولوجي الثالث :

اذا صح ما ذكرته آنفا ، فمن المحتمل ان العلماء الانثربولوجيين تسرعوا في رفضهم لهذه النظريات . ولسوء الحظ صيغت هذه النظريات اجمالا على نحو جعل البعض ينتقدها على اساس انها « صوفية » او « ميتافيزيقية » ، كما جعل البعض الآخر الذي درسها دراسة سطحية يثني على هذا الانتقاد . غير ان العالم الانثربولوجي الذي يرغب حقا في فهم هذه التفسيرات يستطيع ان « يترجمها » الى مفهوماته الخاصة ، واذا فعل ذلك وحافظ في الوقت نفسه على مستويات التجريد التي اعتمدها ، بدا له انها تستحق قبولا جزئيا او تحتاج ، على أقل تقدير ، الى دراسة ثانية دقيقة .

من المسلم به ان الثقافة ليست « فوق عضوية » ، اي انها لا تستمر في الوجود بعد هلاك المشتركين فيها وفناء جميع تعبيراتها وانعكاساتها غير البشرية . وعلى الرغم من ذلك ، فان لكل ثقافة قائمة خصائص تجعلها تتمتع بشيء من الاستقلال عن القوى الاخرى التي تتفاعل معها . ومن السمات التشخيصية المميزة للثقافة « الانتقائية » . فمن الممكن تلبية معظم الحاجات الخاصة بطرق مختلفة ، غير ان الثقافة لا تختار الا واحدا او عددا قليلا جدا من الانساق المتوافرة من الناحيتين العضوية والطبيعية . ومن الواضح ان قولنا « الثقافة تختار » هو تعبير مجازي . فالاختيار « الاصلي » قام به بالضرورة احد الافراد ، ثم تبعه افراد آخرون (ولولا ذلك لما اصبحت العناصر المختارة جزءا من

الثقافة) . واذا تعلم افراد الاجيال اللاحقة ايا من العناصر التي سبق اختيارها ، فان وجود مثل هذا العنصر يمثل في الواقع اختيارا لم يقم به الافراد الجدد نتيجة لردود فعلهم تجاه اوضاعهم الخاصة وانما نتيجة اختيار قام به اسلافهم منـــذ زمن بعيـــد وظل يلزمهم ويؤثر في مجرى حياتهم .

غير ان ادراك العوامل الانتقائية المتصلة بمتطلبات البيئة الطبيعية، او بالحري هـــذا التفسير الجامد المقيد لوضع الانسان في العـــالم ، لا يستوفي جميع الاحتمالات ، فهو يستبعد عددا من الامكانات المحتملة الاخرى . ان « الاتجاه نحو الانسجام » في الثقافات يضفي عـــلى مثل هذه الامكانات المختارة والمستبعدة دلالة ابعد مـــن النشاط الخاص الذي تنطوي عليه الثقافة في الظاهر . فالاختيار الذي يقوم به الفرد في لحظة حاسمة من حياته يلزمه بالسير في اتجاهات معينة فيما تبقى مـــن عمره . كذلك الحال بالنسبة للثقافة ، فان الميول والاتجاهات و « محاور الاهتمام » الاصلية التي يتبناها مجتمع حديث التكوين تنزع الى تسيير ثقافته في اتجاهات معينة دون اخرى . غير ان هذه الثقافة تتعرض فـــي وقت لاحق لتغييرات تنشأ اما من عوامل داخلية واما استجابة للاحتكاك مع الثقافات الاخرى او التغييرات التي تطرأ على البيئة الطبيعية . ومثل هذه التغييرات لا تكون عشوائية ، اذ يوجد ــ من زاوية واحدة على اقل تقديـــر ــ « تطور محدد الاتجاه » علـــى الصعيد الثقافي ، مثلما يوجد « تطور محدد الاتجاه » على الصعيد البيولوجي .

المحامي :

هناك نقطة ما زالت بحاجة الى ايضاح ، وهي : كيف تفسر الانتقال مـــن « الثقافة » بوصفها مبدأ عاما الى « ثقافـــة ما » معينة ؟ فعـــالم الفيزياء ، مثلا ، يتحدث عن «الجاذبية» وليس عن « جاذبية ما » معينة.

العالم الانثربولوجي الاول :

حين « يشرح » عالم الفيزياء سقوط اجسام معينة محسوسة في وقت ومكان محددين ، فلا بد له ـ اذا اراد الدقة والتفصيل في شرحه ـ من ان يتوسع ويسهب بحيث لا يقصر حديثه عن المبدأ العام للجاذبية . وبعبارة اخرى ، عليه ان يصف المجال المعين للجاذبية الذي أثر في هذه الاجسام في الوقت المحدد . وكذلك الامر بالنسبة للتعبير « ثقافة ما » ، فهو شكل موجز للعبارة الطويلة التالية : « مجال خاص لتلك القوة التي تعرف باسم ثقافة » .

« الثقافة » باعتبارها مفهوما وصفيا

الطبيب :

هل نستطيع القول بان الثقافة باعتبارها مفهوما تعني ، بوجه عام ، ما تجمع من تراث الابداع الانساني على مر الاجيال : الكتب واللوحات الفنية والمباني وما شاكلها ، ومعرفتنا بطرق التكيف على البيئة الطبيعية والاجتماعية ، واللغة والعادات وآداب السلوك والمعاملة والدين والاخلاق ؟

العالم الانثربولوجي الاول :

ان وصف الثقافة بانها « حصيلة الاستجابات التكيفية » أو انها ابداع انساني قد يستهوي خيالنا ويحظى بموافقتنا جميعا . ولكني اود ان الفت انتباهك الى خطورة الاعتراضات الموجهة ضد التعاريف القائمة على التعداد او التعاريف التي تكتفي بسرد بعض الظاهرات المحسوسة .

العالم الانثربولوجي الثاني :

أوافق زميلي على رأيه ، كما اضم صوتي الى القائلين بان الثقافة،

حتى على الصعيد الوصفي ، لا بد من ان ينظر اليها كما لو انها نوع من التجريد . حتى « السمة الثقافية » يمكن اعتبارها مـن بعض النواحي « طرازا مثاليا » . ولو انك ، مثلا ، تأملت الساعات المستعملة للتنبيه ، لما وجدت ساعتين متماثلتين تماثلا تاما . فمنها الصغير ومنها الكبـير . ومنها ما يسير بانتظام ومنها ما يتعثر . ومنها ما هو بسيط وعادي ، ومنها ما هو براق او مزخرف بالوان زاهية . واذا امعنا النظر حتى في الساعات التي انتجها مصنع واحد قبـل مدة وجيزة ، لاحظنا فروقا طفيفـة بين الواحدة والاخرى .

رجل الاعمال :

اسمحوا لي يا سادة ان اضيف شيئا الى هذه الفكرة . ان كلمـة « مصرف » هي مصطلح عام ينطبق على جميع المؤسسات التي تختص بتصريف انواع معينة من المعاملات المالية . هل نستطيع اذن القول بان الثقافة ، باعتبارها مفهوما وصفيا ، تعني مجمل هذه التعميمات كلها ؟

العالم الانثربولوجي الاول :

افضل ان اصفها بانهـا « اجمال جميـع الافكار المتصلة بالطرق القياسية للسلوك » .

العالم الانثربولوجي الثالث :

ان الفكرة التي تراودنا هي تعريف الثقافة من ناحية وصفية والنظر اليها كما لو كانت مجموعة من مخططات العمل باوسع معـانيه بما في ذلك الشعور . وهذه الفكرة مغرية جدا ، وقد تكـون سليمة ايضا . ولكن علينا ان ندرك بوضوح ان مثل هذا التعريف يصاغ من وجهة نظر المراقب او دارس الثقافة ، وليس مـن وجهة نظر المشتركين فيها . فبالنسبة للمشتركين ، نلاحظ ان الكثير من مظاهر الثقافة لا يعبر عنه بالكلام ، ويمكن القول ، بصورة عامة ، انه ضمني .

طبيب الامراض العقلية :

اوافق على ما تقول . والواقع انني كنت دائما اعترض على عبارة « الثقافة تتألف من افكار » وما شاكلها من العبارات ، لانني اعرف جيدا من دراستنا المقارنة في طب الامراض العقلية ان هناك ايضا « اعتبارات مقننة ثقافيا مع انها خارجة عن نطاق المنطق والاستدلال العقلي » .

العالم الانثربولوجي الاول :

هذا صحيح ، فمع ان الكثير من الثقافة قابل للادراك والمعرفة ويمكن نقله الى الغير على هذا الاساس ، فان الشعور يحتل منزلة هامة جدا .

الاقتصادي :

لعلنا نحتاج الى فئات ثلاث : العقلية ، واللاعقلية ، وغير العقلية .

العالم الانثربولوجي الثالث :

أنا ايضا أحمل هذا الرأي . واذا ترجمنا هذا الكلام الى المصطلحات التي درج باريتو على استعمالها ، امكننا القول ان بعض مظاهر الثقافة « منطقي » والبعض الآخر « لامنطقي » ، ومن المحتمل ان المظاهر « غير المنطقية » تشكل اكبر نسبة منها .

العالم الانثربولوجي الرابع :

لنضع اذن تعريفنا الاساسي على النحو التالي : « نقصد بالثقافة جميع التصاميم التاريخية المنشأ التي خططت للحياة ، بما في ذلك التصاميم الضمنية والصريحة ، والعقلية واللاعقلية وغير العقلية . وهذه توجد في اي وقت معين كما لو كانت تملك قدرة كامنة على توجيه سلوك الناس وارشادهم » .

المحامي :

اود الاستفسار عن نقطة واحدة . لماذا كان من الضروري أن

تضمن تعريفك عبارة « في اي وقت معين » ؟

العالم الانثربولوجي الرابع :

لان الثقافة تكون دائما عرضة لان تخلق او تفقد . واي تعريف نورده يجب الا يوحي لنا بان الثقافة ساكنة او مستقرة كليا على نحو واحد .

العالم الانثربولوجي الثاني :

ضمنت تعريفك عبارة « التصاميم المخططة من أجل الحياة » . هل قصدت بذلك ان يضم مفهومك للثقافة الناحية النظرية فقط ، اي الطرق الواجب اتباعها في مختلف الاعمال والمشاعر ؟

العالم الانثربولوجي الرابع :

لا ، اذ ان « التصميم » ينطوي على الناحيتين النظرية والعملية . ويدل « التصميم » — في اللغة المهنية الدارجة على ألسن الانثربولوجيين — على الانماط السلوكية مثلما يدل على الانماط المثالية . ولنذكر ان الثقافة هي دائما بنيان تجريدي . ولا يقتصر عمل العالم الانثربولوجي على الاهتمام بما يقوله (او يشير اليه) الناس عن معايير السلوك المعتمدة عندهم او عن الوان العقاب المختلفة التي تنزل بالذين يخرقون هذه المعايير ، فهو يلاحظ ايضا ان النظم السلوكية المستهجنة تنزع ايضا الى انتهاج انساق معينة . ويبدو ، من وجهة نظر المراقب ، كما لو ان الناس يتمسكون ، على غير وعي منهم ، بمخططات او تصاميم لاشكال السلوك التي تعتبر محرمة او سلبية من وجهة نظر المعايير الاخلاقية المشتركة .

المحامي :

هل لك ان تعرف لنا ما تقصده بمصطلح « ثقافة » حين تتحدث عن مجتمع معين ؟

العالم الانثربولوجي الاول :

ان ثقافة مجتمع مـــن المجتمعات هي نظـــام تاريخي المنشأ يضم تصاميم صريحة او ضمنية للحياة ، وينزع الى ان يكون نمطا يشترك فيه جميع اعضاء فئة معينة او اعضاء قطاع خاص معين منها .

العالم الانثربولوجي الثالث :

اني مرتاح لهذا التعريف ، لا سيما ان كلمة « نظام » لها دلالة هامة فيه . فهي توحي بالتجريد وتدل مباشرة عـــلى ان الثقافة منظمة ، او بالحري انتقائية .

عالم النفس :

اما انا ، فأود ان اعبر عـــن ارتياحي لاستعمال كلمة « ينزع » . فقد شعر بعض علماء النفس انهم اخطأوا في الماضي حين اندفعوا وراء المزاعم التي حاولت ان تؤكد لهـــم ان دراسة الثقافـــة تزودنا باساس مشترك لمختلف نماذج الشخصيات التـــي تظهر في المجتمع . فالابحاث التي اجريت في هذا الميدان تشير الى انه كان مـــن الخطأ تصوير اي متكأ او اساس كما لو كان بمفرده نمطا « يشترك » فيه فعلا جميـــع اعضاء الفئة الواحدة ، ايا كان تشكيلها او وضعها .

العالم الانثربولوجي الاول :

صحيح ان كلمة « ينزع » تذكرنا بان الفرد قد لا يفكر او يشعر او يعمل تماما وفق مـــا يقتضيه التصميم . كذلك الامر بالنسبة للتعبير « قطاع خاص معين » ، فانـــه يذكرنا بان « المخططات » التـــي تؤلف الثقافة لا تنطبق كلها على كل فرد . فهنـــاك اوضاع تختلف باختلاف الجنس والعمر والطبقة والمقام الاجتماعي وهلم جرا .

العالم الانثربولوجي الثالث :

يبدو لي انك افصحت عن قضيتين يمكن اعتبارهما منفصلتين على الرغم من العلاقة التـي تربط بينهما . ومن المهم الا نخلط بـين هاتين القضيتين . فاما القضية الاولى فهي ان الاشتراك هو نزعة أو ميل اكثر منه حقيقة واقعة . وقد عبر ل.ك. فرانك بقوله ان ما نلاحظه فعلا هو « الصورة الاصطلاحية للطريقة التي تتبعها كـل شخصية في استغلال الانماط الثقافية » . ويتابع فرانك كلامه مستعينا بالتشبيه المفيد التالي :

« نستطيع تجريد الظاهرات المنتظمـة والمنسقة مثلما نستطيـع ملاحظة الانحرافات والتشويهات في الشخصية . ومثلنا في هذه الحالة مثـل الذي تعلـم كيف يلاحظ الظاهرات الاحصائية المنتظمة لاحـد الغازات ولكنه يستطيع ، في الوقت نفسه ، ان يميز ويقر بان للجزئيات الفردية التي يتكون منها هذا الغاز سلوكا غير منتظم وغير منسق » .

واما القضية الثانية فهي تبويب ثقافة معينة وتجزئتها الى فروع . فمع ان الطريقة التي يتبعها كـل فرد في استغلال الانماط اصطلاحية ، فاننا نشعر دائما ان بعض مجموعات الانماط مناسبة لفئات معينة مـن الافراد . ويجب اعتبار الاساس الذي تستند اليه الثقافة ثابتا تقريبا ـ ليس بالنسبة لكل فرد في جميع الفئات التي تتمتع بشيء من الاستمرارية والتكامل الوظيفي ، وانما بالنسبة لاولئك الذين يشغلون ذات المجموعة من الاوضاع او يؤدون ادوارا تكاد تكون متماثلة داخل الفئة الواحدة كلها .

العالم الانثربولوجي الاول :

هذا صحيح . ولكن هذه الحقيقة الهامة يجب الا تطمس حقيقة اخرى تعادلها او تتفوق عليها في الاهمية . فهنـاك حالات ينزع فيها جميع الافراد الى الالتقاء حـول تفسيرات مشتركة للعـالم الخارجي

ولوضع الانسان فيه . وينطبق هذا القول ــ على اقل تقدير ــ على الفئات التي تمتاز بشيء من الاستمرارية التاريخية والتي يطلق عليها عادة مصطلح « مجتمعات » . وكل فرد ، في مثل هذه الحالات ، يتأثر بالنظرة المشتركة الى الحياة ، كما ان كل ثقافة تتألف من انماط تنعكس بشكل صريح على طرق السلوك والشعور وردود الفعل . ولكن الثقافة تضم ، علاوة على ذلك ، مجموعة مميزة من المقدمات او الفرضيات غير المبينة التي تتباين كثيرا تبعا لتباين المجتمعات المختلفة . وقد تفترض احدى الفئات ، مثلا ، ان لكل سلسلة من الاعمال هدفا ، وان بلوغ هذا الهدف يؤدي الى ازالة التوتر ، هذا مع العلم بان مثل هذا الافتراض يتم بصورة غير واعية . وقد يبدو ، بالنسبة لفئة اخرى ، ان التفكير القائم على هذا الافتراض لا معنى له ، اذ قد ينظر افرادها الى الحياة كما لو انها مؤلفة من خبرات تبعث في ذاتها ومن اجل ذاتها على الارتياح والقناعة ، وليس على اساس انها تمثل وسيلة لغاية او سلسلة من الاعمال المتتابعة الهادفة .

الفيلسوف :

هل تقصد بقولك هذا ان كل ثقافة متسقة ومتكاملة حول اهتمامات معينة غالبة وانها تنسجم مع افتراضات او قضايا وضعية معينة ؟

العالم الانثربولوجي الثالث :

اغلب الظن ان الثقافات التي يمكن اعتبارها نظما متكاملة او متسقة كليا قليلة جدا . فمعظم الثقافات ، شأنها في ذلك شأن معظم الشخصيات ، يمكن اعتبارها شكلا من اشكال التوازن بين اتجاهات متعارضة . ولكن يستطيع المرء ان يلاحظ ، حتى في الثقافات التي لا

تقترب من التساوق الكامل ، تكرر موضوعات معينة في اطار مجموعات متباينة من القرائن والظروف .

عالم النفس :

هل تعني ما يسميه بعض علماء الانثربولوجيا « القضايا المنطقية المطلقة » للشعب ، ام هل تعني ما يشير اليه البعض الآخر بعبارة « منطق القضايا الوجدانية » ؟

العالم الانثربولوجي الثالث :

كليهما . فكل شعب يملك تركيبا وجدانيا خاصا يكاد ينفرد به الى درجة معينة . وهو يملك ، علاوة على ذلك ، مجموعة متماسكة تقريبا من الافتراضات المسبقة المميزة عن العالم الذي يعيش فيه . وتمثل الظاهرة الثانية في الحقيقة المنطقة الفاصلة بين العقل والشعور . ومن المحتمل ان يكون « منطق » جميع الشعوب ، بالمعنى النهائي للمصطلح ، واحدا ، ولكن من المؤكد ان المقدمات المنطقية تختلف باختلاف الشعوب .

الفيلسوف :

هل تعني المقدمات المنطقية المبينة والصادرة عن وعي ، اي ما يطلق عليه علماء المنطق مصطلح « القضايا الوضعية » ، ام هل تعني المقدمات المنطقية أو الافتراضات غير المبينة ؟

العالم الانثربولوجي الثالث :

كليهما . فمن المؤكد ان بعضا من اشد المقدمات المنطقية نقدا كثيرا ما يظل ضمنيا ، فلا يبينه حتى مفكرو المجتمع الذي تتجنى ثقافته هذه المقدمات . كذلك الامر بالنسبة لاصناف « التفكير » الاساسية ، فهي ايضا ضمنية في جميع المجتمعات باستثناء اقلية من المجتمعات المتحذلقة في طرق استدلالها العقلي ، كما هي الحال في المجتمع الامريكي .

العالم الانثربولوجي الرابع :

اذا كانت المقدمات المنطقية ونظم التفكير غير واعيــة كما تقول ، فكيف يتم انتقالها من جيل لآخر ؟

العالم الانثربولوجي الاول :

ارجح ان ذلك يتم ، في المقام الاول ، عن طريــق اللغة . فاللغة ، وبخاصة مورفولوجيتها او قواعدها الصرفية ، تحافظ على تلك الجوانب من فلسفة المجتمع التي لم يعبر عنها بصيغ واضحة مباشرة . وقد بينت دوروثي لي ، مثلا ، ان تتابــع الحوادث عنــد سكان جزر تروبرياند « لا يندرج تلقائيا في قالب العلاقات السببية او الغائيــة » . وبما ان طريقة كلام الاوروبيين تعتمد في اكثر الحالات على اظهــار العلاقات السببية ، فان اهالي هذه الجزر يجدون بعض الصعوبة في اقامة اتصال معهم . ويعود ذلك الى أن قواعد لغتهم تفرض عليهم انماطا خاصة في التفكير .

ومن المحتم أن تثير مورفولوجية اية لغة اسئلة بعيدة المدى تتصل بميداني الميتافيزيقا والقيم . فاللغة ليست مجرد اداة للاتصال او لاستثارة الانفعــالات ، وانما هي ايضا وسيلة لتصنيف الخبرات . والخبرة هي اشبه ما تكون بخط متصل الاجزاء يمكن تقسيمه بطرق تختلف كثيرا بعضها عن البعض الآخر . وما من شيء ايسر على الامريكيين والانجليز من ان ينساقوا الى الافتراض بان التمييزات التي تفرضها علينا اللغات الهندواوروبية او اللغة الانجليزية هي من الاشياء التي تهبها الطبيعة . غير ان الواقع ، كما تبين بوضوح من الدراسات اللغوية المقارنة ، هو ان اية لغة تتطلب انتقاء غير واع للمعاني من جانب المتكلم بها . فما من كائن بشري يستطيع الاستجابة لجميع المنبهات الكثيرة المتنوعة التــي يصطدم بها في عالمه الخارجي . وما نلاحظه او نتحدث عنــه او نشعر

باهميته يمثل ، في بعض نواحيه ، وظيفة انماطنا اللغوية . وبما ان هذه العادات اللغوية تنزع الى المحافظة على اوضاعها باعتبارها « ظاهرات اساسية » مسلما بها ، فان كل شعب ينزع بدوره الى اعتبـــار مقولاته ومقدماته المنطقية الاساسية غير المصرح بها كما لو كانت ظاهرات مسلما بها . ويفترض كل عضو في المجتمـــع ان « الآخرين يفكرون بالطريقة ذاتها » التي ، بحسب رأيه ، تنسجم مع الطبيعة الانسانية . واذا حدث ان استخلص افراد نتائج تختلف عن ما اعتاد المجتمع ان يستخلصه من ذات المجموعة من المعطيات ، فان المجتمع قلما يتراءى له ان مثل هؤلاء الافراد ربما انطلقوا من مقدمات منطقية مختلفـــة ، وانما يحكم عليهم بانهم « اغبياء » او « غير منطقيين » او « عنيدون » .

العالم الانثربولوجي الرابع :

كيف تفسر ان الشعوب المختلفة تملك نظما مختلفة من المقولات ؟

العالم الانثربولوجي الاول :

اللغة هي احد جوانب الثقافة . ولذلك ينبغـي لنا ان نرجع الى « الاحداث التاريخية العارضة » ، وكذلك الى جميـــع القوى الاخرى التي ، كما ذكرنا سابقا ، تسهم في انتاج جذور الثقافة . فكل فرد ينزع الى تصنيف خبراته وفق اسس القواعد اللغوية التي اعتاد عليها . ولكن القواعد اللغوية نفسها هي نتاج ثقافي ، وهذا ما بينته « دوروثي لي » بوضوح حين قالت :

« صحيح ان تفكـــير الفرد لا بد مـــن ان يسير باتجـــاه تياراته الخاصة . ولكن هذه التيارات نفسها موروثة من افراد سابقين حددوا اتجاهها في سياق الجهود اللاواعية التي بذلوها للتعبير عن مواقفهم من العالم . وتحتوي قواعد اللغة على الخبرة التي تراكمت على مر الاجيال والتي يجري تجميعها ، وتعرضها بشكل مجمل مبلور بحيث تمثل النظرة

الاجمالية التي يتبناها اي شعب من الشعوب نحو العالم » .

العالم الانثربولوجي الثالث :

ولعل هناك زاوية اخرى نستطيع ان ننظر منها الى مشكلة دوام التنظيم الثقافي ، وبخاصة على الصعيد الضمني . واقصد بذلك النظام الذي تفرضه الثقافة في مجال تنشئة الاطفال وتدريبهم . فلو افترضنا ان جميع البالغين في المجتمع تعرضوا لذات الحالات من الحرمان والخيبة خلال فترة التهيئة الاجتماعية فانهم ينزعون الى النظر الى الحياة من زاوية تكاد تكون متماثلة بالنسبة للجميع . ويقول روهيم بهذا الصدد ما يلي : « قد تكون الفكرة السائدة في احدى الثقافات ضربا من التعود ، ولكنها دائما نظام من الاعداد والتهيئة يمكن تفسيره على اساس اوضاع الطفولة » . وتعالج مرغريت ميد مشكلة العلاقة بين صدمات الطفولة وبين النقطة او النقاط البؤرية في كل ثقافة ، وذلك في اطار المعاني التي تنسبها الى مفهوم « الحبكة في الثقافة » .

العالم الانثربولوجي الرابع :

مع انني مقتنع جزئيا بهذا التفسير ، فانني ما زلت غير مرتاح تماما للاتجاه الى استعمال مصطلح « الثقافة الضمنية » .

العالم الانثربولوجي الثالث :

ان تصور نظام كهذا تفرضه علينا اعتبارات معينة يغلب عليها الطابع العملي . ومن المعروف ان البريطانيين اعدوا برامج خاصة للخدمات الاستعمارية ، وان الامريكيين اعدوا برامج خاصة للهنود وحرصوا ان تكون هذه البرامج امتدادا لمختلف الظاهرات الثقافية السائدة عند الهنود وان تنسجم مع انماطهم الثقافية الظاهرة . وعلى الرغم من كل ذلك ، فان هناك بينات ووثائق كثيرة تثبت ان هذه البرامج اخفقت في تحقيق الاهداف التي وضعت من اجلها . واجريت دراسة

مركزة على برنامج التدريب التكنولوجي ، فتبين انه اعد بعناية وان القائمين عليه حرصوا على استبعاد امكانات الخطأ او الاخفاق . وعلى الرغم من ذلك ، نلاحظ ان الهنود قاوموه وحاولوا عرقلة سيره . ولا مفر ، في هذه الحالة ، من ان نعزو هذا الموقف الى ان الهنود الذين طبق عليهم البرنامج تكيفوا على مخططات ضمنية للحياة وتدربوا على طرق في التفكير والشعور كانت خافية على الذين تولوا الاشراف الاداري على البرنامج .

العالم الانثربولوجي الاول :

ويجمع دارسو التغير الثقافي ايضا على ان الطريقة التي تقبل بها احدى الجماعات عناصر مقتبسة من الخارج ــ وكذلك طرق رفضها او تكييفها لهذه العناصر ــ لا يمكن ادراكها ادراكا تاما بمجرد النظر الى الوظائف المباشرة والصريحة . فالعملية ترتبط ايضا بالتركيب الثقافي ، بما فيه من جوانب ضمنية . حتى لو افترضنا ان محتوى ثقافة فئة من الهنود الامريكيين قد اصبحت اوروبية كليا ، فان طريقتها في الحياة ستظل تحتفظ بشيء من طابعها المميز ، كما ان « الوعاء » ظل يحتفظ بطابعه الاصلي .

العالم الانثربولوجي الثالث :

لا يسعنا الا ان نقر باننا لا نزال في المراحل الاولى من تطور طرق في التفكير قائمة على مفهومات هي من الدقة والموضوعية بحيث تمكننا من معالجة مشكلة تكوّن الانماط الثقافية الضمنية . ومن المرجح ان اهمية المقدمات والمقولات الثقافية الضمنية واضحة بما فيه الكفاية . ولكن مجرد الاشارة الى وجود مثل هذه الامور او غيابها لا يفي بالغرض . ويصدق هذا القول على جميع السمات الثقافية ، ضمنية كانت او صريحة . فالدلالة الكاملة لاي عنصر من عناصر اي تصميم

ثقافي لا يمكن ادراكها الا من خلال الاطار العام للعلاقات المتبادلة بينـه وبين العناصر الاخرى من جهة ، وبينه وبين التصاميم الاخرى من جهة ثانية . ويضم هـذا بطبيعة الحـال « النبرة » أو « تشديد اللفظ » ، وكذلك الوضع او المركز . وتتجلى « النبرة » اما عن طريق التكرار واما عن طريق الحدة . ولعل التشبيه التالـي يوضح لنا الاهمية الفائقـة للمسائل المتصلة بالترتيب والتشديد اللفظـي . خذ ، مثـلا ، ائتلافا موسيقيا من ثـلاث نغمات . فاذا قيـل لنا ان النغمات الثـلاث هي ' A ' و ' B ' و ' G ' ، فاننا نعتبر مثل هـذه المعلومات اساسية . ولكن ذلك لا يكفي وحده لمساعدتنا على التنبؤ بنوع الاحساسات التي يثيرها عزف هذا الائتلاف في نفوسنا او في نفوس جمهور معين مـن المستمعين . فنحن بحاجة الى معرفة انواع مختلفة من العلاقات الاخرى . باي ترتيب سيجري عزف النغمات الثلاث ؟ ما المدة التي ستخصص لكل منها ؟ كيف سيتم توزيع التشديد ، ان كان ثمة تشديد ، وبطبيعة الحال نحتاج ايضا الى معرفة المقام الموسيقي الذي سيعزف به الائتلاف ، وما اذا كان سيعزف على البيانو او الاكورديون(٢) .

الفائدة العملية لمفهوم ((الثقافة))

بمعانيه المختلفة

رجل الاعمال :

اود ان اطرح السؤال العملـي التالي : ما فائـدة هذا المفهوم بالنسبة لعالمنا المعاصر ، وكيف نستطيع ان نستغله ؟

---

(٢) اضطررنا ، بسبب القيود المفروضة على حجم هذه المقالة ، الـى اختصار النسخة الاصلية الى الثلث ، فحذفنا بعض التفصيلات الفنية ، كما حذفنا موضوعين نعتقد انهما ضروريان لاستكمال البحث ، وهما : التمييز بين العوامل « الاجتماعية » والعوامل « الثقافية » والدور الذي تلعبه الرموز في بحث نظرية الثقافـة .

العالم الانثربولوجي الاول :

أوكد لكم ، بادىء ذي بدء ، ان الفائدة الاولى لهذا المفهوم تكمن في العون الذي يقدمه للانسان في مساعيه الدائبة لفهم نفسه وفهم سلوكه . فهناك مشكلات ما زالت تحير ألباب عدد من اكثر المفكرين علما واشدهم حذقا ، من امثال رينهولد نيبور ، ومن الواضح ان مفهوم الثقافة ــ وهو مفهوم جديد نسبيا ــ يجعل بعض هذه المشكلات يبدو وهميا . ويعبر نيبور ، في كتابه « طبيعة الانسان ومصيره » ، عن اعتقاده بان الشعور الانساني العام بالاثم او الخزي ، وقدرة الانسان على التقويم الذاتي ، يحتمان افتراض وجود قوى خارقة . ولكن مثل هذه الحقائق يمكن تفسيرها بصورة منسجمة وبسيطة نسبيا في ضوء اعتبارات طبيعية صرفة وضمن اطار مفهوم الثقافة . فالحياة الاجتماعية عند بني البشر لا يمكن ان تقوم بدون نظام من « المفهومات العرقية والاصطلاحية » التي تنتقل من جيل الى آخر بصورة لا يكاد يلحقها اي تغيير . وبما ان كل فرد يلم ببعض هذه المفهومات ، فانه يستطيع ان يحكم على ذاته بالرجوع الى هذه المجموعة من المعايير . وهو يعاني من المتاعب ما يتناسب ومدى اخفاقه في الانسجام مع هذه المعايير ، وما ذلك الا لان الاعداد والتكيف اللذين تلقاهما ابان عهدي الطفولة المبكرة والطفولة المتأخرة يدفعانه بقوة الى استيعاب المعايير المتعارف عليها . وهو يميل بصورة غير واعية الى ان يقرن الانحراف عن المعايير بامكان حرمانه من الحب والحماية او بامكان تعرضه للجزاء .

هذه القضية ، وغيرها من القضايا التي حيرت الفلاسفة والعلماء عبر الاجيال ، تصبح قابلة للفهم التام او الجزئي في ضوء المفهوم الجديد للثقافة . وقد يرد البعض على هذا بقوله ان هذه الفائدة تنحصر في مجال التفكير ، وانه يرغب في التعرف الى تطبيقات هذا المفهوم من الناحية العملية . ونجيب عن ذلك ان الفائدة الرئيسية لهذا المفهوم ، على

الصعيد العملي ، هي انه يساعدنا كثيرا على التنبؤ بالسلوك البشري . ومن المعروف ان محاولات التنبؤ لم تحقق حتى الآن نجاحا كبيرا ، ويعود ذلك الى ان معظم هذه المحاولات بذلت على اساس الافتراض الساذج بان « الطبيعة الانسانية » متجانسة في جميع دقائقها . وبناء على هذا الافتراض ، ينطلق التفكير البشري كله من ذات المقدمات المنطقية ، وتستمد جميع الكائنات البشرية دوافعها من ذات الحاجات والاهداف. اما على الصعيد الثقافي فقد تبين لنا ان عمليات التفكير تنطلق من مقدمات منطقية يختلف بعضها عن البعض الآخر اختلافا جذريا ، وبخاصة المقدمات الضمنية او اللاواعية . ويصدق هذا القول حتى لو افترضنا ان المنطق النهائي لجميع الشعوب قد يكون واحدا ، وان الاتصال والتفاهم ممكنان بين هذه الشعوب . ومن المرجح ان اولئك الذين ينظرون الى الامور من الزاوية الثقافية مؤهلون اكثر من غيرهم للنفاذ الى الحقائق الكامنة وراء الغشاء الخارجي واماطة اللثام عن المقدمات المنطقية التي تحددها الثقافة . وقد لا يؤدي ذلك الى اتفاق او انسجام مباشر ولكنه ، على اقل تقدير ، سيساعدنا على اتباع طريقة اقرب الى العقل والمنطق في المحاولات التي نبذلها لمعالجة مشكلة « التفاهم العالمي » وتخفيف التوتر بين الفئات المختلفة ضمن الامة الواحدة .

هذا وان التوصل الى ادراك صحيح للثقافة سيشجعنا على اظهار المزيد من الاهتمام بالجوانب المحسوسة من طرق الحياة التي تختلف عن طرق الحياة المتبعة في المجتمعات الاوروبية والامريكية . فمعرفة « عادات » الشعوب الاخرى وتقاليدها تساعدنا على التنبؤ بالسلوك الذي ستنتهجه في ظرف معين ، كما ان احترامنا لهذه العادات والتقاليد يساعدنا على تحقيق التفاهم والوئام مع الشعوب الاجنبية .

والجدير بالذكر ان الثقافة ليست مجرد مجموعة متشابكة من

الوسائل التي اتخذت شكل انماط معينة تختص بتلبية حاجات الحياة . فهي ، علاوة على ذلك ، شبكة من الاهداف التي ترمي اليها المنجزات الفردية والجماعية . واذا اردنا ان تتنبأ باعمال الانسان المستقبلة ، وجب علينا الا نفترض ان الدوافع الفعالة متماثلة في جميع الفئات البشرية . حتى الدوافع الاولية ، كالجوع والجنس ، تخضع لتأثير الثقافة وتوجيهها . فالمعلومات البيولوجية وحدها لا تكفي للتنبؤ بنوع الطعام الذي يشتهيه افراد المجتمع او نوع الخبرات الجنسية التي يرغبون في ممارستها . اضف الى ذلك ان هنالك « دوافع ثانوية » عند كل مجتمع بشري . فعند الامريكيين ، مثلا ، كثيرا ما تكون الرغبة في تلبية « الحاجة » الى السيارات وأجهزة الراديو اشد من الرغبة في تلبية الحاجة الجنسية .

وبالاضافة الى ما تقدم يمكن القول ان كل ثقافة مجموعة مركبة من التطلعات والتوقعات . فاذا عرفنا ثقافة مجتمع من المجتمعات ، عرفنا ما تتوقعه طبقاته المختلفة بعضها من البعض الآخر ، او ما تتوقعه من الفئات التي تنتمي الى المجتمعات الاخرى ، وعرفنا ايضا انواع النشاط التي تبعث الارتياح في نفوس الافراد .

العالم الانثربولوجي الثاني :

وثمة شيء آخر هام يسهم به المفهوم الجديد للثقافة ، وهو انه يكسب بعض الاشخاص شيئا من التجرد من القيم الانفعالية المتصلة بثقافتهم ، سواء كانت واعية او لاواعية . ونلفت نظر القارىء الى اننا استعملنا هنا عبارة « شيء من التجرد » بدلا من « التجرد » ، وذلك لان الفرد الذي ينظر الى تصميم حياة مجتمعه بتجرد كامل من شأنه ، كما يبدو في الغالب ، ان يعيش حياة تعيسة خالية من الاهداف والقيم . فقد يؤثر مواطن امريكي آداب قومه على آداب الاقوام الاخرى ، او

بالحري قد يتعلق بها تعلقا شديدا . ولكن ليس من الضروري ان يحول ذلك دون ادراكه لجوانب الظرف التي تمتاز بها آداب السلوك عند الانجليز ، والتي يفتقر اليها الامريكيون او لا يحسنون التعبير عنها . وقد لا يكون المواطن الامريكي مستعدا لان يتجاهل قوميته ولا راغبا في محاكاة سلوك الانجليز في صالات الاستقبال ، ولكنه رغم ذلك قد يشعر بسرور حقيقي حين يلتقي بافراد من الانجليز في المناسبات الاجتماعية . أما اذا كان المواطن الامريكي غير قادر مطلقا على التحرر بعض الشيء من القيم الانفعالية التي تنطوي عليها ثقافته ، اي اذا كان ضيق الفكر والافق ، فمن المحتمل جدا ان ينظر الى تصرفات الانجليز كما لو كانت تصرفات مضحكة وفظة ، وربما ايضا منافية للقواعد الاخلاقية . واذا تبنى المواطن الامريكي موقفا كهذا ، فمن المؤكد انه لن يستطيع التفاهم مع الانجليز ، ومن المرجح انه سيستنكر جدا كل محاولة لتعديل سلوك الامريكيين بما ينسجم مع معايير الانجليز او معايير اي من الشعوب الاخرى . ومن الواضح ان مثل هذه المواقف لا تسهم في تنمية التفاهم والتعاون العالميين ولا في تعزيز الصداقة بين الشعوب ، بل على النقيض من ذلك تعمل على سلب النظم الاجتماعية القائمة من كل ما من شأنه ان يجعلها مرنة او رحبة الافق . وهنا تتجلى قيمة الحقائق والبينات الانثربولوجية ، فهي تساعد على تحرير الافراد من التمادي في الولاء الاعمى المتزمت لكل مظهر من مظاهر ثقافتهم . ومن جهة اخرى ، نلاحظ ان الفرد الذي تعرض لخط النظر الانثربولوجي وتدرب على اخذ مختلف الابعاد بعين الاعتبار خليق ان ينزع الى التسامح في معاملاته مع اعضاء مجتمعه ومع اعضاء المجتمعات الاخرى . ومن المرجح ايضا انه يكون اكثر مرونة في الموقف الذي يتخذه تجاه التغيرات الواجب اجراؤها في التنظيم الاجتماعي لتلبية حاجات التغير التكنولوجي والاقتصادي .

العالم الانثربولوجي الثالث :

لعل اهم دور يلعبه مفهوم الثقافة على الصعيـد العملي يكمن في حقيقة بعيدة الاثر طالما اغفلها « المخططون الاجتماعيون » في برامجهم المختلفة ، وهذه الحقيقة هي اننا لن نستطيع ابدا ان نبدأ صفحة جديدة كليا في اي مشروع نخططه للمجتمعات البشرية . فما من كائن او مجتمع بشري يستطيع ان يرى العالم الذي يعيش فيه بمنظار جديد ، فهو يولد في وسط حددته سلفا الانماط الثقافية القائمـة . فكما ان الفرد الذي يفقد ذاكرته لا يمكن اعتبـاره فردا سويا ، كذلك فاننا لا يمكـن ان نتصور ان اي مجتمع يستطيع ، في اية مرحلة من تاريخـه ، ان يتحرر كليا من موروثه الثقافي . وهذه الحقيقة تفسر النهاية المحزنة التي آل اليها دستور فايمار في المانيا . واذا تأملنا هـذا الدستور مجردا مـن قرينته وثقافة المجتمع الذي اعد له ، امكننا القـول بانه وثيقة خليقـة بالاعجاب . ولكنه اخفق اخفاقا ذريعا في الحياة العملية ، ويعـود ذلك جزئيا الى انه لـم يؤمن استمرار الصلة بالتصاميم التقليدية المخططـة لمجالات العمل والشعور والتفكير .

وفي ختام هذا المقال يجدر بنا ان نشير الى ان كـل ثقافة تنطوي على تنظيم مثلما تنطوي على محتوى . وهذا ، في الواقع ، هو ما تدل عليه كلمة « تصميم » في تعريفاتنا المختلفـة . وتتضمن هذه الحقيقـة تنبيها عمليا هاما لجميـع الاداريين والمشرعين بانـه لا يمكن عزل اي « عرف » نرغب في الغائه او تعديله . فاي تغيير قد يؤدي الى ردود فعل ومضاعفات غير متوقعة في مجالات معينة من السلوك .

ومع ان الجديين مـن علماء الانثربولوجيا ينكرون كـل المزاعم التبجحية القائلة بان الثقافة هي اشبه ما تكـون « بحجر الفلاسفة » الذي كان يعتقـد بقدرته السحرية على حل جميـع المشكلات ، فان

المفهوم الايضاحي للثقافة يحمل في طياته امكانات خليقة ان تبعث الامل في نفوس المعاصرين من بني البشر الذين يعانون ما يعانونه من حيرة وبلبلة وقلق . واذا كانت تصرفات بعض الجيوش ابان الحرب العالمية الثانية تعود بالدرجة الاولى الى عوامل جينية ، فان المستقبل يكاد يكون ميؤوسا منه ، اما اذا كانت النزعة الى القساوة والتوسع ناجمة ، في المقام الاول ، عن عوامل ثقافية او عوامل وضعية طارئة (كالضغط الاقتصادي وما شاكل ذلك من العوامل) ، فانه من الممكن ايجاد حل للمشكلة والتطلع الى مستقبل افضل .

ملاحظة عن قائمة المراجع

لم نشأ ان نرهق القارىء بقائمة طويلة من المراجع ، بل اكتفينا بذكر المراجع الرئيسية التالية التي اثرت في افكارنا تأثيرا مباشرا .

Bidney, David, «On the Philosophy of Culture in the Social Sciences», *Journal of Philosophy,* XXXIX (1942), 449-57; « On the Concept of Culture and Some Cultural Fallacies,» *American Anthropologist,* XLVI (1944), 30-45.

Blumenthal, Albert, «A New Definition of Culture», *American Anthropologist,* XLII (1940), 571-86.

Dollard, John, «Culture, Society, Impulse and Socialization», *American Journal of Sociology,* XLV (1939), 50-63.

Ford, C. S., «Culture and Human Behavior», *Scientific Monthly,* LV (1942), 546-57.

Frank, L. K., «Man's Multidimensional Environment», *Scientific Monthly,* LVI (1943), 344-57.

Lee, Dorothy, «Conceptual Implications of an Indian Language», *Philosophy of Science,* V, No. 1 (Jan., 1938); «A Primitive System of Values», *Philosophy of Science,* VII, No. 3 (July, 1940).

Linton, Ralph, *The Study of Man* (New York, 1936); «Culture, Society and the Individual», *Journal of Abnormal and Social Psychology,* XXXV (1938),425-36; *Acculturation in Seven American Indian Tribes* (New York, 1940).

Malinowski, B., «Culture», *Encyclopedia of the Social Sciences*, IV (1931), 621-45; «Man's Culture and Man's Behavior», *Sigma Xi Quarterly*, XXIX (1941), 182-96; XXX (1942), 66-78.
Miller, Neal E., and John Dollard, *Social Learning and Imitation* (New Haven, Conn., 1941).
Murdock, G. P., «The Science of Culture», *American Anthropologist*, XXXIV (1932), 200-215.
Redfield, Robert, *The Folk Culture of Yucatan* (Chicago, 1941).
Roheim, Geza, *The Origin and Function of Culture* (Nervous and Mental Disease Monograph Series, No. 69, New York, 1943).
Sapir, Edward, «Culture, Genuine and Spurious», *American Journal of Sociology*, XXIX (1924), 401-29.
Simmons, Leo, *Sun Chief* (New Haven, Conn., 1942).

مفهوم تركيب الشخصية الأساسية
بوصفها أداة فعالة في العلوم الاجتماعية

ابرام كاردينر

يعـالج العلماء عمليات التكيف عنـد الانسان بطرق مختلفة . فالعالم البيولوجي يحصر معنى المصطلح في تغيرات ذاتية المرونة تطرأ على بنية الجسم بقصد مساعدة الكائن البشري على التكيف على البيئـة الطبيعية . وهو يستطيع ، على هذا الاساس ، وصف اطوار طويلة الامد في تاريخ التكيف البشري . ولكنه يجد نفسه مضطرا الى الاقتصار على معالجة الخطوط العريضة في موضوعه والى تناول فترات زمنية طويلة ، نظرا لأن المعايير المورفولوجية الشكلية لا يمكن استعمالها في وصف سبل التكيف التي ينتهجها الانسان خلال فترات زمنية قصيرة . ويبدو أن التكيف المورفولوجي في نوعنا البشري قد أصبح مستقرا ، وذلك على الرغم من السلسلة الطويلة من التغيرات الطفيفة التي تشكل اليوم أساس مفهوم العرق . اضف الى ذلك أن هـذا التكيف لا يسجل الا استجابة الانسان لبيئته الطبيعية الخارجية . اما الامر الذي اخذ يلعب دورا اهم في تفكيرنا منذ القرن الماضي ، فهو تكيف الانسان على بيئته البشرية ، او بالحري التعديـلات السلوكية التـي اضطر الانسان الى ادخالها ليتواءم والظروف التي فرضتها عليه الحياة الاجتماعية .

ومن الممكن دراسة مظـاهر التكيف المورفولوجي (الشكلي) لنوعنا البشري بالمصطلحات المألوفة في علم الاحياء . وفي الوقت نفسه ، كان لا بد مـن تطوير اساليب فنية جديـدة لوصف مظـاهر التكيف السلوكي والنفسي . ويعتبر مفهوم الثقافة أهم المفهومات التي طورت في هذا المجال ، واكثرها فائدة وحيوية . ومع ان هذا المفهوم اقتصر في السابق على النواحي الوصفية ، فانه ـ على اضعف تقديـر ـ زودنا بطريقة محددة للتعرف الى النتاج النهائي لعمليـات التكيف ، فوضع بالتالي اسسا للمقابلة بين النماذج المختلفة لطرق التكيف .

٦٠١ واقتصر استعمال مفهوم الثقافة ، بادىء ذي بدء ، على السمات الثقافية ، ونعني بها المظاهر السلوكية التي يمتـاز بها اعضاء مجتمـع معين . ويبدو أن هذه السمات عولجت ، في البدء ، علـى أساس أنها قطرية ومنعزلة بعضها عن البعض الآخر . غير أن علماء الإجتماع طوروا فيما بعد مفهوم المؤسسات ـ اي التشكيلات التي تضم سمات ثقافية يرتبط بعضها بالبعض الآخر ارتباطا وظيفيا والتي تمثل وحدات دينامية داخل الاطار الثقافي . ومع انه اصبح في مقدورنا الآن اجراء دراسات مقارنة لاشكال المؤسسات القائمة داخل الثقافات المختلفة ، فانـه من العسير علينا التوصل الى نتائج هامـة بشأن العلاقات المتبادلـة بـين المؤسسات القائمة داخل الثقافة الواحدة بدون الاستعانة بأساليب فنية جديدة . ولم ينجـح حتى الآن إلا أسلوب واحـد ـ وهو الأسلوب السيكلوجي ـ في اعطـاء نتائج باتة في نطـاق المحاولات التي تبذل لتفسير مظاهر التغاير في مجموعات المؤسسات المختلفة . واثبت هـذا الاسلوب السيكلوجي قدرته على استقصاء دقائـق العمليات التكيفية التـي تتناول فترات قصيرة الاجل وتمثل ردات فعل الانسان تجـاه بيئته : الطبيعية والبشرية .

ومن المعروف ان المحاولات الاولى التي بذلت للتثبت من العلاقات بين المؤسسات العاملة ضمن الثقافة الواحدة اضطرت الى الاعتماد كثيرا على معرفتنا بعلم النفس المرضي ، فنشأ من هذا الاحتكاك مفهوم النمط الثقافي السيكلوجي[1] . غير ان هذه المحاولات غالت في الاستناد الى الرأي القائل بوجود تشابه وثيق بين المجتمع والفرد ، ولذا عجزت عن تزويدنا بأساس صالح لتطوير مفهوم دينامي للمجتمع . فكل ما فعلـه النمط الثقافي هو الاقرار بان هناك نوعا من العلاقة يربط دائما بـين الشخصية والمؤسسات ، ولكنه لم يعرض للمشكلة الفنية الصعبة التي تتلخص في اثبات طبيعة هذه العلاقة بطريقة تجريبية يمكن التحقق من صحتها ولا تقتصر على مجرد الرجوع ، بعبارات وصفية ، الى اشكال مرضية عامة يتكرر ظهورها بين الافراد .

وتبين فيما بعد ان المجتمعات « البدائية » تتيـح فرصة ممتازة لتطوير الاسلوب الفني المناسب . وكان الباحثون على حق عندما توقعوا ان تكـون المجتمعات « البدائية » أبسط في تركيبها مـن المجتمعات الاوروبية والأمريكية ، وأن تكون مجموعات الظاهرات السيكلوجية اكثر سذاجة واشد انسجاما بعضها مع البعض الآخر . وكانت الصعوبة الكبرى تكمن في اختيار الأسلوب السيكلوجي المناسب لدراسة المشكلة قيد البحث . فلا الطرق السيكلوجية الكلاسيكية (بما فيها السلوكية) ولا الطرق القائمة على سيكلوجية الجشطلت كانت مناسبة ، وما ذلك الا لأنها لا تمثـل الا محاولات متفرقة ومتباعدة لتطبيـق أساليبها علـى المشكلة . وبدا للباحثين أن التحليل النفسي أنسب الأساليب للقيام بالمهمة التي تصدوا لها . غير أن فرويد نفسه لم يطور أسلوبا تجريبيا يمكـن التثبت من صلاحه ، وذلك على الرغم من المحاولات التي بذلها لتطبيق التحليل النفسي على علم الاجتماع . ويمكن القول ، بوجه عـام ، انه

(١) Ruth Benedict, «Patterns of Culture» (New York, 1934).

كرس جهوده للتثبت من ان مجموعات الظاهرات السيكلوجية التي نلاحظها في الانسان الحديث موجودة ايضا في المجتمعات البدائية . وكانت جهوده منسجمة مع الفرضية التي راجت في القرن التاسع عشر بشأن تطور المجتمع والثقافة . ومن اهم الاقتراحات القيمة التي تقدم بها فرويد الاقتراح الخاص بالمشابهة بين خبرات الشعوب البدائية والأعراض العصبية . غير ان التمادي في ملاحقة هذه المشابهة أدى الى بعض النتائج العقيمة . ومهما يكن من شيء ، فان دراسة أصل الأعراض العصبية في الفرد زودتنا بأساس لفهم الحد الادنى للاجهزة التكيفية المتوافرة لدى الانسان . فمع ان العرض العصبي يمثل حالة خاصة ، فان المبادىء التي يقوم عليها تشكيل العرض لا تختلف كثيرا عن المبادىء التي ينطوي عليها أي من انماط السلوك العادي التي نميزها في خلق الفرد .

ومما أدى فيما بعد إلى تسهيل الدمج بين الاسلوبين الانثربولوجي والسيكلوجي التخلي عن الفرضية التطورية التي استغلها العلماء الانثربولوجيون الاوائل . والواقع ان الفرضية التطورية تلاشت ، وحل محلها مفهوم الثقافات بوصفها وحدات وظيفية متكاملة ، كما ظهر الاتجاه الى دراسة المجتمعات البدائية باعتبارها كيانات قائمة بذاتها ، وهذا ما دعا اليه مالينوفسكي الذي يعتبر الرائد الاول لهذه الحركة . وكان من نتائج تطبيق مفهوم النمط الثقافي السيكلوجي على المجتمعات البدائية ان اتجه الباحثون الى الاعتقاد بان المؤسسات القائمة في اي مجتمع تنسجم الى حد كبير بعضها مع البعض الآخر ، وان مظاهر هذا الانسجام يمكن وصفها قياسا على الكيانات الموجودة في علم النفس المرضي . ولا ريب في ان هذا يشكل كسبا ايجابيا واضحا ، غير انه لا يمثل اسلوبا فنيا بالمعنى الصحيح للمصطلح .

ومن المعروف ان ثقافة اي مجتمع تتناقلها الاجيال بحيث يرثها كل

جيل عن الجيل الذي سبقه . وبدا للعلماء استغلال هذه الحقيقة باعتبارها اوضح السبل لمعالجة مشكلة تطوير اسلوب فني محدد وواضح المعالم . وكان من الطبيعي ، والحالة هذه ، ان تبذل محاولات لتطوير مثل هذا الاسلوب عن طريق الاستعانة بنظريات التعلم . غير أن ما توافر لدينا من معلومات عن طرق انتشار الثقافات واستيعابها يشير الى أن هناك حدودا تقف عندها امكانات انتقال المحتوى الثقافي عن طريق عمليات التعلم المباشر . صحيح أن التعلم المباشر يلعب دورا هاما في انتقال الثقافات ، هذا مع العلم بأن ذلك يتأثر بعض الشيء بعمر الفرد الذي يتعرض للتغير الثقافي . غير ان هناك ، على ما يبدو ، درجة عالية من الانتقاء في عملية تقبل الأفراد للعناصر المستوردة من الثقافات الاخرى . ومن جهة اخرى ، لو أن عملية التعلم تكفي وحدها لتفسير انتقال الثقافة من جيل لآخر ، لكان من العسير علينا أن نفسر كيف يمكن لاية ثقافة ان تتغير دون أن تقتبس عناصر جديدة من ثقافات اخرى . والنقطة التي نرغب في توضيحها هي ان عملية التعلم لا تفسر الخاصة التكاملية والتوفيقية في العقل البشري ، ويصدق هذا القول بالنسبة لعلاقة الفرد الانفعالية ببيئته . فثمة عامل آخر يلعب دوره في هذا المجال . ومما لا شك فيه ان أسلوب التحليل النفسي يستطيع ان يسهم بنصيب كبير في ايضاح طبيعة هذا العامل . فبالاضافة الى عمليات التعلم المباشر ، نلاحظ ان الفرد يبني سلسلة شديدة التعقيد من النظم التكاملية التي لا تأتي نتيجة للتعلم المباشر . ويعود الفضل في تطوير مفهوم التركيب الاساسي للشخصية للاقرار باهمية هذا العامل الذي لا يدخل في نطاق عمليات التعلم المباشر .

ومن الطريف أن نذكر في هذا المقام ان استعمال مثل هذه المفهومات ، على الصعيد الوصفي البحت ، يعود الى عهود قديمة جدا . ومن اليسير علينا ان نجد اشارات ضمنية اليها في كتابات كل من هيرودوتس ويوليوس

قيصر . فهذان المؤلفان ادركا ان الشعوب المختلفة التي وصفناها لم تنفرد بعادات وخبرات خاصة بها وحسب ، وانما تميزت ايضا بطباع وامزجة وميول خاصة . والواقع ان يوليوس قيصر اخذ هذا العامل بعين الاعتبار واستغله لمصلحة روما في السياسة التي اتبعها مع قبائل البرابرة المختلفة . غير ان مجرد الاقرار بان تراكيب الشخصية الاساسية تختلف باختلاف المجتمعات لا يحقق تقدما اكثر من مفهوم النمط الثقافي السيكلوجي . ولا يكتسب هذا الاقرار اهمية عملية الا اذا امكننا تقصي طريقة تكون الشخصية الأساسية وارجاعها الى اسباب يمكن التعرف اليها ، واذا امكننا ايضا التوصل الى تعميمات هامة بشأن العلاقة بين تكون التركيب الاساسي للشخصية وبين الامكانات الفردية الخاصة في مجالات التكيف .

والجدير بالذكر ان مفهوم الشخصية الأساسية كان أداة ديناميـة فعالة في ميدان الأبحاث الاجتماعية . غير أن إدراك هذه الحقيقة لم يكن وليد أحكام بديهية جاهزة لا تقوم على الاختبار والتجربة ، إنما كان نتيجة الدراسة التحليلية التي أجريت على ثقافتين وصفهما لنتون ــ ثقافتي قبيلتي التنالا والماركيز ــ بقصد تحري العلاقة بين الشخصية والمؤسسات . وكشفت هذه الدراسة النقاب لأول مرة عن الامكانات المتوافرة في مبادىء التحليل النفسي . اما المراحل الأولى لهذا التحليل فقد اتخذت شكـل دراسة للنظم التكاملية التي تتكون عند الطفل نتيجة خبراته المباشرة خلال عملية النمو . وبعبارة أخرى ، اعتمدت طريقة المعالجة على الظـاهرات النشوئية ، كما أنها راعت المبدأين التاليين : (١)ان العمليات التكامليـة تلعب دورها ، (٢) ان النتائج النهائية لهذه العمليات التكاملية يمكـن التعرف اليها . غير أن الأسلوب الذي يسير على هذا النهج قد ينطـوي على نقص يحد من قيمته . فاذا كان الباحث من علماء الأمراض النفسية الذين ينتمون الى المجتمعات الغربية ، فان النتائج النهائية التي يستطيـع

تمييزها تنحصر عادة في الظاهرات المتصلة بالاضطرابات العصبية والنفسية السائدة في المجتمع الغربي الذي ينتمي اليه . ولا بد للباحث من أن يدرك في الوقت نفسه ان هناك نتائج نهائية اخرى يتعذر تمييزها على افـــراد المجتمعات الغربية . وعلى الرغم من هذا النقص ، فان المحاولات القليلة الاولى أدت الى بعض النتائج المهمة . والظاهرة الاولى من ظاهرات التلازم التي لوحظت هي ان النظم الدينية كانت صورا طبق الاصل عن خبرات الطفل في ظل ما وفره له والداه من تدريب وترويض . ولوحظ ايضا ان مفهوم الاله كان عاما . اما اسلوب التماس العون الالهي فقد اختلف تبعا لاختلاف خبرات الطفل الخاصة وأهداف الحياة التي حددها كل مجتمع لنفسه وفق ظروفه وتقاليده الخاصة . ففي ثقافة أحد المجتمعات ، اقتصر أسلوب التماس العون على التحلي بالصبر والجلد ، بينما اقترن في ثقافة اخرى بعقاب يفرضه الفرد على نفسه لينعم ثانية برحمة الاله بعد ان فقدها نتيجة لخرقه لاحد الاصول المرعية في حياة مجتمعه . وبناء على هـــذه الملاحظات استنتج الباحثون ان التباين في اساليب التماس العون السماوي يقيم الدليل على ان العوامل المؤثرة في تكوين شخصية الفرد تختلف من ثقافة لأخرى .

ومن هذه الظاهرة الاولى من ظاهرات التلازم او الترابط استخلص الباحثون عدة نتائج هامة ، اولاها ان بعض الاساليب المعتمدة في تنشئة الطفل ومعاملتـــه أثـــرت في المواقف الاساسية من الوالدين ، وان هذه المواقف امتازت بالثبات والدوام في الجهاز العقلي للفرد . وعلى هـــذا الاساس اطلق مصطلح « المؤسسات الاولية » على المؤسسات التي تلقى منها الطفل الناشىء الخبرات المسؤولة عن تنمية هذه التشكيلات مـــن المواقف الأساسية . وكانت المعتقدات الدينية وأساليب التماس العـــون الالهي منسجمة ، في معظم الحالات ، مع هذه المواقف الأساسية ، ومـــن

المرجح أنها نشأت من عملية تعرف بعملية « الابراز أو العكس » . وبعبارة أخرى ، إن المؤسسات الأولية وضعت الأساس للنظام « الابرازي » او « العكسي » الذي تجلى فيما بعد في عملية تطوير مؤسسات اخرى . اما المؤسسات التي تطورت نتيجة النظم « الابرازية » فقد اطلق عليها مصطلح « المؤسسات الثانوية » . واذا ثبت وجود مثل هذا الترابط ، فان ذلك يعني ان الكيان الذي ندعوه اليوم « التركيب الاساسي للشخصية » احتل مكانا وسطا بين الخبرات الاولية وبين النتائج النهائية التي يمكن التعرف اليها عن طريق انعكاساتها الخارجية . وهكذا يمكن القول ان المؤسسات الاولية كانت مسؤولة عن تركيب الشخصية الاساسية ، وهذه كانت بدورها مسؤولة عن المؤسسات الثانوية . ولا بد هنا من التشديد على ان السمة المهمة في هذا المفهوم لا تكمن في اسمه . ومع ان الكثيرين من الباحثين حاولوا تغيير هذا الاسم ، فانهم لم يبذلوا اي جهد لانتقاد الاسلوب الذي ينطوي عليه او تعديله . فهذا الاسم يمثل اسلوبا خاصا تقوم أهميته على الحقيقة التالية : من الممكن ان نثبت ان بعض الخبرات مهمة بالنسبة للفرد خلال فترة نموه وان تشكيلات المواقف الاساسية التي تنشأ من هذه الخبرات تظل ظاهرة مستمرة في الشخصية . هذا الاسلوب يعتبر من المنجزات التي حققتها معرفتنا بدوافع النفس الدينامية .

تبين مما تقدم ان تطوير الاسلوب القائم على ايجاد مظاهر الترابط بدأ باثبات وجود علاقة بين الدين وبين خبرات الطفولة . وعلى مر الزمن توسع الباحثون في مجالات تطبيق هذا الاسلوب بحيث اصبح يشمل المزيد من العوامل . فبعد الانتهاء من وصف جميع المؤسسات في ثقافة معينة اصبح من الممكن تصنيفها والاشارة الى الكثير من المؤسسات التي كانت تسهم بدور فعال في تنمية قيم وامزجة وميول معينة . وتبين ، علاوة على ذلك ، ان الكثير من المؤسسات في المجتمع قيد الدراسة كان موجها ليتخذ مواقف محددة من بعض الأوضاع المعيشية . ومن الامثلة على ذلك موقف سكان

جزر الماركيزمن مشكلة تأمين المواد الغذائيـــة . فقد اتضح ، بصورة لا يتطرق اليها اي شك ، ان القلق الذي كان ينتاب سكان هذه الجزر بالنسبة لهذه المشكلة خلق في الفرد مجموعة معينة من النظم التكاملية انبثقت منها قيم وشعائر دينية خاصة .

والجدير بالذكر ان قبيلة الماركيز اتاحت للعلماء اول فرصة للتثبت من أثر المؤسسات الاجتماعية(٢) . ويعود الفضل في ذلك الى التبايـــن الغريب بين مجتمع الماركيز والمجتمع الاوروبي والامريكي في الكثير من القيم والاحوال المعيشية . وكانت نسبة الذكور الى الاناث ، عند اجراء الدراسة على هذا المجتمع ، تبلغ ٢½ : ١ . وكان المجتمع يعيش في قلق دائم من خطر المجاعات التي كانت تتهدده بصورة دورية . وكانت العلاقة بين الرجال والنساء تختلف اختلافا بينا عن نظيرتها في المجتمعات الاوروبية والامريكية ، ويتضح ذلك من القصص الشعبيةالتيإستمع اليها المراقبون. ومن المؤكد ، كما بدا للمراقبين ، ان زمام المبادرة كان في يد النساء . والكثير من القصص الشعبية يصور الفتى العادي كما لو كان يحتل مركزا مماثلا للمركز الذي تحتله الفتاة البريئة في الثقافة الغربية حين تكون هدفا لملاحقة رجل بهيمي يسعى الى تحقيق شهوته الجنسية الجامحة . ولوحظ ان المرأة هي التي تلعب دورا مماثلا لدور الرجل الشرير في مجتمعنا . اما الفتى فكان هدفا لشهوة المرأة الجنسية . ويتضح من القصص الشعبيـــة ايضا ان الحياة الاجتماعية لقبيلة الماركيز كانت تضم عمليات لا نظير لها في المجتمعات الاوروبية والامريكية . فالمرأة هي التي كانت هدفا للرغبـــة او الكراهية . اما الرجال فيبدو ان التنافس علـــى خطب ود الحسان لم يؤد الى عداوات علنية بينهم . وبعبارة اخرى ، تجمع لدينا من البينات ما يقيم الدليل على ان مواطن الكبت في ثقافة الماركيز تختلف عن مواطن الكبت في الثقافة الغربية .

(٢) See A. Kardiner, «The Individual and His Society» (New York, 1939).

وكشف وصف لنتون لقبيلة التنالا[٣] النقاب عن جانب مهم آخر من جوانب التركيب الاساسي للشخصية . فقد تبين من دراسة هذا الوصف ان التغيرات الاجتماعية خلقت ارتباكا كبيرا ، بينا ظل تركيب الشخصية الأساسية سليما . فالحياة الاقتصادية في مجتمع التنالا القديم كانت تقوم على انتاج الارز دون اللجوء الى نظام خاص للري . وأدت هذه الظاهرة الى نشوء تنظيم اجتماعي يعتمد على الملكية الجماعية للارض ، وعلى توزيع الناتج على افراد العائلة باشراف الاب الذي كان يتمتع بسلطة مطلقة في هذا المجال . وكان هذا التنظيم يلبي الحاجات الاساسية للافراد ، وبخاصة حاجات الابناء الشباب الذين كانوا يقومون بالعبء الاكبر من العمل ، وذلك على الرغم من خضوع الجميع لما يسميه الغربيون « الحكم الاستبدادي المطلق لرب العائلة » . وظل هذا التنظيم يحظى برضى الجميع طالما انه كان يلبي الحاجات الاساسية للفرد . ولكن حين ادخل نظام زراعة الارز بطرق الري المعروفة ، اضطر الكثيرون الى التخلي عن الملكية الجماعية للارض . وسرعان ما اكتسب الفرد اهمية خاصة وأخذ يشعر بان حقوقه باتت مهددة نتيجة التنافس بين الافراد على انتاج هذه المادة الغذائية الرئيسية . وبعبارة اخرى ، اضطر المجتمع الى ادخال نظام الملكية الفردية ، واشتد التنافس على استملاك قطع من أراضي الوديان الصالحة لزراعة الارز بطريقة الري . وادى ذلك كله الى انهيار التنظيم العائلي ، وبالتالي الى ازدياد الجرائم وحالات الانحراف الجنسي والسحر والشعوذة والامراض الهستيرية . هذه الظاهرات الاجتماعية تبين بوضوح ان الشخصية ، بعد ان تكيفت على عرف ينسجم مع النظام الاقتصادي القديم ، جابهت في النظام الاقتصادي الجديد واجبات مرهقة لم تكن مهيأة لها . وترتب على ذلك تفجر حالة من القلق الشديد الذي تجلى في مظاهر مختلفة فقد اضطر المالكون والمحرومون ، على حد سواء ، الى اتخاذ

(٣) المصدر نفسه .

اجراءات دفاعية لحماية مصالحهم .

واوضح لنتون، في التقارير الوصفية التي قدمها عن قبيلة الكومانش، وجها آخر من اوجه تركيب الشخصية الاساسية . كانت هذه القبيلة تعيش على الغزوات والسلب والنهب . ولذا كان من الطبيعي ان تعتبر صفات الاقدام والمبادرة والشجاعة من السجايا التي يجب توافرها من اجل الحفاظ على المجتمع . وهكذا كانت القبيلة تمثل مجتمعا تقع فيه جميع الاعباء على عاتق الشباب واقوياء الاجسام من الذكور . ومن اليسير علينا، في ضوء متطلبات كهذه ، ان تتوقع ان يبلغ القلق عند الفرد اشده حين تبدأ قوته وشجاعته وقدرته على الجلد بالافول . وبما ان مجتمع هذه القبيلة لم يهيىء فرصا للمحافظة على المصالح والحقوق المكتسبة ، فان الفرد لم يستطع تجميع اي من شعارات القيم الاجتماعية التي تساعد على استمرار الاوضاع المكتسبة . ويمكن القول ان القبيلة كانت تمثل مجتمعا ديمقراطيا يحتاج الفرد فيه دوما الى مواصلة جهوده لدعم وضعه او تجديده . أما التدريب الذي كان الفرد يتلقاه ابان الطفولة ، فكان بالضرورة من النوع الذي يطلق العنان الى النمو والتطور في اتجاهات معينة ، وبخاصة الإتجاهات التي يوليها المجتمع اقصى ما يمكن من الاعتبار والتقدير . ولهذا السبب لم يضع مجتمع الكومانش اي عقبات في سبيل تطور الطفل ، لا بل انه كان يستعين بكل وسيلة لتنمية الشجاعة والمبادرة والاعتزاز بالنفس ، وتدريب الطفل على مواقف خاصة من شأنها ان تعده لمجابهة متطلبات الحياة بعد بلوغه سن الرشد . وليس من المستغرب ، والحالة هذه ، ان تكون النظم الابرازية عند الكومانش خالية تقريبا من التعقيد . فديانتهم كانت خالية من مفهوم الاثم ، كما انها لم تحتو على طقوس تستهدف العودة الى حظيرة من يشملهم الاله برحمته . فمن اراد السلطة من رجال الكومانش ، سعى اليها واقام الدليل على شجاعته . وقصارى الكلام ، كانت ديانة الكومانش صورة طبق الإصل عن التقاليد

التي كانت تؤمن اقصى حدود التعاون بين الذكور من اجل تحقيق مشروعات مشتركة .

اقتصرنا ، في بحثنا حتى الآن ، على استعمال بيانات اولية من نوع محدود . فنحن لم نشر الا الى نظام المؤسسات في مجتمعات معينة ، وذلك في سياق المحاولة التي بذلناها لبيان التوافق بين المؤسسات وبين الخبرات الاساسية للفرد خلال عملية النمو ، وبالتالي الى القول بان هناك نوعا من العلاقة بين المؤسسات المختلفة في مجتمع معين . ولكن النتائج التي توصلنا اليها ، بالغة ما بلغت من الدقة ، لا تعدو كونها ضربا من الحدس الموفق . فنحن لم نشر بعد الى الطرق الواجب اتباعها للتحقق من صحة هذه النتائج . وهذه الخطوة بحاجة الى بيانات جديدة . فاذا كان هناك حقا شيء اسمه « الشخصية الاساسية » ، فان ذلك يعني اننا نستطيع تمييزه في الافراد الذين يتألف منهم مجتمع معين . ومهما يكن من شيء ، فاننا مضطرون ايضا الى ان نأخذ بعين الاعتبار النظرية القائلة بان جميع الافراد متباينون ، اي ان لكل منهم خلقا يختلف عن خلق الاخر . والسؤال الذي يتبادر الى الذهن الآن هو : كيف يمكن ان نوفق بين فكرة الشخصية الاساسية وبين الحقيقة المعروفة القائلة بان لكل فرد في ثقافة معينة خلقا خاصا به يختلف عن خلق الآخرين ؟

اذا درسنا تركيب الشخصية عند مائة من افراد المجتمع الامريكي ، اصبح من اليسير علينا الاجابة عن هذا السؤال . إن مثل هذه الدراسة تبين لنا ان لشخصية كل واحد من هؤلاء الأفراد تركيب خاص اسهمت في بنائه عوامل مختلفة لا تقتصر على الاستعدادات والنزعات الفطرية عند الولادة، وانما تشمل أيضا المؤثرات الخاصة التي تعرض لها الفرد خلال عملية النمو . ولولا وجود شخصية اساسية عند هؤلاء الافراد المائة ، لتعذر علينا تمييز تشكيلات معينة من المواقف والميول ، كعقدة اوديس وعقدة الخصاء وما شاكل ذلك من العقد التي عمد فرويد الى ابرازها والتشديد

عليها . غير ان فرويد لم يعلم ان هذه التشكيلات الشائعة في مجتمعنا خاصة بثقافتنا ، بل اعتقد انها تمثل ظاهرة عامة في جميع المجتمعات البشرية، وان الكثير منها يعود الى اصول نشوئية ونوعية . ويستطيع المرء ان يحدد ما يمثل الشخصية الأساسية عند مائة من افراد احد المجتمعات الغربية بالاشارة الى الحقيقة التالية ، وهي ان جميع هؤلاء الافراد تأثروا باوضاع نشأت في الاصل من الخبرات المتصلة بالمؤسسات الاجتماعية . فكل فرد يستجيب للمؤثرات المختلفة بطريقته الخاصة . ولكن يلاحظ ، على الرغم من ذلك ، ان البنيــة الخلقية تتشكل ضمن مجال معين من الامكانــات والاستعدادات وهذا هو المجال الذي نستطيع ان نجد فيه ما يعرف بمصطلح « الشخصية الأساسية » .

وتطلب تطوير هذا الاسلوب في البحث الى دراسة سير بعض الافراد، وبات من المهم ايضا توافر مجموعة من السير لكل مجتمع ، وكان من الواضح انه كلما ازداد عدد السير ، تضاعفت احتمالات الوصول الـى نتائج ادق . ومهما يكن من شيء ، فان دراسة حوالي اثنتي عشرة سيرة لافراد يتباينون في الجنس والعمر والوضع تساعدنا على معرفة مواطن التشابه والتباين في سمات الافراد الذين وقع عليهم الاختيار . ولا بد من ان نلمع هنا الى ان اعداد السير ليس امرا يسيرا نظرا لان الفرد ، حين يدعى الى سرد قصة حياته ، يغفل ذكر البيانات الاساسية الخاصة بالقيم والاهداف التي يقرها مجتمعه على اعتبار أنها من المعطيات المسلم بها . وبذلك قد تقتصر المعلومات التي يجمعها الباحث على مجرد سرد لتاريخ حياة الفرد ، في حين انه يحتاج الى مقطع مستعرض لحياة الفرد بحيث يشمل تأثيرات مرحلة الطفولة ، والتاريخ الكامل لتطوره ، وطريقة تكيفه خلال الفترة التي تجري فيها الدراسة .

ونجد انموذجا لهذه الطريقة في التقارير الوصفية التي قدمتهـا

الدكتورة كورا دوبوا عن ثقافة سكان جزر الألور * . فقد احضرت هذه الباحثة معها تقارير عن نظام المؤسسات العاملة في هذه الثقافة ، وكذلك مجموعة من سير ثمانية من الافراد ونماذج من رسوم الاطفال ونتائج مجموعة من اختبارات بورتيوس وروزشاخ . وانتهت دراسة هذه الثقافة الى نتائج دعمت نتائج الدراسات التي اجريت على قبائل الماركيز والتنالا والكومانش . وكان من السهل على الباحثين الاستفادة من وصف مؤسسات الألور الاجتماعية في اعادة بناء الشخصية الاساسية عند افرادهم . فالمؤثرات التي كان الفرد يخضع لها في هذا المجتمع كانت فريدة في نوعها . فالمرأة ، بناء على النظام الخاص بتوزيع الوظائف بين الذكور والاناث ، كانت تحمل العبء الاكبر من النشاط الاقتصادي المتصل بزراعة الخضراوات . ولذا كانت تعمل في الحقول طيلة النهار ، فلم تستطع رعاية اطفالها الا قبل توجهها الى الحقول صباحا وبعد عودتها منها مساء . وترتب على هذا النظام اهمال الامهات لأطفالهن ، وضعف الدور المساعد الذي تلعبه الام عادة في بناء ناحية « الانا » او « الذات » في الشخصية . أما حالات التوتر الناجم عن الجوع او الحاجة الى العون او الاستجابات الانفعالية فلم تلق العناية الكافية . وكانت رعاية الطفل تعهد الى الاشقاء والاقرباء او الى اشخاص آخرين ، الامر الذي ادى الى انهيار الانسجام في طرق تدريب الطفل ، والى غياب صورة الام الحنونة التي تسهر على مصلحة اطفالها وتبادر الى نجدتهم كلما دعت الحاجة الى ذلك . وهكذا كانت ناحية « الانا » في الشخصية ضعيفة التطور ومفعمة بالقلق والحيرة ، إما أنماط العدوان فلم تتخذ اشكالا واضحة ، بل ظلت في حالة غير متبلورة . ومع ان النظم « الابرازية » او « العكسية » عند الألور تتضمن مفهوم الاله ، فاننا لا نلمح محاولات لاضفاء عناصر المثالية على هذا المفهوم . اضف الى ذلك ان سكان جزر الألور لا يمارسون شعائرهم

(*) في اندونيسيا .

الدينية الا بشيء من التردد وتحت ضغط الظروف الملحة . اما العلاقات بين الافراد فهي مشحونة بالتوتر والريبة . وكذلك الحال بالنسبة للتطور الانفعالي ، فهو أيضا متخلف ومشحون بالقلق والحيرة .

ثم عكفنا على دراسة سير الافراد . وكانت هذه ، لحسن الحظ ، مدعومة بوثائق تفي بالمتطلبات الاساسية لحاجاتنا المحددة ، وذلك على الرغم من ان بعضها لم يقدم صورة كاملة عن تاريخ حياة الافراد قيد الدراسة . وامكن استخلاص حقائق كثيرة عن تركيب الشخصية الفردية من ملاحظة سلوك الافراد في حياتهم اليومية الفعلية وردود فعلهم لاسئلة ابناحث المختص بالاعراق البشرية ، وكذلك من دراسة ما يتراءى لهم من اوهام وتخيلات . وأدت دراسة سير هؤلاء الافراد الى اماطة اللثام عن سمات جديدة خاصة بالشخصية الاساسية . ومن الحقائق الغريبة التي استخلصت من هذه السير ان ستة من الافراد الذين اجريت عليهم الدراسة كانوا دائما يقرنون ظاهرة الجوع باحدى كوارث الطبيعة ، كالزلزال او الفيضان . وكانت هذه الحقيقة منسجمة تماما مع ما توقعناه نتيجة دراستنا لتركيب الشخصية الاساسية . ومع انه كان لكل فرد من هؤلاء الافراد الثمانية خلق خاص ، فانهم كانوا جميعا يلتقون في قسمات مشتركةمعينة . ويعود ذلك ليس لانهم التزموا تقاليد مشتركة معينة ، وانما لان البنية الداخلية لشخصياتهم صيغت بطرق متماثلة . اما اوجه الاختلاف في البنية الخلقية لهؤلاء الافراد ، فقد اتضح انها تعود الى تباين المؤثرات خلال مرحلة النمو . فمدى رعاية الوالدين لطفلهما انعكس على سلوكه بعد بلوغه سن الرشد . وتبين من الدراسة ان احد الافراد كان يملك ضميرا يوجه سلوكه على النحو الذي نعهده في المجتمعات الغربية ، ومن الواضح انه كان ايضا مصابا بعقدة اوديبس . غير ان مثل هذه الظاهرات الخاصة يمكن ارجاعها الى وجود اب قوي كان يساوره جزع شديد بالنسبة لسلامة ابنه ورفاهيته . ومما يجدر ذكره ان الضمير كان ظاهرة نادرة عند

سكان جزر الالور ، وهذا يقيم دليلا واضحا على وجود علاقة بين الضمير وبين عناية الوالدين بابنهما خلال مرحلة الطفولة . ولوحظ ، علاوة على ذلك ، ان الافراد الثمانيـة ساروا جميعا على نهج واحد في انماطهم العدوانية ، كما اشتركوا جميعا في افتقارهم الى بعض التشكيلات من المواقف السلوكية الخاصة بالمجتمعات الغربية .

وكان علينا ، بالاضافة الى دراسة هذه السير ، ان تتناول بالبحث مجموعة من البيانات الاخرى التي يمكن ان نتنفع بها في دعم النتائج التي توصلنا اليها او تفصيل القول فيها او دحضها . اما هذه البيانات الاضافية فهي نتائج اختبارات رورشاخ التي اعدها الدكتور اميل اوبرهولزر دون ان يكون لديه علـم سابق بالشخصيات التي اجريت عليها الدراسة او بالسمات الخاصة بثقافتهم .ولشد ما ادهشني ان تقرير الدكتور اوبر هولزر اكد صحة مفهوم الشخصية الاساسية . فهو ميز السمات المشتركة عنـد جميع سكان الألور ، كما بين كيف ان كلا من الافراد الثمانية كان يملك ايضا صفات خاصة مغايرة لهذا النمط الاساسي . غـير ان هذه النتيجة كانت في نظري اقل اهمية من مجموعة اخرى من الحقائق التي كشفتهـا اختبارات رورشاخ . فقد سبق لي ان اشرت الى النقص الخطير الـذي يعاني منه عالم النفس حين يعمل ضمن حدود معرفته بالحالات المرضية النفسية الموجودة في المجتمعات الغربية ، واكدت عندئذ ان مثل هذا العالم لا يستطيع ان يميز الكيانات الموجودة في المجتمعـات الاجنبية التي لا ينتمي اليها . وهنا تتضح اهمية البيانات الجديدة التي توفرها لنا اختبارات رورشاخ . صحيح ان هذه الاختبـارات لا تزودنا بأية معلومات عـن كيفية نشوء السمات المميزة في الفرد او الجماعة . غير انها رغم ذلك توضح تشكيلات انفعالية لا يمكن تمييزها في الكيانات السيكوباثولوجية الشائعة في المجتمعات الغربية . وبمعاونة الحقائق الاضافية التي استخلصناها مـن اختبارات رورشـاخ من دراسة السير ، اصبح من الممـكن اعادة بنـاء

الصورة النشوئية الاصليـــة ، وبالتالـــي وصف كيفية ظهور الكيانات الجديدة . وهكذا يمكن القول ان فائدة اختبارات رورشاخ لا تقتصـــر على كونها وسيلة للتحقق من صحة النتائج التي توصلنا اليها بالطـــرق الاخرى . فهي ، علاوة على ذلك ، وسيلـــة لاكتشاف كيانات جديدة لا يمكن اكتشافها بالطرق الاخرى . وقد يعترض البعض بقوله ان اختبار رورشاخ هو اختبار « ابرازي » ، وان فائدته العملية محدودة نظـــرا لان معياره وضع علـــى اساس الدراسات التي اجريت على المجتمعـــات الغربية ، أو بالحري على مواطنين من سويسرا . غير انه ثبت ان هذا النقص ضئيل الأهمية على صعيد التطبيق العملي .

أما الدراسات التي اجريت بعد دراسة ثقافة سكان الألور ، فـلم تؤد الى نتائج مهمة الا في الحالات الثلاث التالية : وصف السيد جيمس وست لمجتمع بلاينفيل في الولايات المتحدة الامريكية ، ودراسة ثقـــافة السيخ التي وصفها الدكتور ماريان و . سمث ودراسة ثقافة الاوجيبـــوا التي وصفتها الآنسة ارنستين فريدل .

وأظهرت الدراسة الاولى ان مجتمع بلاينفيل ـــ وهو مجتمع ريفي صغير في المنطقة الغربية الوسطى من الولايات المتحدة ـــ كان يتميـــز بسمات خاصة تختلف في اوجه كثيرة عن السمات التي تتميز بها مجتمعات المدن . وهي ، علاوة على ذلك ، عجلت في اثارة تساؤل الباحثين مـــا اذا كان في مقدورهم دراسة جماعات بشرية كبيرة كالامم عن طريق الاستعانة بمفهوم الشخصية الاساسية . ويبـــدو ان الرد على هذا التساؤل هـــو بالايجاب ، نظرا لان التباين بـــين معايير مجتمع بلاينفيل وبين المعـــايير المعتمدة في مجتمعات المدن ليس كبيرا جدا . وعجلت دراسة مجتمـــع بلاينفيل ايضا في اثـــارة المشكلة المتصلة بامكـــان الاستفادة من تطبيق الشخصية الاساسية على تاريخ المجتمعات الغربية ، وهي مشكلة لا تزال تنتظر الحل .

وكذلك الحال بالنسبة للدراسة التي اجريناها على ثقافة السيخ ، اذ تبين ان هذه الثقافة تتميز ايضا ببعض السمات الفريدة . وقد اعتمدت دراستنا اعتمادا كبيرا على التقارير الوصفية عن المؤسسات الاجتماعية وعلى نتائج اختبارات رورشاخ . وهنا لفت نظرنا التوافق الغريب بين نوعي البيانات المتوافرة . وينطبق القول نفسه على الدراسة التي اجريت على ثقافة الاوجيبوا فقد تبين بوضوح انه لا غنى لنا عن اختبارات رورشاخ في المحاولات التي نبذلها للتحقق من السمات الاصلية للشخصية الاساسية التي لا يمكن التعرف اليها بمجرد الرجوع الى الصورة النشوئية . ففي ثقافة الاوجيبوا ، مثلا ، لوحظ ان التدريب الذي يتلقاه الفرد خلال مرحلة الطفولة والادب الشعبي الذي يستمع اليه عن ونيبوجو (بطل ثقافة الاوجيبوا) يشيران كلاهما الى ان حقوق الطفل على والديه محدودة . فليس ثمة ما يشجع الطفل على الاعتقاد بان والديه يملكان قوى سحرية يمكن تسخيرها لمصلحته . ويهدف التدريب في المراحل الاولى الى افهام الطفل الى ان هناك حدودا لما يمكن ان يقدمه الى والديه من طلبات ، هذا مع العلم بانه يحظى برعاية ممتازة . وهكذا نلاحظ هنا تشكيلة من المواقف لا نظير لها في المجتمعات الغربية ، فالعائلة تؤمن للطفل اساسا جيدا من الرعاية ، ولكنها في الوقت نفسه تضع في وجه التطور الانفعالي حدودا لا عهد لنا بها في المجتمعات الغربية . غير ان هذا التحديد لا يمكن تمييزه بمجرد الرجوع الى الصورة النشوئية لتطور الطفل . ولذا كان لا بد من اللجوء الى اختبارات رورشاخ لاقامة الدليل القاطع على وجود حدود خاصة تقيد الفرد في علاقاته الانفعالية مع الآخرين . وعلاوة على ما تقدم اتاحت لنا ثقافة الاوجيبوا فرصة ممتازة لدراسة عمليات الاستيعاب الثقافي والطرق الخاصة التي تتم بها هذه العمليات . وتبين بوضوح من نتائج اختبارات رورشاخ ان هذه العمليات ادخلت الى حياة الفرد الانفعالية عوامل تعتبر شائعة في المجتمعات الغربية،

ولكنها غير مألوفة عند سكان الاوجيبوا الذين لم يتعرضوا لاثر الانماط الاوروبية ولا لأثر الديانة الكاثوليكية ..

ويوجه البعض اعتراضات خطيرة الى المحاولات المبذولة للتوصل الى الشخصية الاساسية بالاسلوب الذي وصفناه آنفا . فقد يقول البعض ان الناس هم على ما هم عليه لانهم نشأوا في ظروف معينة ، وان هذه الحقيقة معروفة منذ آلاف السنين . ومع اننا نسلم بصحة هذا القول ، لا يسعنا الا ان نؤكد ان الاسلوب الذي وصفناه يزودنا بتفصيلات دقيقة عن طبيعة الظروف المؤثرة وعن انعكاساتها على الشخصية . اضف الى ذلك ان العمليات التكاملية المؤثرة والتشكيلات غير المتوقعة تمكنه من امدادنا بنتائج غير مباشرة . غير ان هذا الاسلوب لا يزال هدفا لاعتراض اشد خطورة من الاعتراض السابق . فهو لا يزال عاجزا عن الإجابة عن السؤال التالي : لماذا تختلف بعض المجتمعات عن البعض الآخر في نظمها التربوية والتدريبية ، والقيود التي تفرضها على الاندفاعات والنزوات ، وغير ذلك من الانماط الثقافية التي تضطر الى ادخالها . ويبدو الاسلوب ، في ضوء هذا الاعتراض ، كما لو كان صورة مشذبة عن القول المألوف بان المجتمعات المختلفة تتباين في انماطها السلوكية ، أي انه لا يحقق تقدما كبيرا بالنسبة للمستوى الذي بلغناه نتيجة لاستعمال النمط الثقافي .

وهكذا نجد انفسنا بحاجة الى التوصل الى جواب بات عن السؤال التالي : ما الذي يحدد موقف الوالدين من اطفالهما ، وبالتالي ما الذي يحدد المؤثرات الخاصة التي يخضع لها الاطفال . ويمكن القول ، بوجه عام ، ان التنظيم الاجتماعي والاسلوب المعاشي هما اللذان يحددان مواقف الوالدين من اطفالهما . هذا القول صحيح ، ولكن يرجح ان نصطدم بمفاجآت كثيرة اذا لم نعدله بحيث يحقق عدة شروط . ولهذه الشروط اهمية بالغة بالنسبة للتغير الثقافي .

واذا حاولنا تعريف الشروط التي تعدل العوامل الاجتماعية والاقتصادية المحددة لمواقف الوالدين ، اصطدمنا في الحال ـ على ما يبدو ـ بمشكلة الاصول الاجتماعية . ويكاد يكون من المتعذر معالجة هذه المشكلة على الوجه الصحيح ، اذ ان النظريات التي قيلت فيها لا يمكن ان تقوم مقام الدليل المدعوم بالبرهان . ولنستشهد ثانية بثقافة الكومانش لانها تزودنا بمثال ممتاز يساعدنا على توضيح ما نرمي اليه . اذا قابلنا بين المؤسسات الاصلية القديمة لقبيلة الكومانش ، حين كانت تسكن منطقة الهضاب ، وبين مؤسساتها الحالية ، لاحظنا ان بعضها ظل على حاله دون تغيير ، بينما تعرض البعض الآخر في الاوضاع البيئية الجديدة للتعديل او الانقراض . فالاساليب العلاجية المتصلة بنشاط الصيد ، مثلا ، كانت شائعة في الثقافة القديمة ، ولكنها اختفت في الثقافة الجديدة . وسبب هذا التغير واضح ، فالطرائد في البيئة الجديدة متوافرة بكثرة ، وهذا يعني زوال القلق وبالتالي انتفاء الحاجة الى التماس معونة القوى الخارقة والاكتفاء بالاعتماد على المهارة . وكذلك الحال بالنسبة لنظام تنشئة الاطفال ، وبخاصة الذكور منهم ، فقد تعرض هو أيضا للتعديل في الثقافة الجديدة . والجدير بالذكر ان اتجاهات الثقافة القديمة مهدت الطريق لظهور هذا التطور ، ثم جاء النظام الاقتصادي الذي تطلب تحرير الفرد من كل ما من شأنه ان يقيد اندفاعه ، فاسهم في دفع عجلة هذا التطور الجديد واطلق العنان لنمو الذكور من الاطفال نموا حرا وبعيدا عن كل ما يمكن ان يعوقه من قيود او عقبات .

وكذلك الامر بالنسبة لثقافة التنالا القديمة ، فان مواقف الوالدين كانت منسجمة مع نظام الملكية الجماعية للاراضي . ولكن ما كاد المجتمع يدخل نظام الملكية الخاصة حتى انتشرت الفوضى في مؤسساته المختلفة . ويعود ذلك الى ان النظام التربوي القديم كان يؤهل الفرد للتكيف سلبيا على اقتصاد خال من فرص المنافسة ، في حين تطلب النظام الاقتصادي

الجديد مواقف تقوم على التنافس الشديد . وهكذا أدى تغير النظام الاقتصادي الى ازدياد القلق الذي يعتبر من الاعراض الناجمة عن افتقار المجتمع الى سلطة تنفيذية قادرة على معالجة الوضع .

وقد يبدو للمرء ، استنادا الى المثال الذي اوردناه عن الكومانش ، ان يلجأ الى التعميم ، وان يخلص الى القول بان مواقف الآباء من الاطفال، وبالتالي اوضاع النمو ، تتغير تبعا لتغير الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية. وقد يصدق هذا القول على الحالات الفرضية التي تتأثر فيها مواقف الآباء بعوامل يدركها الآباء انفسهم ادراكا تاما . ولكن الواقع هو غير ذلك . ولـذا لا نستطيع التوصل الـى احكام عامة بمجرد الاستشهاد بمثال الكومانش الذي يعتبر حالة اقرب الى الحالات الشاذة منها الى القواعد العامة . اما مبدأ « القصور الذاتي » الذي يحاول البعض تطبيقه على الثقافة فلا يفسر الحقائق ، حتى اذا افترضنا امكان الاعتماد عليه في تفسير بعض الظاهرات الثقافية .

وفي ثقافة « الالور » تنسجم تنشئة الطفل والمؤثرات التي يتعرض لها مع الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية . ولكننا نجهل اصول النظام الاقتصادي في هذه الثقافة ، كما نجهل الفلسفة التي يقوم عليها . فبناء على توزيع العمل بين الجنسين ، تقوم المرأة بالعبء الاكبر من النشاط المتصل بزراعة الخضروات ، ولا تتلقى من الرجل الا مساعدات عرضية ومتفرقة . وهذا يضطرها الى ترك اطفالها طيلة النهار ، فلا تعتني بهم الا قبل ذهابها الى الحقول صباحا ، وبعد عودتها منها مساء . والجدير بالذكر ان الحقول ليست متجاورة ، وانها قد تكون بعيدة عن القرية . وسبق ان شرحنا اثر تغيب الام عن اطفالها ، ولكننا لا نستطيع معرفة السبب الذي من اجله اعتمد هذا التقسيم الاعتباطي غير المتكافئ ، ومما لا يرقى اليه شك ان الاثر البعيد لهذا النظام في الثقافة عامة مجهول لدى سكان الألور . وقد يقول البعض ان هذا النظام لا يستند الى أسس

عقلية او انه مثال على الرواسب الثقافية . غير ان قولا كهذا لا يلقي ضوءا كافيا على المشكلة . فالرواسب الثقافية ليست مظهرا مجردا من مظاهر مبدأ القصور الذاتي ، انما هي مصالح انفعالية مكتسبة تراكمت على مر الزمن ، وهي ، في حالة ثقافة «الالور» ، مصالح مكتسبة تراكمت من جهة الذكور . ولا غرو في ان الغاء هذه المصالح سيؤدي الى ازعاج كبير ومقاومة عنيفة من جانب الذكور ، حتى لو افترضنا ان لدى النساء من الخيال والمبادرة ما يدفعهن الى المطالبة بتحويل جانب من هذا العبء الاقتصادي الى الرجال . ويوضح لنا هذا المثال كيف يمكن لفئة معينة في المجتمع (في هذه الحالة الذكور) ان تثبت « حقوقها » وتحافظ على استمرارها . اما تغيير النظام الاقتصادي فيتطلب تغييرا جذريا في نظام التكيف السيكلوجي عند الذكور والاناث على حد سواء . وهذه هي المرحلة التي تصبح فيها حالات القلق والتدابير الدفاعية ضرورية لمقاومة التغير وللحفاظ على نظام التكيف القائم .

ونقف هنا قليلا لنبدي ملاحظة معترضة عن الفائدة النسبية للمفهوم الوصفي بالمقابلة مع المفهوم العملي . من الخطأ ان نطبق مفهوم القصور الذاتي على الظاهرة التي وصفناها في الفقرة السابقة . صحيح ان هذه الظاهرة تعيد الى الاذهان الظاهرات الطبيعية التي يستند اليها مبدأ القصور الذاتي ، غير ان المماثلة بين الحالتين مضللة . والاعتراض الحقيقي على مبدأ القصور هو انه لا ينطبق دائما على الواقع . ولا يسع المرء الا ان يذعن لقانون القصور الذاتي في حالة انطباقه على الواقع . ولكن اذا بينا ان مجالات تطبيق هذا القانون تنحصر في عوامل انفعالية معينة ، امكننا استنفار بعض الوسائل العلاجية حسبما يقتضيه الحال .

قلنا ان القيمة العملية لمفهوم الشخصية الاساسية لا تكمن في تشخيص العوامل التي تصوغ الشخصية فحسب ، وإنما في توفير بعض الادلة التي ترشدنا الى معرفة السبب الذي يجعل هذه العوامل تؤثر

في المجتمعات بطرق خاصة . ولذلك ينطوي مفهوم الشخصية على اسلوب هدفه ان يستقصي ، بشيء من الدقة ، اقصى الابعاد المتفرعة من العلاقة بين الثقافة والشخصيـــة .

والسؤال الذي يتبادر الى الذهن الآن هو ما اذا كان في مقدورنا استعمال هذا الاسلوب في وصف الدوافع الدينامية في المجتمع العربي وفي اجراء تحليل لدينامية التغير الثقافي عبر فترات زمنية طويلة . لا شك في ان نجاح محاولة كهذه سيقيم الدليل على صلاح الأسلوب . ولكـــن المشكلة ليست بسيطة كما هي الحال في « المجتمعات البدائية » . فالمجتمع « العربي » لا يمثل ثقافة واحدة ، بل خليطا من الثقافات التي تعـــرضت فيها النظم الاجتماعية والاقتصادية لتقلبات كثيرة . ولهذا كان عـــدد العوامل التي يجب ان نربط بينها اكبر كثيرا منه في اي من المجتمعات البدائية التي اجريت عليها الدراسة . وسيكشف المستقبل ما اذا كـــان العلماء سينجحون في الاهتداء الـــى الترابط بـــين العوامـــل المؤثرة في المجتمعات الغربية . على انه بذلت محاولات لحل المشكلة بأساليب اخرى، وفي هذه المحاولات ما يكفي لأرشادنا الى النواحي التي يجب ان تتجنبها. فنحن ، مثلا ، لا نستطيع اقتفاء اثر شبنجلر والعمل على اساس المماثلات الفسيولوجية . صحيح ان المرء قد يوفق في سرد قصة جيدة اذا مـــا قابل بين نشوء الحضارات وازدهارها وانهيارها من جهة ، وبين دورة الحياة الفسيولوجية للافراد . ولكن المجتمعات كيانات يختلف نظامهـــا عن نظام الافراد . واذا ما بدا لنا ان نتتبع مصير الصفوة ــ كما بـــدا لباريتو ان يفعل ــ فان هذا النهج سيترك الكثير من اسئلتنا بـــلا جواب . وليس لنا ان نتوقع الحصول على ارشادات او توجيهات ايجابية من توينبي . فهذا المؤرخ يحاول تقصي عمليات التكيف عند جماعـــات بشرية كبيرة في ضوء مفهومات مختلفة كأن يشير ، مثلا ، الى نجاح أو اخفاق الكفاح ضد البيئة الخارجية وما شاكل ذلك من الظاهرات ، ولكنه

لايستعين بالعوامل السيكلوجية لاستقصاء الدقائق التفصيلية للتكيف . ولعل اقل الدراسات نفعا لنا هي القوائم الطويلة من ظاهرات الترابط كتلك التي اعدها ممفورد(٤) وانطلق يقومها على اساس احكام ذاتية لم يتحقق من صحتها بالتجربة والاختبار . ان محاولات كهذه لا تزودنا باساس تجريبي صالح لعمل يقوم على اسس عقلية ، فهي اشبه ما تكون بالعقائد التي قد يقبلها المرء او يرفضها ، بوعي أو بلا وعي ، اما وفقا لاهوائه الشخصية او دفاعا عن مصالحه الخاصة .

ونشر بحث خاص يتضمن موجزا لخطة من الابحاث تعتمد على معرفتنا الحالية بطراز الشخصية الاساسية .(٥) ولا يتسع المجال في هذا البحث القصير الا لتقديم مقترحات قليلة عن الاسلوب . من الممكن تحديد نمط الشخصية الاساسية عند بعض المجتمعات المدائنية والريفية . وهناك فروق واضحة بين هذين النوعين من المجتمعات ، وبامكاننا التعرف الى مواطن الاختلاف ، ومن ثم محاولة اكتشاف اسبابها . ومن الممكن تطبيق هذه الطريقة نفسها على مجتمعات نختارها من بلاد اخرى كانجلترا وفرنسا . وبعد الانتهاء من اجراء حوالي ١٢ دراسة من هذا النوع ، ودعمها بالسير اللازمة ونتائج اختبارات رورشاخ وغيرها من الاختبارات « الابرازية » ، نستطيع عندئذ معرفة الادلة التي يجب ان نسترشد بها في ابحاثنا التاريخية . والابحاث التي اجريت حتى الآن تكفي لان تدلنا على ان ثلاثة انواع من النظم يجب استقصاء تقلباتها من الناحية التاريخية : (١) النظم الابرازية ، و (٢) النظم القائمة على اسس تجريبية وعقلية ، (٣) المتاهات او التبريرات التي لا نهاية لها ، حيث تبذل محاولات لتبرير اعمال تعود في الاصل الى نظم ابرازية لا يدركها الانسان . وخلاصة

(٤) Lewis Mumford, «The Condition of Man» (New York, 1944)

(٥) A. Kardiner, «The Psychological Frontiers of Society» (New York, in press).

القول ، لا نستطيع تقصي ردات فعل الانسان تجاه بيئته الطبيعية والبشرية بدون الاستعانة بتوجيهات هذا الدليل السيكلوجي .

ان الآمال التي نعلقها على هذا الاسلوب الجديد تسير في اتجاه يختلف تماما عن اتجاه الوضع الراهن حيث القرارات تتخذ اما قسرا واما دفاعا عن مصالح شخصية او طبقية . فهذا الاسلوب يضاعف قدرتنا على التبصر في الدوافع الشخصية والاجتماعية ، وينير لنا السبيل نحو ادخال وسائل للحد من القلق الذي يساور المجتمعات البشرية والاجراءات الدفاعية التي تعمد اليها لمعالجة هذا القلق . ومن الواضح ان اي مخطط للعمل الاجتماعي يقوم على هذه المبادىء لا بد من أن يصطدم مع قوى كبيرة تقف الى جانب مبادىء اخرى أبسط ، كالمبادىء التي تقوم عليها نظريات « التفوق العرقي » ونظرية تحسين النسل بانتقاء « الصفوة » وما يسمى « بالحقوق المكتسبة » لطبقات معينة وما شاكل ذلك من النظريات التي تقوم على نزوات الانسان المعاصر وانطباعاته الذاتية . هذه القوى الكبيرة التي تعترض سبيلنا يستقطبها مبدأ واحد هو مبدأ السيطرة واخضاع الغير لدور التبعية . ولا غرو في ان انتصار مخططات العمل الاجتماعي القائم على التجربة والاختبار لا يمكن ان يتحقق الا في اعقاب المزيد من مظاهر الديمقراطية الحق ، وازدياد التبصر في البناء السيكلوجي للقوى التي تستطيع قيادة المجتمعات البشرية نحو التضامن او تجرها الى التصدع والتهلكة .

المقام المشترك للثقافات

جورج بيتر مردوك

تركز الجانب الاكبر من النظرية الانثربولوجية حول تفسير مظاهر التشابه والتباين بين ثقافات المجتمعات البشرية المختلفة. ويلاحظ ان مظاهر التباين استأثرت باهتمام اشد من مظاهر التشابه ، ولعل ذلك يعود الى ان الفروق تكون عادة اكثر وضوحا للعيان من التشابه . وما اكثر المحاولات التي بذلت لتفسير الفروق بين الثقافات المختلفة ، فمن النظريات التي قيلت في هذا الموضوع : وجود مراحل متميزة في حلقة التطور ، او تنوع الاوضاع الاقتصادية او الاجتماعية ، او الفروق المزعومة بين المواهب الفطرية التي حبتها الطبيعة الاعراق البشرية المختلفة ، او الاحداث التاريخية العرضية التي لا يتكرر وقوعها ، او تنوع الوسط الاجتماعي الى مدى لا يكاد يقف عند حد ، او التشكيلات الفريدة من العناصر المتماثلة او المتباينة ، او التباعد بين خصائص الشخصية الناجم عن تباين نظم التربية والتدريب في مرحلة الطفولة — وغير ذلك من النظريات الكثيرة التي لا يتسع المجال لذكرها كلها . أما اوجه الشبه بين بعض الثقافات ، فان الدراسات النظرية التي اجريت عليها اقتصرت ، في المقام الاول ، على عدد محدود من الثقافات المعينة ، أو بالحري على حالات اعتبرت شاذة بالنسبة للتنوع الثقافي الذي افترض انه يمثل ظاهرة عامة . وهنا ايضا نسبت حالات التشابه الى عوامل مختلفة نخص بالذكر

منها : إنتقال الثقافات عن طريق الهجرة ، او انتشار الثقافات عن طـريق الاحتكاك والاقتباس ، أو التطور المتوازي من اصول متشابهة ، أو التقارب بين ثقافات نشأت من اصول متباينة ، او تفجر امكانات وراثية جديدة ، أو ـ كما يزعم البعض ـ الاثر الحاسم للعوامل الجغرافيـة المتماثلة . وأما اوجه الشبه العامة بين جميع الثقافات ، اي المواطن التي تلتقي فيها جميع الثقافات المعروفة ، فلم تحظ الا بمعالجة نظرية ضئيلة نسبيا . وهذا المقال مكرس كله لبحث هذا الموضوع ، أي لبحث « المقام المشترك » لجميع الثقافات .(١)

ذكر في بعض التقارير ان هناك شعوبا تفتقر الى اللغة او النار او الاخـلاق أو الدين أو نظـام للزواج أو الحكـم . ولكن ثبت الآن ان جميـع هـذه التقـارير كـانت خـاطئة . وعلى الرغم من ذلك ، فاننا مـا زلنـا نفتقر الـى ادراك عـام لمدى تعـدد وتنـوع العناصـر المشتركة في الثقافات المعروفة . وفيمـا يلـي قائمة ببعـض العناصر التي ، بناء على المعلومات المتوافرة لدى كاتب هذا المقال ، توجد في جميع الثقافات المعروفة في علم التاريخ أو علم الاعـراق البشريـة : التصنيف العمري ، الالعاب الرياضية ، التبرج ، التقاويم ، التدريب على النظافة ، تنظيم المجتمع المحلي ، الطبخ ، العمل التعاوني ، الكونيـات، الغزل ، الرقص ، الفن الزخرفي ، العرافة ، توزيع العمـل ، تفسيـر الاحلام ، التربية ، فلسفة الحشر والنشر ، الاخلاقيات ، آداب المعاشرة والسلوك ، قوة الايمان الابرائية ، نظام العائلة ، اقامة الولائم ، اشعال النيران ، الفنون الشعبية ، تحريم انواع معينة من الاطعمة ، شعائـر

(١) يذكر الكاتب اسماء عدد من علماء الاجتماع والانثربولوجيا الذيـن تأثر بارائهم ، كما انه يشير الى فضل زملائه السـابقين والحاليين في دائرتي الانثربولوجيا والاجتماع في معهد العلاقات الانسانية في جامعة ييل . ويقول الكاتب ان هناك تداخلا شديدا في اسهام العلماء في المجهود العلمي ، ولـذا يتعذر عليه فصل الاجزاء التي تمثل جهده الخاص عن الاجزاء التي يديـن بها للآخرين .

الجنازات ، الالعاب الداخلية ، الايماءات ، منح الهدايا ، الحكومة ، التحيات ، اساليب تصفيف الشعر ، الضيافة ، الاسكان ، الرعاية الصحية ، منع الزواج بالمحارم ، قوانين الارث ، المزاح ، تكتلات الاقرباء ، التسمية باسم العائلة ، اللغة ، القانون ، الخرافات الخاصة بالحظ ، السحر ، الزواج ، وجبات الطعام ، الطب ، الاحتشام عند قضاء الحاجات الطبيعية ، الحداد ، الاساطير ، الاعداد ، فن القبالة ، العقوبات الجزائية ، الاسماء الاولى ، السياسة السكانية ، العناية بالام بعد الولادة ، العادات الخاصة بالحمل ، حقوق الملكية ، استعطاف القوى الخارقة ، مراسيم سن البلوغ ، الشعائر الدينية ، القيود الجنسية ، قوانين الاقامة ، مفهوم الروح ، تباين الاوضاع الاجتماعية ، الجراحة ، صنع الادوات اليدوية ، التجارة ، تبادل الزيارات ، الفطام ، الاهتمام بالاحوال الجوية * .

واذا اخترنا عناصر معينة من قائمة كهذه وأخضعناها لمزيد من التحليل ، تبين لنا ان اوجه الشبه بين بعض الثقافات تشمل حتى بعض المظاهر التفصيلية لكل عنصر . فلكل ثقافة ، مثلا ، لغة ، ولكننا نلاحظ ، علاوة على ذلك ، ان جميع اللغات يمكن تحليلها الى انواع متماثلة من المقومات والاجزاء ، كالفونيمات أو الوحدات الصوتية التقليدية ، والكلمات ، أو المجموعات من الفونيمات التي تحمل كل منها دلالة معينة ، والاصول النحوية والصرفية أو القواعد القياسية لتركيب الجمل من الكلمات . وكذلك الامر بالنسبة لمراسيم الجنازات ، فهي تشتمل دائما على طرق للتعبير عن الحزن ، ووسائل للتخلص من الجثة ، وشعائر تستهدف حماية المشتركين من اذى القوى الخارقة . واذا حللنا العناصر المشتركة على هذا النحو التفصيلي ، فان أوجه الشبه بين جميع الثقافات تبلغ عددا كبيرا يتعذر حصره .

---

* اعدت هذه القائمة بحسب ترتيب الابجدية باللغة الانجليزية ، ولم يراع في اعدادها اي اساس للتصنيف .

غير ان هذه المشابه العامة قلما تعني تماثلا تاما في محتويات ثقافية معينة . فالاجزاء الفعلية التي تتألف منها كل ثقافة هي العناصر السلوكية (الحركية والكلامية والضمنية) التي تصبح ، في اطار ظروفها وقرائنها المناسبة، عادية بالنسبة لجميع اعضاء فئة اجتماعية أو بالنسبة لاولئك الذين يشغلون أوضاعا معينة فيها . وكل جزء من هذه الاجزاء ــ سواء اطلقنا عليه تعبيرا شعبيا أو سمة أو خاصة ثقافية ــ يمكن وصفه بدقة في ضوء الاستجابات السلوكية للافراد والمنبهات التي تستثير هذه الاستجابات . ومن الامثلة المتفرقة على ذلك أكل الارز بالطريقة الصينية ، وطرز قبعات السيدات ، وسلخ جلدة رأس العدو بعد قتله ، وعزو المغص الى نظرة من عين شريرة او جاسدة . ولا غرو في أن اية وحدة محددة من وحدات السلوك الاعتيادي يمكن ايجادها في مجتمع معين أو في عدد من المجتمعات التي تربط بينها صلات تكفي لانتشار التبادل الثقافي بينهما وبالتالي لحدوث تعديل في سلوك كل منها . ولكن من المشكوك فيه ما اذا كان أي عنصر سلوكي قد انتشر الى مدى يسوغ لنا اعتباره من العناصر العامة التي تشترك فيها جميع الثقافات .

فالعناصر العامة المشتركة في جميع الثقافات ، اذن ، لا تشمل حالات التماثل في العادات او مظاهر السلوك المحدد : فهي تمثل مشابه في التصنيف ، لا في المحتوى ، أو بالحري هي تمثل اصنافا من عناصر تعتبر متنوعة من الناحيتين التاريخية والسلوكية ، ولكنها في الوقت نفسه تلتقي في نقاط كثيرة جدا حتى ان المراقبين يجدون انفسهم مضطرين الى تصنيفها معا . فمما لا يرقى اليه شك ، مثلا ، ان الاعمال السلوكية الخاصة بالزواج او تعليم الاطفال او معالجة المرضى تختلف كثيرا من مجتمع لآخر . ومع ذلك ، فان الكثيرين من المراقبين لا يترددون في تصنيف هذه الاعمال المتباعدة في وحدات رئيسية ثلاث هي : الزواج والتربية والطب . واذا حللنا اوجه الشبه العامة او الواسعة الانتشار بين الثقافات ، تبين لنا

انه يمكن تبويبها في فئات أو وحدات عامة يقر الجميع بوجودها . وهكذا يمكن القول ان الثقافات تلتقي في نظام موحد من التصنيف ، وليس في مجرد عدد من العناصر المتماثلة . ومع أن الثقافات تتباين تباينا شديدا في التفصيلات السلوكية ، فانها تبنى جميعا وفق مخطط اساسي واحد . وهذا المخطط هو الذي اطلق عليه وسلر مصطلحه الموفق « النمط الثقافي العـام » .

ويجمع الثقات من ذوي الاختصاص على قبول فكرة « النمط الثقافي العام » ، على الرغم من اختلافهم بشأن بعض القضايا الاخرى . ويـدل هذا الاجماع على أن هذا « النمط الثقافي العام » ليس مجرد مظهر من مظاهر البراعة التصنيفية ، وانما يقوم على أساس واقعي ثابت . ولا يمكننا أن نتحرى هذا الاساس في التاريخ أو الجغرافية أو العرق ، ولا في أي عامل يحدده الزمان أو المكان ، وما ذلك الا لان النمط العام ، يربط بين جميع الثقافات المعروفة ، بسيطة كانت او مركبة ، قديمة كانت أو حديثة. ولذلك لا يمكن ان نتحراه الا في الطبيعة البيولوجية والسيكلوجيـة الاساسية للانسان وفي الظروف العامة التي تتحكم في الجنس البشري .

والجدير بالذكر أن علماء الانثربولوجيا في القرن التاسع عشر أدركوا أن جميع الثقافات تساير في بنيانها مخططا أساسيا واحدا . فالعلمـاء مورجـان وسبنسر وتايلور لم يكتفوا برسم الخطوط العريضة للنمط الثقافي العام ، بل اضافوا اليه الكثير من التفصيلات المهمة . غير ان العلماء لم يتوصلوا الى فهم واف للظاهرة الا في العقدين الثالث والرابع من القرن العشرين ، أي بعد ان نجحوا في تحقيق تكامل مقبول بين علم الانثربولوجيا وبين النظريات الاجتماعية والنفسية .

ان معظم المحاولات التي بذلت لتفسير النمط الثقافي العام بدأت بما يسمى « الوحدة النفسية لبني البشر » ، اي بالافتراض التالي الذي أيدته العلوم الاجتماعية : ان جميع الشعوب المعاصرة ، وكذلك الشعوب التي

تتوافر لدينا عنها سجلات تاريخية معتمدة ، تتشابه في الجوانب الاساسية من تركيبها وتجهيزها النفسيين ، وذلك بصرف النظر عن الفروق الجسمية والجغرافية القائمة بينها . أما الفروق الثقافية بينها فتعود الى أن الكائنات البشرية ، رغم التشابه الاساسي بينها ، تستجيب للمنبهات أو الظروف المختلفة بطرق متفاوتة . ويرجح أن هذا الافتراض ، في خطوطه العريضة ، قادر على الصمود في وجه التحدي . غير ان اغلب الباحثين النظريين تحروا العامل الموحد في جانب واحد فقط من جوانب الطبيعة النفسية الاساسية التي يشترك فيها جميع البشر ، وهذا الجانب هو العوامل الاندفاعية المشتركة في السلوك . وعلى هذا الاساس يمكن القول ان جميع الثقافات تتشابه لان هناك مجموعة من الدوافع الفطرية المتماثلة التي تحفز الناس في كل مكان على العمل وتوجه سلوكهم في خطوط متوازية .

وساد الاعتقاد قبل العقدين الاخيرين بان هذه الدوافع المشتركة يمكن اعتبارها ضربا من الغرائز . فالنجاح والاعتبار اللذان احرزتهما العلوم البيولوجية منذ عهد دارون دفعا الكثيرين من علماء الاجتماع ــ ان لم يكن معظمهم ــ الى المعادلة بين السلوك الانساني وبين سلوك الحيوانات الدنيا ، والى تفسير المؤسسات الاجتماعية على أساس انها تعبير عن سلسلة من الغرائز العامة . فالزواج عند الانسان ، مثلا ، اعتبر مماثلا لتزاوج الحيوانات ، وبناء البيوت مماثلا لبناء الاعشاش عند الطيور ، والحكومة مماثلة لظاهرة انقياد قطيع من الحيوانات لاقوى ذكر فيه . ومما استلفت نظر العلماء بوجه خاص التشابه الملحوظ بين السلوك الاجتماعي للنمل والنحل والدبابير وبين السلوك الثقافي للانسان . غير أن تقدم العلوم أخذ يبرز ، بمزيد من الوضوح ، أهمية التعلم والعادة ، حتى عند الحيوانات الدنيا . ونشير هنا بوجه خاص الى نتائج الابحاث الانثربولوجية التي اثبتت بالبرهان القاطع ان السلوك الانساني يعكس تباينا لا حد له بين المجتمعات المختلفة ، وان أي مجتمع يتعرض للتغير

الدائم عبر الاجيال ، وهذه النتيجة تتعارض وفكرة الثبات والمماثلة التي تتضمنها نظرية الغرائز . وتبين بوضوح أن الترابط الحتمي بين مجموعة معينة من الاستجابات وبين منبه معين — وهو نوع الترابط الذي تمتاز به الغرائز دائمــا — لا يمثل القاعدة العامة للسلوك الاجتماعي للانسان ، لا بل انه في الواقع نادر جدا حتى انه يكاد يتعذر اكتشافه عمليــا . فمن المؤكد اذن ان الثقافة ليست غريزية ، وانما هي أمر لا يكتسب الا بالتعلم . ومنذ عام ١٩٢٤ حين نشر برنارد بحثه بعنوان « الغريزة » ، أصبح من المتعذر اعتماد نظرية الغرائز — أيا كان شكلها — في تفسير النمط الثقافي العام ، أو حتى في حل أية مشكلة ثقافية .

وما كادت نظريات الغرائز تفقد اعتبارها في الأوساط العلمية ، حتى بادر العلماء الى مضاعفة جهودهم في سبيل انقاذ الموقف . وأقر الكثيرون منهم بأهمية التجهيز المكون للعادات كمــا اعترفوا بأن اشكالا مختلفة من السلوك يمكن أن تقترن ، عن طريق التعلم ، بمنبه واحد . وتشبث هؤلاء بعامل الدافع في الغريزة ، وراحوا يعدون قوائم مختلفة «بالدوافع» و « الرغبات » و « الاستعدادات » و « الانعكاسات القوية الموروثة » ، ويؤكدون أن هذه هي الاساس الذي يقوم عليه السلوك الثقافي ، مثلهم في ذلك مثل اسلافهم الذين استعانوا بالغرائز لتفسير النمط الثقافي العام. ولعل الفرق الرئيسي بين المدرستين هو أن اتباع المدرسة الثانية فصلــوا الدوافع عن التعبيرات السلوكية الثابتة وأدركوا أن أشكال السلوك ،على اختلافها وتعددها ، يمكن أن يستثيرها دافع واحد ، وذلك نتيجة للتعلم في ظروف متغايرة . وعلى الرغم من ذلك فان هؤلاء العلماء ذهبوا الى ان الدوافع ، بفضل طبيعتها الفسيولوجية الاساسية ، لا تمكن تهدئتهــا الا بسلوك من النوع الذي يخفف من حدة الظروف التي اثارتها ، وخلصوا الى القول بان الاستجابات المختلفة لذات الدافع تتشابه في هذه الناحية الحيوية ، بالغا ما بلغ اختلافها في النواحي الاخرى . فالاستجابات لدافع

الجوع ، مثلا ، تتشابه في ناحية واحدة وهي تلبية الحاجة الناشئة عن طريق تناول الطعام .

وبذلت محاولات كثيرة لتفسير النمط الثقافي العام على الاساس الذي شرحناه في الفقرة السابقة . فذكر ، مثلا ، أن المشابه بين بعض الثقافات في المخطط الاساسي أو البنيان أو التنظيم الثقافي يمكن تفسيرها استنادا الى سلسلة من الدوافع أو البواعث الاساسية . ومن أشهر الامثلة على هذا الاتجاه المحاولة التي بذلها سمنر وكلر لتقسيم جميع المؤسسات الاجتماعية الى مؤسسات تقوم على الاسس الاربعة التالية : اعالة النفس ، وتخليدها ، وارضائها ، والدين . وربط هذان الكاتبان هذه الاسس « بقوى أربع » تسهم في تكييف الفرد على الحياة الاجتماعية ، وهي : الجوع والحب والغرور والخوف . ومن الامثلة المشهورة أيضا التحليل الوظيفي الذي قدمه مالينوسكي على أساس تلبية بعض « الحاجـات » الاساسية ، وهذا التحليل معقد بالنسبة للتحليل الذي قدمه سمنر وكلر . وثمة تفسيرات اخرى مماثلة ولكنها أقل توفيقا من التفسيرين السابقين.

وليس في نية كاتب هذا المقال النيل من مثل هذه التفسيرات ، فهو يعتقد انها سليمة ضمن حدود معينة وانها توحي لنا بافكار جديدة . فالابحاث الحديثة في علمي النفس ووظائف الاعضاء اثبتت وجود عـدد من الدوافع الاساسية : منهـا ما يتصل بالاطعـام (الجوع والظمـأ والاستنشاق) ، ومنهـا ما يتصل بالاخراج (التبول والتغوط والزفير والاخراج الجنسي والارضاع) ، ومنها ما يتصل بتجنب بعض الحالات (الالم والحرارة والبرودة) . ولا بد من أن نضيف الى هذه الدوافع التالية : الغضب أو العدوان الذي يثور نتيجة لصد المرء عن رغبته في التعبير عن دوافعه الاخرى ، والقلق أو الخوف الذي ينتج ، على ما يبدو، من أوضاع شبيهة بتلك التي يعاني فيها المرء حالات الحرمان او الالم . وليس ثمة ادنى شك في أن هذه الدوافع أو البواعث تمثل عاملا مشتركا

في خبرات جميع الكائنات البشرية ، وانها تستثار من آن لآخر في جميع الافراد ، أيا كان المجتمع الذي ينتمون اليه . أضف الى ذلك أن أنواع السلوك التي تسكن هذه الدوافع أو البواعث تقع عامة في نطاق المجالات الاساسية من طبيعة الانسان البيولوجية والنفسية ، وانها بالتالي تؤثر في توجيه سلوكه الثقافي مثلما تؤثر في توجيه سلوكه الفردي . ولا ريب في انها تقدم تفسيرا جزئيا للنمط الثقافي العام . غير أن هناك اعتبارات جوهرية تحملنا على الاعتقاد بانها لا تزودنا بتفسير كامل للمشكلة .

أما الاعتبار الاول فهو أن هذه الدوافع أو البواعث التي ثبتت علميا لا تفسر جميع أجزاء النمط العام بذات الدرجة من النجاح . فنحن ، على ما يبدو ، لا نجانب الحقيقة عندما نعزو طلب الطعام الى دافع الجوع ، وطلب المأوى الى الرغبة في تجنب الحر أو البرد ، والحرب الى النزعة العدوانية ، والزواج الى الدافع الجنسي . ولكن ما الدوافع المعتمدة التي نستطيع أن نعزو اليها ظاهرات ثقافية لا تقل انتشارا عن الظاهرات السابقة كالفنون والاشغال اليدوية والتنظيم العائلي والدين ؟ ويميل انصار التفسير قيد البحث الى اختراع دوافع فرضية لسد النقص في نظريتهم كأن يفترضوا ، مثلا ، غريزة المصنعية أو النزعة الابوية أو الحماسة الدينية . غير أن اختراعات كهذه لا تجد أي دعم لها في علمي النفس ووظائف الاعضاء . ومن جهة اخرى ، نلاحظ أن النظرية النفسية الخاصة بالدوافع المتعلمة أو المكتسبة تمدنا بتفسير مرض تماما للمشكلة قيد البحث .

من المسلم به اليوم أن أعمال الانسان التي تصدر مباشرة عن دوافع أساسية واضحة لا تمثل ، في أي مجتمع ، الا نسبة صغيرة من مجموع أعماله . حتى في حالة الاكل ، نلاحظ أن ظاهرة تفضيل بعض أنواع الاطعمة وتحريم البعض الآخر تقيم الدليل على أهمية الشهية المكتسبة بالمقابلة مع دافع الجوع الفطري . فنحن نأكل ما نشتهي في الاوقات التي

تعودنا عليها وفي الوسط الذي نستمتع به . ومن الاشياء المألوفة كل يوم اننا نسعى الى اشباع شهيتنا للأطعمة المختلفة ، ولكننا في سن البلوغ قلما نشعر بالدوافع التي تحركها آلام الجوع الحقيقي . ونحن اذ نذعن لطلبات الشهية المكتسبة نسكن في الوقت نفسه دافع الجوع وبذلك نعزز الشهية. ولكن الحافز الحقيقي في هذه الحالة هو الدافع المكتسب وليس الدافع الفطري .

وما قلناه عن الاكل يصدق ، بصورة أوضح ، على أشكال اخرى من السلوك . فالكثير من الاستجابات الجنسية ، مثلا ، هو في طبيعته أقرب الى الرغبات منه الى الدوافع الاساسية . فالدوافع المكتسبة هي التي تجعلنا نلتمس معاشرة الجنس الآخر على أساس العمر والهيئة والملابس والتجانس الاجتماعي ، وغير ذلك من العوامل التي لا علاقة لها بالشهوات الجنسية الحيوانية ، وهي بالتالي تحثنا على الاشتراك مع الجنس الآخر في الحديث والرقص والوان اخرى كثيرة من النشاط الذي لا يقوم على الاتصال الجنسي . وفي جوانب اخرى من السلوك الاجتماعي ، كالطقوس الدينية والفنون الجميلة ، تكون الدوافع الاساسية ضئيلة الاهمية بالنسبة للدوافع المكتسبة ، حتى انه يتعذر علينا تمييزها . وهكذا يتضح ان في النمط الثقافي العام عناصر ليس من السهل نسبتها كليا لاحد الدوافع الاساسية المعتمدة . ولذا يحسن بنا ، من وجهة النظر العلمية ألا نخترع ، من اجل تفسيرها ، دوافع جديدة فرضية لا تقوم على ادلة واقعية ، بل ان نعزوها للدوافع المكتسبة التي تختلف بطبيعة الحال من مجتمع لآخر .

أما السبب الذي يدفعنا الى رفض الرأي القائل بأن الدوافع الاساسية هي التفسير الوحيد للنمط الثقافي العام ، فهو ان معظم المؤسسات الاجتماعية أو المركبات الثقافية تشبع فعلا عددا من الدوافع الاساسية والمكتسبة المختلفة . فالاتجاه الى نسبة الزواج الى الجنس وحده يمثل مغالاة في تبسيط ظاهرة اجتماعية معقدة . وكان ليبرت في طليعة الذين

بينوا أن العامل الاقتصادي في الزواج لا يقل أهمية عن عامل الجنس ، هذا اذا لم يتفوق عليه في الاهمية . فعامل الجنس ليس مسؤولا الا عن تحقيق الاتصال الجنسي . أما العامل الاقتصادي فهو المسؤول عن استمرار الرابطة الزوجية . وتتضح علاقة دافع الجوع بالزواج ، مثلا ، في توزيع العمل على الجنسين . وهو ظاهرة تتميز بها الرابطة الزواجية في المجتمعات كافة ، وتنزع في معظم الحالات الى احتلال مركز مرموق يختلف تبعا لاختلاف المجتمعات ويحقق نوعا من الاستقرار في تأمين اللوازم الغذائية لكل من الجنسين . حتى المجتمع الغربي الذي يبالغ في التشديد على العامل الجنسي في الزواج يعلق أهمية على عامل الجوع فيعبر عنه بالقول المأثور : « ان أقصر طريق الى القلب هي المعدة » . أضف الى ذلك أن الزواج يعبر بطرق مختلفة عن دافع أساسي آخر هو الرغبة في التحرر من القلق . ومن الامثلة على ذلك الرغبة في تجنب ما يبديه المجتمع عادة من استهجان تجاه العزوبة ، أو في تأمين الضمان الاقتصادي عن طريق الاقتران بزوج غني ، أو في الاستمتاع بالسلوى والالفة اللتين تؤمنهما العلاقة الزوجية الوثيقة .

وكذلك الامر بالنسبة للقتال ، اذ كثيرا ما تحركه دوافع اخرى غير النزعة العدوانية ، كالخوف او الرغبة في الظفر بود الحسان (وهي رغبة تنبثق جزئيا من دافع الجنس) ، أو الرغبة في تحقيق مطمع أو مكسب (وهي رغبة قد تقترن بدافع الجوع) . أما السلوك الديني فكثيرا ما نجد جذوره في القلق أي في الخوف من المجهول والاشياء التي لا يمكن التنبؤ بها او مما يخبئه لنا المستقبل من مفاجآت ، أو بالحري قد نجد جذوره في شعور الانسان بنقصه الشخصي . وكثيرا ما يقترن السلوك الديني أيضا بحب عنيف ، كما تبين من بعض الحالات التي درسها اطباء الامراض العقلية ، وقد يعبر عن نزعة عدوانية ، كما هي الحال في الشعوذة والتعصب الديني ، أو قد يعكس الحاجة الى الطعام واسباب

الراحة ، كما في السحر أو الصلاة . ويكاد أي قطاع آخر من السلوك الثقافي يكشف ، لدى التحليل ، تشابكا مماثلا بين دوافع متنوعة . ومما يزيد من تشابك الدوافع الاساسية ويجعل المشكلة معقدة غاية في التعقيد تداخل الدوافع المكتسبة . ولذلك يمكن القول انه من العسير جـدا علينا فصل الظاهرات الثقافية بعضها عن البعض الآخر على أساس الدوافع التي تتألف منها .

ولا يسعنا ، والحالة هذه ، الا ان نقر بان تحليل اشكال السلوك الجماعي من وجهة نظر الدوافع الاساسية لا يقدم لنا تفسيرا وافيا للنمط الثقافي العام ، وذلك على الرغم من اهميته الارشادية والايحائية . ويكمن النقص الرئيسي ، على ما يبدو ، في أن هذا التحليل لا يأخذ بعين الاعتبار جميع جوانب التركيب السيكلوجي التي تؤثر في السلوك العادي . وبما انه انبثق في الأصل من نظرية الغرائز القديمة ، فانه يحصر اهتمامه كليـا في عامل الدافع في السلوك ويتجاهل جميع العوامل الاخرى . واذا اخذنـا بعين الاعتبار جوانب اخرى من التركيب السيكلوجي المتصل بتشكيل العادات واستمرارها ، برز أمامنا تفسير أوفى للنمط الثقافي العام .

ويلاحظ أن جميع أشكال السلوك تهدف في الاساس الى التوسط بين نوعين من الاوضاع التي فيها تجد الكائنات نفسها ، اي بين الاوضاع التي تستثار فيها الدوافع وبين الاوضاع التي يتم فيها ارضاء هذه الدوافع. فاذا واجه الكائن الحي أوضاعا من النوع الاول ، فان ذلك يستثير نشاطه. أما اذا واجه أوضاعا من النوع الثاني ، فان قوة الدافع تتضاءل ويتوقف نشاط الكائن الحي أو يستبدل بنمط سلوكي آخر يأتي استجابة لمنبه آخر . ويستمر السلوك مستجيبا للدافع الذي أثاره في البدء حتى يتم اشباع الدافع ، أو حتى يتدخل دافع آخر اقوى يسيره في اتجاه آخر . أو حتى تصل الاستجابات الخائبة الى درجة الانهاك أو الكلال . وفي الحالة الاخيرة يلاحظ أن السلوك الذي حركه الدافع يثور مجددا بعد

حين ، ويظل قائما حتى يتحقق ارضاء الدافع . واذا كان النجاح ضروريا للحياة ، فان السلوك يظل قائما حتى يقضي الكائن الحي .

ويلاحظ أيضا أن الكائنات الحية طورت وسيلتين متميزتين لتكييف السلوك على نحو يكفل لها تحويل الاوضاع المثيرة للدوافع الى اوضاع مسكنة لها . فأما الوسيلة الاولى فهي الغريزة التي تشترك فيها جميع أشكال الحياة ، وهي تنظيم دقيق للسلوك تطور عن طريق الانتقاء الطبيعي وانتقل من جيل لآخر بالوراثة . فالغريزة تمكن الكائن الحي من الاستجابة تلقائيا لوضع مثير للدوافع عن طريق أشكال معينة من السلوك قررتها العملية التطورية نظرا لانها تؤدي عادة الى تخفيف حدة الدافع . وفي الحالات التي لا يتحقق فيها ارضاء الدافع ، يكون الكائن الفردي بائسا وقليل الحيلة ، لانه يعجز عن انتاج أشكال سلوكية بديلة . وهناك تجهيز ثان يسد هذا النقص ، وهو التجهيز الخاص بتشكيل العادات الذي سار خطوات تطورية واسعة في جميع الاشكال العليا للحياة ، بما فيها الانسان . ويستطيع الفرد ، بوساطة هذا التجهيز ، مواجهة وضع مثير لدافع لم يطور له النوع استجابة غريزية مناسبة ، وذلك بتنويع سلوكه واكتساب أية استجابة جديدة على شكل عادي تؤدي الى التخفيف من حدة الدافع . وهذا التجهيز السيكلوجي الثاني هو الذي تعتمد عليه جميع مظاهر السلوك الثقافي .

والجدير بالاهتمام أن العامل الحاسم في تكوين العادات وتثبيتها لا يكمن في مصدر السلوك في الباعث أو المنبه ، وانما في أثره في تخفيف حدة الدافع . وهذا العامل الحاسم هو الذي يثبت ويعزز ويستبقي ما ينشأ من الاستجابات . وكلما تحقق تخفيف حدة الدافع ، ازداد احتمال تكرر السلوك نفسه في وضع مماثل . هذا وان مجرد تكرر التنبيه لا يعزز السلوك الناجم ، ما لم يسبق ذلك تخفيف حدة الدافع . حتى أن السلوك ، في هذه الحالة ، قد يتلاشى ويمهد الطريق لظهور استجابات عشوائية من

انواع اخرى ، أي استجابات سلوكية تقوم على التجربة والخطأ .

واذا ما أدى السلوك الى تسكين الدافع ، فان الاثر الناجم لا يربط السلوك بالدافع الذي أثاره وحسب ، وانما يربطه بجميع المنبهات التي يتعرض لها الكائن الحي في الوقت ذاته . ويصدق هذا القول حتى على الحالات التي يؤدي فيها السلوك الى تسكين الدافع على سبيل المصادفة. فاذا ما تكرر السلوك واثره المسكن للدافع ، فان بعض المنبهات المصاحبة ــ منفردة كانت أو مجتمعة ــ تكتسب القدرة على اثارة استجابات عادية جديدة حتى في الحالات التي لا يكون فيها الدافع الاصلي موجودا . هذه المنبهات التي تكتسب قوة الدوافع هي التي اطلقنا عليها مصطلح «الدوافع المكتسبة» . فهي نتاج التعلم ، شأنها في ذلك شأن الاستجابات التي تستثيرها . فهذه الطريقة ، مثلا ، تعمل على استثارة الشهية للطعام على الرغم من عدم توافر ادلة محسوسة على وجود دافع الجوع ، وذلك عن طريق رؤية كباب حديث الشواء أو شم رائحته أو حتى بمجرد الاستماع الى وصف شفهي له .

وبناء على ما تقدم يمكن القول ان العامل الحاسم في السلوك العادي يكمن في أثره أكثر مما يكمن في اصله . وهذه الحقيقة تشير الى أن تحري المشابه الثقافية الشائعة من خلال دراسة الاشكال الثقافية من وجهة نظر علاقتها بالثواب ربما كان افضل من تحريها من خلال تحليل مكونات الدوافع . أما تداخل الدوافع المختلفة في السلوك الواحد ومشكلة التمييز بين الدوافع الاساسية والدوافع المكتسبة ، فلا يقفان حجر عثرة في سبيل هذا التفسير . فاذا كان نوع معين من السلوك يؤدي بانتظام الى تخفيف حدة دافع معين، فان ذلك قد يعزز أيا من الدوافع الاخرى التي قد تنجح في استثارة هذا النوع من السلوك وقد يؤدي الى نشوء عدد من الدوافع المركبة والمكتسبة .

وبما ان السلوك الثقافي عادي دائما في طبيعته ، وبما ان استمرار

العادات يقترن بالمكافآت التي تترتب عليها ، فان كل عنصر ثقافي قائم يلازمه ويدعمه بالضرورة ارضاء لبعض الدوافع . وهذا هو السبب الذي يجعل علماء النفس يمنحون تأييدهم الكامل لاتجاه «انصار المبدأ الوظيفي» من علماء الانثربولوجيا للتشديد على هذه النقطة . وعندما تتوقف أشكال السلوك التقليدي عن ارضاء الدوافع ، تحل محلها استجابات عشوائية ويحدث ما يعرف بالتغير الثقافي . على أن موضوع التغير الثقافي يخرج عن نطاق أبحاث هذا المقال الذي لا يعنى الا بالاشكال الثقافية الراسخة والواسعة الانتشار ، أي الاشكال الثقافية التي تدعمها المكافآت بصورة منتظمة .

ان العلاقة بين السلوك الثقافي والمكافآت تتخذ أشكالا مختلفة . ففي بعض الحالات يكاد الاثر المباشر للسلوك الثقافي ينحصر في تخفيف حدة أحد الدوافع الاساسية . فطلب الطعام يؤدي مباشرة الى ارضاء دافع الجوع ، واستعمال الكساء والنار في الاصقاع الشمالية يؤدي الى تجنب البرد ، والاعمال الجنسية المختلفة تؤدي الى اشباع الدافع الجنسي . ولكي يتحقق تخفيف حدة الدافع ، يجب أن ينسجم السلوك مع المتطلبات السيكلوجية والفسيولوجية للكائن البشري . ويلاحظ ان العادات المتنوعة للمجتمعات المختلفة تشترك في انها جميعا تلبي هذه المتطلبات ، ولذا يمكن اعتبارها حلولا بديلة لمشكلات أوجدتها الطبيعة الانسانية الاصلية . ولو كانت هذه العادات هي الوحيدة التي تعكس العلاقة بين السلوك الثقافي والمكافآت ، لامكن القول ان التحليل القائم على اعتبار الدوافع الاساسية يزودنا بتفسير واف للنمط الثقافي العام .

غير أن الكثير من العادات الثقافية لا يلبي متطلبات الدوافع الاساسية مباشرة ، بل يقتصر عمله على تسهيل اشباعها في النهاية . فالثقافات تحتوي على عدد كبير مما يعرف « بالاستجابات الذرائعية » التي تعمل نفسها على تخفيض حدة أي من الدوافع الاساسية ، وانما يقتصر اثرها على تمهيد

الطريق لافعال اخرى تعود على صاحبها بنتائج مجزية . وبطبيعة الحال تحتاج الاعمال الذرائعية مع الوقت الى دعم من الدوافع المتعلمــة او المكتسبة ، ولكنها قلما تؤدي في ذاتها الى نتائج مجزية مباشرة . فصنع رمح أو قدر ، مثلا ، لا يؤدي الى ارضاء مباشر لاي من الدوافع الاساسية، ولكنه قد يساعد في وقت لاحق على اختصار الفترة أو الجهد المبذول بين هجوم دافع الجوع وبين تخفيف حدته . وتقدم العادات المشتركة التي ينطوي عليها التنظيم الاقتصادي والاجتماعي مثالا واضحــا آخر على السلوك الذرائعي . فمن خلال التنظيمات القائمة والعلاقات الشخصية المتبادلة يستطيع الافراد الاستفادة من افراد آخرين في سبيل ارضاء الدوافع المتوقعة مثلما يستفيدون من الوسائل التكنولوجية في استعمال المصنوعات اليدوية .

ويلاحظ أن تثبيت الاستجابات الذرائعية يتحقق بسبب خاصة معينة في عملية التعلم ، وليس لان هذه الاستجابات تشكل في ذاتها وسيلة مباشرة لارضاء الدوافع . فالاستجابات التي تساعد على اختصار الوقت أو الجهد اللازم بين الدافع والمكافأة تزداد تعزيزا وتمكينا ، وبذلك تنزع الى ان تتكرر في ظروف مماثلة حتى تصبح عادات راسخة . وسرعان ما تقترن هذه الاستجابات بالمنبهات الخارجية اللازمة مثلما تقترن بالدوافع الفعالة وبهذه الطريقة تصبح الدوافع المكتسبة أكثر دعما لها من الدوافع الاولية. وبما أن الدوافع المكتسبة قد تختلف اختلافا كبيرا من مجتمع لآخر ، فمن المجازفة ان نعزو أوجه الشبه بين بعض الثقافات في مجال الاستجابات الذرائعية الى وجود دوافع أساسيه متطابقه . ومن المرجح أن هذه المشابه مردها الى خصائص معينة في الذرائع نفسها ـــ سواء كانت وسائل صناعية أو اجتماعية ـــ او الى تماثل بين الظروف التي تتحقق فيها المكافأة .

وينشأ وضع مماثل بالنسبة لفئة ثالثة وكبيرة جدا من العادات الثقافية حيث تعقب السلوك مكافأة لا تحمل أية علاقة بالدوافع المحركة للسلوك

أو لا تحمل الا علاقة عرضية بها . فاذا حالف الحظ مقامرا في اعقاب سلوك معين أو انهمر المطر مصادفة في اعقاب طقوس سحرية ، فان ذلك قد يؤدي الى نشوء عادة معينة . ومن الواضح ان كلا العملين لم يسهم في نشوء الوضع المجزي ولا في تسهيل نشوئه بطريقة ذرائعية . وقد تظل مثل هذه الاستجابات الثقافية قائمة على الرغم من حالات الاخفاق . ويعود ذلك الى الحقيقة السيكلوجية القائلة ان تعزيز العادة عن طريق خبرة واحدة ناجحة هو على الاغلب أكثر فاعلية من الضعف الذي يصيبها نتيجة عدة حالات من الاخفاق .

وثمة حالات يؤدي فيها السلوك الذي أثاره دافع معين الى اشباع دوافع اخرى لا علاقة لها بعملية الاستجابة .فالخوف الخرافي من الدم قد يدفع احدى القبائل الى عزل النساء بعد الولادة . ولكن هذا العمل ، لحسن الحظ ، قد يؤدي عرضا الى نتائج مرغوبة ، فهو يوفر للامهات فترة الراحة التي يحتجن اليها بعد الولادة ، كما انه يحول دون انتشار حمى النفاس وغيرها من المضاعفات . وهذه النتائج مجزية ، فهي لا تقل أهمية عن أثر العمل في تخفيف حدة القلق عند القبيلة . وكذلك الامر بالنسبة للزواج ، فمع انه كثيراً ما يتم نتيجة للرغبة في ارضاء الدافع الجنسي ، فان العلاقة الزوجية تجلب فوائد مجزية اخرى كالغذاء واسباب الراحة والشعور بالاطمئنان والتأمين الاجتماعي . وسبق ان شرحنا كيف انه يصعب تفسير هذا النظام العائلي بدون الرجوع الى هذه الاعتبارات المهمة .

ونلاحظ ، علاوة على ما تقدم ، أن جميع الثقافات تعكس استجابات تكيفية كثيرة من النوع الذي يحظى بدعم مباشر من عمليات ارضاء الدوافع الاولية . وعزا بعض الكتاب هذه الاستجابات الى « حاجات اجتماعية » لا تعتمد ــ بحسب تعريفها ــ على الدوافع ، وانما على متطلبات لا بد من تلبيتها اذا اريد للمجتمع ان يظل على قيد الحياة وان

يحافظ على ثقافته الخاصة في وجه منافسة المجتمعات الاخرى وثقافاتها . ومن الامثلة على ذلك ما يعرف بالحاجة الى التربية . فالثقافة لا يمكن ان تظل قائمة ما لم تنتقل من جيل لآخر . وما من مجتمع يستطيع الصمود اذا لم يتميز بثقافة خاصة تتضمن ـ على شكل عادات جماعية ـ الخبرات الناجمة للاجيال المنصرمة في مواجهة مشكلات الحياة . وهكذا يمكن القول ان كل مجتمع يتميز بالحاجة الى تربية ابنائه . والتربية لا يدعمها اي من الدوافع الاولية ، وذلك بخلاف التكاثر الذي يضمنه الدافع الجنسي الى حد كبير . ومن الواضح ان الجهد الكبير الذي يضطر الآباء والمعلمون الى بذله سنوات كثيرة لغرس النظام الثقافي الكامل للراشدين في اذهان الناشئة ، من الواضح ان هذا الجهد غير مجز كثيرا في ذاته ولا بد من دعمه بمكافآت اضافية .

وكذلك الحال بالنسبة لحاجة كل مجتمع الى حكومة ، ونعني بذلك حاجته الى تنظيم سياسي بلغ من التطور مبلغا يكفل له القيام بعمل مشترك فعال ضد الاعداء المنتظرين ، والمحافظة على الامن الداخلي ، والحيلولة دون حدوث اي تدخل خطير في نسق الحياة الاجتماعية ، وتوفير الخدمات الاجتماعية الضرورية التي يمكن توفيرها بطرق اخرى . والخدمة العامة المجانية غير مجزية في ذاتها ، اذ لا يتوقع من الافراد ان يكرسوا انفسهم للمصلحة العامة بدافع الايثار فقط . ولذا يحيط كل مجتمع اصحاب المراكز السياسية بهالة من الامتيازات ومظاهر الاجلال .

ولا شك في ان مفهوم الحاجات الاجتماعية مفيد لانه يمثل خطوة كبيرة اولية في الاتجاه الصحيح . الا انه ، رغم ذلك ، يظل مفهوما مضعضعا ، فهو لا يعرض علينا حلا مرضيا تماما للمشكلة المتصلة بشيوع مؤسسات اجتماعية او مركبات ثقافية من النوع الذي لا يلقى دعما مباشرا من العمليات الخاصة بارضاء دوافع معينة . وربما كان من الافضل ان نقول

ان نشأة هذه المؤسسات الاجتماعية او المركبات الثقافية ترتبط بالعمليات العادية للتغير الثقافي وان دعمها يتم عن طريق ارضاء الدوافع المركبة والمكتسبة . فالسلوك يتغير تحت وطأة الاخفاق او الخيبة . والمجتمع يعمد الى تجريب استجابات جديدة ، سواء كانت عشوائية في الاصل او مقتبسة من مجتمعات مجاورة يبدو انها اصابت حظا اوفر من النجاح . وقد تؤدي هذه الاستجابات عرضا الى نتائج مجزية او الى التخفيف من الازعاج الذي يصاحب الاستجابات البديلة الاخرى . وفي هذه الحالة ينزع المجتمع الى تكرار الاستجابات الجديدة بحيث تصبح مع الوقت عادات راسخة . والاوضاع التي تنشأ فيها هذه الاستجابات تكتسب قوة متزايدة لتتمكن من توفير الاستثارة اللازمة ، اذ سرعان ما تنطور دوافع متعلمة او مكتسبة تسهم في دعم الاستجابات الجديدة . أما الدوافع الاولية التي يتم ارضاؤها عرضا ، فانها تسخر ايضا لخدمتها . ويظل هذا الوضع قائما حتى يتحقق تعزيز الاستجابات الجديدة بمكافآت اضافية سخيــة .

ففي حالة التربية تنشأ دوافع مكتسبة لدعم عملية التعليم ، نخص بالذكر منها الشعور بالاعتزاز والرغبة في تحقيق الشخصية والظفر باحترام المجتمع وحب الوالدين . وتستنفر دوافع اولية كالالم والقلق عن طريق عقوبات اجتماعية يعاني منها الفرد في حالة تقاعسه عن مسايرة متطلبات التربية . أما الاطفال انفسهم ، فانهم يتلقون عن طريق التربية تدريبا اجتماعيا ويكتسبون مهارات جديدة ، وبذلك تزداد قدرتهم على التجاوب والتعاون وعلى سلوك نهج يعود على المجتمع بفوائد مادية متزايدة . وفي كثير من المجتمعات يشكل الاطفال ، حتى سن مبكرة ، جانبا مهما من مصادر الثروة الاقتصادية . ويتحقق التكيف بطرق كثيرة تقوم على نظام معقد من المكافآت المجزية التي تتناسب والجهد المبذول في العملية التربويــة .

وكذلك الامر بالنسبة لانظمة الحكم ، فان عملية التغير الثقافي تستهدف ايضا تحقيق التكيف اللازم فالمجتمع يعمد الى طرق مختلفة لتشجيع زعمائه على تولي القيادة العسكرية والمحافظة على الامن العام والقيام بخدمات اجتماعية اخرى كأن يعاملهم ، مثلا ، بمزيد من الاحترام والاجلال ، ويمنحهم امتيازات مختلفة كحق فرض الضرائب والزواج من اكثر من امرأة واحدة وغير ذلك من المكافآت المعنوية والمادية . ويستفيد النبلاء الاقطاعيون من الايجارات والخدمات التي يقدمها لهم اتباعهم ، ويملأ موظفو البلديات جيوبهم بالرشوات التي يتسلمونها من اصحاب المصالح ، ويعمل اعضاء الهيئة التشريعيةعلى تأمين وظائف مناسبة لاقربائهم او تحقيق مكاسب خاصة لانفسهم ، وما شاكل ذلك من الفوائد التي يجنيها أصحاب السلطة السياسية والادارية. والواقع ان السلطة والفائدة المادية اللتين يتمتع بهما اصحاب المراكز السياسية تكفيان لاجتذاب سيل من المتقدمين . وهكذا تنشأ عادة المشكلة المتصلة برغبة المجتمع في حصر استغلال النفوذ ضمن حدود معقولة اما بالثورة واما بوسائل اخرى تستهدف التخلص ممن لا خلاق لهم . ولعل هذه المشكلة اخطر من المشكلة المتصلة بايجاد عدد كاف من الراغبين في تولي المسؤولية . واذا استثنينا الساذجين ، فان الناس يقرون عادة بان الحكم الصالح لا يمكن ان يتحقق بدون تضحيات من جانبهم .

تبين لنا ان هناك سلوكا تكيفيا لا يعبر تعبيرا واضحا عن الدوافع الاساسية او لا يحظى باية مكافأة عن طريق ارضائها ، كما تبين لنا كيف يمكن لهذا السلوك ان يصبح راسخا في الثقافات البشرية . وبدا لبعض المؤلفين ان يشبهوا هذه العملية بعملية التطور العضوي في عالم الاحياء . ويزعم هؤلاء ان المجتمعات البشرية تتنافس ، مثلها في ذلك مثل الكائنات الحية من المستويات الادنى . ويتوقف بقاء عاداتها

او زوالها على مدى نجاحها او اخفاقها في الصراع التنافسي من اجل الحياة . وتزداد فرص النجاح تبعا لمدة قدرة هذه العادات على التكيف ، سواء كانت الاسس التي تقوم عليها عقلية او غير عقلية . اضف الى ذلك انه قد تنشأ في المجتمع عادات جديدة موازية للقديمة ، وعادات مقتبسة موازية للاصلية ، وان هذه العادات تتصارع وتتنافس حتى تنتصر العادات الاصلح فيكتب لها البقاء . وبناء على هذه النظرية هناك عملية انتقائية تلعب دورها في الثقافات ، وهي مماثلة لعملية الانتقاء الطبيعي على الصعيد البيولوجي ، كما انها مسؤولة عن نشوء حالات التكيف واستمرارها في الثقافات .

غير ان هذه النظرية لم تظفر بتأييد العلماء الانثربولوجيين الامريكيين الذين رفضوها على اساس انها تقوم على مماثلة لا مبرر لها بين الظاهرات الثقافية والظاهرات البيولوجية . أما كاتب هذا المقال فيعتقد ان العلماء الانثربولوجيين الامريكيين غير محقين في رفض هذه النظرية رفضا كليا . فالنظرية ، على الرغم من بعض نقائصها ، تمثل تقدما ملحوظا على الفرضية البدائية القائمة على ابتكار الانماط الثقافية وانتشارها ، وهي الفرضية التي ورثها النقاد من العالم الاجتماعي الفرنسي تارد عن طريق العالم الانثربولوجي الامريكي بواس . والعيب الحقيقي فيها لا يكمن في اعتمادها على علم البيولوجيا ، فمن حق العالم ان يستعين باي مصدر في سبيل بناء فرضياته . أضف الى ذلك ان النظرية قيد البحث لا تخلط بين الظاهرات الثقافية والعضوية . ومن الانتقادات التي يوجهها اليها انصار نظرية المعرفة انها تعتمد على استدلال يدور على نفسه ، اي ان كلا من تعريفي البقاء والتكيف يعتمد على الآخر . غير ان هذا الانتقاد لا يبطل مفعول النظرية ولا يفقدها قيمتها . ويبدو ان عيبها الرئيسي يكمن في انها تحاول تفسير اكثر مما تطيق .

ومن العسير علينا ، على ما يبدو ، ان نرفض الاستنتاج القائل بان

التغير الثقافي يعتمد ، في بعض الحالات القصوى ، على الصراع والبقاء . فمما لا يرقى اليه شك ان الثقافة القرطاجنية تلاشت وان الثقافة الرومانية انتشرت في حوض البحر الابيض المتوسط نتيجة لابادة القرطاجنيين في الحروب البونية . ومنذ عصر الاكتشافات الجغرافية ونحن نسمع عن ابادة مجتمعات وطنية مع ثقافاتها في اجزاء مختلفة من امريكا وجزائر المحيط الهادي وعن محاولات لاستبدالها بحضارات اوروبية . ومن المحتمل ايضا ان بعض الثقافات كانت بين الحين والآخر تتوارى عن مسرح التاريخ نتيجة لضعف قدرتها على التكيف وانقراض مجتمعاتها ، شأنها في ذلك شأن العديد من الحيوانات التي انقرضت لانها لم تستطع انتاج طفرات تكيفية عند الحاجة اليها .

ومن جهة اخرى لا نستطيع القول ان انقراض الثقافة نتيجة لانقراض مجتمعها يمثل القاعدة العامة في تاريخ البشرية . فقد يفقد احد المجتمعات نسبة كبيرة من افراده نتيجة لانهزامه في الحرب او بسبب ضعف قدرته على التكيف . غير ان شعور الخيبة والالم قد يدفع الناجين من الكارثة الى احداث تغير ثقافي ، فتراهم يجربون انماطا سلوكية جديدة يبتكرونها هم انفسهم او يقتبسونها من المجتمعات الاخرى الى ان يتوصلوا ، عن طريق التجربة والخطأ ، الى تكيف ثقافي جديد . وليس من المستبعد ان ينتهي بهم المطاف الى ثقافة شديدة الشبه بثقافة جيرانهم الذين اصابوا حظا اوفر من النجاح . ومن الواضح ان التغير الثقافي في هذه الحالة لم يتحقق نتيجة لعملية انتقائية شبيهة بالعملية البيولوجية تقوم على طمس ثقافة معينة عن طريق ابادة اصحابها وحلول آخرين محلهم ، وانما عن طريق عملية التعلم النفسية حين تجري على نطاق واسع. والجدير بالذكر أن جميع أنواع التغير الثقافي العادي تتم بالطريقة ذاتها . وهكذا يمكن القول ان آلية التكيف العادي في تاريخ البشرية لا تمثل تطورا بشريا ، كما انها لا تقتصر على الانسان وحده . فبدلا من

الظاهرة الجديدة المتصلة بالتطور الثقافي او الاجتماعي ، هناك ظاهرة عريقة في القدم تتصل بتكون العادات ، وهي الظاهرة التي تعمل في ظل الاحوال المميزة للمجتمع البشري والثقافة البشرية .

ان عمليات وآثار التغير الثقافي تتسم في اساسها بطابع سيكلوجي ، وهذه الحقيقة تدفعنا الى تفحص مبادىء التعلم من أجل التوصل الى تفسير للنمط الثقافي العام . وسبق ان بحثنا في عامل الدافع او الباعث الاساسي على حدة ، واشرنا الى انه، رغم فائدته ، لا يكفي وحده لتقديم تفسير واف للمشكلة . وبحثنا ايضا في عامل آخر هو المنبه او المثير . فاذا تكرر عنصر او نمط من العناصر في اوضاع تحدث في استجابات معينة مجزية ، فان هذا العنصر او النمط من العناصر قد يكتسب القدرة على اثارة هذه الاستجابات ، حتى في حالة غياب الدافع الاصلي . ولذا ينتظر من المنبهات البارزة والواسعة الانتشار ان تقترن بالاستجابات الثقافية في مجتمعات كثيرة . ويندرج في هذا النوع من المنبهات الليل والنهار ، والاجرام السماوية ، والظاهرات الجوية والجغرافية الشائعة ، وبعض الحيوانات والنباتات ، ومعالم التشريح البشري والفسيولوجيا البشرية . وفي الواقع تكاد جميع الشعوب تملك معتقدات واستجابات ثقافية تتصل بظاهرات بارزة مثل : الشمس والقمر ، والظلام ، والمطر ، والرعد ، والبحار ، والجداول ، والدم ، والشعر ، والقلب ، واعضاء التناسل ، والعطس ، والتنفس ، والحيض ، والولادة ، والمرض ، والموت. وباستثناء المنبهات ، ليس ثمة ما يحتم على جميع الشعوب الاشتراك في الانماط الثقافية المتصلة بهذه الظاهرات البارزة . غير ان هناك عوامل كثيرا ما تؤدي الى تشابه غريب بين المجتمعات المختلفة ، نخص بالذكر منها مبدأ الامكانات المحدودة والميل السيكلوجي الى التعميم والانتشار الثقافي . ومهما يكن من شيء ، فان المنبهات الطبيعية الشائعة تزودنا باساس اضافي نافع يساعدنا على تصنيف الكليات الثقافية وتفسيرها .

وتعتبر العادات السابقة عاملا مهما ثالثا في عملية التعلم . وبما ان العادات السابقة تؤثر كثيرا في السلوك في اي وضع تعلمي ، فان الذين يجرون تجارب على تعلم الحيوانات يختارون عينات من الحيوانات الساذجة ، اي يحاولون بقدر الامكان اختيار حيوانات متحررة من عادات مسبقة مجهولة قد تتحكم في سلوكها . ولعل هذا هو السبب الذي جعل علماء النفس يخفقون اجمالا في المحاولات التي بذلوها لتفسير السلوك الثقافي ، اذ ما من كائن بشري راشد ، ايا كان المجتمع الذي ينتمي اليه ، يشترك في وضع من اوضاع التعلم الثقافي وهو سليم من اثر العادات السابقة . والواقع ان التدريب المسبق الذي تتلقاه بعض الجرذان المختبرية في المتاهات المعقدة لا يكاد يذكر بالمقابلة مع ذخيرة العادات الثقافية التي يحملها كل شخص معه في الاوضاع التعلمية التي يشترك فيها .

وتكتسب العادات المسبقة ، من وجهة نظر النمط الثقافي العام ، اهمية خاصة بسبب ارتباطها بالاتجاه السيكلوجي الى التعميم الذي يتمثل في نزعة كل استجابة متعلمة الى التكرر في ظروف تغلب عليها منبهات او دوافع متماثلة . وبسبب هذا الاتجاه الى التعميم ، نلاحظ ان الاستجابة التي تكيفت على وضع معين تنزع الى الظهور ثانية في وضع آخر بنسبة التشابه الموجود بين عناصر الوضعين . وفي الثقافات امثلة لا حصر لها على هذه الظاهرة . فالكائنات الخارقة تشبه عادة بالانسان وتعامل بطرق ثبت نجاحها في العلاقات الانسانية ، كالطرق الآتية التي نجد لكل منها مقابلا على صعيد علاقات الانسان بالقوى الخارقة : الالتماس (الصلاة) ، الهدايا (التضحيات) ، العدوان (طرد الارواح الشريرة بالعزائم والتعاويذ) ، المدح (التسبيح) ، انكار الذات (الزهد) ، آداب المعاشرة والسلوك (الطقوس والشعائر) . ويتبع التنظيم السياسي عادة نسق التنظيم العائلي ، فكلاهما يشترك في حصر

السلطة في جهة معينة . وكثيرا ما تقرن الروح بالنفس . فهو ايضا يفارق الجسد عند الموت . وكذلك الحال بالنسبةللظاهرات الحيضية والقمرية ، اذ كثيرا ما يقرن بينهما بسبب التشابه في نظاميهما الدوريين . وثمة مشابه اخرى كثيرة بين الثقافات تعود الى ميل الانسان الى التعميم .

والعامل المهم الاخير في اي وضع تعلمي هو ان عدد الاستجابات التي يمكن ان تصدر عن كائن حي يكون دائما محدودا . فما من حيوان يستطيع ان يستجيب لمنبه عن طريق عمل لم يكيف له جسميا . فالانسان لا يستطيع القفز او الطيران الى رأس شجرة ليجمع ثمارها ، ولذلك تنحصر استجاباته ، في هذه الحالة ، في اعمال معينة كالتسلق او قطع الشجرة او استخدام قضيب او قذيفة . اضف الى ذلك ان وجود عادات سابقة او غيابها يحددان كثيرا مدى السلوك الممكن . فالاوضاع المألوفة تنزع الى استثارة استجابات مألوفة والحيلولة دون ظهور استجابات جديدة ، كما ان الاستجابات المعقدة ، كتكلم لغة أجنبية او اختراع شيء مهم ، تظل متعذرة حتى يتم اكتساب سلسلة كاملة من العادات الجديدة التي تمهد الطريق لظهور مثل هذه الاستجابات . ومن العوامل الاخرى التي تحدد مجال الاستجابات تركيب الوضع الاجتماعي الذي يحدث فيه السلوك . فاذا تعادلت الظروف من حيث الدافع والمكافأة والتهيئة السابقة ، فان الفأر الذي تجرى عليه التجارب يختلف سلوكه تبعا لاختلاف المتاهة التي يدرب على سلوك ممراتها . وكذلك الامر بالنسبة للكائن البشري ، فان سلوكه ايضا يختلف تبعا لاختلاف الاوضاع الاجتماعية . وكثيرا ما اشار العلماء الى اثر البيئة الجغرافية في تحديد مجال الاستجابات ، ومن الواضح ان سكان جزائر ساموا في جنوب غرب المحيط الهادي لا يستطيعون بناء بيت كبيوت الاسكيمو ، كما ان رجال الاسكيمو لا يستطيعون انتاج بهار او شراب الكافا الذي تشتهر به جزائر ساموا .

ولعل اهم تحديد لمجالات الاستجابة هو الذي تفرضه طبيعة الانسان نفسه وطبيعة العالم الذي يعيش فيه ، وذلك ضمن حدود المعرفة التي توصل اليها العلم الحديث . فالوان النشاط التكنولوجي يجب ان تنسجم مع الخصائص الطبيعية والكيميائية للمواد التي يتعامل بها الانسان. فالطرق التي يستطيع بها الانسان توليد النار او صنع القدور قليلة نسبيا. والطرق المتبعة في الصيد وتربية الحيوانات لا بد من ان تنسجم مع الخصائص الجسمية ، وكذلك مع الخصائص البيولوجية والسلوكية للحيوانات المعنية . وتعين كل من السيكلوجيا والفسيولوجيا البشرية حدودا للطرق التي يمكن بها انجاب الاطفال ومعالجة الامراض . أضف الى ذلك كله انه لا بد من مراعاة العادات والتقاليد . فالاستجابات الناجحة يجب ان تساير جميع الظروف التي تعمل في ظلها ، هذا مع العلم بان جميع الاستجابات الثقافية القائمة يمكن اعتبارها ناجحة لانها تكون عادة مجزية . وهذه الظروف تدخل الى الثقافة مبدأ الامكانات المحدودة الذي يلعب دورا مهما للغاية في تقرير الانماط الثقافية العامة .

واذا كان التحديد الذي تخضع له الاستجابات الممكنة بسيطا ، فان التباين في التفاصيل بين الثقافات التي لا تقوم بينها علاقات متبادلة قد يكون كبيرا جدا . ويصدق هذا حتى على السمات التي تقترن بعوامل اساسية عامة كالدافع او المنبه المشترك او اي عامل عام آخر . فالمجتمعات ، مثلا ، تتشابه في ان لكل منها لغته ومفرداته الخاصة ، ولكن المجموعات الصوتية للكلمات الدالة على اية ظاهرة عامة مثل الماء او المشي او المرأة تتباين تباينا شديدا من شعب لآخر . وكذلك الامر بالنسبة للقصص الشعبية والاشياء المحرمة والطقوس والشعائر ، فهي ايضا متنوعة ومتباينة في تفصيلاتها . واذا وجدت مشابه معينة فانه يمكن ، في اغلب الحالات ، عزوها الى وجود صلات تاريخية بين الشعوب ذات العلاقة .

وفي بعض الحالات يزداد التحديد ضيقا حتى ان الاستجابات المحتملة

يمكن حصرها في قائمة قصيرة . ففي كل مجتمع ينتمي الطفل الى جماعة من الاقرباء وفق نظام معين من النسب ،ونحن لا نعرف سوى ثلاثة امكانات لهذا النظام هي : الانتماء الى خط نسب الاب ، او الى خط نسب الام ، او الى الاثنين معا .وكل ثقافة تعتمد واحدا من هذه الانظمة الثلاثة او تجمع بين اثنين كأن تجعل الانتساب الى الام او الاب اختياريا او بالتناوب او تجمع بين النسبين . ويلاحظ ايضا ان كل ثقافة طورت نظاما خاصا للتخلص من جثث الموتى . غير ان الطرق العملية التي يمكن اتباعها للتخلص من الجثث محدودة ، واهمها هي : هجر مكان الموت ، وترك الجثة لتفترسها الوحوش الضارية والطيور الكاسرة ، والدفن في التراب او الصخر ، والالقاء في البحر او النهر ، والتعليق على شجرة او مشنقة ، والحرق ، والتحنيط او التصبير . ومن المتوقع في حالات كثيرة كهذه ، ان تهتدي شعوب مختلفة ــ بما في ذلك الشعوب التي لا تربط بينها علاقات تاريخية ــ الى حلول متماثلة لذات المشكلة .

وثمة حالات يضيق فيها مجال الامكانات المتوافرة الى اقصى حد ممكن ، وبذلك يقتصر عدد الاستجابات العملية او المرضية على استجابة واحدة فقط . وفي حالات كهذه لا يقتصر التشابه على النمط او التركيب فقط ، بل يتناول المحتوى ايضا . ويتضاءل التفاوت حتى يبلغ ادناه . ولعل التنظيم العائلي هو ابرز مثال على هذه الظاهرة .

وهناك اشكال متنوعة من الانظمة العائلية المعقدة كالعائلة الموسعة او العائلة التي تقوم على تعدد الزوجات للرجل الواحد . وعلى الرغم من هذا التنوع نلاحظ ان جميع المجتمعات المعروفة تلتقي في شكل اساسي واحد هو نظام العائلة المحورية التي تتألف من اب وام واطفالهما .[٢] وقد

(٢) هذه الملاحظات عن التنظيم العائلي تستند الى تحليل دقيق اجري على ٢٢٠ مجتمعا في سياق دراستنا للعلاقة بين السلوك الجنسي والتركيب الاجتماعي . وقد حال نشوب الحرب العالمية الثانية دون استكمال هذه الدراسة .

تكون هذه العائلة المحورية منفصلة ومستقلة كما هي الحال في المجتمعات الغربية . وفي حالات معينة قد تكون هذه الوحدة معقدة بسبب ضم اقرباء آخرين اليها . وفي حالات اخرى قد تشكل وحدة متميزة ضمن مجموعة اجتماعية اكبر وأكثر تعقيدا . فالعائلات الموسعة ، مثلا ، تتألف عادة من عدد من العائلات المحورية التي ترتبط بعلاقات النسب المشترك . اما العائلة التي تقوم على تعدد الزوجات للرجل الواحد ، فانها في الواقع تتألف من عدة عائلات محورية يلعب فيها ذات الرجل دور الاب في كل حالة . ويختلف الانسان عن الكثير من الحيوانات الدنيا في ان الاب يكون دائما عضوا في العائلة البشرية . ولعل هذه الظاهرة تعود الى ان التربية هي احدى الوظائف الاساسية للعائلة وان الرجل فقط هو الذي يستطيع تدريب الطفل الذكر على المهارات الثقافية التي يحتاجها الرجال .

وفي جميع المجتمعات تتشكل العائلة المحورية نتيجة للزواج ،وتتميز العلاقة بين اعضائها الراشدين بتوزيع العمل بحسب الجنس . أما الاتصال الجنسي فيحلل دائما بين الاب والام ، ولكنه يحرم في جميع المجتمعات بين الاب وابنته ، والام وابنها ، والاخ واخته . وقد تكون هناك حالات شاذة ، كالسماح بالزواج بالمحارم في بعض السلالات الحاكمة، ولكن مثل هذه الحالات لا تشمل ابدا مجتمعا كاملا ، وانما تقتصر على فئات صغيرة تتمتع بوضع خاص . وتشكل العائلة المحورية دائما وحدة اقتصادية ، وتعهد اليها في جميع المجتمعات وظيفة رعاية الاطفال وتنشئتهم اجتماعيا وتربيتهم في المراحل الاولى من حياتهم . وقد تؤدي العائلة ، في مجتمعات معينة ، وظائف اخرى ، ولكن جميع الدلائل التاريخية والعرقية تشير الى ان العائلة كانت ولا تزال المحور الذي تدور حوله العلاقات الجنسية والاقتصادية والتناسلية والتربوية التي اشرنا اليها آنفا . هذا وان اتفاق المجتمعات في هذا السلوك ظاهرة تستلفت النظر حقا ، لا سيما وان الاستجابات تتنوع وتتباين من مجتمع لآخر في المجالات الثقافية

الاخرى .

اما تفسير هذه الظاهرة فليس بعيد المنال . فدافع الجنس يفسر عملية الاتصال الجنسي كما يفسر ، بصورة غير مباشرة ، عملية التناسل . هذا وان الرغبة في ارضاء الدافع الجنسي تكسب العلاقة الجنسية شيئا من الدوام ، على اضعف تقدير . وخلال هذه المدة تتاح الفرصة لمزايا توزيع العمل لان تظهر بوضوح للشريكين . والفوارق الجنسية الاساسية هي التي تتحكم في توزيع اوجه النشاط الاقتصادي ، كما ان المكافآت الاقتصادية تقوم بدورها بتعزيز العلاقة الجنسية . وحين يولد الاطفال في وسط كهذا يضطرون الى ملازمة امهم بسبب حاجتهم الى الرضاعة . ومن الطبيعي ان تتولى الام وشريكها الاقتصادي والجنسي مهمة رعاية الاطفال وتدريبهم . وبهذه الطريقة يكتسب الوالدان دوافع جديدة تساعدهما على اداء وظائفهما .

ويلاحظ ان الاستجابات الاولية ، في جميع مراحل هذا التطور ، ممكنة وميسورة بحيث يمكن توقع ظهورها في اي مجتمع . ونلاحظ ايضا ان عوامل الدافع والمنبه والظروف المحيطة تحدد كثيرا مجال الامكانات البديلة . ثم ان نظام العلاقات المتداخلة يزود الافراد بمكافآت فعالة من شأنها ان تحل الكثير من المشكلات التي تنطوي على اهمية حيوية بالنسبة للمجتمع . ومن الطبيعي ، والحالة هذه ، ان تنزع الاستجابات الاولى الى الثبات والدوام . والجدير بالذكر ان الانسان لم يكتشف بعد بديلا مناسبا عن النظام العائلي ، وان جميع المحاولات التي بذلها انصار النظم الاجتماعية المثالية لالغائه قد اخفقت اخفاقا ذريعا .

غير ان العلماء لم ينجحوا في تقديم تفسير مناسب لظاهرة تحريم الزواج بالمحارم ، وهي خاصة عامة ترتبط ارتباطا وثيقا بالتنظيم العائلي . وتقدم لنا السيكلوجيا الفرويدية ارشادات توجيهية افضل من غيرها ، ولكن المشكلة معقدة جدا بحيث لا يتسع المجال لمعالجتها في هذا المقال .

ومن الطريف ان نذكر ان فرويد اختار هذا النمط الثقافي العام ـ اي العائلة ـ ليكون منطلقا لبناء نظامه النظري بأسره . فهو عكس الترتيب العلمي المألوف الذي ينطلق من علم النفس باعتباره اساسا لبحث العلوم الاجتماعية . فقد بنى فرويد سيكلوجيته على اساس حقيقة ثقافية ، هذا مع العلم بأنه استعمل مصطلحات النظرية القائمة على الغرائز . وفي حين يعتمد العلماء السلوكيون في المقام الاول على آلية التعلم الموروثة من اجل تفسير السلوك ، نلاحظ ان العلماء الفرويديين يتطلعون الى ظروف التعلم ، وبخاصة نظام العلاقات العائلية حيث يمر الانسان ، في جميع المجتمعات ، بالمراحل الاولى من عملية التعلم . ومن المفروض ان كلا الاتجاهين في المعالجة سليم . ومما لا شك فيه ان علم النفس سيعمل في المستقبل على تحقيق الدمج بين الاتجاهين .(٣)

ولا يتسع المجال في هذا المقال القصير لاجراء تحليل كامل للانماط الثقافية العامة او لتقديم عرض شامل للعوامل التي تستند اليها كل فئة من هذه الانماط . فالهدف الاول للمقال هو بيان الخطوط العريضة التي يمكن انتهاجها عند اجراء التحليل وعرض بعض الامثلة الايضاحية . ومجمل القول هو اننا يجب ان نتحرى المقام المشترك للثقافات في العوامل التي تتحكم في اكتساب جميع مظاهر السلوك العادي ، بما في ذلك المظاهر

(٣) استمد الكاتب معرفته بالسيكلوجيا الفرويدية من خبرته بالتحليل ومن اطلاعه على الكتب والابحاث التي نشرت في هذا الموضوع . وهو يتنبأ بان الاتجاه السلوكي سترجح كفته في عملية التركيب بسبب طرقه العلمية الدقيقة والصارمة . غير ان الاتجاه السلوكي يجب أن يأخذ بعين الاعتبار ظروف التعلم الانساني ليس في ضوء اسهام فرويد القيم فحسب ، بل ايضا في ضوء الدراسات الانثربولوجية وابحاثها الفريدة في ميدان العلاقات الثقافية بين الشعوب . وقد تمت ترجمة بعض المصطلحات الفرويدية ـ مثل الكبت والنكوص ودمج الذات والابراز ـ الى مصطلحات سلوكية مناسبة . وستحافظ الطرق العلاجية والعيادية في التحليل النفسي على قيمتها . اما محاولات فرويد في ميدان التفسيرات الثقافية فمصيرها الاهمال والنسيان ، وهذا ما حدث فعلا في المدة الاخيرة .

المشتركة للسلوك الاجتماعي . ولعل اهم هذه المظاهر هي تلك التي تتصل اتصالا مباشرا بالمكافآت التي تأتي في اعقاب الاستجابات السلوكية. واذا ثبتت صحة النتائج التي توصلنا اليها ، فاننا بذلك نكون قد اضفنا لبنة الى الصرح العلمي الجديد الذي ينتظر ان يجمع بين النظريات السيكلوجية والانثربولوجية في علم واحد موسع يعالج السلوك الانساني من جميع جوانبه .

عمليّات التغيّر الثقافي

ملفيل ج . هيرسكوفتز

التغير ظاهرة تشمل جميع المجتمعات : الصغيرة منها والكبيرة ، والمنعزلة منها والمنفتحة . وقد تكون التجهيزات التكنولوجية لاحد المجتمعات بسيطة غاية في البساطة ، وقد يتسم هذا المجتمع بولاء وتمسك شديدين لطريقته في الحياة . وعلى الرغم من ذلك ، فانه يتعرض للتغير جيلا بعد جيل ، وما ذلك الا لان اعضاءه دائبون على البحث عن افكار جديدة يتبنونها ، او مبادىء جديدة ينحازون اليها ، أو اساليب جديدة يطبقونها . فما من ثقافة حية تظل ساكنة او مجمدة .

وما اكثر البينات التي تقيم الدليل على شيوع ظاهرة التغير الثقافي . وتتخذ هذه البينات اشكالا متنوعة ، مثل التحليل الموضوعي للتباين المحلي في العادات عند المجتمعات التي يمثل كل منها اتجاها ثقافيا واحدا ، او الاقوال التي نسمعها من شيوخ اي مجتمع عن اوضاع الماضي . وقد توافرت لنا بينات من النوع الثاني نتيجة للدراسات الكثيرة التي اجراها الباحثون على جماعات امية منعزلة ، اذ كثيرا ما أسرّ اليهم الشيوخ في هذه الجماعات انهم غير راضين عن تصرفات ابناء الجيل الجديد . ومن الشكاوى الدارجة على السن الشيوخ في معظم هذه الجماعات : « عندما كنا شبابا ، كانت الاوضاع تختلف عما هي الآن . فابناء جيلنا كانوا يحترمون شيوخهم ويعرفون التقوى ويعبدون الآلهة . أما اليوم فقد

تغير كل شيء ، فابناء الجيل الجديد يعرضون عن تعلم تقاليدهم او اتباعها » . وقد تبدو هذه التغيرات للمراقب الغريب طفيفة حقا ، اذ قد تقتصر احيانا على ادخال رقصة جديدة او صيغة معدلة او تنويع في الازياء القبلية المعتمدة .

وكذلك الحال بالنسبة للدراسات المقارنة التي اجريت على فئات محلية تنتمي الى شعب واحد ، فهذه ايضا تقيم الدليل على شيوع ظاهرة التغير الثقافي . ومن الامثلة البارزة على ذلك البحث الذي نشره بواس[1] قبل عدة سنوات ، هذا مع العلم بان هذا العالم الانثربولوجي الامريكي كان معنيا بمشكلة نظرية مختلفة . عالج بواس في بحثه التصاميم المختلفة للمأبرة التي تستعملها قبائل الاسكيمو ، وهي عبارة عن علبة مصنوعة من العاج المتحجر ينتهي كل من طرفيها العلويين بنتوء ليتسنى ربطها بخيط وشدها الى زنار صاحبها . ولاحظ بواس ان هذه التصاميم تتباين عند الاسكيمو من فئة لاخرى ، كما انها تتباين ضمن الفئة الواحدة بسبب اختلاف اذواق الصناع الذين ينحتونها ويزخرفونها . ان هذا التباين في التعبير الجمالي الذي نجده في المجتمعات الصغيرة والمنعزلة من شأنه ان يكون اوسع واوضح في المجتمعات التي تكون اقل تمسكا بتقاليدها من مجتمع الاسكيمو . ويكتسب المثال الذي اوردناه عن قبائل الاسكيمو اهمية خاصة نظرا لان خشونة الاحوال القطبية تتضافر مع عوامل اخرى على تشجيع هذه القبائل على التمسك بشدة بجميع مظاهر طريقة حياتها التي ثبتت فاعليتها ومناسبتها .

ونحن اذ نقر بشيوع التغير الثقافي واهمية تحليله ، يجب الا يغيب عن بالنا ان هذه الظاهرة ، مثلها كمثل الظاهرات الثقافية الاخرى ، لا يمكن فصلها عن اطارها الثقافي او بحثها بمعزل عن ظاهرة الاستقرار الثقافي .

---

(١) «Decorative Designs of Alaskan Needle-Cases», «Proceedings, U.S. National Museum», XXXIV (1905), 321-44.

ولهذا السبب لا يمكن لاي بحث في التغير الثقافي ان يكون ذا معنى الا اذا اقترن بمشكلة الاستقرار الثقافي . وفي كل ثقافة هناك علاقة بين ظاهرتي التغير والاستقرار الثقافي ، كما ان كلتا الظاهرتين تعتمد على درجة التجرد عند المراقب الذي يقوّم استقرار مجموعة معينة من العادات او التغيرات التي تقع ضمنها . فكما ان التغيرات الطفيفة تثير موجة من الاستياء والتشاؤم في اوساط الشيوخ ، كذلك الحال بالنسبة للذين تربطهم علاقة وثيقة وطويلة بثقافة معينة ، فانهم ينزعون الى النظر الى الابعاد الحقيقية لثقافتهم بمنظار ضيق محدود . ولهذا كان من العسير على اعضاء اي مجتمع ان يقوّموا التغيرات المهمة التي تقع في ثقافتهم . والعكس صحيح ، اي انه يصعب على الدارس المدرب ، لدى احتكاكه لاول مرة بثقافة غير ثقافته ، ان يدرك انعكاس التغيرات الجارية على السلوك الفردي .

وهكذا يمكن القول ان من اهم الجوانب المحيرة للدراسة الثقافية هو تأمل العوامل التي تسهم في الابقاء على المؤسسات البشرية او في تغييرها . فاذا نظرنا الى ثقافات البشر في لحظة معينة ، بدا لنا انها تمثل عدداً لا حصر له من الانماط المختلفة . غير اننا اذا دققنا النظر ، تبين لنا ان هذه الانماط الكثيرة انما هي صور منوعة ومعقدة لعدد محدود من العناصر الاساسية التي تتألف منها وحدات الثقافة والخبرة الانسانية . وتشمل هذه الوحدات تلبية الطلبات الجسمية للكائن البشري ، وتأمين بقاء الجماعة ، وتحقيق النظام المعتمد للحياة ، وارضاء الدوافع الجمالية — وهذه كلها الوان من النشاط يقوم بها الانسان بمعونة اللغة التي يستعملها وسيلة للاتصال والتفاهم .

ومهما تعددت المؤسسات التي تنظم حياة المجتمع ومهما تنوعت القوى الاجتماعية والثقافية التي تؤثر في الفرد وتتحكم في مواهبه ، فانها تتخذ اشكالها ضمن نطاق الحدود التي ترسمها هذه الجوانب العامة

للثقافة . وقد لاحظ البعض ، بما اوتي من بصيرة نافذة ، ان هذه الجوانب يمكن النظر اليها كما لو انها قائمة محتويات في اي كتاب يبحث في حضارة معينة . ومما لا ريب فيه ان اي وصف لحضارة اي مجتمع لا يمكن ان يفي بالغرض ، وبالتالي لايمكن ان يقدم للقارىء صورة واضحة عن هذه الحضارة ، ما لم يتناول جميع هذه الجوانب بالبحث . ولذا يجب ألا تغرب عن بالنا في اية لحظة الخلفية الاجتماعية والسيكلوجية التي يحدث التغير الثقافي في ظلها ، وبذلك نضمن ان تكون نظرتنا سديدة ونتائجنا صائبة .

ويمكن القول ، بوجه عام ، ان الجدل الذي ثار حول الطرق التاريخية وغير التاريخية المتبعة في دراسة الحياة الاجتماعية قد نشأ ، في المقام الاول ، من التعارض الذي يحدث في الثقافات بين النزعة الى المحافظة والنزعة الى التغير . ويرتبط هذا الجدل ، كما بين بنت[٢] ، بالاتجاه الى التشديد على النظرة الانتقائية ، وهو اتجاه ربما تأثر بالتصنيف الذي اقترحه جولدنفايسر لدراسة المجتمع.[٣] ومن الواضح ان كل ثقافة سوية تمثل وحدة متكاملة فيها من الاستقرار ما يمكن انماطها من الاستمرار في الظهور باشكال قابلة للتمييز ، وذلك على الرغم من اختلاف الاشخاص الذين يتناقلونها عبر الاجيال . ولكن هذا التكامل لا يحول دون النزعة الدائمة الى اضافة بعض العناصر الجديدة الى مجموعة معينة من التقاليد ، او اهمال بعض العناصر الموروثة . فلكل مجتمع سوي ثقافة شديدة التماسك بحيث تدفعه الى مقاومة المحاولات التي تبذل لطمس هويته ، وهو لا يستسلم لها الا اذا عانى من ظروف شديدة

---

(٢) J. Bennett, «The Development of Ethnological Theory as Illustrated by Studies of the Plains Sun Dance», «American Anthropologist, XLVI (1944), 162-81.

(٣) A.A. Goldenweiser, «History, Psychology and Culture : a Set of Categories for an Introduction to Social Science», «History, Psychology and Culture» (New York, 1933), pp. 5-32.

الوطأة يتعذر عليه احتمالها . واذا ما استسلم المجتمع لمثل هذه المحاولات، فانه يتعرض لانحلال خلقي يستمر حتى ينقرض او ينجح في اعادة تحقيق تكامله الثقافي .

وتجدد الميل ، في السنوات الاخيرة ، الى اعادة النظر في اهمية ايفاء الماضي حقه الكامل في دراسة الثقافة . والمشكلة الاساسية تتصل بالطريقة، وبخاصة في الحالات التي تنشأ فيها الحاجة الى استنباط اسلوب يمكننا من تحري الجوانب المهمة في تاريخ الشعوب الامية التي لا نملك مدونات تاريخية عن ماضيها . ولا بد من معالجة هذه المشكلة في ضوء طبيعة الاسئلة التي تطرح حول احداث تاريخية معينة ، نظرا لان التحليل يجب ، في كل حالة ، ان يساير السؤال المطروح . ونحن نعلم اننا ، في بعض الحالات ، لا نستطيع الاهتداء الى اجابات مقنعة عن الاسئلة التي نثيرها . فمن الواضح للجميع ، مثلا ، اننا لا نستطيع اكتشاف حقائق تاريخية معينة مثل الاصول الاولى للعائلة او اللغة ، وان اي بحث نجريه في هذا المجال لن يعود علينا باية فائدة ايجابية . ولا شك في ان بداية ظاهرة مثل ظاهرة العائلة او اللغة كانت حادثا معينا تحدده ابعاد زمانية ومكانية ، ولكننا لا نملك سجلات تاريخية ــ حتى ولا ارخلوجية ــ عن هذا الحادث، ومن الطبيعي ، والحالة هذه ، ان يتعذر علينا استقصاؤه تاريخيا . ويصدق هذا القول حتى على الحالات التي نشأت فيها مثل هذه الظاهرة من اصول متعددة او من عدد من البدايات المستقلة . وكل ما نستطيع ان نثبته في هذه الحالة هو ان مثل هذه الظاهرات لا بد انها نشأت أصلا في عهد طفولة الانسان على الارض ، وانها تمثل خبرات بشرية عامة وانها يجب ان تدرس في ضوء اشكالها الحالية المتباينة . اما من الناحية التاريخية، فلا تمكن دراستها الا بشكل ابتر وضمن الحدود التي تجيزها المدونات التاريخيــة .

وينطبق ما ذكرناه في الفقرة السابقة ـ ولكن على درجة اضعف ـ على ظاهرات اخرى في تطور الثقافة البشرية تعود بداياتها الى عهود اقل ايغالا في القدم من ظاهرتي اللغة والعائلة . ومن الامثلة على هذه الظاهرات نشأة الزراعة واكتشاف طريقة صنع الادوات الحديدية ونشأة صناعة الفخار ، فكل محاولة لتحديد هذه الحوادث تحديدا زمانيا او مكانيا دقيقا تؤدي الى جدل كثير ، هذا مع العلم باننا قد ننجح احيانا في اعطاء فكرة عامة تقريبية عن مكان او زمان نشأة هذه الظاهرات . واذا بدا لنا ان نتوسع في البحث او ان نسعى الى التحقق من الظروف التي وقعت فيها هذه الحوادث او الى معرفة الشعوب المسؤولة عن وقوعها ، فان النتائج التي نتوصل اليها تكون ايضا على صعيد الفرضيات التي لا تستند الى براهين موضوعية . وسبب ذلك هو ان البيانات التي نعتمد عليها لا تمدنا الا بأدلة قليلة على الاثر المحتمل لهذه الحوادث في الشعوب التي خبرتها . ومهما يكن من شيء فاننا نستطيع ، من خلال النظر الى خط التطور الطويل عبر العصور التاريخية الغابرة ، نستطيع ان ندرك عمليات التغير التي شقت طريقها الى مجموعة الموارد الثقافية البشرية ، هذا مع العلم باننا لا نستطيع اعطاء فكرة تفصيلية عنها .

والطريقة الرئيسية المتبعة في دراسة المجتمعات الامية الموجودة حاليا تقوم على الافتراض القائل بان الثقافة دينامية وانها بالتالي عرضة للتغير المستمر . ويمكن تمييز التغيرات الثقافية من خلال النظر الى الاشكال المختلفة التي اتخذها عنصر واحد في الثقافة المادية لقبائل تسكن في منطقة معينة ، او بملاحظة التنوع في مظهر واحد من مظاهر البنيان الاجتماعي او الطقوس الدينية المعقدة او الاساليب الفنية . ويلاحظ اليوم ان الشعوب تكثر من الاقتباس بعضها عن البعض الآخر . ولذا يتوقع من الباحث الحريص الذي يقابل بين العناصر الموجودة فعلا في الثقافات الحالية ان يحقق هدفين في آن واحد . فهو يؤكد ، من جهة ،

واقع الاحتكاك التاريخي عن طريق اثبات اوجه الشبه التي يستبعد احتمال نشوئها من اصول مستقلة . ومن جهة اخرى يستطيع هذا الباحث ان يلقي ضوءا على عمليات التغير الثقافي ، وذلك من خلال دراسته للاشكال والمعاني المختلفة الذي يتخذها عنصر مشترك في اطار مجموعة التقاليد التي يشكل هذا العنصر جزءا منها .

وخلال الربع الاول من القرن الحالي عكف الباحثون الانثربولوجيون على جمع الوثائق التي يحتاجون اليها من اجل اثبات ظاهرة الاقتباس بين الثقافات المختلفة . ومن الطريف ان نلاحظ ان العامل التاريخي ، من وجهة نظر تاريخ الطريقة الانثربولوجية ، احتل مكان الصدارة حتى في المحاولات المبذولة لاثبات ظاهرة الانتشار الثقافي الناجمة عن الاحتكاك بين الشعوب . ويعود ذلك الى ان هؤلاء الباحثين كانوا يدركون جيدا اهمية البيانات التاريخية في فهم العوامل الثقافية الدينامية . ويلاحظ ان الابحاث الخاصة التي تقترن باسماء بواس(٤) ونوردنسكيولد(٥) وكروبر(٦) وسبير(٧) وغيرهم من الباحثين قد اصبحت من المراجع الدارجة الاستعمال في الاوساط الاكاديمية . فبعثة جيسوب الدراسية اجرت سلسلة من الابحاث الميدانية في المنطقة الساحلية الغربية من امريكا الشمالية والمنطقة الساحلية الشرقية من سيبريا واثبتت ان مضيق برنج كان احد الجسور التي ساعدت على ايجاد علاقات تاريخية بين المنطقتين.

(٤) F. Boas, «The Jessup North Pacific Expedition», Verb. des VII Int. «Geographen-Kongresses in Berlin» (1899), pp. 678-85.

(٥) E. Nordenskiöld, «Comparative Ethnographic Studies», Nos. 1-6. (Gothenburg, 1919-26).

(٦) A.L. Kroeber, «Anthropology» (New York, 1923).

(٧) L. Spier, «The Sun Dance of the Plains Indians, Its Development and Diffusion», «Anthropological Paper, Am. Mus. Nat. History», XVI (1921).

واثبتت الدراسات العرقية المقارنة التي اجراها نوردنسكيولد قيام اتصالات واسعة النطاق بين الشعوب التي سكنت امريكا الجنوبية . وكذلك الحال بالنسبة للابحاث المركزة التي اجراها كروبر في غرب كاليفورنيا والابحاث التركيبية التي اجراها سبير على رقصة الشمس في منطقة السهول ، فهذه ايضا تقيم الدليل على شيوع ظاهرة الانتشار الثقافي . غير ان القيمة الكبرى لهذه الدراسات تكمن في انها زودتنا ببيانات ممتازة عن الخطوات التي مرت بها عمليات الاقتباس .

ومن الضروري هنا ان نمايز بين نظريات هؤلاء الباحثين ومناهجهم من جهة ، وبين الطرق والاساليب الاخرى التي اتجهت ايضا اتجاها « تاريخيا » من جهة اخرى . فالدراسات التوزيعية التي اجراها هؤلاء الباحثون تمتاز بالخاصتين الآتيتين : فهي اولا تقوم على الطريقة التجريبية، اي انها تنطلق من البيانات والمعطيات المتوافرة وتستخلص نتائجها منها ، ثم هي تعنى بدراسة ظاهرات ثقافية معينة في مناطق محددة . ولذا يمكن القول انها تختلف اختلافا بينا عن المدرستين التوزيعيتين ، الانجليزية والالمانية ، اللتين انصب اهتمامهما على اجراء استقصاء شامل لظاهرة الانتشار الثقافي المرتبطة بظاهرة الاتصال بين الشعوب ، وذلك استنادا الى افتراضات مسبقة . وكلتا المدرستين تفترض وجود نزعة شديدة الى المحافظة وتعتبر هذه النزعة من الامور المسلم بها . ومن الافتراضات الاساسية الاخرى التي اعتمدت عليها هاتان المدرستان الاعتقاد بان اي عنصر ثقافي معين (او اية مجموعة من السمات الثقافية) يمكن ان يحافظ على هويته خلال انتقاله من شعب لآخر في الاجزاء الرئيسية المأهولة من العالم . ومع ان انصار هاتين المدرستين قلما يشيرون الى هذا الافتراض صراحة ، فان النظم التحليلية التي وضعوها لا يمكن ان تستند الى اسس منطقية سليمة الا اذا سلمنا مسبقا بصحته .

ولنبين الآن بايجاز موقف كل من هاتين المدرستين على حدة . تزعم المدرسة الانجليزية التي نادت بمبدأ الانتشار الثقافي العالمان الانجليزيان ج . اليوت ــ سمث و و . ج . بري[٨] . وذاعت شهرة هذه المدرسة في العقد الثالث من القرن العشرين ، ولكنها لم تصمد للانتقادات الكثيرة التي وجهت اليها ، وهي اليوم مجرد طرفة اكاديمية لا تنطوي على اية فائدة عملية . اما مؤسسها ، اليوت ــ سمث ، فكان عالما مختصا بالتشريح، وقد اجرى دراسات علمية على جماجم المومياءات المصرية ، واعجب بالحضارة المصرية القديمة ايما اعجاب حتى انه اعتقد انها المصدر الاصلي الذي نشأت منه الحضارات العالمية الاخرى . وترى نظريته ان الحضارات العالمية الاخرى اقتبست عن الحضارة المصرية الاعتقاد بان الحكام هم « ابناء الشمس » ، والنصب الحجرية الضخمة ، واهمية الذهب واللؤلؤ ، والتحنيط ، والاهرام ، وغير ذلك من المعالم الحضارية الكثيرة. وبموجب هذه النظرية انتقلت معالم الحضارة المصرية القديمة الى الهند والشرق الاقصى ، ثم عبرت المحيط الهادي الى الامريكيتين ، وانتشرت كذلك في الاجزاء الشمالية والشمالية الغربية من القارة الافريقية ومنها انتقلت الى اوروبا حيث واصلت انتشارها حتى بلغت بريطانيا واسكندنافيا. اما الاعمدة المنقوشة والهياكل المشيدة على الاهرام التي تعود الى حضارة قبائل المايا في المكسيك ، وبقايا الاجسام المحنطة التي وجدت في بيرو ، والمتاريس الرملية التي عثر عليها في الوديان في ولايتي مسيسيبي واوهايو، فهذه كلها وصفت بانها تعبيرات عن حضارة راقية نشأت في الاصل في مصر القديمة ثم انتشرت في ارجاء العالم باشكالها المميزة واسهمت في نقل المجتمعات التي تأثرت بها من طور الانسان « جامع الطعام » الى طور الانسان المتحضر .

---

(٨) G. Elliot-Smith, «The Migrations of Early Culture» (Manchester, 1915); W.J. Perry, «The Children of the Sun» (New York, 1923).

اما النظرية التي نادت بها المدرسة « الثقافية ـ التاريخية » في المانيا والنمسا فهي ابعد ما تكون عن السذاجة. وتستند هذه النظرية الى الفرضيات الاصلية التي وضعها فرتز جرايبنر [٩] وزميله و . فوي وطورها الاب و . شمدت[١٠] ، وهي اليوم احدى النظريات البارزة في الابحاث الاثنولوجية التي تجرى في اوروبا الوسطى . ولا يفترض انصار هذه المدرسة وجود مصدر اصلي واحد للحضارات المختلفة ، انما يفترضون وجود سلسلة من « الحلقات الثقافية » التي تمثل ظاهرات تحددها علاقات زمانية ومكانية في آن واحد . فكل حلقة تتميز بمركب ثقافي يتألف من سلسلة من السمات غير المترابطة ويمكن بالتالي اخضاعها لما يعرف بمعايير « الشكل » و « الكم » من اجل التثبت من العلاقات التاريخية التي افترض وجودها في اجزاء مختلفة من العالم . ويسلم أصحاب هذه النظرية انه من المرغوب فيه اثبات الطريق التي تمت بوساطتها عملية الانتشار الثقافي ، ولكنهم يعتقدون ان ذلك ليس امرا لا غنى عنه . فاذا وجد ذات المركب الثقافي في مناطق متباعدة جغرافيا ، فمن المفروض ان يكون هذا المركب المشترك دليلا على حدوث اتصال تاريخي في الماضي .

ان اعادة بناء مثل هذه الافتراضات التاريخية على هذا النطاق الواسع يمكن انتقادها من زوايا كثيرة . فالاسلوب الوحيد الذي به نستطيع جمع البراهين هو الطريقة المقارنة التي تهمل العامل السيكلوجي، على الرغم من اهميته الحيوية في صوغ الثقافة . اضف الى ذلك ان « مركبات » هذه الانظمة لا تكون مترابطة الا في اذهان الباحثين ، وليس في فكر او سلوك الشعوب صاحبة الثقافات قيد الدراسة . ويتضح مما

(٩) «Methode der Ethnologie» (Heidelberg, 1911).

(١٠) «The Culture Historical Method of Ethnology» (New York, 1939).

تقدم ان الافتراض بان مظاهر الثقافة تنتشر في مناطق واسعة من العالـم دون ان تتعرض لتغير كبير هو الذي يميز المدرسة الانجليزية التي تنادي بمبدأ الانتشار الثقافي والمدرسة الثقافية ـ التاريخية الالمانية ويفصلهما عن المدرسة الحديثة التي توجه الدراسات التي تجريها على الانتشـــار الثقافي نحو فهم العمليات الثقافية عن طريق ادلة منتزعة من التاريـــخ الثقافي لمنطقة محددة .

وكان من جراء ردة الفعل ضد هاتين المدرستين في التفكير ان ظهر اتجاه غير تاريخي في طريقة المعالجة . واخذ بعض العلماء يعتقدون ان من المستحيل اعادة البناء التاريخي على اي مستوى ، سواء كانت على نطاق واسع او محصورة في منطقة محددة ، ولذا لم يحبذ هؤلاء العلماء بذل اية محاولة في هذا السبيل . ويمثل هذا الاتجاه خطوة نحو اهمال مشكلات العوامل الدينامية في دراسة الثقافة . غير انه ، من الناحية الايجابية ،يمثل ازدياد وعي البعض لاهمية التركيب الداخلي للتنظيم الاجتماعي واشكاله المختلفة ، وكذلك اهمية العلاقة بين الثقافة واصحابها .

أما الطريقة الرئيسية التي استخدمها انصار هذا الاتجاه فهـي دراسة العلاقة بين الجوانب المختلفة لثقافة معينة وردود فعل كــل منهـا تجـاه الآخـر . فالابحـاث التــي اجراهـا مـالينوسكـي[11] أو فرث[12] أو فورتشن[13] في ميلانيزيا وجزر المحيط الهادي الجنوبي تميزت بتحليل مركز للثقافة المعينة التي عني كل منهم بدراستها ، او بجانب واحد فقط من هذه الثقافة مع الاشارة بكثير من التفصيل الى كيفية تكامل هذا الجانب مع الجوانب الاخرى . ولم ينكر انصار هذا الاتجاه واقع التغير

(١١) B. Malinowski, «Coral Gardens and Their Magic» (New York, 1935).

(١٢) R. Firth, «we, the Tikopia: a Sociological Study of Kinship in Primitive Polynesia» (London, 1936).

(١٣) R. Fortune, «Sorcerers of Dobu» (London, 1932).

الثقافي ، كما انهم لم ينكروا ان حياة المجتمعات تجري على اكثر من صعيد زمني واحد . ولكنهم تجاهلوا هذا النوع من المشكلات ،واغفلوا الاشارة الى الماضي في دراساتهم ، اي انهم لم يعكسوا ذلك الحس التاريخي الذي يدفع الميالين الى التاريخ من دارسي الثقافة الى سبر غور الزمن وادراك التغير التاريخي ، حتى في الحالات التي لا تتوافر لديهم سجلات مكتوبة عن الثقافة التي يتناولونها بالتحليل . وانصب اهتمام هؤلاء الباحثين على تناول ثقافة معينة والتعمق في دراستها حتى تتضح وظيفة كل طور بالنسبة للاطوار الاخرى . ولهذا السبب اطلق مصطلح « الوظيفيون » على الباحثين الذين يجرون هذا النوع من الدراسات .

غير ان هذه الفئة من الباحثين اضطرت الى الاهتمام بظاهرة التغير الثقافي حين انتقلت من تحليل ثقافات مستقرة ومنعزلة الى اجراء ابحاث على المجتمعات الوطنية التي تحتك بالمجتمعات الاوروبية او التي تأثرت بالكثير من العادات والتقاليد الاوروبية . فالطريقة التي طورتها هذه الفئة قد تصلح للتطبيق على الثقافات المستقرة نسبيا ، ولكنها ما كادت تطبق على بعض المجتمعات الافريقية والاوسترالية والميلانيزية التي تأثرت بالحضارة الاوروبية حتى تبين ان التطورات التاريخية مهمة جدا بحيث لا يمكن لغفالها . فاذا جابه الباحث تغيرا ناجما عن اتصال تاريخي معروف ، ادرك في الحال ان لا غنى له عن استخدام طريقة اكثر دينامية في المعالجة . وكلما انهار التكامل بين العناصر الثقافية ، ازدادت الحاجة الى المعالجة التاريخية. ولفهم ما حدث في المجتمعات التي تأثرت بالحضارة الغربية ،كان لا بد من تعيين المنطلق الذي بدأ منه التغير . وهكذا اتضحت ضرورة اعادة البناء التاريخي لحياة الاجيال المنصرمة ،واضطر العلماء الى بحث مشكلة التغير الثقافي بالاضافة الى مشكلة التكامل الثقافي .

ولا يسعنا الا ان نقر بان الاتجاه الى دراسة الثقافة على صعيد غير زمني من اجل فهم التكامل بين جوانبها المختلفة عاد بعدة فوائد على دراسة الثقافة عامة . من هذه الفوائد انه شحذ وعي الكثير من الباحثين لضرورة اعادة النظر في صحة جميع المحاولات التي بذلت لاعادة البناء التاريخي للاحداث الماضية ، سواء وقعت في مناطق معينة ، او في العالم عامة . والطريقة التحليلية التي ينطوي عليها هذا الاتجاه قومت الميل الى التمادي في الاهتمام بالمشكلات المتصلة بدينامية الثقافة ، وذلك بلفت انتباه الباحثين الى ان اية ثقافة ــ رغم انها مفهوم محسوس ــ تمثل في نظر الفرد الذي يعيش في ظلها ظاهرة مركبة دائمة . اضف الى ذلك ان هذا الاتجاه اكد ان وحدة الثقافة تهيىء الفرصة لتحقيق التكامل السيكلوجي وتمثل محورا يلتف حوله افراد المجتمع رجالا ونساء ، كما ان تقاليدها واصولها المرعية تحدد الاتجاهات والقيم التي تضمن تماسك السلوك .

والفرق الرئيس بين المدرسة التي تشدد على الصفة التاريخية الثقافة والمدرسة التي لا تلتزم وجهة النظر التاريخية هو ان الاولى تعنى ، في المقام الاول ، بظاهرة التغير الثقافي ، في حين تعنى الثانية بظاهرة الاستقرار الثقافي فتتخذها اساسا لابحاثها .

وتحدث التغيرات الثقافية نتيجة للتجديدات التي تتسرب الى الثقافة من الداخل او الخارج . فاما التغيرات التي تنشأ من عوامل داخلية فتكون على شكل اختراعات او اكتشافات . واما التغيرات الناجمة عن عوامل خارجية فتعود الى عملية الاقتباس . والمشكلة المهمة ، في كلا الحالين، هي ما اذا كان المجتمع يتقبل العنصر الجديد او يرفضه . فاذا كان مصيره الرفض ، فانه سرعان ما يتوارى عن المسرح . اما اذا صادف قبولا ، فالمهم عندئذ هو ان نقرر ، بقدر الامكان ، العملية التي بها تم قبوله وتمثله في مجموعة العادات القائمة . والمهم ايضا ان نعرف ما اذا

قبل كليه او جزء منه ، وما اذا تعرض هو نفسه للتغير اثناء عملية اندماجه بالثقافة التي احتضنته .

ولم يتمكن العلماء حتى الان من عزل المبادىء التي تتحكم في هذه العملية . ويعود ذلك جزئيا الى انه لا يتوافر لدينا من البيانات ما يكفي لان يكون اساسا لاصدار احكام عامة . ويصدق هذا القول على جميع الثقافات باستثناء الثقافات الغربية وعدد قليل من ثقافات المجتمعات الاخرى التي ترتفع فيها نسبة المتعلمين . وليس من اليسير على الباحث ان يتبين بسهولة عمليات الانتشار الثقافي او الاختراعات او الاكتشافات التي تجري في المجتمعات البدائية والتي يحتاج اليها في اعداد بياناته المقارنة . والاسهام الذي تنفرد به دراسة الاحتكاك الثقافي هو انها تنقل الدارس الى مناطق تكون هدفا لتيارات ثقافية يؤثر كل منها في الاخر . وهنا ايضا تبرز مشكلة السيطرة على عدد كاف من المتغيرات ، اذ ان معظم الاحتكاك الثقافي الحالي يجري بين ثقافات وطنية متنوعة من جهة وبين التقاليد الاوروبية والامريكية من جهة اخرى . ومن الواضح ان تحليل الاحتكاك بين ثقافتين غير اوروبيتين يتضمن تشريح سلسلتين من الاتجاهات غير المألوفة ويشكل بالتالي صعوبات في طرق المعالجة .وهناك مجتمعات بدائية لا تتوافر لدينا عنها سجلات تاريخية . واذا اقتبست هذه المجتمعات عناصر ثقافية بعضها عن البعض الاخر ، فاننا في هذه الحالة يجب ان نلجأ الى الاساليب المتبعة في دراسة الانتشار الثقافي حيث تُقَوَّم الثقافات في منطقة معينة في ضوء المؤسسات المشتركة التي يفترض ان تكون هذه الثقافات قد اقتبستها بعضها عن البعض الاخر ، وذلك بالاشارة الى كيفية تباين هذه المؤسسات من قبيلة لاخرى .

ولا بد لنا ، عند دراسة عمليات التغير الثقافي، من ان نتحقق من الدلالة الحقيقية لبعض المصطلحات التي يتكرر استعمالها ، وبخاصة

مصطلحات مثل « الاكتشاف » و « الاختراع » . وقد بحث دكسون [١٤] بشيء من التفصيل في المشكلة المتصلة بظاهرتي الاكتشاف والاختراع ، وهو يعتقد ان « الهدف » هو العنصر الحاسم في التمييز بين المصطلحين . فاذا عثر احد الاشخاص (اذا جاز لنا هذا التعبير) على ظاهرة موجودة سلفا وكانت هذه الظاهرة خافية على الغير ، فان هذا الحادث يعتبر ، في نظر دكسون ، « اكتشافا » . أما الاختراع فهو يعرفه بانه « اكتشاف هادف » . ويضيف دكسون الى ذلك ان تحقيق الاكتشاف يتطلب توافر ثلاثة شروط : الفرصة المواتية ، والملاحظة و « التقدير المقرون بالخيال » ، وبعبارة اخرى حظ من النبوغ » . اما الاختراع فان الحاجة هي شرط اساسي لتحقيقه . وهو يرى ، كغيره ممن بحثوا هذه المشكلة ،انهاتين لا تنفي الواحدة منهما الاخرى . وكما هي الحال في الظاهرات الثقافية الاخرى ، كثيرا ما تتلاقى الظاهرتان او تندمج الواحدة بالاخرى بحيث يصعب رسم خط واضح دقيق بينهما . وهناك حالات تكون فيها الاختراعات «اتجاهية» . ويعني هذا المصطلح الذي استعمله هاريسون[١٥] أن الاختراعات تنطوي احيانا على تحسينات قد يطرأ عليها انحراف في الشكل أو التركيب قد يساعد على زيادة فاعلية الشيء المخترع في اداء وظيفته .

ويجدر بنا هنا ان نتأمل معنى كلمة « اختراع » ، نظرا لاننا يجب ان نميز دلالتها الفنية عن معناها في الاستعمال الدارج . فالكلمة ، في الاستعمال الدارج ، تعني اختراع شيء جديد لم يكن معروفا من قبل . ويكاد هذا المعنى ينحصر كليا في مجال الثقافة المادية ، حتى ان مفكرا نبيها كدكسون لم يدرك الخطأ المنطقي الذي يترتب على التمييز بين اختراع

---

(١٤) R.B. Dixon, «The Building of Cultures» (New York, 1928).

(١٥) H.S. Harrison, «Inventions; Obtrusive, Directional, and Independent», «Man», XXVI (1926), 74, 117-21.

شيء مادي جيد وبين « اختراع » افكار او مفهومات جديدة عن العالم ، او مصطلح جديد لعلاقات القرابة ، أو نظام جديد للقيم . فالبحث الذي اجراه دكسون عن الاختـراع يقوم ،في جميع الحالات ، على بيـانات استخلصها من دراسة اشياء مادية ، وهو يتجاهل كليا دور مخترع الافكار والمفهومات الجديدة التي تسهم في التغييرات الثقافية في المجتمع . وهناك مخترعون استنبطوا طرقا لضبط نسب العائلة من جهـة الاب او الام ، وآخرون طوروا نظما تصنيفية للمصطلحات الفنية الدالة على علاقـات القرابة ،ومما لا شك فيه ان اثر هؤلاء في مجرى الثقافة البشرية لم يكن اقل من أثر مخترع الزورق او خيمة الجلد او الحذاء المستعمل للسـير على الثلج .

وثمة سؤال آخر يجب ان نطرحه في سياق حديثنا عن مشكلة التغير الثقافي الداخلي، وهو : الى اي حـد يمثل الاختراع استجابـة لحاجة يدركها المجتمع ؟ هناك قول مأثور يعرفه الجميع وهو : « الحاجـة أم الاختراع » . واغلب الظن ان هذا القول لاقى رواجا اكثر مما يستحق . ونذكر بهذه المناسبة ان ثورشتين فبلن كان مولعا بقلب هذه العبارة الى : « الاختراع أم الحاجة » . وقد يبدو ان فبلن فعل ذلك على سـبيل الهزل ، ولكنه في الواقع كان جادا في الموقف الذي اتخذه من المشكلة . ففي العلوم ، كما في الحياة ،يرجـح ان الحقيقة تقع بين النقيضـين . ان الاكتشـافات عرضية ــ هذا ما يوحـيه لنا التعريف الدارج لمصطـلح « اكتشاف » . ولكن من المحتمل في كثير من الحالات ان تؤدي المعالجة او الممارسة العشوائية الى القاء ضوء جديد على الاشياء او الافكار التي تنداولها وكشف النقاب عن وجود علاقات بينها لم تكن معروفة في مجال الخبرة الانسانية . وهذه العلاقات تعود بفوائد كبيرة جدا على الفـرد والجماعة ، حتى ان المجتمع يسارع الى ادراك قيمتها والاقرار بانها من الاشياء التي لا يمكن الاستغناء عنها .

أما الظروف السابقة للاكتشاف او الاختراع فلم تبين الا بعبارات عامة جدا ، وذلك بسبب الصعوبات التي تعترض تحليل هذه المشـــكلة بمزيد من التحديد . وذكر ، على سبيل المثال ، ان التجديد لا يتحقق الا اذا كانت الثقافة مهيأة له ــ اي اذا كانت « قاعدتها الثقافية » واســعة جدا بحيث تيسر وضع التجديد المقترح موضع التطبيق . وهذا التعميم يكاد يكون بديهيا ، وهو واضح جدا في مجال التربية والتعليم .فالطالب الذي اقتصرت دراساته الرياضية السابقة على الحساب لا يتوقع منـــه ان يتقن حساب التفاضل والتكامل . ونحن نذهب الى مدى ابعد من ذلــك فنقول ان اكثر الناس خيالا وابتكارا لا يستطيع استغلال قدرته الابداعية في ميادين لا يعرف عنها شيئا . وتكمن اهمية هذه الحقيقــة في انهــا تساعدنا على فهم السبب الذي من اجله يكون التغيــر الثقافي منتظما . ونستطيع ايضا ، استنادا الى هذه الحقيقة ، ان نفسر لماذا تبدو التغيرات لنا ــ عند معاودة النظر في الاحداث الماضية ــ كمــا لو انها تنبثق من اوضاع تمهيدية سابقة .

ويذهب البعض الى ان أثر الوسط الثقافي قوي جدا حتى انه يملك في ذاته القدرة الحتمية على توليد الاوضاع المناسبة لنشوء الاكتشـــافات والاختراعات . ويقوم هذا الرأي على النظرية القائلة بحتمية التطور في الاتجاه الذي تحدده الثقافة . وبموجب هذه النظرية تتطور ثقافة مجتمع معين من ماضيه التاريخي ، وتتضمن المبادىء الاولى لاتجاهات المستقبل الذي سينكشف على نحو لا يكاد يبـــدو فيه اي دور لارادة الافــراد الذين ينتمون الى هذه الثقافة . وقد يبدو هذا الوصف للنظرية مبالغــا فيه ، ولكنه يمثل النتيجة التي نستخلصها من بعض الدراسات ،كالدراسة التي اجراها أوجبرن وتوماس[١٦] اللذان تبنيا الفرضية القائمة علــى

---

(١٦) W.F. Ogburn and D. Thomas, «Are Inventions Inevitable ? a Note on Social Evolution», «Political Science Quarterly», XXXVII (1922), 83-99.

حتمية التغير الثقافي ودعماها بقائمة طويلة من الاكتشافات والاختراعات التي تحققت في الكثير من الميادين العلمية والتكنولوجية والفنية . واتخذ آخرون موقفا مماثلا فقاموا باجراء تحليلات مفصلة لكيفية استقبال التجديدات في ميادين خاصة من الثقافة الغربية . ومن الامثلة على ذلك الابحاث التي اجراها شترن (١٧) على بعض الاكتشافات الطبية ، والابحاث التي اجراها جلفلان (١٨) على السفن . وتهدف جميع هذه الابحاث الى اثبات الفرضية التالية وهي : لو ان اكتشافا او اختراعا معينا لم يتحقق على يد الشخص او الاشخاص الذين حققوه فعلا ، لدفع منطق الثقافة المتطورة شخصا آخر الى بلوغ النتيجة ذاتها .

ويلاحظ ان هذه النظرية تخفض دور الفرد في الثقافة الى الحد الادنى . فهي تنظر الى الثقافة كما لو انها قوة مستقلة تتحكم في ناقليها بدلا من ان تخضع لسيطرتهم . ولعله من المفيد ان نعيد النظر في الادلة التي قدمها انصار مذهب الحتمية في الثقافة ، وذلك بعد ان تتوافر لدينا وثائق كافية عن ثقافات اخرى غير الثقافات الغربية . ومهما يكن من أمر ، فاننا لا نستطيع تجاهل هذه النظرية ، لان نتائج الابحاث التي اجراها انصارها تزودنا ببراهين موضوعية تثبت ان التجديدات المنسجمة مع القاعدة الثقافية سايرت التيار الثقافي المنطقي بصورة ملحوظة حتى انها اقترنت باسماء أكثر من فرد واحد في الفترة التي تم فيها ادخالها الى الثقافة . وفي الوقت نفسه بينت براهينهم كيف ان هذه التجديدات ، استنادا الى المنطق الثقافي ذاته ، فرضت نفسها نهائيا على الثقافة واصبحت جزءا متكاملا منها ، وذلك على الرغم من انها قوبلت في البدء ، وفي كل مرحلة من مراحل تطورها ، بشيء من المقاومة . ولا يسع المرء اليوم الا ان يتساءل : الى اي حد تخضع

(١٧) B. Stern, «Social Factors in Medical Progress» (New York, 1927).

(١٨) S.C. Gilfillan, «The Sociology of Invention» (Chicago, 1935).

المجتمعات البدائية لاثر القوى الثقافية الحتمية ؟ من المؤسف ان اجابتنا عن هذا السؤال لا تخرج عن نطاق التأمل والافتراض بالنسبة لمنطق التجديد في الثقافات المستقرة حيث التغير لا يلقى تقديرا عاليا ولا مقاومة شديدة في غير محلها .

وقد نجد بعض العون في بحثنا حين ندرس المشكلة المتصلة بتقبل او رفض المجتمع لاختراع او اكتشاف تم تحقيقه . والتفسير الذي يقدم عادة في مثل هذه الحالة هو ان القبول او الرفض يعتمد على مدى مسايرة التجديد للاتجاهات السابقة . ويبدو ان هذا التفسير لا يحتاج الى ايضاح، لا سيما حين نعتبره من الامور البديهية المسلم بها . وهناك بعض الوثائق التي تؤيده ، كالتربينة البخارية التي اكتشفت في الاسكندرية قبل قرون كثيرة . فمن وجهة النظر الالية كان من الممكن التحكم في القوى المولدة من هذه الالية والاستفادة منها عمليا ، ولكنها في الواقع ظلت اشبه باللعبة او الطرفة الاثرية ، وما ذلك الا لانها ظهرت في مجتمع غير صناعي ولم تجد في الثقافة القائمة آنئذ اي متكأ تستطيع الاستناد اليه .

ولنلق الآن نظرة على الاساطير والفنون علّنا نجد فيها أدلة تعيننا على ايضاح هذه المسألة الصعبة . يتمتع الفنانون ورواة القصص في كل ثقافة بخيال خلاق قوي ، ولذا يتوقع منهم ان يسهموا في ادخال تجديدات بعيدة المدى . غير اننا حين ندرس ما ابدعه هؤلاء الفنانون والرواة على مر الاجيال لا نندهش لتوافر الادلة على التجديد بقدر ما نندهش لوحدة الانجاز الكلي . ان مبتدع الاساطير قد يتمتع بسعة الحيلة وبالقدرة على خلق الكائنات الخارقة والحوادث التي تحل بها . غير ان ابداعه يعتمد كثيرا على العناصر والدوافع التي توفرها له بيئته الثقافية ، فتراه يحل العقد التي يخلقها على نحو ينسجم مع الحلول المنتزعة من الحياة اليومية للمجتمع الذي ينتمي اليه ،كما ان القيم التي تعكسها اساطيره هي قيم الشعب الذي يستمع اليها .

ومن المعروف ايضا ان الفنان يتمتع بارادة تدفعه الى ممارسةالفنون التخطيطية والتشكيلية واستنباط طرق جديدة للاستفادة من المواد التي يتعامل بها . والفنان هو مخترع قبل ان يكون اي شيء آخر ، وهو يعي هذه الحقيقة . وهذا ما اثبتته الدراسات المتنوعة التي اجريت على ثقافات مختلفة بقصد التحقق من اتجاهات التجديدات الفنية . ولكن يلاحظ هنا ايضا ان التجديد يساير التقاليد القائمة ، وان التجارب التجديدية تقع عادة ضمن نطاق الحدود المعتمدة . وهذا يفسر لماذا يسهل علينا تمييز الاساليب الفنية الشائعة ليس عند القبائل فحسب بل أيضا عند الفئات التي تتألف منها هذه القبائل ، وذلك على الرغم من التباين الواسع بين النماذج الفردية التي تعكس الأسلوب المحلي . وفي المجتمعات التي تتوافر عنها سجلات تاريخية ، نلاحظ ان الفروق المحلية تمكن ترجمتها الى فروق فنية تميز بين عهدين . ومهما يكن من شيء ، فان التغيرات في الاساليب الفنية ، أيا كان نوعها ، تعكس القدرات الابداعية الفردية للفنانين الذين دفعهم خيالهم الى تطوير اساليبهم في ضوء التقاليد التي نشأوا فيها وضمن حدود العرف السائد في ثقافتهم وعهدهم .

وينطبق الكثير مما قلناه عن الاكتشاف والاختراع على ظاهرة الانتشار الثقافي. وبالنسبة للمجتمعات غير المتعلمة يتعذر في اغلب الاحيان التمييز بين العناصر الثقافية التي تسربت اليها من الخارج وبين العناصر التي نشأت في داخلها . ويتضح من وجهة النظر التجريبية ان كل ثقافة بمفردها اقتبست عن الثقافات الاخرى اشياء اكثر من التي اخترعتها هي بنفسها . والدليل على ذلك الانتشار الواسع لعناصر ثقافية معقدة في مجالات التكنولوجيا والفنون الشعبية والمعتقدات الدينية والمؤسسات الاجتماعية . واذا نظرنا الى عنصر معين او مركب من العناصر الثقافية الواسعة الانتشار ، تبين لنا ان التعبير عنه يختلف من مجتمع لآخر . وهذا ما اثبته سبير في البحث التحليلي الذي اجراه على رقصة الشمس عند

سكان السهول من الهنود الحمر في الولايات المتحدة الامريكية . غير ان كل تعبير محلي فيه من الاجزاء المترابطة ومظاهر توزيع قيمها ووظائفها ما يجعلنا نستبعد ان يكون هذا التعبير قد نشأ نشأة مستقلة عن الثقافات الاخرى .

ومهما تعددت الادلة على ظاهرة الانتشار الثقافي ، فاننا نواجه هنا ايضا ذات المشكلة التي واجهناها عند بحث الاختراعات والاكتشافات . وتتلخص هذه المشكلة في الاسئلة الآتية : لماذا يقبل مجتمع ما بعض التجديدات التي تعرضها ثقافة اجنبية ويرفض البعض الآخر ؟ لماذا يقبل هذا المجتمع احد التجديدات بجميع مقوماته ولا يقبل اخر الا جزئيا ؟ لماذا لا يدخل المجتمع الا تعديلات طفيفة على بعض التجديدات التي يقبلها في حين يدخل تعديلات جذرية على البعض الآخر ؟ ولا حاجة هنا الى الخوض ثانية في الوصف الذي اورده وسلر [١٩] للطريقة التي اتبعها الرواد الاوائل من المستوطنين الامريكيين حين اقتبسوا « مركّب الذرة » بجميع مقوماته عن الهنود الحمر . وليس في نيتنا في هذا المقال ان نسرد ثانية القصص التي رويت عن كيفية انتقال هذا « المركّب الثقافي » الى اوروبا حيث لم يلق الا قبولا جزئيا وحيث تعرض في حالات كثيرة لتغيير يكاد يكون كليا . وحسبنا في هذا المقال ان نشير الى ان المستوطنين الامريكيين الاوائل واجهوا مشكلة التكيف على بيئة جديدة وانهم وجدوا في هذا « المركب الثقافي » وسيلة معينة جاهزة وصالحة للتطبيق ، في حين كان الاوروبيون يعتمدون على طرق زراعية عريقة وعلى نظام اقتصادي راسخ للتموين ، فلم يفسحوا مجالا كبيرا لغزو هذا « العنصر الدخيل » دون ان يجروا عليه التعديلات المناسبة لظروفهم .

---

(١٩) C. Wissler, «The Aboriginal Maize Culture as a Typical Culture-Complex», «American Journal of Sociology», XXI (1916), 656-61.

غير اننا لا نعرف تفاصيل كثيرة عن الطريقة التي بها تم قبول « مركب الذرة » في افريقيا الغربية . كان سكان هذه المنطقة قد اعتادوا منذ مدة طويلة زراعة نبات اليام في صفوف ، ولذا يبدو انهم لم يجدوا صعوبة عملية في الاستعاضة عنه بالذرة . ومهما يكن من شيء ، فانه لم يتضح بعد لماذا لم تصطدم الذرة باية مقاومة في افريقيا الغربية ، في حين اعتبرها سكان اوروبا اقرب الى طعام الحيوانات منها الى طعام الانسان . ومن المعروف ان حبوب سنابل الذرة المغلية تعتبر اليوم من الاطعمة الرئيسية المفضلة في افريقيا الغربية ويمكن شراؤها من القدور في الاسواق الوطنية. ومن الادلة على الاستيعاب التام لهذا العنصر في ثقافة الافريقيين الغربيين ان وجبة الذرة تعتبر تقدمة نموذجية لآلهتهم .

ومن الامور الاساسية في عملية الانتشار الثقافي التعديل الذي يطرأ على العناصر الثقافية المقتبسة خلال انتقالها من شعب لآخر . ولتوضيح هذه النقطة نستشهد بالوصف الذي قدمه هالوول [٢٠] للاشكال المتباينة للشعائر المتصلة بالدببة في نصف الكرة الشمالي. ويعالج هالوول الاشكال الكثيرة لكل من عناصر هذه الشعائر : صيد الدب ، وطريقة مخاطبته ، والاساليب المتبعة في ذبحه ، وكيفية استرضاء روحه ، وطريقة التخلص من بقايا جثته . ومن هذه المجموعة الكبيرة من المعطيات يستطيع الباحث ان يجرد « المقام المشترك الاصغر » للعادات والاصول المرعية بشأن صيد الدب، ونعني بذلك المحور الاساسي الذي تدور حوله عناصر هذا المركب الثقافي . غير اننا لا نتوقع ان نجد تطابقا تاما بين اي ثقافتين في جميع النواحي المتعلقة بدلالة العناصر الثقافية واشكالها وتفسيراتها وتطبيقاتها .

ونجد في الاداب الشعبية امثلة كثيرة على التعديل الذي يقترن

(٢٠) A.I. Hallowell, «Bear Ceremonialism in the Northern Hemisphere», «American Anthropologist» XXVIII (1926), 1-175.

بعملية الانتشار الثقافي . فالقصص الشعبية التي تداولها سكان العالم القديم كانت تنزع الى اعطاء السامع عظات اخلاقية ، في حين لا نجد مثل هذه النزعة عند الهنود الحمر . ومن الطريف والمفيد هنا ان تتتبع المغامرات التي صادفتها الحكاية الاوروبية المعروفة بعنوان « النملة والجندب » في رحلتها في ارجاء مختلفة من العالم . شقت هذه الحكاية طريقها الى قبائل ساوشواب في المناطق الغربية من كندا . ولم تدخل هذه القبائل اي تغيير على الحكاية باستثناء ما يتصل منها بالعظة الاخلاقية التي ، كما نعرف ، تشير الى اهمية الاستفادة من ايام الوفرة والرخاء واتخاذ الاحتياطات اللازمة لليوم الاسود . غير ان الهنود الحمر اضافوا نقطة وجيهة من الناحيتين الفنية والمنطقية . فالقصة ، بالنسبة لقبائل الساوشواب ، تفسر لماذا لا توجد الجنادب في فصل الشتاء . واذا اتيح للمرء أن يتتبع الاشكال المختلفة المتعددة للقصص الهندية الامريكية مثل « زوج السماء » و « الاشتراك في الشمس » و « سلم السهام » ، فانه سيحصل على صورة حية عن ما يطرأ على العناصر الثقافية من تعديل اثناء انتقالها من مجتمع لآخر . وبامكاننا الحصول على فكرة مماثلة اذا تأملنا في قصة « الام هول » للاخوين جريم في المانيا وغيرها من القصص المماثلة وتتبعنا التعديلات التي طرأت عليها عند شعوب اوروبا وافريقيا وآسيا حيث انتشرت حتى بلغت مضارب القبائل الرحالة في سيبريا .

والانتشار الثقافي على هذا النطاق الواسع يقيم الدليل على استعداد الثقافات للترحيب بالتأثير الخارجي . فهو يوضح ــ كما في حالة الاكتشاف والاختراع ــ ميل الثقافة الى التغير . ومهما يكن من شيء ، فان تقبل العناصر الخارجية لا يكون ابدا كليا او شاملا ، فهناك دائما اتجاه الى تعديلها واعطائها تفسيرات جديدة . وهذا يبين اتجاه كل مجموعة من العادات المتوافقة الى التمسك بنمطها الموحد باصرار وعناد . وكلما توثق

الاتصال بين شعبين ، خفت مقاومتهما للاقتباس وقلت حاجتهما الى اعطاء تفسيرات جديدة متباعدة للعناصر المقتبسة. هذه الظاهرة واضحة ،ويمكن التعبير عنها على النحو الآتي : كلما تحددت المنطقة التي تدرس فيها الاشكال التي يتخذها عنصر ثقافي معين ، قل مدى التباين في العناصر المشتركة بين ثقافات المنطقة : وكلما اقترب شعب من ملتقى الحضارات ، ازداد تنوع موارده الثقافية . ومهما يكن من شيء، فان التغيرات تنعكس دائما على العادات التي يألفها المجتمع . ويصدق هذا القول على المجتمعات المنعزلة والمجتمعات التي تتمادى في محافظتها وتمسكها بالقديم ، مثلما يصدق على المجتمعات المنفتحة على العالم او المستعدة لقبول التجديدات الخارجية والداخلية .

ولا بد لكل بحث في التغير الثقافي من ان يعرض للجوانب السيكلوجية والمؤسسات الاجتماعية للمجتمع قيد الدراسة . فمن ناحية المؤسسات الاجتماعية يمكن تحليل الثقافات في ضوء ما يعرف بالانماط السلوكية . ونعني بذلك ان أشكال السلوك المعتمدة التي تنضوي تحت لواء مؤسسات قابلة للوصف الموضوعي تدرس في ضوء التباين في مظاهرها الخارجية . اما الطريقة السيكلوجية في المعالجة فتهدف الى فهم التفاعل بين هذه المؤسسات وبين الافراد الذين ينظمون حياتهم ضمن اطارها . فهي ، من جهة ،تحاول النفاذ الى الاسباب الحقيقية التي من اجلها تتشبث الكائنات البشرية بالاشياء التي تعرفها او التي تعلمتها . ومن جهة اخرى تسعى هذه الطريقة الى فهم العوامل التي تدفع الناس الى قبول وسائل جديدة لتحقيق الاغراض التي كانت الاجيال المنصرمة تحققها من خلال عاداتها ونظمها المرعية . وقد المعنا في الاقسام السابقة من هذا المقال الى المؤسسات الاجتماعية والجوانب السيكلوجية المتصلة بثقافات الشعوب . ويجدر بنا الآن ان نبحث في كل من هاتين الظاهرتين على حدة، وذلك في ضوء علاقتها بمشكلة التغير الثقافي .

اذا نظرنا الى المؤسسات الاجتماعية لاي شعب ، تبين لنا ان اهم مفهوم في التحليل الموضوعي للتغير الثقافي هو مفهوم النمط الثقافي. وثمة اشياء ليس لها اشكال مادية ، الا بقدر ما للاشياء المادية من علاقة بالثقافة . وهذه الاشياء حقيقية ، شأنها شأن اية حقيقة مجردة نستخلصها من ظاهرة معقدة ومتعددة الجوانب . وهي تنطلق من قاعدة سلوكية ، نظرا لانها تمثل اتحاد الانماط السلوكية الفردية للاشخاص الذين ينظمون حياتهم وفق متطلباتهم . غير انها ، شأنها شأن الثقافة عامة ، لا تقتصر على كونها المجموع الكلي للانماط السلوكية لاصحابها ، فهي تمثل حلقة متصلة الاجزاء وجدت قبل ظهور جيل معين وتعمر اكثر من اطول اعضاء هذا الجيل عمرا .

ومن العبث ان نفكر في المشكلة على اساس ان هناك نمطا واحدا فقط للثقافة الواحدة . هذه الطريقة في التفكير من شأنها ان تشوه الحقيقة وان تزيد من صعوبة التحليل الذي نريد اجراءه . فكل ثقافة ، بالغة ما بلغت من البساطة ، لها انماط متنوعة . ونستطيع ان نتصور الانماط كما لو كانت سلسلة من النظم المتواشجة في السلوك والتفكير والقيم . وتختلف هذه النظم في مدى قابليتها للتطبيق ، كما تختلف في مدى توافقها حتى ان بعضها يتعارض احيانا مع البعض الآخر . فانماط القيم الاساسية ،مثلا تؤثر في المجتمع باسره . ولكن هناك ايضا انماط فرعية ينظم بها الرجال حياتهم على نحو يختلف عن حياة النساء ، والكهول ، والشباب على نحو يختلف عن الشيوخ، والافراد الذين ينتمون الى مستويات اجتماعية واقتصادية منخفضة عن الافراد الذين ينتمون الى مستويات اجتماعية واقتصادية عالية . والجدير بالذكر ان مجموعة الانماط المتعددة هي التي تؤلف الثقافة باعتبارها وحدة متكاملة . أما الانماط الخاصة فهي التي تؤثر مباشرة في حياة الفرد في المجتمع وتصوغ سلوكه . ومهما يكن من

شيء ، فانه يتوجب علينا اخذ جميع الانماط بعين الاعتبار حين نهدف من تحليلنا الى فهم الطفرات المتصلة بظاهرة التغير الثقافي .

واذا نظرنا الى هذه الانماط نظرة موضوعية ، امكننا تقسيمها الى وحدات فرعية تتألف من عناصر تدعى سمات ، وهذه السمات تندمج في اقسام اكبر تدعى مركبات . وقد قام بعض العلماء باجراء هذا التقسيم فعلا . غير اننا يجب ان نشدد على النقطة التالية التي ترتبط ارتباطا وثيقا بتقسيم الانماط الى وحدات اصغر ، وهي ان الشخص الذي يعيش في ظل ثقافة معينة لا يشعر بوجود مثل هذه التقسيمات الفرعية . فالسلوك يكون في معظم الاحيان آليا ، والمواقف والرخص التي تجيزه يقبلها افراد المجتمع بصورة ضمنية . وحيثما تصبح اسباب السلوك ، الذي يجري في ظل العرف القائم موضع ادراك وتفكير من جانب اعضاء المجتمع ، فان الاستدلال يجري على اساس مجموع الانماط السلوكية ذات العلاقة . وهذا هو المجال الذي يكتسب فيه مبدأ سيكلوجيا الجشطلت اقوى دلالة له .

اجرى رتشاردسون وكروبر [٢١] دراسة على ازياء النساء خلال القرون الثلاثة الماضية ، وذلك امتدادا لبحث سابق اعده كروبر وحده عن الموضوع ذاته . [٢٢] وتعتبر هذه الدراسة تحليلا للتغير الثقافي في نمط معين ، وتمتاز عن غيرها بالعناية الفائقة التي بذلت في اعداد الوثائق المؤيدة لها . ومع ان البحث من الناحية النظرية يعنى بدراسة صحة مبدأ الترتيب في التغير الثقافي ، فانه ينطبق بصورة مماثلة على دراسة التغير في ضوء ظاهرة الانماط الثقافية . قام هذان الباحثان بأخذ المقاسات

(٢١) J. Richardson and A.L. Kroeber, «Three Centuries of Women's Dress Fashions; a Quantitative Analysis», «Anthropological Records», V (1940), III-53.

(٢٢) A.L.Kroeber, «On the Principle of Order in Civilization as Exemplified by Changes of Fashion», «American Anthropologist», XXI (1919), 235-63.

والنسب لسمات معينة في نمط الزي النسائي الذي استعمل في كل سنة من عام ١٧٨٧ الى عام ١٩٣٦ . أما بالنسبة للفترة بين عامي ١٦٠٥ و ١٧٨٧، فانهما جمعا معلومات مماثلة عن السنوات التي توافرت عنها البيانات المطلوبة . وكانت السمات التي اعتمدت في هذا البحث طول « التنورة » وعرضها ، ووضع الخصر وقطره ، وطول « الديكولتيه » وعرضه .

وتبين لهذين الباحثين ان التغيرات في السمات تسير في تتابع منتظم وتعكس دورية في التـراوح بين المقاسات الكبيرة والصغيرة . وهـذا حملهما على الاعتقاد بان التغيرات لا تعود فقط لعامل الصدفة . غير انهما وجدا ان بعض البنود الفردية تختلف وتتنوع ضمن هذا المركب الثقافي الخاص بالازياء . فطول الثوب ، مثلا ، كان يساير الى اقصى حد ممكن مواصفات الزي المعتمد في السنة التي استعمل فيها . أما في بعض السمات الفرعية ، كاتساع التنورة او فتحة الصدر « الديكولتيه » ، فان اصحاب هذه الملابس راعوا بقدر الامكان رغباتهم الفردية . ولاحظ هذان الباحثان ان التعديلات الدورية تمثل تراوحا في الزي يتمركز حول نمط مثالي يعمل كما لو كان قوة موازية في حركة المركب كله ، فيحدد مدى التباين في التفاصيل ويكون بمثابة الخلفية الكامنة وراء التعديلات الدوريـة .

وتعالج معظم الابحاث المتوافرة عن ظاهرة النمط هذه المشكلة من زاوية اخرى . فالطريقة التي شرحناها في الفقرتين السابقتين تعالج المشكلة على اساس تاريخي ، اي انها تدرس التباين في الوحدات التي يتألف منها نمط معين اتبع خلال فترة محددة من الزمن . ومن الواضـح ان هذه الطريقة لا يمكن استخدامها في حالة الثقافات التي لم تخلف لنا وثـائق مكتوبة . ولذا عمد الكثير من الباحثين الى وصف النمط العام وتفصيل العناصر المختلفة التي يتضمنها مع الاشارة الى تباينها بين قبيلة واخرى في المنطقة الواحدة ، او بين فئة واخرى في المجتمع الواحد . ويمكن القول

ان الطريقتين تؤديان الى النتيجة ذاتها . فالفروق التي يلاحظها الباحثون في تاريخ معين تمثل النتيجة النهائية لعملية التغير التي حدثت في المنطقة ، او في المجتمع ، قبل اجراء البحث . وقد يكون من العسير تحديد الموعد الذي ظهر فيه عنصر ثقافي معين لاول مرة ، كما قد يكون من المستحيل اعطاء فكرة صحيحة عن معدل سرعة التغيرات التي تعرض لها هذا العنصر. غير ان المظاهر المختلفة لنمط اساسي ، اذا ما اخضعت لدراسات مقارنة ، تبين لنا في النهاية كيف صاغ كل مجتمع في منطقة معينة (أو كل فئة في مجتمع معين) الاشكال العامةللانماط التقليدية المشتركة وعدلها لتنسجم مع طرقه الخاصة في الحياة .

ومن الممكن الاستفادة من هذا النوع من التحليل عند دراسة ظاهرة الانتساب للجمعيات على اختلاف انواعها ، سرية كانت او علنية . وسبب ذلك ان الانتساب للجمعيات يكون طوعيا وليس من الضروري ان تتحكم فيه الاعتبارات بوضع الفرد عند الولادة . وبيّن جست[٢٣] ان نمط الاخوّات واضح المعالم في الولايات المتحدة الامريكية ، ولكنه اوضح في الوقت نفسه ان الاشكال المتصلة بهذا النمط تتباين في اسمائها وطقوسها وتنظيماتها واهدافها . وهذا يشير الى ان النمط ، مهما كان مخططه العام راسخا ، يصبح مرنا في تفصيلاته نتيجة لميل بعض الفئات الى الانحراف عنه رغم تمسكها بخطوطه العريضة التقليدية .

ويمكن استخدام التحليل ذاته عند دراسة انواع اخرى من المجتمعات في الثقافة الامريكية . ومن الواضح ان جميع ضروب التجمعات في الولايات المتحدة الامريكية تشارك في نمط عام يميزها عن الجمعيات التي نجدها عند الهنود في منطقة السهول ، او عند سكان افريقيا الغربية او ميلانيزيا او حتى عند الاوروبيين . ولتوضيح هذه النقطة نستشهد

---

(٢٣) N. Gist, «Secret Societies; a Cultural Study of Fraternalism in the United States», «University of Missouri Studies», XV, No. 4 (1940).

باحد التفاصيل المنبثقة عن النمط الامريكي العام الخاص بالجمعيات ، وهو ميل الامريكيين الى حمل شارات او شــعارات تبين علنا ولاءهم للجمعيات التي ينتمون اليها ، حتى في حالة انتمائهم الى جمعيات سرية . وبما ان الانتساب للجمعيات او المؤسسات شائع في الولايات المتحدة ، فان الكثيرين من الامريكيين يرتدون شارات تبين انتماءهم الى ما لا يقل عن مؤسسة واحدة ، فمعظمهم ينتمي الى جمعيات او أخوّات او فرق او محافل ماسونية . ونجد في اوروبــا جمعيات مماثلة ، ولكن اعضــاءها يحيطون انتماءهم اليها بالكتمان ، وبخاصة في حالة الجمعيات السرية . فالاوروبيون يســتهجنون نزعة الامريكيين الى اعلان عضويتهــم في الجمعيات المختلفة ، ويعتبرونها خروجا عن النمط السائد عندهم .

واذا نظرنا الى الشعارات نفسها ، تبين لنا انه يمكن وصف انماط فرعية حتى في هذا العنصر الثانوي من المركب العــام . فالاخوات التي تستخدم اسماء الحيوانات تميل عادة الى نقش رموز تمثل هذه الحيوانات على شعاراتها . اما المحافل وغيرها من منظمات الذكور الراشدين التي لا ترتبط بمعاهد التعليم العالي ، فترتدي شعاراتها على شكل خواتم ، او على شكل ازرار تضعها على طية صدر السترة . ونستطيع مقابلة هذه المحافل ، من نواح مختلفــة ، مع الجمعيــات السرية للكليــات العلمية والجمعيات الفخرية . وتستخدم الاولى ، سواء كانت للرجال او للنساء ، حروفا يونانية تنقش على سطح دبوس مطلي بالميناء ، ويلبس الرجال هذه الشعارات على صدرياتهم ، في حين تلبسها النساء على الجهة اليسرى من اثوابهن . أما الجمعيات الفخرية فهي ايضا تستخدم حروفا يونانية للدلالة على هويتها ، ولكنها تنقشها على شعارات تكون على شكل « مفاتيح » .

ان ما ذكرناه آنفا ينطبق على المجتمــع الامريكي حيــث التجمع السكاني كبير جدا حتى ان الفروق الاقليمية في الانماط الثقافية المميزة للمناطق التي تسكنها جماعات لا تتوافر عنها وثــائق كتابية تؤدي الى

فروق بين الفئات المختلفة . وفي هذه الحالة تسير عملية الانتشار الثقافي في اتجاهين . ففي المجتمعات الكبيرة لا تقتصر عملية الانتشار الثقافي على اقتباس عناصر من ثقافات اخرى ، وانما تتضمن ايضا انتشار الانماط الرئيسية والفرعية وجميع مقوماتها بين مختلف الفئات التي تتألف منها المجموعة السكانية الكبيرة . هذا وان وجود فئات فرعية تتميز كل منها بانماطها الفرعية الخاصة ، يرتبط الى حد كبير بالتركيب الطبقي لهذه المجتمعات . وهذا يثير جوانب اخرى لمشكلة الحوافز على التغير الثقافي ضمن المجتمع قيد الدراسة .

واجريت دراسات تحليلية على توزيع التعبيرات المتنوعة عن الانماط الخاصة بالمناطق التي تسكنها مجتمعات بدائية . وتبين هذه الدراسات سير عمليات التغير الثقافي في مثل هذه المجتمعات حيث الثقافات الفرعية قليلة نسبيا . وبما انها تكررت مرات عديدة وشملت اجزاء مختلفة من العالم ، فاننا نستطيع اعتمادها لاقامة الدليل على ان عمليات التغير تلعب دورا فعالا في جميع المجتمعات البشرية ، أنى وجدت . ومن الامثلة على هذه الدراسات التحليلية الابحاث التي اجريت على رقصة الشمس عند هنود منطقة السهول وعلى الشعائر المتصلة بصيد الدببة . ففي كلا الحالين نلاحظ نمطا اقليميا عاما مماثلا لذلك الذي يصوغ شكل الانماط الفرعية في مجتمع كثير السكان ، اي نلاحظ ان الجماعة المقتبسة قد ادخلت ، خلال عملية الانتشار ، تعديلات تساير النمط العام ولكنها ، في الوقت نفسه ، تتلاءم وظروفها الخاصة . غير ان هذا النوع من الابحاث لا يستطيع ان يقرر ما اذا كان المركب الثقافي ينتقل بكامله كوحدة متماسكة ، ثم يتعرض لتعديلات محلية لاحقة ، او ينتقل على نحو يتيح لبعض العناصر التي يتألف منها ان تنتشر مستقلة عن البعض الآخر . ومهما يكن من شيء ، فاننا لا نجانب الحقيقة اذا افترضنا ان التجديدات والتعديلات التي تتبناها قبيلة في اطار نمط اساسي انتشر في المنطقة لا تلبث — على اضعف

الاحتمالات ـــ ان تثير اهتمام القبائل الاخرى المجاورة .

ونستطيع ايضا الاستشهاد بمجموعة التقاليـــد المتنوعة التي تدور حول الماشية في افريقيا الشرقية ، فهذه ايضا تبين التغير الذي يتعرض له نمط اساسي نتيجة انتشاره من قبيلة لاخرى . (٢٤) ومن المعـــروف ان الماشية تشكل ، في هذه المنطقة باسرهـــا ، المحور الذي تـــدور حوله الثقافة . فمكانة الفرد في المجتمع تعتمد على قطعان الماشية التي يملكها . وتقوم اهمية الماشية على قيمتها المعنوية وما تحظى به من اعتبار اجتماعي ، وليس على قيمتها الاقتصادية او الغذائية . ولا يمكن لاي شخص مهما بلغت ثروته ، ان يصبح ذا شأن في المجتمع اذا لم تضم ثروته عددا كافيا من الابقار . وتنعكس اهمية المواشي على الانماط اللغوية . فالقبائل في افريقيا الشرقية طورت مفهوم « البقرة » حتى ان قبائل النوير ، مثلا ، تملك ما يربو على خمسين مصطلحا للدلالة على الاحجام والالوان المختلفة واشكال القرون وغير ذلك من خصائص المواشي . (٢٥) وتعتبر المواشي شرطا اساسيا لاستكمال مراسيم الزواج ، اذ لا يعترف به الا بعد ان يسلم العريس ما فرض عليه من المواشي الى والد العروس . ويعتمد مركز الطفل الاجتماعي ، عند قبائل كثيرة ، على مصدر المواشي التي آلت الى امه ، وتتمتع المرأة التي تتلقى مواشي كثيرة بمنزلة اجتماعية عالية تعود بفائدة كبيرة على اطفالها .

هذا النمط الثقافي العام يظهر باشكال متنوعة لا حصر لها . فمفهوم الماشية ، عند بعض القبائل ، يقترن بالطقوس التي تقام للاموات ، فعند وفاة رجل يذبح ثوره المفضل ، ويستعمل جلده لتغطية جثته ، ويقدم لحمه في الوليمة التي تقام بعد الجنازة . وثمة قبائل تقرن هذا المفهوم بطقوس

---

(٢٤) M.J. Herskovits, «The Cattle Complex in East Africa», «American Anthropologist», XXVIII (1926), 230-72, 361-88, 494-528, 633-64.

(٢٥) E.E. Evans-Pritchard, «The Nuer» (Oxford, 1940).

الميلاد ، فتراها تدفن الحبل السري والمشيمة في زريبة المواشي ، وتشد عقال البقرة على خصر الام ، وتنتزع عمودا من الكفر وتوقد به نارا داخل الكوخ ، وتحظر على الام وطفلها الخروج من الكوخ قبل استهلاك الخشب في الموقد وتحوله الى رماد . وفي بعض المناطق يحظر شرب الحليب طازجا اثر تناول الخضروات الا بعد انقضاء مدة معينة ، وفي البعض الآخر لا يشرب الحليب الا بعد تحويله الى لبن رائب .

ويمكن الاستشهاد بامثلة اخرى لا حصر لها على الانماط الفرعية التي نجدها في اجزاء محددة من منطقة كبيرة مثل منطقة افريقيا الشرقية . واذا اطلعنا على اوصاف اكثر تفصيلا ، بدت لنا فروق ادق بين القبائل المختلفة في كل منطقة فرعية من النوع الذي يتناول خصائص مقومات النمط العام وعلاقات بعضها بالبعض الآخر . وعلى الرغم من هذه الفروق ، فان جميع قبائل المنطقة بأسرها تعلق اهمية كبيرة على المواشي ، وذلك في ظل النمط العام الذي ينظم مكانتها في حياة المجتمع . وهكذا نرى ان انعكاسات النتائج النهائية للتغيرات على الصعيد المكاني تلقي ضوءا على التطور الزمني لنمط عام والمراحل المختلفة التي يمر بها كمرحلة الاقتباس والتعديل والمرحلة التي يجري فيها تكييفه على الموروث الثقافي لكل جماعة قبلية او محلية .

من الواضح اذن ان معالجة مشكلة التغير الثقافي من زاوية المؤسسات الاجتماعية ومن وجهة النظر السلوكية تنطوي على قيمة كبيرة . فهي تساعدنا كثيرا على تفهم عوامل التغير . وذلك من خلال دراسة الاشكال المتنوعة للانماط التقليدية الشائعة عند الشعوب التي ترتبط بعلاقات تاريخية وعند المجموعات الفرعية التي تحتضنها مجموعة سكانية كبيرة ، او من خلال دراسة الاطوار التي ثبت تعاقبها في فترة معينة . فالنمط العام يوجه التغير ويحدد درجة الانحراف عن الخط التقليدي المعتمد . غير ان الحدود التي يفرضها النمط العام رحبة ومرنة بحيث لا

تقف عقبة في سبيل ظهور تنوعات محلية او قبلية ، لا بل انها في بعض الاحيان تسمح بظهور تنوعات فردية . هذه الحقيقة هي التي تجيز لنا ان نعتبر النمط الثقافي العام كما لو كان ظاهرة تلتقي فيها الانماط السلوكية الفردية للاشخاص الذين يعيشون في كنفه ، وهي التي تعيننا كثيرا على فهم طبيعة الثقافة وعمليات التغير الثقافي ، ولا سيما حين نأخذ بعين الاعتبار التعقيد الناجم عن تداخل الانماط ضمن الثقافة الواحدة .

ويرى البعض — وهو محق بعض الشيء فيما يرى — ان الانشغال الزائد بالاشكال الخارجية للثقافة قد اثر سلبيا في المحاولات الرامية الى تفهم دلالتها السيكلوجية . ومن المعروف ان الحقيقة النهائية للثقافة سيكلوجية ، ونقصد بذلك ان وجود الثقافة يرتبط ارتباطا وثيقا بوجود اناس يديرون مؤسساتها . وهذه الحقيقة السيكلوجية للثقافة تفسر آلية الاستقرار الثقافي ، او بالحري تفسر السبب الذي من اجله تشعر الكائنات البشرية بارتياح كبير عندما تعيش وفق نظام رتيب معروف . وهذه الحقيقة تفسر ايضا آلية التغير الثقافي . فالافراد في كل مجتمع يملكون قابليات وحوافز وميولا وقدرات تلعب دورها ضمن اطار القالب الثقافي العام وتسهم باستمرار في مراجعة التقاليد القائمة وادخال تحسينات عليها .

اضف الى ذلك ان الطريقة السيكلوجية في معالجة التغير الثقافي تزودنا بدليل يساعدنا على فهم المشكلات المحيرة التي تتصل بقبول او رفض التجديدات أو بالمعدلات المتفاوتة بسرعة التغير . وسبق ان عرضنا لظاهرة التجديد في بعض الفقرات السابقة حيث بينا ان العناصر الجديدة لا تصادف قبولا الا اذا كانت منسجمة مع الانماط التقليدية القائمة . أما المعدلات المتفاوتة لسرعة التغير ، فهنالك اشارة ضمنية اليها في التحليلات التي وصفناها لتوزيع العناصر في نمط معين في مجتمع بدائي ، او للدراسات التي اجريت على التغيرات التي طرأت فعلا خلال فترة معينة على مركب منتزع من الثقافة الغربية كتلك التي اجراها رتشاردسون

وكروبر . غير ان مثل هذه الدراسات لا تبين لنــا سوى التغيرات التي وقعت ، ولكنها لا تفسر لماذا وقعت هذه التغيرات . واذا اردنا فهم اسباب التغير ، او بالحري اسباب الظاهرات الثقافية عامة ، وجــب علينــا ان نتحراها في سيكلوجية التغير .

ويحسن بنا ان نبدأ تحليلنا بمبدأ يقره الكثير من الباحثين ، وهو : ان الاشياء التي تسلم بها كل ثقافة هي اكثر من الاشياء التي تخضع للتفكير الهادف او التي يمكن التعبير عنها تعبيرا واضحا . فعملية التعلــم التي تؤدي الى اتقان العادات التقليدية هي من الشمول والنفاذ بحيث يمكن النظر الى اعضاء المجتمع كما لو انهم يستجيبون تلقائيا لثقافتهم دون ان يتأملوا فيها . فاذا ولد فرد في مجتمع يعتمد طريقة خاصة في الحيــاة واعتاد تأدية دورة الاعمال السلوكيــة اليومية ، فان هذا الفــرد يمكن تشبيهه بالموسيقي المدرب الذي لا يحتاج الى الوقوف والتفكير في كل نغمة من النغمات المتتالية التي يريد ان يعزفها .

ولتوضيح كيفية اعتبار الثقافة من الامور المسلم بهــا ، نستشهد بالاسباب التي يذكرها الرجال والنساء لتعليل سلوك معين يسألون عنه . فاذا دققنا النظر في الاجابات التي يتقدم بها الناس لتبرير سلوكــهم ، تبين لنا انها قلما تــكون صحيحة من النــاحية الموضوعية . فــكما ان الاجابات عن الاسئلة اللغوية تعطى في ضوء الاشتقاقات اللغوية الدارجة، كذلك الحال بالنسبة للعادات التقليدية ، فان الاجابات عن الاسئلة التي تطرح حولها تعطى ايضا في ضوء ما يمكن ان نسميــه « التعليلات او التبريرات الشعبية » . والواقع اننا قد لا نبتعد كثــيرا عن الصواب اذا عرفنا الانسان بانه « حيوان معلل او مبرر » بدلا من ان نعــرفه بانــه « حيوان عاقل » . فاذا طرح علينا السؤال « لماذا لا تنقل الطعام الى الفم بسكين ؟ » فاننا قدنجيب باننا لا نفعل ذلك خشية ان نجرح انفسنا . ومن الواضح ان هذا الجواب يتجاهل ان سكاكين المائدة التي نستعملها ليست

حادة ، وان المجتمعات التي تستعمل سكاكين حادة لهذا الغرض تعرف بالخبرة كيف تتقي أذاها . وكذلك الامر بالنسبة لتحريم اكل لحم الخنزير ، فان العرب واليهود يذكرون ان سبب تحريمه هو الرغبة في تجنب خطر الاصابة بمرض التريخينية . ولا يذكر احد ان هذه العادة قد تعود الى اصول طوطمية . ومع ان هذا التفسير قد يبدو معقولا من الناحية التاريخية،فانه يرفض اذا ما اقترحه البعض كأحد الاسباب المحتملة لتحريم هذا النوع من اللحم .

من العسير على اي موسيقار ان يكون ماهرا في جميع الفنون الموسيقية او ان يسيطر على المدى الكامل لجميع الادوات الموسيقية . وكذلك الحال بالنسبة للفرد الواحد ، فانه لا يستطيع السيطرة على جميع عناصر ثقافته ، كما انه لا يستطيع ان يعي جميع مواردها . وما من فئة ــ باعتبارها وحدة متكاملة ــ تعلق ذات الاهمية على جميع جوانب مجموعة التقاليد التي يحملها اعضاؤها . فاذا تفحصنا الثقافات المختلفة ، لاحظنا انها لا تختلف في اشكالها الخارجية فحسب ، وانما ايضا في المجالات التي تستأثر باهتمام اصحابها . وينطوي هذا العامل على اهمية بالغة بالنسبة لعملية التغير الثقافي . فالثقافة التي يعيش الافراد في ظلها تتضمن جوانب كثيرة . ولعل اخطرها شأنا هي تلك التي تكونُ اقل الجوانب عرضة لان تعتبر من الامور المسلم بها ، واكثرها استئثارا بالاهتمام والبحث ، وابعدها عن نسق الاستجابة التلقائية . واذا نظرنا الى هذه الجوانب من ناحية تركيبها ، لاحظنا انها تعكس اكثر الانماط قابلية للتغير . وبعبارة اخرى ، ان محور اهتمام الناس يمكن وصفه بانه البؤرة التي تتمركز حولها ثقافتهم . وهو يمثل مجال النشاط او الاعتقاد الذي يحظى باكبر قسط من وعي الناس ، ويستثير معظم الابحاث التي تدور حول القيم ، ويعكس اشد تفاوت في التركيب .

ولندرس الآن بمزيد من التفصيل ما نقصده بمحور الاهتمام في الثقافة . نلاحظ ان جميع المجتمعات تشدد على جوانب من الحياة ، وبالتالي تتناولها بالبحث اكثر من غيرها . وفي هذه الحالة يظهر الناس استعدادا اكبر للاستماع الى مقترحات لحلول بديلة كالتي وصفها العالم الانثربولوجي رالف لنتون(٢٦) . ويختلف الحال بالنسبة للعناصر الثقافية التي يعتبرها الناس من الامور المسلم بها . في هذه الحالة لا يكون المجتمع مهيأ للاستماع الى اي اقتراح للتغير ، واذا استمع اليه فان رد فعله يكون عادة سلبيا ، مهما كان التغير المقترح طفيفا . وهكذا يبدو ان الاساس السيكلوجي لتفاوت سرعة التغير يفسر لماذا تظهر بعض المجتمعات استعدادا اكبر من غيرها لقبول التجديدات في جانب معين من جوانب الثقافة .

ولتوضيح هذه النقطة نستشهد بالمثال التالي المستمد من ثقافات افريقيا الغربية ومشتقاتها في العالم الجديد . تعتبر مناطق افريقيا الغربية مزدحمة بالسكان اذا ما قورنت بالمجتمعات التي لا تتوافر عنها سجلات كتابية وافية . وتتمتع مجتمعاتها بقدرة تكنولوجية متقدمة نسبيا ، وبانظمة سياسية واقتصادية متطورة ومتحذلقة ، وبمؤسسات اجتماعية معقدة التركيب ، وبفنون تشكيلية وموسيقية وآداب شعبية اجتذبت انظار الكثيرين من الدارسين . غير ان محور الاهتمام في ثقافات هذه المجتمعات ينحصر في الحياة الدينية حيث المجال واسع لاستثارة التفكير والتعبير الخلاق ولتعدد اشكال المؤسسات المختلفة الى اقصى حد ممكن .

واذا اقدم عالم على اجراء ابحاث ميدانية على هذه الثقافات ، فانه سرعان ما يدرك مدى الاهمية السيكلوجية التي يعلقها الناس على اثر القوى الخارقة . وما اكثر الشواهد التي تدفعه الى الاعتقاد بان الجوانب

---

(٢٦) R. Linton, «The Study of Man» (New York, 1936).

الخارقة لاية مجموعة معينة من البيانـات هي المفتاح لفهـم الثقافة التي يدرسها . فما من بحث عن هذه الجوانب من الحياة الدنيوية اليـومية الا ويعرض لاهمية الرخص الدينية للذين يزاولون الاعمال التجارية ، او للحاجة الى استرضاء ارواح الارض قبل المباشرة بالاعمال الزراعية ، او لاضطرار الحدادين الى مراعاة شعور اله الحديد . اما الاشراف على البنيان الاجتماعي وضبطه فيتصلان بالطقوس الخاصة بعبادة الاسلاف . وبما أن هذه الطقوس تلعب دورها في حياة العائلة المالكة ، فان اثـرها يطغى ايضا على النظام السياسي للمجتمع . وتتسم فنون نحت الاخشاب ونسبة كبيرة من الاغاني الشعبية بالطابع الديني . ومما يستلفت النظر ان القسم الاهم من الادب الشعبي يدور حول الكائنات الخارقة التي تحكم الكون ، وحول المغامرات التي تقوم بها في عالم الانس .

ويزداد الطابع المحوري لهذا الجـانب من الثقافة وضوحـا عند التحدث مع السكان المحليين عن شؤون حياتهم . فالباحث الذي يتحدث اليهم يلاحظ ان الشؤون الاقتصادية تستحوذ على انتباههم ، نظرا لانهم يعلقون اهمية كبيرة على قيمة الثروة . اما الحديث عن علاقات القرابة فانه يجدونه مملا ، اذ سرعان ما يغيرونه وينتقلون الى الحديث عن الاسلاف ، ومنه الى الحديث عن الآلهة والقوى الاخرى التي تتحكم في الكـون . ومن الطريف ان نرصد ردود فعل الناس تجاه القصص الشعبية . فقصص الحيوانات تستهوي الباب الاطفال ، في حين يستمتع الكبار بسرد قصص تدور حول مغامرات الكائنات التي تتمتع ببعض المواهـب الخارقـة كالصيادين الذين يفهمون السحر او الابناء التوائم او الوحوش او جنيات الغاب . وهذا الاهتمام المركز في الدين ينعكس ايضا على حياة مواطني العالم الجديد الذين ينحدرون من اصل افريقي . ويصدق هذا القـول حتى على المواطنين من سكان المدن العلمانية الحديثة ، كما هي الحال في

البرازيل وفي بعض المدن في جزر الهند الغربية وفي المدن الكبيرة في المناطق الشمالية والجنوبية من الولايات المتحدة الامريكية .

والبينات التي يجمعها الباحث من اعضاء هذه المجتمعات تدعم المعطيات الموضوعية في كشف النقاب عن وظيفة محور الاهتمام في عملية التغير الثقافي . ففي افريقيا الغربية تعددت حوادث اقتباس الآلهة من الغير ، وهناك قبائل تنسب الكثير من الآلهة التي تعبدها الى اصول خارجية . ويجدر بنا هنا ان نذكر التفسير الذي يقدمه السكان الوطنيون لهذه الظاهرة . فانتصار قبيلة على اخرى كان دلالة صريحة على تفوق آلهة القبيلة الغالبة على آلهة القبيلة المغلوبة ، ولذا كان من مصلحة المغلوبين على امرهم استرضاء الآلهة المتفوقة . وفي الوقت نفسه كان الفاتحون يقتبسون آلهة اعدائهم ويحسبون حسابها ، لانهم كانوا يعتقدون ان الاله المهزوم او الخائب قد يكون مصدر شر لهم . اضف الى ذلك ان الآلهة المحلية كانت تهيمن على الحقول والجداول والغابات . وهكذا نرى ان الفتح اصبح وسيلة ساعدت على تبادل الآلهة على اساس مفهوم واضح عجل في عملية انتشار هذا العنصر الثقافي المعين . ومما يجدر ذكره اننا لا نسمع عن انتشار واع من هذا النوع في مجالات تقع خارج نطاق مركز الاهتمام الثقافي .

ويبدو ان هذه الظاهرة المتصلة بمحور الاهتمام لعبت دورا مهما في مساعدة مواطني العالم الجديد الذين ينحدرون من اصل افريقي على التكيف على اوضاعهم الجديدة . فالاعتراف بقيمة النمط القائم على اقتباس آلهة الغير متأصل في هؤلاء السكان ، وهذا ساعدهم على التكيف نفسيا واجتماعيا على الظروف الجديدة التي واجهوها في العالم الجديد . ولولا هذا الاستعداد للتكيف ، لتعذر على هؤلاء الافريقيين البقاء على قيد الحياة . غير ان التغيرات التي طرأت على التقاليد الافريقية الاصلية لم تأت كلها نتيجة للاقرار بتفوق اله الاوروبيين . فحيثما احتك الافريقيون

بالهنود ، كما كان الحال في كل من البرازيل وغيانا ، وحيثما ظلت الطقوس الافريقية قائمة باشكالها المميزة ، نلاحظ ان الافريقيين وجهوا اهتمامهم الى الارواح المحلية باعتبارها قوى تلازم الارض وتتحكم في البيئة الجديدة . وهذه الظاهرة هي التي تفسر نشأة طقس « كابوكلو » في البرازيل او «الروح الهندية » (انجي وتتي) عند زنوج غيانا الهولندية ، او ارواح « كريول » في هايتي .

وظهر اثر محاور الاهتمام في الثقافات الافريقية بشكل بارز في المناطق التي اعتنق فيها الافريقيون الديانة المسيحية . ففي الاقطار الكاثوليكية قام الافريقيون بمحاولات للتوفيق بين الهتهم الاصلية والقديسين الذين تعتمدهم الكنيسة الكاثوليكية . وهذا ما حدث فعلا في كوبا وهايتي والبرازيل ولويزيانا . وحيثما تعذر الاحتفاظ بالالهة الاصلية ، استبقى الافريقيون بعض الشعائر المتبعة في عبادتهم ، كالابراء او التعميد او الوقوع تحت سيطرة روح معينة . وكانت عملية التغير سهلة نسبيا ، نظرا لان تقاليد الافريقيين الغربيين لا تقاوم الحركات التي تهدف الى ادخال تعديلات على معتقداتهم القائمة على عبادة القوى الخارقة ، ولذا كان من اليسير عليهم تكييف دياتنهم على البيئة الجديدة . ويعاني الزنجي في العالم الجديد من الحرمان والانحلال المعنوي بسبب اضطراره الى العيش كما لو انه مواطن من المرتبة الثانية ، أو كما لو كان غير اهل للتمتع بالامتيازات والحقوق التي تتمتع بها الفئات الاخرى . ويجدر بنا ان نؤكد هنا ان الزنجي ، على الرغم من هذه الاوضاع المعاكسة ، يواصل تكييف ديانته على الاوضاع الجديدة ، وهو اكثر نجاحا في هذا المجال منه في المحاولات التي يبذلها لتكييف مؤسساته الاجتماعية على حاجاته واوضاعه المتغيرة .

ويلاحظ ان الحياة الامريكية العصرية تتأثر ايضا بظاهرة « محور

الاهتمام » ، شأنها شأن الثقافة الافريقية الغربية . ومما لا يرقى اليه شك ان محور الاهتمام الثقافي في المجتمع الامريكي الحديث يكمن في ميدان التكنولوجيا . ومن الطريف ان نقابل بين استعداد الامريكيين لتقبل التغييرات التكنولوجية وبين مقاومتهم للتغيرات في النظريات الاقتصادية (وهي تمثل ميدانا وثيق الصلة بمحور الاهتمام الثقافي) او في المعتقدات الدينية او في النظام العائلي . ويقال احيانا ان اللغة هي دليل الثقافة ، وان دلالة المصطلح « مخترع » عند الامريكيين تشير الى اتجاه ثقافتهم . وسبق ان اشرنا في هذا المقال الى ضرورة صوغ تعريف لمصطلح « المخترع » يختلف عن المفهوم الدارج الذي يعتبر المخترع شخصا يتميز بالقدرة على ابتكار اشياء جديدة في ميدان الثقافة المادية فقط . وينزع الكثيرون من الامريكيين الى اعتبار مخترع الاشياء غير المادية او غير المحسوسة كما لو كان شخصا ثوريا . وهذه النزعة تلقي ضوءا على طريقة تفكير الامريكيين ومركز اهتمامهم الثقافي ، وبخاصة حين نأخذ بعين الاعتبار ان كلمة « ثوري » قد تقترن ، في نظر الامريكيين ، بمعان سلبية كالميل الى اثارة الفتن والاضطرابات .

هذا وان وجود محاور اهتمام واضحة في الاتجاهات الثقافية ادى الى استحسان المحاولات المختلفة لاكتناه سر الثقافة وشرح ما ترمز اليه ، سواء تسترت هذه المحاولات بعبارات مثل « عبقرية الثقافة وروحها » او بتعريفات شاملة لطبيعتها الروحية والاخلاقية الناجمة عن التمادي في الاعتماد على العناصر المحورية في الثقافة . غير ان مفهوم المحور الثقافي ليس ساكنا في طبيعته . ومن الافضل ان نصفه بانه عنصر يسهم في خلق الدوافع الدينامية التي تيسر عملية التغير الثقافي وبالتالي تمهد الطريق لظهور تنوع في بعض جوانب الثقافة اكثر من البعض الآخر .

ومفهوم محور الاهتمام هو في الاساس مفهوم تاريخي . فهو يخضع

للتعديل والانحياز مثلما يخضع لهما اي جانب آخر من جوانب الخبرة الانسانية . ومن الامثلة على تغير اتجاهات المحـــور الثقافي في امريـــكا الانتقال من محور يركز على العالم الآخر وينعكس في الاعتقاد بالقوى الخارقة الى آخر يركز على ميدان التكنولوجيا حيث العلم هـــو الذي يحقق المعجزات . اما كيفية حدوث هذا التغير فلا تزال مجهولة . وقد نجد حل هذه المشكلة في التفسير الذي يشير الى تراكم اثر التغييرات الطفيفة التي تحدث على مر السنين ، او بالحري الى وجود « انسياق » ثقافي يشبه بعض الشيء « الانسياق » اللغوي الذي اثبته سابير[٢٧] . أمـــا اختلاف محاور الاهتمام تبعا لاختلاف الثقافات فواضح لكل باحث يعنى مباشرة بدراسة المجتمعات ، وهو ضمني في معظم التقارير الاثنوغرافية التي ، من خلال تشديدها على بعض المناحي ، تعكس مراكز الاهتمام في الثقافات التي تصفها . ولكن لا بد من التأكيد ثانية ان ظـــاهرة المحور ، التي تنعكس على عدد كبير نسبيا من المؤسسات المختلفة التي تقـــع في مجال الميول الرئيسية للشعب ، تشير الى وجود عامل فعال يساعـــد على تشجيع التغير الثقافي ودفعه الى الامام ، مثلما يساعد على ضبطه وتنظيمه .

ويعتبر التنبؤ بالتغير الثقافي من الاهداف الرئيسية لدراسة العوامل الدينامية في الثقافة . ولا نزال حتى يومنا هذا بعيدين عن تحقيق هذا الهدف . غير انه تم صوغ مبادىء عامة جدا ، نخص بالذكر منها : أولا ، المبدأ البديهي الواضح الذي يقول ان الشعوب التي يحتك بعضها بالبعض الآخر تتبادل اقتباس العناصر الثقافية . وثانيـــا ، ان الثقافات المتقـــاربة تتلاقى ، على الاغلب ، في عناصر مشتركة اكثر من تلك التي تتلاقى فيها الثقافات المتباعدة . ولكن حتى بالنسبة لمبدأ بسيط كالمبدأ الثاني ، لا بد من وضع بعض التحفظات ، وذلك لان التقارب هو مفهـــوم تاريخـــي

(٢٧) E. Sapir, «Language, an Introduction to the Study of Speech» (New York, 1921).

بالاضافة الى كونه مفهوما جغرافيا . فثقافة اوستراليا الحديثة ، مثلا ، تشبه كثيرا ثقافة انجلترا على الرغم من التباعد الجغرافي بين الثقافتين ، ويعود ذلك الى العلاقات التاريخية التي تربط بين البلدين . ومن جهة اخرى ، نلاحظ ان العناصر المشتركة بين ثقافة الاوستراليين الذين ينحدرون من أصل اوروبي وبين سكان اوستراليا الاصليين قليلة جدا ، وذلك على الرغم من التقارب الجغرافي الشديد بين الثقافتين .

وتزداد المشكلة تعقيدا حين ندرس التغييرات في اشكال معينة من الثقافة . وكان الكثيرون ، حتى عهد قريب ، يعتقدون انه يكاد يكون من المسلم به ان التغير في الثقافة المادية اسرع واسهل منه في الثقافة غير المادية ، وان الاشياء الجديدة تنتشر دون ان تلقى ذات المقاومة التي تلقاها الافكار الجديدة . غير ان نتائج الابحاث الحديثة ، رغم انها وجهت في حالات كثيرة الى مشكلات اخرى ، اثارت الشكوك حول صحة هذه الفرضية . فاذا كانت هذه الفرضية صحيحة ، فكيف نستطيع ان نفسر استعداد الهنود الحمر في المكسيك وامريكا الوسطى والقسم الجنوبي من الولايات المتحدة لتقبل الكاثوليكية ومقاومتهم ، في الوقت نفسه ، للثقافة المادية للاوروبيين الذين عرضوا عليهم الجانب المادي من ثقافتهم مثلما عرضوا عليهم جانبها الديني ؟ وثمة ظاهرة مماثلة في افريقيا حيث اعتنق الكثيرون من الوثنيين الديانة الاسلامية ولكنهم حافظوا في الوقت نفسه على سلامة بعض مظاهر ثقافتهم المحلية . ومما لا ريب فيه ان عوامل الارغام والاعتبار الاجتماعي والرغبة في التكيف على بيئة طبيعية مستقرة تلعب دورا مهما في مثل هذه الحالات ، وليس من العسير علينا عزل هذه العوامل وبيان اثر كل منها على حدة . غير انه يصعب علينا ، عند معالجة وضع جديد ، تحديد الاتجاه الذي سيسلكه التكيف الانتقائي في المستقبل بالنسبة للثقافات التي يحتك بعضها بالبعض الآخر . ومما يزيد من صعوبة المشكلة المتصلة بالتغير الناجم عن منبهات خارجية ان هناك

تغيرا تسببه عوامل داخلية .

وثمة عدة عوامل تتحدى الباحث الذي يحاول التعميم بشأن انواع التغير الذي يحدث في الثقافات ، او يحاول التنبؤ بالاتجاه الذي ستسلكه ثقافة معينة في المستقبل . وأهم هذه العوامل هو ما يمكن ان نطلق عليه «العارض الثقافي» . وكلمة « عارض » هنا لا تدل بأي حال على الاحداث التي تقع خارج نطاق السببية . انما تستعمل على نحو يشبه بعض الشيء الدلالة التي اضفاها عليها جولدنفايســر[٢٨] . وبعبارة اخرى تدل هذه الكلمة على ما هو غير متوقع في الثقافة ، او بالحري تدل على حادث لم يمكن التنبؤ به في اطار قرينته التاريخية والثقافية . وقصارى الكــلام ، تستعمل هذه الكلمة لتفسير تلك السلسلة من الاحداث التي تعقب تعرض ثقافة معينة لحادث اثر فيها من الخارج (هذا اذا جاز لنا استعمال كـلمة « تفسير » في هذا المقام) . ولبيان ما نرمي اليه نورد المثال التالي الذي نعتقد انه خليق بالاهتمام رغم وضوحه . ما كان في وسع اي ياباني عاش قبل قرنين ، بالغا ما بلغ من الحكمة والحصافة ، ما كان في وسعه ان يتنبأ بما سيكون عليه تاريخ بلاده بعد زيارة القائد البحري الامريكي بري . ونحن لا ننكر ان الاخصائيين في تاريخ العالم ربما توقعوا ان الثقــافة الغربية التوسعية كان لا بد من ان تصل الى اليابان عاجلا أو آجلا . ولكن اية محاولة في ذلك العهد للتنبؤ بما سيعقب ذلك من تطورات متتــابعة لا بد انها كانت ضربا من الحدس والتخمين .

والعامل الثاني هو الفرد الــذي يلعب ايضا دورا غامضا في عملية التغير الثقافي . ويزداد غموض هذا الدور عندما نحاول التحقق من الاثر الذي قد يتركه الفرد في فئته في اوضاع معينة . لنفترض ان مسافرا احضر معه اداة او فكرة أو عادة جديدة عند عودته الى بلاده من زيارة قام بها

---

(٢٨) A.A. Goldenweiser, «History, Psychology and Culture», pp. 5-32.

لشعب اجنبي . قد يتقبل المجتمع التجديد الذي ادخله هذا المسافر اكراما لشخصيته او سلطته او مقامه الاجتماعي . ولـكن من المحتمل ايضا ان يرفض المجتمع التجديد ، ايا كان مركز الشخص الذي ادخله . ومن جهة اخرى قد ينظر المجتمع بارتياح الى استعمال جديد يدخله مسافر لا يتمتع بمنزلة اجتماعية عالية . ويحدثنا شابيرا (٢٩) عن الدور الذي لعبه زعيم قبائل كجاتلا في حمل شعبه على اعتناق المسيحية على نحو يذكرنا بتاريخ انتشار المسيحية في القارة الاوروبية . غير ان هناك حكاما اعتنقوا هم انفسهم المسيحية ، في حين حافظ رعاياهم على معتقدات اسلافهم الدينية . ويكتنف الغموض ذاته حالة الفرد الذي يدخل الى ثقافة عنصرا جديدا عن طريق الاكتشاف او الاختراع . حتى في المجتمع الامريكي حيث التنظيم المالي موجه لمكافأة النجاح في التجديد ، قد تكون النتائج احيانا قليلة التجديد ــ وهذا ما يشهد على صحته بعض ناشري الكتب والقطع الموسيقية .

وثمة عامل ثالث لا يقل شأنا عن العاملين السابقين ، وهو الاوضاع التي تسبب تفاوتا في سرعة التغير . فكلما اشتد ازدحام السكان وكثرت الاتصالات مع العالم الخارجي ، ازدادت الفرص المتاحة لادخال تطورات جديدة . والسؤال الذي يتبادر الى الذهن هنا هو : ما الذي يسهم به عنصر الكتابة في هذا التناسب الطردي ؟ ولعلنا لا نجانب الحقيقة اذا قلنا ان المجتمعات التي تنخفض فيها نسبة المتعلمين هي ، في فترة معينة ، اقل عرضة للتغير من المجتمعات التي ترتفع فيها هذه النسبة . ولكن يجب ان نأخذ بعين الاعتبار ايضا ان المجتمعات البدائية اصغر واكثر انعزالا من المجتمعات التي تعرف الكتابة . اضف الى ذلك اننا لا نستطيع التوصل الى احكام عامة تنطبق على جميع الحالات في جميع الثقافات . فالمجتمعات

(٢٩) I. Schapera, «Cultural Changes in Tribal Life», in «The Bantu-Speaking Tribes of South Africa» (London, 1937), pp. 368-69.

التي ترتفع فيها نسبة المتعلمين تضم عددا لا بأس به من الفئات التي تتألف من افراد يملكون ناصية الكتابة والقراءة ولكنهم ، مع ذلك ، يقاومون التغير مثلما تقاومه المجتمعات البدائية . ومن الامثلة على ذلك تشبث بعض النبلاء الاوروبيين بانماطهم السلوكية التقليدية .

وعلى الرغم من هذه الصعوبات ، فاننا لا نزال اليوم بحاجة ملحة الى مضاعفة الجهود في سبيل التوصل الى فهم صحيح لعمليات التغيير الثقافي . ومن المفيد ان نعيد النظر في هذه المشكلة في ضوء المفهومات السائدة اليوم في اوساط الباحثين الثقافيين . ومن وجهة النظر العامة ينبغي التعمق في دراسة هذه المشكلة الى اقصى حد ممكن ، نظرا لان وعي العالم للاوضاع المتغيرة هو اليوم اقوى وأشمل مما كان عليه في اي عهد مضى من تاريخ الخبرة الانسانية . ما الذي يسبب التغير وما الذي يعترض سبيله ؟ ما سرعة التغير ، وفي اي المجالات يقع ؟ هل يحدث على نطاق واسع ام يتناول تفصيلات جزئية ؟ ما هي الاسس الانتقائية التي يقوم عليها قبول او رفض التغير ؟ هذه الاسئلة كلها خليقة ان تحظى بادق واوفى الدراسات الثقافية والتاريخية ، اذا اريد للاوضاع التي تبدو للكثيرين انها تتحدى امكان التحكم فيها — اذا اريد لها ان توجه لما فيه خير الانسانية ورفاهيتها .

الجوانب الاجتماعية والنفسية لظاهرة التثقف

أ. إرفنج هالوول

من اهم الاحداث التـي تستلفت النظر في تاريـخ العصور الحديثة توسع الشعوب الاوروبية وانتشارها في مختلف انحاء الـكرة الارضية . فالتوسع الاغريقي والروماني في حوض البحر الابيض المتوسط في العصور القديمة ، وهجرة العرب عبر افريقيا الشمالية الى شبه جزيرة ايبريا ، والتوسع الاسلامي الذي بلغ الاقسام الشمالية من الهند ــ هذه الحركات كلها لا تكاد تقارن بالتوسع الاوروبي في العصور الحديثـة . والمضاعفات الاقتصادية والسياسية والعسكرية التي جاءت في اعقـاب توسع الشعوب الاوروبية وانتشار أثرها الثقافي هي التي خلقت العـالم الحديث كما نعرفه اليوم ومهدت الطريق لنشوب الازمات العالمية التي نعيش في ظلها اليوم .

ومن جهة اخرى أدت الغزوات والفتوحات وحركـات الاستيطان الأوروبية إلى إثارة اهتمام الاوروبيين بالشعوب الاصلية التي اكتشفوها في إفريقيا وآسيا واوستراليا وأمريكا وجزر المحيط الهادي . وبدأ هـذا الاهتمام على شكل جمع عينات او مجموعـات من الأشغال اليدويـة المحلية ، ثم تحول في النهاية الى دراسة منظمـة لنسق حيـاة الشعوب

الاصلية . وما كاد القرن التاسع عشر ينتهـي حتى ولد ما يعـرف باسم « علم الانثربولوجيا الثقافية » .

وانصب اهتمام العلماء الانثربولوجيين في البدء على التكهن بالمراحل المحتملة للتطور الثقافي . فقد عكفوا على جمع كل ما يمكن جمعـه من المعلومات عن حياة السكان الاصليين قبل تعرضهم لاثر الثقافة الاوروبية . وحاول العلماء الاوائل ايضا ان يحددوا وضع الشعوب الامية بالنسبة للمراحل المختلفة التي ــ بحسب اعتقادهم ــ مر بهـا المجتمع البشري كافة . ومنذ بدء الاحتكاك بالاوروبيـين والشعوب الاصليـة المختلفة تتعرض لتغييرات وتعديلات في نسق حياتها ، ولكن هذه الظاهرة لـم تستأثر ،في المراحل الاولى من تطور علم الانثربولوجيا ، الا باهتمـام عرضي لا يكاد يذكر . حتى بعد التخلي عن النظريات التاريخية الخاطئة التي كانت تقول بان التطور الثقافي يسير في خط واحد ، ظل العلماء حينا من الدهر يختارون شعوبا اصلية تتمتع بثقافة « حية » أو « وظيفيـة » ويؤثرون دراستها على دراسة الشعوب التي ، في رأيهم ، تعرضت ثقافاتها « للانهيار » او « التفكك » . واذا ما بدا لاحدهم ان يدرس ثقـافة من الثقافات « المنحلة » ،فانه كان يفعل ذلك بدافع من رغبته في « اعادة بناء» الشكل الاصلي لهذه الثقافة استـنادا الى ما يـذكره بعض افرادها عن الماضي ، وليس من اجل الحصول على معلومات عن عوامل التغير ، او الجوانب التي اصابها ، او عن عملياته ونتائجه .

غير ان العلماء في السنوات الاخرى اخذوا يظهرون اهتماما متزايدا بدراسة التأثر والتأثير المتبادلين بين الثقافات المختلفـة ، حتى ان هذا الموضوع اصبح يحتل مكان الصدارة في الابحاث الانثربولوجية الثقافية. ومما لا يرقى اليه شك ان العاملين الآتيين اسهما ، الى حد ما ، في اثارة الاهتمام باثر الثقافات بعضها في البعض الآخر : أولا ، جسامة المشكلات التي لا مفر من ان تنشأ من شدة الاحتكاك الثقافي والعرقي بين الشعوب

في العالم الحديث ، وثانيا ، المشكلات الادارية العملية التي جابهتها جميع الحكومات التي كان عليها ان تتعامل مع الشعوب الاصلية الخاضعة لنفوذها السياسي . أما الحافز العلمي الذي دفع العلماء الى دراسة الاحتكاك بين الشعوب التي تختلف في نسق حياتها فهو ان هذا النوع من الدراسة يساعدنا على فهم العوامل الدينامية في سلوك الانسان وقدرته على التكيف . فثقافة اية مجموعة سكانية لا يمكن ان تتغير الا بعد ان يظهر اعضاؤها انفسهم تغييرات في عاداتهم ومواقفهم ودوافعهم ، واخيرا في تنظيم شخصياتهم . واذا حدث تغير في الثقافة ، فان هذا يعني ان الافراد قد اعادوا تكيف انفسهم على أوضاع جديدة . ولذا يعنى علماء الانثربولوجيا اليوم بتحري الحوادث الواقعية والظروف والعمليات الخاصة التي تقترن بالتغيرات الثقافية الناجمة عن التفاعل بين الشعوب التي تختلف في اسسها الثقافية . فكلما زادت معلوماتنا عن الدوافع الدينامية الفعلية الكامنة وراء عمليات التكيف او اعادة التكيف التي تجري في ظروف تمكن ملاحظتها ، سهل علينا فهم المبادىء العامة المرتبطة بهذه العمليات وازداد احتمال ارساء دراستنا على قواعد سليمة ومتينة .

وهذا يعيد الى الأذهان مذهب « الاتساقية » الذي نادى به لاييل عندما الف كتابه « مبادىء الجيولوجيا » قبل اكثر من قرن . وكان علماء الجيولوجيا الذين سبقوا لاييل قد استعانوا احيانا بظاهرات خاصة (كالكوارث مثلا) لتفسير بعض الاحداث الماضية . اما هو فقد اكد انه ينبغي لنا ان نفترض وجود تماثل بين اثر العمليات في الماضي واثرها في الحاضر . وأضاف لاييل يقول : اذا لاحظنا بعناية أثر العمليات المعاصرة ، ازدادت قدرتنا على فهم احداث العهود المنصرمة . وقد اقر هذا المبدأ في العلوم الطبيعية ، ومن الممكن تطبيقه ، على نحو مماثل ، على الدراسات العلمية التي نجريها على الانسان .

وليس ثمة سبب يحملنا على الافتراض ، مثلا، ان مجتمعات الشعوب غير المتعلمة ، السابقة منها او الحالية ، هي اكثر استقرارا وسكونا او اشد محافظة على القديم من المجتمعات المتعلمة التي نملك عنها سجلات تاريخية او التي تسمى احيانا « المجتمعات المتقدمة ».وليس لنا ان نفترض ان التكيف الانساني يسير وفق قانون آلي ينتظم مراحل تقدمية تتجه في خط واحد ، ولا ان هناك عوامل خفية او مجهولة «س» أثرت في تطور احداث الماضي . ويتوقف حل المشكلة العلمية على اكتشاف العوامل الفعلية التي تسهم في خلق الاستقرار في الثقافة الانسانية ، وكذلك الشروط اللازمة لتحقيق تعديلات في نسق حياة اي شعب من الشعوب .

وبالنسبة للماضي البعيد ، من الواضح اننا لن نستطيع ابدا ان نعرف الشيء الكثير عن عمليات التكيف او التعديل التي وقعت فعلا ، ولا عن الاوضاع التي مهدت لظهورها . غير اننا نعرف على وجه التأكيد ان انقلابا وقع في الاقتصاد القائم على تزويد الانسان بحاجته من المواد الغذائية الاساسية ، وان هذا الانقلاب شمل اكثر من منطقة وظهر على شكل انتقال من اقتصاد قائم على جمع الغذاء الى اقتصاد قائم على انتاجه. اما تفاصيل هذا الانقلاب فما زالت مجهولة ، فنحن لا نعرف الا النتائج التي أدى اليها . وزودنا علماء الارخلوجيا ايضا بمعلومات كثيرة عن الادوات والأسلحة والمواعين التي استعملها الانسان في الماضي البعيد ، وكذلك عن التغييرات التي طرأت على اشكال هذه الاشياء . ومع اننا نفترض ان بعض هذه التغييرات نشأت حتما من اختراعات او اكتشافات محلية في مجتمعات معينة ، فاننا لا نستطيع ان نعرف شيئا عن الحوادث الفعلية التي ادت الى ظهورها . ونذهب الى مدى ابعد من ذلك لنقول اننا لا نستطيع الاجابة عن اسئلة كالاسئلة التالية: هل نتجت هذه الاكتشافات او الاختراعات من محاولات واعية لحل مشكلات عملية معينة ؟ الى اي حد كانت هذه الاكتشافات او الاختراعات ناجمة عن الطرق القائمة على

التجربة والخطأ؟ الى اي حد تمثل هذه الاكتشافات او الاختراعات المحصلات النهائية للاتجاهات الناشئة عن تراكم التغييرات الطفيفة على مر الزمن ؟ ولذا يكاد يكون من المتعذر علينا ان نبحث في الدوافع الدينامية للاكتشافات والاختراعات في المجتمعات البشرية الاولى ، باستثناء حالات قليلة جدا نسبيا . وحسبنا في هذا المجال ان نتعرف الى النتائج النهائية ، أي علينا ان نقنع بتكوين فكرة عن الاحداث التي وقعت فعلا ، دون ان نخوض في التفاصيل المتعلقة بكيفية وقوعها .

ويمكن القول ايضا ان الشعوب المختلفة الغابرة اقامت نوعا من الاتصال بينها ربما كان قديما قدم التباين في انساق التكيف نفسها . واغلب الظن انه وجدت ، في عهود معينة وفي بعض اجزاء العالم ، شعوب لم تنجح في اقامة اي اتصال مع الشعوب الاخرى ، او بالحري لم تعرف شيئا عن وجودها . وقد يصدق هذا القول حتى على العهد الذي فيه بلغ الانسان القديم اقصى توسع له . ومع اننا لا نستطيع انكار هذا الاحتمال ، فانه يتعذر علينا ان نستشهد بمثال واحد عن شعب معين ظل على انعزال تام عن سائر الشعوب الاخرى في جميع مراحل تاريخه . والواقع ان معلوماتنا العرقية عن هجرات الشعوب والاختلاط العرقي بينها تستبعد كلها مثل هذا الاحتمال . ومن جهة اخرى لا بد لنا من ان نطرح السؤال التالي بالنسبة لاي مجتمع بشري : ما عدد سماته الثقافية التي يمكن ان نثبت انها تعود الى اختراعات محلية او انها لا ترتبط مطلقا بسمات اي من الشعوب الاخرى ؟ هناك بينات تقيم الدليل على وجود مشابه في السمات الثقافية بين شعوب متباعدة من الناحية المكانية ، واحيانا حتى بين شعوب متباعدة من الناحية الزمانية . والواقع ان هذه الظاهرة هي من المشكلات الكبرى التي يواجهها علماء الانثربولوجيا . ففي تاريخ علم الانثربولوجيا تكررت المحاولات التي بذلت لحل هذه المشكلة ، وكثيرا ما وجهت هذه المحاولات الى المقابلة بين احتمال استقلال السمات الثقافية في نشأتها

وتطورها وبين احتمال انتشارها وانتقالها هي ومركباتها من شعب لآخر .

غير ان الدراسات التي اجريت على الانتشار الثقافي بدأت ، في الغالب ، باعداد قوائم تبين التوزيع الجغرافي لسمات معينة او لمجموعات منها ، وليس باستقصاء الاحتكاك بين شعوب معينة في ظل اوضاع تاريخية واقعية . ومع ان المشكلات المتصلة بالمنشأ المحتمل لهذه السمات الثقافية وانتشارها الفرضي بين شعوب مختلفة تعتبر بوجه عام مشكلات تاريخية ، فانها تمثل تاريخا لا يتضمن معلومات حقيقية عن التفصيلات المتعلقة بالحوادث او الاوضاع او الشخصيات المعينة . ولذا كان لا بد لكل دراسة تقوم على هذا الاساس من ان تلجأ الى استنتاج شروط التغير الثقافي والعمليات الفعلية التي اقترنت بظاهرة الانتشار الثقافي . وكان من جراء هذا الاتجاه ان خضعت السمات الثقافية ومركباتها، في كثير من الحالات ، لنوع من التجسيد ،وذلك بالنظر اليها كما لو كانت تملك حياة خاصة بها لا ترتبط بالكائنات البشرية الحقيقية . ولعل ابرز مثال على هذا الاتجاه هو الموقف الذي اتخذه اتباع المدرسة « التاريخية » الالمانية . فقد جرد هؤلاء مجموعات السمات الثقافية وافترضوا انها تتمتع بدرجة عالية من التكامل والاستقرار . ثم عمدوا الى معالجة هذه « الحلقات الثقافية » على الصعيدين الزماني والمكاني ، ونظروا اليها كما لو كانت وحدات مجسدة تتلاقى وتمتزج وتتساند بحيث تنشأ منها مجموعات جديدة . ولا يتضمن هذا الاتجاه التاريخي محاولات لمعالجة التفصيلات المعقدة للاحداث التاريخية الفعلية او عمليات التفاعل التي تنشأ من اتصالات تجري بين كائنات بشرية حقيقية .

ومع ان العلماء الانثربولوجيين الامريكيين كانوا اشد حذرا على وجه الاجمال ، فان تصور الثقافة كما لو كانت ظاهرة « فوق عضوية » او ظاهرة قائمة بذاتها من شأنه ان يشجع النزعة الى تجسيد الافكار المجردة، وبخاصة على ايدي الباحثين الذين تنقصهم الدراية والخبرة . وثمة

صعوبات اخرى يواجهها الباحث عند معالجة الدوافع الدينامية في الثقافة. فمن العسير علينا ان نتبين كيف يمكن للثقافة ـ بوصفها تجريدا اجماليا لنسق حياة الشعب ـ ان تحدث اثرها ، اذا لم نعتبرها جزءا مقوماواضح المعالم من نشاط الافراد المتصل بتفاعل بعضهم مع البعض الآخر . فالتحليلات تشير ،في نهاية المطاف ، الى ان الافراد هم الذين يتبادلون التأثير والتأثر وهم الذين يستجيب الواحد منهم للاخر . والثقافة ، كما اوضح بدني [١] ، «ليست علة فاعلية ولا تطور نفسها ، ولذا لا تملك القدرة على التفاعل مع اي كيان آخر » . واذا تبنينا رأيا معاكسا لهذا الرأي فان ذلك يؤدي الى « مغالطات ثقافية تقوم على الافتراض بان الثقافة قوة يمكن ان تصنع وتطور نفسها ، وان الافراد يلعبون دورا سلبيا كما لو كانوا مجرد مستقبلين او ناقلين للثقافة » .

والواقع ان الكائنات البشرية هي دائما عوامل فعالة في الثقافة .فاذا نظرنا الى المشكلة من وجهة النظر البيولوجية ومن ناحية مداها البعيد ، تبين لنا ان الخاصة التي يتميز بها الانسان عن سائر المخلوقات الاخرى هي انه خالق للثقافة وليس مجرد اداة لها . وهو لا يكون اداة للثقافة الا بقدر ما يتعلمه ويستعمله من آلية الثقافة في المجتمع الذي ينتمي اليه . حتى في هذه الحالة لا يمكن وصفه بانه مجرد اداة سلبية انفعالية ، نظرا لانه يستعمل الوسائل الثقافية من اجل تحقيق اغراض فردية تبعث الارتياح في نفسه . وأهم من ذلك كله هو ان هناك دائما مجالا لاجراء تكييف جديد ، ويتحقق هذا التكييف عندما يخترع مجتمع وسائل ثقافية جديدة او يقتبس طرقا جديدة لصنع الاشياء من مجتمع آخر يتمتع بموروث ثقافي مختلف .

---

(١) David Bidney, «On the Concept of Culture and Some Cultural Fallacies», «American Anthropologist», XLVI (1944), 30-44.

ومع ان علماء الانثربولوجيا كثيرا ما يتحدثون عن « حركـات » الثقافة او « تقابل » السمات او المركبات الثقافية ، فان هذه الطريقـة في الكلام يجب ان تعتبر مجازية وتجريدية . فاذا تقيدنا بالمعنى الحرفي لكلمة « التقابل » امكننا القول ان الثقافـات لم « تتقابل » قط ، وانهـا لن « تتقابل » ابدا . ولكن ما نقصده بهذا المصطلح هو ان الشعوب هي التي تتقابل ويتفاعل بعضها مع البعض الآخر ، وان عمليات التفـاعل الاجتماعي قد تؤدي الى التثقف [٢] ، أي الى حدوث تعديلات في نسق حياة الشعبين اللذين تم التفاعل بينهما او في حياة احدهما . فاذا ظهرت فروق ملحوظة في نسق حياة اي منهما ، فان هذا يعني ان الافراد تعلموا طرقا جديدة في العمل والتفكير والشعور .

ويشير هذا كله الى ان تكيفا جديدا حدث نتيجة للتأثر بخبرة جديدة مجزية او لاكتساب قناعة جديدة . فمن المعروف ان التعلم لا يتم بدون دافع او حافز . وفي عملية كهذه يكاد يتعذر علينا ان ننظـر الى الافراد كما لو كانوا ناقلين سلبيين او انفعاليين للثقافة . فهم ، كما يبدون لنا ، يمثلون كائنات حية كادحة تسعى دوما الى تبني وسائل جديدة من اجل تحقيق غاياتها . وهذه الظاهرة تنعكس على السلوك الانساني بوجه عام . فالتكيف الانساني يقترن بوسائل فريدة خاصة بالمجتمعات البشرية. اما التكيف التجديدي الذي يقرنه علماء الانثربولوجيا بخاصة « التثقف » فهو يعكس المرونة التي تتسم بها وسائل التكيف الخاصة بالانسان .

ويذكر علماء البيولوجيـا ان عملية تكيف الكائنـات الحية على بيئاتها تتم حين تعكس هذه الكائنات نظما خاصة وتتصرف بطريقة تمكنها

(٢) اذا اراد القارىء الاطلاع على تاريخ هذا المصطلح وتعريفه النظامي فبامكانه الرجوع الى المصدرين الآتيين :
Melville J. Herskovits, «Acculturation» (New York, 1938); Ralph Linton, ed., «Acculturation in Seven American Indian Tribes» (New York, 1940), particularly Chap. VIII.

من البقاء في حالة سليمة والاكثار من نوعها . وثمة خاصة ينفرد بها نوعنا البشري ، بالمقابلة مع الحيوانات الاخرى ، وهي انه غير مزود بآلية ثابتة للتكيف تقوم على اسس نشوئية . فنسق التكيف الخاص بالانسان لا يتحقق الا بوسائل تعتمد على قدرته على التعلم والاختراع والتعامل بالرموز . وحين يقدم عالم انثربولوجي وصفا لطريقة حياة احد الشعوب في ضوء اشكاله وانماطه الثقافية ، فانه في الوقت نفسه يصف الوسائل التي يستخدمها افراد هذا الشعب لحل المشكلات الاساسية المتصلة بحياتهم البشرية ، وهي وسائل اثبتتها التقاليد بعد الاختبار والتجربة . وبعبارة اخرى ، ان اداة التكيف الانساني هي ما يطلق عليها علماء الانثربولوجيا عبارة « الثقافة من وجهة نظر جوانبها الوظيفية الاساسية ». فالتكيف الانساني هو تكيف يقوم على اعتبارات ثقافية . وحياة الكائنات البشرية ، في علاقاتها بعضها مع البعض الآخر وفي علاقاتها مع بيئتها الجغرافية ، تعدل وتنظم دائما على هدي وسائل ثقافية من مرتبات مختلفة. والمؤسسات الاجتماعية والاقتصادية والافكار والقيم والمعتقدات نعتبرها جميعا ادوات التكيف الانساني مثلما نعتبر الوسائل المادية . ومن الطريف ان نذكر هنا ان جون ديوي عرف الكلام بانه « اداة الادوات ».

واستطاع الانسان ، بما اوتي من استعداد لاستغلال قدرته على الاختراع والتكيف وعلى ايصال خبراته للاخرين والانتفاع بخبرات الآخرين ، استطاع ان يخلق عالما جديدا ، عالما انسانيا يقوم على طبيعة وفاعلية الوسائل الثقافية التي اخترعها هو نفسه وتعلم طرق استعمالها ، عالما يؤدي وظيفته ويكتسب اهميته ودلالته في ضوء المنجزات الثقافية . وبما ان المنجزات الثقافية قابلة للتطوير او التغيير أو التعديل وفق ما تتطلبه الظروف ، فان الانسان وجد نفسه حائزا على اداة تكيفية تمتاز بمرونة فائقة . فمن جهة ، استطاع الانسان ان ينتفع بادوات المعيشة التي اختبر صلاحها في تأمين نفسه ونوعه ، وذلك بدمجها مع نسق من الحياة قابل

للانتقال من جيل لآخر . ومن جهة اخرى تيسر له اجراء التعـديل او التكيف اللازم كلما دعت الحاجة الى ذلك . واذا قابلنا التكيف الثقافي مع التكيف الذي يعتمد على تغيرات نشوئية او وراثية حيث ترجح كفـة الاستقرار وحيث يستحيل ادخال تعديلات سريعة نسبيا ـ اذا اجرينا مثل هذه المقابلة ، تبين لنا ان التكيف الثقافي ينطوي على قيمة بقائية كبيرة بالنسبة للنوع البشري .

والواقع ان التكيف الثقافي كان ينطوي على امكانات واسعة وبعيدة المدى بحيث يسر للانسان ان يخلق عوالم كثيرة مختلفة لنفسه . وكانت هذه العوالم ،في الظروف المعينة التي نشأت فيها ، تتمتع جميعها بقيـم تكيفية . فكل منها كان يمثل ثقافة خاصة ، اي انه كان يمثل تجربة في الحياة الاجتماعية والتكيف البيئي والاتجاهات السيكلوجية . وقـد وصف علماء الانثربولوجيا عددا كبيرا من الثقافات المتنوعة للشعوب غير المتعلمة في العالم . وتستأثر هذه الثقافات باهتمامنا لانها تقيم الدليل على المدى الواسع للوسائل الثقافية التي استخدمها اعضاء نوع عضوي واحد من اجل التكيف على بيئاته المختلفة . نستنتـج من هذا كله ان الاشكال الثقافية ، على اختلافها وتباعدها تستطيع ان تخدم اغراضـا تكيفية اساسية . وهذه هي الحقيقـة التي تتجلى فيها اهمية التثقف بوصفه عملية تكيفية تجديدية .

ويلاحظ ان الفرد ، بسبب الصفة العرضية الملازمة لزمان ومكان ولادته ، يواجه دائما الحاجة الى ان يتعلم كيف يعيش حياته في ظـل الاشكال الثقافية التقليدية لمجتمعه ، وذلك على الرغم من انه قادر بالقوة على التكيف الاجتماعي والبيئي في ظل اي نظام من الوسائل الثقافية . وبناء على المعطيات التجريبية المتواقرة لدينـا ، يمكن القول ان هناك مجموعة من الاشكال الثقافية التي تكون دائما سابقة على الفرد . فعن طريق عملية التعلم او التدرب الاجتماعي يكتسب الفرد معتقدات ومواقف

وقيما معينة ، ويتقن عمليات تكنولوجية ، ويتعلم ادوارا اجتماعية ، ويطور شخصيته على نحو يساعده على مجابهة مشكلات الحياة في نطاق الحدود التي يرسمها مجتمعه . وهو يقوم بهذا النشاط بدافع من حوافز بيولوجية واخرى مكتسبة ، يجري تعزيزها في الحالين بنظام من الثواب والعقاب . وهكذا يتضح ان الوظيفة الاساسية لعملية التدرب الاجتماعي هي اعداد الافراد للاشتراك في عالم سلوكي معين .

وعملية كهذه هي ايضا من العوامل الاساسية المساعدة على الاستقرار في جميع المجتمعات البشرية ، نظرا لانها تنزع الى خلق اتساق في انماط السلوك يساعد على تكوين المفهوم المجرد للثقافة . ولكن التدريب الاجتماعي وحده لا يكفي لانتاج اشياء غريبة كالانسان الآلي . فثبات الاشكال الثقافية ما هو الا ظاهرة من ظاهرات الجانب الذي يمكن ان يتوقع او يتنبأ به من جوانب السلوك الناجم عن التفاعل الاجتماعي بين الافراد . وثمة أنواع من السلوك الفطري او الشاذ او المنحرف نجدها في جميع المجتمعات ، وهذه قد لا تكون عرضة لأن تتراكم على مر الزمن او تسير في اتجاه ذي دلالة اجتماعية . وعلاوة على ما تقدم ، نلاحظ ان العمليات القائمة على النزوات والتخيلات تشكل هي ايضا عاملا ثابتا في الحياة النفسية للافراد ، وتتيح الفرصة لايجاد حلول جديدة لمشكلات قديمة او لمواجهة اوضاع جديدة بطرق جديدة . وقصارى الكلام ، ان تكيف افراد على وضع جديد قد يؤثر في تفكير الافراد الآخرين وشعورهم وسلوكهم ، وقد يؤدي بالتالي الى تعديل نسق حياة الجماعة باسرها .

يتضح مما تقدم ان تحليل التغيرات الثقافية يسير على النهج التالي : يبدأ بتجريدات وصفية للاشكال الثقافية المستقرة ، وينطلق منها ليمر بسلسلة من العمليات المرتبطة بالظروف التي دفعت الافراد الى تعديل طرق تكيفهم ، ثم يعود الى آثار التكيف المعدل وانعكاساته على

الاوضاع الاجتماعية فيصفها على اعتبار انها اشكال ثقافية جديدة او معدلة . وهكذا يمكن القول ان مشكلة التغير الثقافي تتصل بالاوضاع والعمليات التي تؤدي الى تعديلات تكيفية في السلوك الفردي من النوع الذي يكتسب دلالة اجتماعية خاصة .

ومن المظاهر العامة للتغير الثقافي ان النظام الثقافي الخاص باي مجتمع لا يزود افراده بوسائل لتكييف انفسهم على جميع الظروف المحتملة او لحل كل ما ينشأ من المشكلات المحتملة . فكل نسق من انساق التكيف له حدود خاصة به يقف عندها . فكما ان التكيف العضوي يتضمن انماطا مركبة من الاستجابات التي تعود الى اصول تشوئية ، كذلك الحال بالنسبة للتكيف الثقافي فانه ايضا يتضمن استجابات مركبة تعود الى اصول تطورية وانمائية تتصل بما يتلقاه الافراد من تدريب وخبرة . وهذا هو الثمن الذي يتوجب على الافراد دفعه مقابل التمتع بشكل مستقر نسبيا من اشكال التكيف ، عضويا كان او ثقافيا . ولولا التدريب الاجتماعي ، لاضطر الفرد الى ان يرتجل وسائل جديدة غير مجربة لكل وضع جديد يواجهه . غير ان بعض الصعوبات قد تنشأ من اوضاع تكشف النقص في الوسائل التقليدية . فالقوس والسهم ربما يمثلان وسيلة تكيفية ذات قيمة كبيرة عند شعب معين يستخدمهما في طلب الطعام ، ولكنهما لا يفيان بالغرض ابدا عند استعمالهما ضد شعب آخر يستخدم الاسلحة النارية .

وتضطر الشعوب عادة الى قبول النقائص الكامنة في اساليبها ومؤسساتها القائمة حتى يتم اختراع اخرى افضل منها . ويصدق هذا القول على الشعوب البدائية . ولكن الشعوب الغربية تعي هذه الحقيقة ، ولذلك تراها تشجع اختراع وسائل آلية جديدة في ميدان التكنولوجيا . اما في ميدان المؤسسات الاجتماعية والاقتصادية ، فان المجتمعات الغربية اقل وعيا لطبيعتها الذرائعية أو « التجريبية » كما انها اقل وعيا للنقائص

الكامنة فيها منها للنقائص الكامنة في ميدان التكنولوجيا . لنتأمل ، مثلا ، الوضع الذي نشأ في فترة الكساد في الولايات المتحدة حين اغرقت الاسواق باصناف من السلع لم يجن التجار اي ربح يذكر في بيعها . ومن المعروف ان السوق يمثل الوسيلة الاجتماعية التي تعتمدها المجتمعات الغربية في توزيع البضائع . وهذا يعني ان السلع تنتج من اجل بيعها باسعار معينة . فاذا تعذر بيعها بشيء من الربح ، فان المجتمع لا يملك طريقة اخرى لتوزيعها على المستهلكين . ولذا اضطر السوق في فترة الكساد الى اتلاف بعض السلع التي تعذر بيعها ، وذلك على الرغم من وجود مستهلكين كانوا بحاجة اليها . أما المجتمعات التي توزع فيها السلع بطرق اخرى ، فانها لا يمكن ان تفكر في اتلاف بضاعة قد يحتاج اليها بعض المستهلكين .

أما في المجتمعات المحصورة او المنعزلة نسبيا حيث تقوم انماط السلوك على تقاليد ثقافية محافظة ، فان النقائص الكامنة في اللغات والمعتقدات والمؤسسات الاقتصادية والاجتماعية المحلية والمظاهر الاخرى لنسق الحياة التقليدي لا تتضح للافراد الا في ظروف خاصة . ويعود ذلك الى ان الاشكال الثقافية المختلفة التي يتبناها اي من هذه المجتمعات، مهما كانت نواحي القصور فيها ، تشترك في أداء وظائف ذرائعية اساسية في حياة ذلك المجتمع . فمع ان لغة قبائل الايروكوا تختلف عن اللغة الانجليزية في تراكيبها وقواعدها ، فانها تعادلها من ناحية اعتبارها وسيلة للاتصال . وكذلك الحال بالنسبة للعائلة التي تقوم على تعدد الزوجات للرجل الواحد ، فانها ايضا تؤدي وظائف العائلة الاساسية ذاتها التي تؤديها العائلة التي تقوم على اساس الزوجة الواحدة للرجل الواحد . ولو ان الافراد لم يضطروا قط الى التكيف على أوضاع لم تعدهم لها معتقداتهم ومؤسساتهم التقليدية اعدادا تاما ، ولو انهم لم يشعروا قط بشيء من خيبة الامل بالنسبة للادوار التقليدية التي يسندها

اليهم المجتمع ، ولو انهم لم يفكروا قط في القيم والمعدات التكنولوجية الموجودة عند المجتمعات الاخرى ، ولو انهم لم يتعرضوا قط للاخطار الخارجية التي تتهدد اشكالهم الثقافية القائمة ، ولو لم ينشأ قط اي صراع داخلي يدعو الى اجراء تعديلات على الانماط الثقافية ، لو لم يقع ذلك كله لتناقصت العوامل التي ترتكز عليها ظاهرات التغير الثقافي الى اقصى حد ممكن . فطالما ان التغير الثقافي يعتمد على دوافع داخلية فقط ، فان التغيرات تكون ضئيلة الاهمية نسبيا وتكون سرعة التغير بطيئة للغاية . والمشكلة في مثل هذه الحالات تكمن في تحري وتحديد الاوضاع والدوافع المحتملة التي تحمل الافراد على اجراء تعديلات على مؤسساتهم دون التأثر باي حافز او مؤثر من الخارج .

غير ان ما يعنينا في هذا المقال هو القضية المعاكسة : كيف تنشأ التغييرات من الاحتكاك بين شعوب تختلف في نسق حياتها ؟ والمشكلة التي تمثل محور الاهتمام العلمي لا تكمن في واقع الاقتباس الثقافي ولا في واقع عملية الانتشار الثقافي . فهناك مئات الآلاف من الحقائق الثابتة تاريخيا التي يمكن الاستشهاد بها لاثبات هذا الواقع الثقافي، انما تكمن في فهم شروط الاقتباس وعملياته واثره في نسق حياة الشعب الـذي يقوم به .

عندما يحتك شعب بآخر يختلف عنه في نسق حياته ، فان هـذا الحادث لا يعجل بالضرورة في حدوث تعديلات جذرية على ثقافة اي من الشعبين ، حتى لو ظل التفاعل الاجتماعي قائما بينهما . ان هذا الاحتكاك شرط ضروري ولكنه غير كاف لحدوث التثقف او التثقيف . ولذا من المتوقع ان نجد حالات لا يؤدي فيها التفاعل الاجتماعي بين فئتين الى تغييرات جذرية في النسق الثقافي للتكيف عند اي منهما ، وانما يقتصر على تبادل المنافع والخدمات والسلع التخصصية التي يستطيع كل منهما ان يوفرها للآخر .

ولتوضيح هذا الوضع نرى من المناسب ان نستشهد بامثلة محسوسة منتزعة من العلاقة التي قامت حينا من الزمن بين اربع فئات قبلية في منطقة مرتفعات نلجيري في الهند . وظلت هذه الفئات متجاورة سنوات كثيرة ، وكانت متمايزة في لغاتها وثقافاتها ولكنها ، كما ذكر مندلبوم (٣) كانت « تعيش في اطار من التكافل او التعايش الاقتصادي والاجتماعي » .وكانت الحياة الاقتصادية لقبيلة تودا تدور حول الجاموس المقدس . اما قبيلة باداجا فاعتمدت على الزراعة ، في حين اعتمدت قبيلة كوتا على اشغال الحدادة . واما القبيلة الرابعة كورومبا فكان افرادها يقومون بجمع الطعام من الادغال المجاورة ويزاولون اعمال السحر ، وكثيرا ما كان يستعين بهم افراد من قبيلتي كوتا وباداجا . وكانت المقابلات مع السحرة تنظم عادة في خارج حدود القرية ، وفي مناسبات كهذه كان الاطفال والنساء يلزمون بيوتهم. ومن جهة اخرى كان موسيقيو قبيلة كوتا يدعون للاشتراك فيجميع المراسيم الكبرى التيكانت تقيمهاقبيلة تودا ، ولكن لم يسمح لهم قط بالاقتراب من مصانع الالبان خشية ان تصاب بالتلوث . وكان رجال الباداجا يلبسون العمامة . اما رجال الكوتا فلم يلبسوها ، ولما بدا لافراد منهم ان يفعلوا ذلك ، نصب لهم رجال الباداجا كمينا وانهالوا عليهم بالضرب ، فعبروا بذلك عن نقمتهم على اولئك الذين حاولوا اقتباس لباسهم الجليل الذي يرمز ، في نظرهم ، الى مقام اجتماعي رفيع .

وتابع مندلبوم وصفه فيقول : « ومع ان الاحتكاك بين هذه القبائل الاربع كان يتكرر كثيرا ، فان الاتصالات الاجتماعية كانت تقتصر على الوان معينة ومحدودة من النشاط . فالقبائل كانت تحرم بشدة كل علاقة وثيقة قد تؤدي الى الاختلاط الحر بين شخصين من قبيلتين مختلفتين » . وكان من جراء ذلك ان ظلت كل من هذه القبائل

---

(٣) David G. Mandelbaum, «Cultural Changes among the Nilgiri Tribes», «American Anthropologist», XLIII (1941), 19-26.

محافظة على خصائصها المميزة حتى تعرضت في المدة الاخيرة لاثر الغزو الثقافي الهندوسي والاوروبي .

وهكذا نلاحظ ان الاحتكاك قد يؤدي الى استجابات سلبية من حيث علاقته بالعمليات التي تنطوي على تعديل التكيف القائم . والسؤال الذي يتبادر الى الذهن هو : « اذا كان الشعب راضيا عن طريقة حياته ، فما الذي يدفعه الى تعلم مهارات جديدة او تعديل مؤسساته ، لا سيما ان باستطاعته ان يسد النقص في الخدمات المتوافرة عنده عن طريق استئجار اخصائيين من المجتمعات المجاورة ؟ » .

ان مثل هذه العلاقة قد تصبح اساسا لمنافع متبادلة ، كما قد توسع مجال التفاعل الاجتماعي بين شعبين اكثر انفتاحا واستعدادا لانشاء علاقات ودية بينهما من القبائل الهندية الاربع التي تقدم الحديث عنها . وعلى الرغم من ذلك ، فان هذه العلاقة قد لا تؤدي الى الحد الادنى من التثقيف والتثقف . وهذا هو الوضع الذي صورته لنا السيدة لندجرن حين تحدثت عن العلاقات التي دامت بين القوزاق الروس وقبائل التونجوس في شمال شرق منشوريا مدة قرن تقريبا ، ووصفتها بانها انموذج من « الاحتكاك الثقافي الذي لا يشوبه اي صراع » . [٤] ومن الوسائل الرئيسية للتفاعل الاجتماعي بين هذين الشعبين الاسواق والمقابلات في الغابات ، واحيانا تبادل الزيارات والضيافة . وعلى الرغم من هذا التفاعل ، لم تنشأ بينهما علاقات قائمة على الزواج . فالاتصالات بينهما تتخذ في اكثر الحالات شكل علاقات تجارية منتظمة . وتقول لندجرن : « حالما تنتهي المقابلات القصيرة التي تعقد لاغراض تجارية ، ينفصل الفريقان المتقابلان ويعود كل منهما الى نهج الحياة اليومية الخاص

---

(٤) Ethel J. Lindgren, «An Example of Culture Contact without Conflict; the Reindeer Tungus and Russian Cossacks of Northwest Manchuria,» «American Anthropologist», XL (1938), 305-621.

بمجتمعه » . ومع ان نسبة المتعلمين عند القوزاق اعلى منها عند التونجوس، فان جميع رجال التونجوس والاولاد ومعظم النساء يفهمون الروسية ويستطيعون في اكثر الحالات ان يعبروا عن انفسهم بطلاقة باللغة الروسية التي لا تستعمل الا في المعاملات التجارية . ومع ان الشعبين يعتنقان الديانة المسيحية من الناحية الشكلية ، فان كهنة « الشامان » (من آثار الديانة البدائية التي انتشرت قديما في منطقة جبال الاورال وشمال اوروبا وآسيا) ما زالوا يلعبون دورا مهما في كلا المجتمعين . وقد يصطنع الافراد اللاأدرية او الشك في الدين ، ولكنهم في الوقت نفسه كثيرا ما يؤمنون بكهنة الشامان وبقدرتهم على التنبؤ .

وتشدد لندجرن على العلاقات الودية بين الشعبين ، وعلى تبادل المنافع التجارية وبعض السمات الثقافية . غير انه يمكن القول بوجه عام ان ايا من الشعبين لا يشعر بحاجة الى اجراء تعديلات جذرية على نسق حياته . والواقع ان ما حدث من تعديل او تكيف انما جرى على اساس طوعي صرف . ومع ان لندجرن تعرض بياناتها كما لو كانت تصور وضعا غير مألوف ، فان ردفيلد(٥) يشير الى وضع مماثل قام « بين طبقة المزارعين الدنيا في منطقة بحيرة أتيتلا في المرتفعات الوسطى من جواتيمالا وبين الهنود الحمر الضاربين في المنطقة ذاتها » ، هذا مع العلم بان الفروق الثقافية في هذه الحالة اقل وضوحا . ويعتقد ردفيلد ان العوامل المشتركة في الوضعين التي يعود اليها الفضل في اقامة علاقات سلالية ودية هي :

« امتناع كل من المجتمعين في تاريخهما الحديث عن القيام بمحاولات للسيطرة على الآخر ، عدم وجود تنافس اقتصادي يقوم على اسس عرقية او سلالية ، وفرة موارد الثروة الطبيعية ، الطبيعة الفردية للتنظيم

---

(٥) Robert Redfield, «Culture Contact without Conflict», «American Anthropologist». XLI (1939), 514-17.

الاقتصادي والاجتماعي ، اشتراك المجتمعين في بعض الاساليب المعاشية . ومن العوامل المهمة ايضا ان القوزاق والاسبان لم يحملوا معهم الى مناطق التفاعل الاجتماعي اي تعصب عنصري قوي ضد الشعوب التي تختلف عنهم في اللون او الطراز الجسمي » .

وتمتاز جواتيمالا ، علاوة على ما تقدم ، « بتعدد الظاهرات الثقافية وانتشار النزعة التجارية التي تعمل على اضعاف الولاء العاطفي عند الافراد ، وعلى تحريرهم من الاتجاه الى النظر بازدراء الى العادات التي تختلف عن عاداتهم » . ويبين تاكس (٦) في هذا الصدد ان الجاليات الجواتيمالية يمكن اعتبارها « مجتمعات محلية منفصلة تقر بان لكل منها ثقافة مختلفة خاصة بها » .

« يبدو ان الاهالي ينظرون الى المجتمعات كما لو ان كلا منها يختص بزراعة نبات معين في الارض الصالحة له ، وينفرد بعاداته واساليبه الخاصة . ففي منطقة بناجاشل يسود الاعتقاد بان نقل نبات تزدهر زراعته في مكان معين الى مكان آخر لم يزرع فيه قبلا يؤدي الى انتقال «روح» هذا النبات وبالتالي الى ازدهاره في المكان الجديد واخفاقه في المكان القديم . ولهذا السبب يشعر الهنود بالقلق حين يعلمون ان هنودا من مدينة اخرى اخذوا يعنون بزراعة احد محاصيلهم المحلية » .

واذا نظرنا الى المشكلة من وجهة النظر السيكلوجية والاجتماعية العامة ، كان من السهل علينا ان ندرك ان عملية التثقيف او التثقف في اوضاع مماثلة للوضعين اللذين استشهدنا بهما آنفا تكون محدودة نسبيا . فافراد الفئات التي تتفاعل اجتماعيا لا تشعر بحافز قوي لتعلم طرق جيرانهم . ومن المعروف ان التعليم هو الركيزة السيكلوجية لعملية التثقف او التثقيف . فكما ان التعلم هو العامل الاساسي في عملية

(٦) Sol Tax, «World View and Social Relations in Guatemala», «American Anthropologist», XLIII (1941), 37-42.

التدريب الاصلي التي تعد الافراد للاسهام في طريقة معينة في الحياة ، فانه ايضا يلعب دورا محوريا مماثلا في تكييف الافراد مجددا على طريقة اخرى في الحياة .

ويجب علينا ، عند دراسة الاحتكاك بين الشعوب التي تختلف في نظمها الثقافية ، ان نبحث في العقبات التي تقف في سبيل عملية التعلم من جهة ، والحوافز على التعلم من جهة اخرى . ومع ان هذه الطريقة في المعالجة لم تستقص بعد بصورة منتظمة ، فانها تيسر لنا النفاذ مباشرة الى الدوافع الدينامية في عمليتي التثقيف والتثقف . والاسئلة الاساسية التي تتبادر الى الذهن هنا هي : اذا حدث تفاعل اجتماعي بين مجتمعين ، فما هي الشروط الخاصة التي يجب ان تتوافر لتتاح لافراد من احد المجتمعين الفرصة لان يتعلموا شيئا عن طرق حياة المجتمع الآخر ؟ الى اي حد تقابل عملية التعلم بالتشجيع او التثبيط ؟ ما الاشياء التي يتعلمها الافراد من المجتمع الآخر وما هي الحوافز على التعلم ؟ اي فئة او طبقة من الناس في كلا المجتمعين تأخذ بيدها زمام المبادرة في عملية التعلم ؟ واخيرا ما هي نتائج عملية التعلم وانعكاساتها على العلاقات اللاحقة بين المجتمعين ونظمهما الثقافية ؟

وليس من الضروري ، في هذا المقام ، ان نخوض في التفصيلات المتعلقة بالجوانب الفنية لعملية التعلم . وحسبنا هنا ان نشير الى بعض المبادىء العامة وان نؤكد ان نظرية التعلم الحديثة تزودنا باساس او اطار مفيد نستطيع ، على هديه ، ان ندرك المفهومات المتصلة بالجوانب السيكلوجية والاجتماعية لعملية التثقف وان نسترشد بها في ابحاثنا التجريبية . (٧)

---

(٧) Neal E. Miller and John Dollard, «Social Learning and Imitation» (New Haven, Conn., 1941); Chap. XVI is devoted to «Copying in the Diffusion of Culture».

لا يمكن لعملية التعلم ان تتحقق بدون وجود دافع مناسب وكاف . ونقصد بذلك انه لا بد من توافر دوافع اولية او ثانوية قادرة على استنفار استجابات (على شكل اي نشاط يقوم به الكائن الحي كالنشاط العضلي او الغددي او الكلامي او الفكري) لمنبهات او قرائن معينة تقوم بدورها بتحديد مكان وزمان وطريقة السلوك . اما تكرار الاستجابات او توقفها ، فان ذلك يعتمد على ما اذا كانت الدوافع التي حركتها قد « كوفئت » او « لم تكافأ » ،اي ما اذا نقصت حدتها او ظلت على حالها. وفي حالة مكافأة الدوافع ، يقال عن الاستجابات بانها لاقت تعزيزا . وبعبارة اخرى ، « لابد من وجود حافز يدفع المتعلم الى الاستجابة لمنبه معين، ولا بد من حصوله على مكافأة مقابل استجابته لذلك المنبه . ويعني هذا ، بالكلام العادي ، ان الشخص ، كي يتعلم يجب ان يريد شيئا ، ويلاحظ شيئا ، ويفعل شيئا ، ويحصل على شيء مقابل ما فعل » .(٨) اما اذا لم تؤد الدوافع الى مكافأة او اذا ادت الى عقاب كما يحدث في بعض الاحيان ، فان بعض الاستجابات ستفتقر الى عامل التعزيز ، وبالتالي سيتجنبها الفرد الذي قام بها ، وفي هذه الحالة لا تتحقق عملية التعلم .

يعتبر الجوع والظمأ والجنس من الدوافع الاولية . غير ان الدوافع الثانوية هي التي تستأثر بمعظم اهتمامنا عند دراسة السلوك الانساني . ونقصد بالدوافع الثانوية الدوافع المكتسبة التي تعتمد على الخبرات السابقة للفرد ، او التي يتشربها الفرد من خلال تفاعله الاجتماعي مع الافراد الآخرين في نطاق عملية التعلم التي يمر بها . ومن الامثلة على الدوافع المكتسبة الخوف والقلق والرغبة في التمتع باعتبار اجتماعي والميل الى انواع معينة من الطعام . وبما ان جميع الدوافع الثانوية تنشأ باعتبارها

(٨) المصدر السابق نفسه ، ص ٢ .

جزءا من التدريب الذي يهيىء الفرد للاشتراك في مجتمع يهيمن عليه نظام ثقافي معين ، فان انواع الاستجابات المختلفة الصادرة عن الفرد والمنبهات التي يستجيب لها والمكافآت التي تخفف من حدة الدوافع تتلون كلهـا بصبغة الوضع الاصلي الذي تكيف عليه المجتمع . ومع ان ادخال نسق جديد في الحياة قد يتطلب الدوافع الاولية الاصلية ذاتها وربما ايضا بعض الدوافع الثانوية الاصلية ، فان التثقف على نطاق واسع يتضمن تكيفا جذريا جديدا في سلوك الفرد ، كما يتضمن ايضا استجابات وقرائن ومنبهات ودوافع جديدة . ومن الواضح ان الحوافز لمثل هذا التكيف الجديد يجب ان تعود على الفرد بنتائج مجزية جدا .

وتشكل هذه العمليات كلها ميدانا دراسيا على جانب كبير جدا من الاهمية . ولتوضيح أهمية الدوافع المكتسبة نستشهد بامثلة منتزعة من عادات الطعام المختلفة . لقد طغت على عادات الطعام عند الكائنات البشرية دوافع مكتسبة كثيرة جدا حتى ان وظيفتها لم تعد تقتصر على مجرد اشباع الدافع الاولي الذي يتمثل بالجوع . ومن الواضح ان كل مجتمع بشري يفضل الوانا من الطعام على غيرها . وهذا يعني ان الشهية لا تكافأ الا بالوان معينة من الطعام . واذا شاهد فرد طعاما غريبا او اكل منه ،فان ردة فعله قد تكون على شكل اشمئزاز او غثيان . ان استجابة كهذه ، بدلا من ان تكافىء الدافع ، تؤثر فيه سلبيا ، فتدفع الفرد الى الاحجام عنها في مناسبات مماثلة في المستقبل وبالتالي تحول دون اكتسابه لعادة اكل هذا الطعام الجديد .

قدمت ذات يوم لهندي متقدم في السن ولزوجته طعاما مؤلفا من طحين الشوفان والحليب ، ولكنهما رفضاه على الرغم من أنهما كـانا جائعين . واذكر بهذه المناسبة ان الافراد الذين تعرفت اليهم من قبيلة سولتو الهندية لا يحبون الحليب ، ولكنهم يأكلون طحين الشوفان اذا لم يكن ممزوجا بالحليب . وتبين لي ان تكيف الهنود على شرب الحليب

يتطلب حوافز قوية جدا . ومن جهة اخرى يحب هؤلاء الهنود الحمر مربى التوت . ولكن يجب ان نذكر هنا انهم كانوا دائما يحبون التوت البري حبا جما . وهم يحبون ايضا الدهن ، ولذا لا يشق عليهم اكل دهن الخنزير ، بدلا من الزبدة ، مع الكعك الذي يصنعونه من الشعير او الشوفان ، هذا مع العلم بانني لا استسيغه حتى مع التوابل . ويزودنا المجتمع الحديث في جزر هاواي [٩] بمثال آخر على الصعوبات التي يواجهها الافراد في التكيف على عادات جديدة في الطعام . كان سكان هاواي يؤثرون الاطعمة الباردة ، لا بل المبردة ، على الاطعمة الساخنة . ولذا كان من العسير عليهم جدا ان يكتسبوا الميل الى الاطعمة الساخنة على الرغم من طول مدة التثقف . ومن الامثلة على هذه الظاهرة ان فتاة من سكان هذه الجزر لم تستسغ « الشاي الساخن اللذيذ » الذي قدمته اليها مضيفتها . اما موضع اشمئزازها فلم يكن الشاي نفسه ، وانما درجة حرارته . وكانت هذه الفتاة تنحدر من أب امريكي وأم من السكان الاصليين ، وقد تعود الاب تناول وجباته وحده ، لانه بخلاف افراد عائلته الآخرين ، كان يؤثر الاطعمة الساخنة على الباردة .

ويعتبر التعلم عن طريق المحاكاة من انواع التعلم الاجتماعي الذي يمثل عملية التثقف . وسبب ذلك هو ان السلوك الذي يتكرر دائما يمثل انموذجا يصلح لان يكون منبها . والاستجابات الجديدة المكتسبة قد تكون مقاربة او مطابقة للنموذج . وهذا يتوقف على عدد المتغيرات التي تتطلب اجراء تمييزات فنية لا حاجة الى الخوض فيها (باستطاعة القارىء الرجوع الى التحليلات التفصيلية لعدد من الاوضاع الواقعية) . وليس من الضروري ان تكون المحاكاة عملية واعية . هذا وان المشكلات المتصلة بعدم الدقة في « النقل » وبالعوامل المؤثرة في ذلك تعتبر من اطرف

(٩) Ernest Beaglehole, «Some Modern Hawaiians» (University of Hawaii Research Publication No. 19), p. 39.

القضايا التي يمكن تحليلها في سياق دراسة عملية التثقف . وفي بعض الاوضاع يمكن للاقتباس عن الآخرين ان يصبح هو نفسه دافعا يؤدي الى نتائج مجزية . وهكذا نعود دائما الى المشكلة المتصلة بالدوافع التي حفزت الافراد على التكيف ثانية وبالطريقة التي تكافأ بها هذه الدوافع .

قد يتصل افراد ينتمون الى مجتمع معين بافراد ينتمون الى مجتمع آخر يختلف عن المجتمع الاول في موروثه الثقافي ، وقد يسمح لهؤلاء الافراد بان يتفاعلوا على الصعيد الاجتماعي مع افراد المجتمع الآخر وان يستجيبوا بحرية للفروق التي يواجهونها . في هذه الحالة يجوز لنا ان نفترض ان هؤلاء الافراد لن يحاكوا سوى عادات الطعام والمهارات والمواقف وما شاكل ذلك من عناصر الثقافة الاخرى التي ، لسبب او آخر، تشبع الدوافع التي اكتسبوها في ثقافتهم الاصلية . وهنا ايضا لا حاجة الى الدقة المتناهية في المحاكاة ، وبخاصة اذا كانت المحاكاة التقريبية تعود بمكافأة مجزية . واذكر بهذه المناسبة شيخا من الهنود الحمر اعتاد ان يرتدي قبعة كان قد حصل عليها من مركز احدى الارساليات التبشيرية . والطريف في الامر ان القبعة التي كان يرتديها كانت قبعة سيدة . ولكنه كان يجهل هذه الحقيقة مثلما كان يجهلها زملاؤه من اعضاء قبيلته . وسواء عليه ألبس قبعة سيدة أم لبس قبعة رجل ، فان النتيجة واحدة من حيث شعور الارتياح الذي بعثه هذا العمل في نفسه . فالشيء الذي حاكاه كان ارتداء القبعة وليس طرازا معينا من القبعات عند البيض . وهو لم يشعر باي حافز لان يتوخى الدقة الزائدة ، كما لم يتقدم احد من البيض ليعلمه الشكل الصحيح لهذا النمط الثقافي الغربي . ومن الامثلة المقابلة لهذا المثال الحالات التي كان فيها اعضاء الارساليات التبشيرية يحثون السكان الاصليين على محاكاة الازياء الاوروبية بدلا من ان يتركوا لهم حرية اختيار او تعديل الازياء التي تتلاءم واذواقهم .

وهكذا نرى ان دراسة عمليات التثقف تتضمن ليس استقصاء عاملي الدافع والمكافأة فحسب ، وانما ايضا تفصيلات عمليــة التعلم بالمحاكاة واثرها في « انتقال » انماط العادات . ففي التفاعل الاجتماعي بين شعبي القوزاق والتونجوس ، مثلا ، لا ريب في ان افراد التونجوس من الرجال كانوا يعتبرون تعلم اللغة الروسية للاغراض التجارية من الخبرات التــي تعود عليهم بمكافآت مجزية . ومن الطريف ان نعرف الى اي حد امتلك هؤلاء الأفراد ناصية اللغة الروسية وما هي مميزات اللهجة التي تكــلموا بها هذه اللغة . وثمة جانب آخر طريف ذكرته الباحثة لندجرن ، وهو ان النساء ايضا كن يفهمن اللغة الروسية . فاذا اخذنا بعين الاعتبار المعلومات المتوافرة لدينا عن العلاقات التجارية بين المجتمعات الاخرى حيث يكتسب الافراد لغات جديدة بدون تعليم نظامي ، جاز لنا الا نتوقع من المرأة في مجتمع التونجوس ان تكون ثنائية اللغة كالرجل . والسؤال الذي يتبادر الى الذهن هو : لماذا اعتبرت المرأة عند التونجوس تعلم اللغة الروسية خبرة تعود عليها بمكافأة مجزية ؟ ولا يسع المرء الا ان يتساءل ايضا : هل اللغة الروسية التي تكلمتها النساء كانت مختلفة عن لغة الرجال ام مطابقة لها ، واذا وجدت فروق بين الاثنتين فهل يمكن ربطها باختلاف الدوافع؟ وهذا يقودنا الى مشكلة اوسع تتصل بالتفــاعل بين الشعــوب ، وهي استقصاء الاوضاع التي ادت الى الفروق بين الجنسين في اكتساب لغات جديــدة .

وتشير المواد الغذائية التي يحصل عليها التونجوس عن طريق التجارة (الطحين والشاي والملح والسكر) الى حدوث تغير في عادات الطعام عندهم . ومن المصادفات الغريبة ان هذه المواد تشكل السلع التجــارية الرئيسية التي يتعامل بها اليوم الهنود في كندا . ومن المحتمل ان الحاجة الى هذه المواد نشأت ، في الحالين ، من رغبة السكان الوطنيين في سد النقص في غذائهم الرئيسي الذي يتألف عادة من اللحوم والاسماك . وكما

هي الحال عند قبائل الالجونكيان الشمالية ، يشتري رجال التونجوس ايضا ما يحتاجونه من الاسلحة النارية والفؤوس والآنية الحديدية والمقالي والغلايات النحاسية والصحون المطلية بالميناء وشوكات الاكل والسكاكين والكشاتبين والمقصات وما شاكل ذلك من الادوات التي يحتاجها شعب لا يملك صناعة معدنية . ومع ان التونجوس تعلموا كيفيـة استعمال هذه الادوات ، فان ذلك لا يعني انهم حاكوا انمـاط استعمالها عند القوزاق محاكاة تامة . ولا تعرض لندجرن لهذه النقطة ، ولـكنني رأيت بنفسي بعض افراد الالجونكيان يستعملون الكشاتبين كما لو كانت جلاجل او ادوات للزينة . واشترى افراد من الهنود الحمر ساعات تنبيه ليس لتذكر الوقت ، وانما للاستماع الى رنينها . وكان احد الهنود الـذين اعرفهم شخصيا يحمل ساعة صغيرة . ولكن من المشكوك فيه اذا كان يستطيع استعمالها لمعرفة الوقت . وفي افريقيا الشرقية استعمل بعض الاهـالي دبابيس الامان كزينة للشعر . (١٠)

وهكذا يتضح ان التعلم عن طريق المحاكاة يمكن ان يتم بدون اتقان النمط الذي تجري محاكاته . وهذا من شأنه ان يعزز المكافأة المقترنـة بالاشياء التجارية الى مدى ابعد كثيرا من قيمتها المادية الظاهرة ، ويساعد على اشباع عدد من الدوافع الثانوية المختلفة بطرق جديدة . واذا حللنا السمات الثقافية ذات العلاقة ، تبين لنا ان التعلم عن طريق المحاكاة يفسح مجالا واسعا لاندماج العناصر المقتبسة في النمط الثقافي للمقتبسين . ولذا كان من الضروري ان ندرس اشكال ومعاني ووظائف السمات الثقافية بوصفها خصائص مترابطة ، وذلك على الرغم من تنوعها وتباينها . (١١)

(١٠) Richard C. Thurnwald, «Black and White in East Africa : the Fabric of a New Civilization; a Study in Social Contact and Adaptation of Life in East Africa» (London, 1935), p. 174.

(١١) H.G. Barnett, «Culture Processes», «American Anthropologist», XLII (1940), 21-48.

واذا اتاح التفاعل الاجتماعي بين شعبين حرية التعلم عن طريق المحاكاة ، فانه يكاد يكون من المتعذر ان ننظر الى التثقف كما لو كان عاملا من عوامل تفكك المجتمع . فالسمات الثقافية لمجتمع معين التي يحاكيها اعضاء مجتمع آخر تصبح مرتبطة وظيفيا بالدوافع القديمة او الجديدة التي تنسجم مع النظام الثقافي للمقتبسين . فتعلم وسيلة لغوية جديدة للاتصال ، او طريقة اعداد وأكل انواع جديدة من الاطعمة او التوابل التي تنطوي على قيم غذائية ولكن لا يمكن الحصول عليها الا عن طريق التجارة ، او استعمال ادوات اشد فاعلية ، او استكمال النقص في المصنوعات المحلية عن طريق استيراد مصنوعات اجنبية ـ ان تعلم اي من هذه الامور لا يسبب تفككا في المجتمع ، اذ ان اثره من هذه الناحية لا يختلف عن اثر الاكتشاف او الاختراع الجديد ، ولا سيما حين نأخذ بعين الاعتبار النظام الثقافي عامة . وبعبارة اخرى ، يمكن للتثقف ان يجري على نطاق متواضع من خلال العمليات الانتقائية للتعلم الطوعي القائم على المحاكاة ، دون ان يؤدي ذلك الى تعديل جذري في سلوك الافراد او في النمط الكلي لحياة المجتمع الذي يعيشون فيه .

غير ان معظم الدراسات التي اجريت على التثقف تشير الى ان المشكلة ليست بسيطة كما قد تبدو لاول وهلة ، اذ توجد متغيرات معقدة اخرى تلعب دور المحدد . فهناك جماعات لا تسمح لافراد الجماعات الاخرى بان تحاكي بحرية اي جانب من جوانب ثقافتها ، لا بل انها احيانا تتخذ خطوات فعالة لمقاومة هذا السلوك . وقد تعبر جماعة معينة عن هذا الموقف بمعاقبة الافراد الذين يحاولون تبني احدى عاداتها او تقاليدها ، او قد تضع حواجز تحول دون التعلم عن طريق المحاكاة . وسبق ان أشرنا الى العقاب الذي حل برجال قبيلة الكوتا بسبب اقدامهم على ارتداء غطاء الرأس الذي يستعمله رجال قبيلة الباداجا . واذا استعملنا المصطلحات الاجتماعية والسيكلوجية ، امكننا القول ان سلوك رجال الكوتا ادى الى

العقاب بدلا من ان يؤدي الى المكافأة . وبالنسبة للعلاقات بين القبائل الضاربة في مرتفعات نلجيري ، يبدو من المحتمل ان انتشار التمييز الطائفي والطبقي في الهند قد دفع كل جماعة الى الاستقلال بنظامها الثقافي . فمن الخصائص المميزة لنظام التمييز الطائفي او الطبقي صعوبة انتقال الوان النشاط والخدمات التي تمارسها جماعة معينة الى جماعة اخرى . هذه الظاهرة قد تلقي ضوءا على الحواجز التي تقف في سبيل عملية التثقف ، وقد تفسر ايضا لماذا تلجأ قبيلة التوذا دائما الى استئجار موسيقيين من قبيلة الكوتا لاقامة شعائرها .

ومن الامثلة الاخرى على العقبات التي تقوم في وجه التثقف المحاولات التي بذلها الاسبان ابان العهد الاستعماري لمنع الهنود من ركوب الخيل واقتناء الاسلحة النارية . [١٢] وفي جزر الهند الشرقية قامت الادارة الهولندية بجهود منظمة وواسعة النطاق لوضع العقبات في سبيل تثقف الشعوب الوطنية . ويصف كندي هذه السياسة بانها « سياسة معارضة للتثقف » . وتقوم هذه السياسة على مقاومة التثقف بتشجيع استمرار بعض المؤسسات الوطنية . والواقع ان الادارة الهولندية حاولت الابقاء على الاشكال المحلية للحكم حيثما امكنها ذلك ، كما انها اخضعت نشاط الارساليات التبشيرية لاشرافها الصارم وواصلت العمل بنظام الملكية الجماعية للاراضي . ويقول كندي ان نتائج هذه السياسة هي « بقاء الثقافات الوطنية سليمة ومزدهرة ، وتطور نظام قضائي عادل وسهل الفهم ، وتطور اقتصاد زراعي وطني يقوم على اسس سليمة — ونشوء دولة اندونيسيا الحديثة ، وهي دولة متخلفة وعاجزة عن شق طريقها دون ان تتلقى العون من دولة اخرى من الدول الحديثة القوية . » [١٣]

(١٢) H.J. Priestly, «The Coming of the White Man, 1492-1848» (New York, 1930), p. 89.

(١٣) Raymond Kennedy, «Acculturation and Administration in Indonesia,» «American Anthropologist», XLV (1943), 185-90.

تحدثنا عن مواقف او سياسات الجماعات التي ترغب في الانفـراد بمؤسساتها وسماتها الثقافية وتضع العقبات في وجه افراد الجماعات الاخرى التي تميل الى محاكاة جوانب معينة من طرق حياتها . وبالاضافـة الى هذه العقبات الخارجية هناك عقبات داخلية قد تمنع شعبا معينا من تبني الوسائل الثقافية لشعب آخر حتى في الحالات التي يميل فيها الافراد الى محاكاة الآخرين . فالكثير من الشعوب الوطنية الاصلية التي احتك بها الاوروبيون ادرك في الحال قيمة الادوات والمواعين المعدنية وسرعان ما تعلم كيفية استعمالها ، ولكنه لم يبذل محاولات لتعلم طرق صناعتها . وقد تعذر على هذه الشعوب التي كانت اقرب الى العصور الحجرية منها انى العصور الحديثة تعلم اساليب الصناعة المعدنية بسبب الفجوة الكبيرة التي كانت قائمة بين مستواها العملي والتكنولوجي وبين المستوى العلمي والتكنولوجي للشعوب الاوروبية . أما اليابانيون الذين كانوا قد استمدوا الكثير من الارث الثقافي الصيني ، فكانوا مستعدين في منتصف القـرن التاسع عشر لاستيعاب الجـانب التكنولوجـي من الحضارة الغـربية ولاستعماله لتحقيق اغراضهم الخاصة ، هذا مع العلم انهم رفضوا جوانب اخرى معينة من هذه الحضارة .[١٤] ويمكن القول ان الشعوب البدائيـة وغير المتعلمة انساقت في تيار السوق العالمي ورأسماله المتزايد ووجدت نفسها تلعب دور المستهلك لسلع لم تطمح قط بانتاجها محليا .

وهذا يقودنا الى سمة من اهـم السمات المميزة لتـوسع الشعوب الاوروبية والاثر العميق الذي احـدثه هذا التوسع في حيـاة الشعوب البدائية التي احتكت بها . فمنذ البداية الاولى لحركة التوسع الاوروبي واثنتان من الفئات الاوروبية تلعبان دورا فعالا في تغيير اوضاع السكان الوطنيين وهاتان الفئتان هما التجار واعضاء الارساليات التبشيرية . وبذل

(١٤) George Devereux and E.M. Loeb, « Antagonistic Acculturation », «American Sociological Review», VIII (1943), 133-47.

افراد هاتين الفئتين جهودا خاصة لاقناع الوطنيين بضرورة تبني الأدوات والوسائل والمهارات والمعتقدات والمواقف الاخلاقية الاوروبية . وحصر التجار معظم جهودهم في بيع الاشياء المادية . اما اعضاء الارساليات التبشيرية فقد انصب اهتمامهم على نشر قيم معنوية . وهكذا اسهم افراد هاتين الفئتين اسهاما فعالا في دفع عجلة التثقف ، ويمكن اعتبار نشاطهم من السمات المميزة للاحتكاك بين الاوروبيين وغير الاوروبيين ، وليس من المظاهر الممثلة لعملية التثقف العادية التي نجدها في تاريخ الانسانية .

وانحصر دور التاجر في الاتصال بالوطنيين وعرض بضائع من النوع الذي كان يكافىء دوافعهم الاولية والثانوية (بطبيعة الحال لم يفهم الوطنيون مثل هذه المصطلحات السيكلوجية) وينمي رغبتهم في اكتساب دوافع ثانوية جديدة . ولم يعن التاجر بما اذا كان الوطنيون سيقبلون المسيحية او سيرفضونها ولا بما اذا كان تعلم استعمال اشياء او اساليب جديدة سيؤثر في النمط التقليدي لحياتهم . فالسكان الوطنيون ، بما اوتوا من نزعة سيكلوجية عملية ، سرعان ما يدركون قيمة الاشياء التي تعود عليهم بالفائدة القصوى ويقول ريد في هذا الصدد :

« ساد الاعتقاد حينا من الدهر ان حاجات الانسان البدائي قليلة جدا حتى انه في بدء عهد احتكاكه بالاوروبيين لم يقبل الا على السلع التجارية التي كانت تشبع رغبته في الزينة والظهور . غير ان هذا القول لم ينطبق قط على اي من قبائل غيانا الجديدة التي اتصل بها الاوروبيون منذ رحلات فنش الاستكشافية (١٨٨٠ ــ ١٨٨٢ و ١٨٨٤) حتى يومنا هذا.فافراد هذه القبائل لم يظهروا اي اهتمام بالخرز والكاليكو ومساحيق الوجه الا بعد تأمين حاجتهم من السلع المفضلة . واذا توغل غريب في منطقة اعالي نهر سبيك البعيدة عن الاشراف الحكومي ، احاط به جمهور من الوطنيين وطالب منه بالحاح تزويده بسكاكين حديدية وفؤوس وشصوص لصيد السمك . وفي جميع المناطق ، باستثناء النائية منها ،تخلى

المواطنون ، في معظم الحالات ، عن استعمال الادوات الاصلية المحلية واستعاضوا عنها بادوات من صنع اوروبي . » (١٥)

وفي المنطقة الشمالية من كندا سارت العملية شوطا ابعد . ففي هذه المنطقة التي تعتبر الموطن الاصلي للزوارق المصنوعة من خشب البتولا هناك اقبال مستمر على الزوارق التي تصنع اشرعتها من قماش القنب والتي تصمم وفق النماذج الهندية . وقد اتضح للهندي ان الزورق الذي يعرضه عليه التجار اقوى وامتن من زورقه القديم الذي كان يصنعه من خشب البتولا كما انه اقدر على نقل الاحمال الثقيلة والكبيرة الحجم . والجدير بالذكر ان الهنود الحمر لا يظهرون تعلقا وجدانيا بالاشياء القديمة ، فهم لا يحنون الى زوارقهم القديمة الزاهية ولا يندبون انقراض صناعتها في اماكن كثيرة . وهكذا استطاع التاجر الاوروبي ان يصدر الى اسواق الهنود اشكالا مختلفة من الزوارق التي تلبي حاجاتهم المعاصرة اكثر من الزوارق القديمة المصنوعة من خشب البتولا . وعاد هذا التبادل التجاري بالفائدة على الفريقين ، وبالتالي اسهم في دفع عجلة التثقف عند الهنود . وفي المنطقة الشمالية من كندا ايضا نجح تجار الفراء في نشر استعمال محرك الزورق الذي يوفر الكثير من الجهد طالما ان الغزولين متوفر . والمحرك ، بخلاف الزورق نفسه ، لا يمكن اعتباره في هذه المنطقة من العالم من الضرورات التي لا يمكن الاستغناء عنها . اضف الى ذلك انه باهظ النفقات وانه قد يسبب بعض التأخير والصعوبة اذا كان الشخص الذي يسيره لا يعرف شيئا عن الآلات . غير ان التجار اظهروا استعدادا لتدريب المواطنين على استعماله ، وهذا يفسر لماذا ظلت المبيعات من هذا الصنف تتزايد بسرعة كبيرة حتى نشوب الحرب العالمية الثانية . ومن الطريف ان نذكر هنا ان اقتناء محرك كان يرفع من شأن صاحبه في المجتمع ، ولذا سعى افضل الصيادين الى اقتنائه . ونجد وضعا مماثلا في افريقيا الجنوبية

---

(١٥) Stephen W. Reed, «The Making of New Guinea,» «Memoirs of the American Philosophical Society, XVIII (1942), 254.

حيث « انقرض فن الاشغال الحديدية الذي كانت تمارسه فئة خاصة من الصناع الماهرين . ويحصل المواطنون اليوم على ما يحتاجون اليه من الادوات الحديدية من التجار . اما الاعمال المتصلة باصلاح وصيانة العربات والمحاريث فينفرد بممارستها حدادون من أصل اوروبي . » (١٦)

أما اعضاء الارساليات التبشيرية فقد جابهوا تعقيدات وصعوبات اكثر من التجار . فالمعتقدات والقيم التي حاولوا « بيعها » كانت اشياء غير محسوسة ، وكانت بالتالي اقل استهواء للمواطنين وابعد عن حياتهم من السلع المادية التي عرضها التجار . ويجدر بالذكر هنا ان وجود الآلهة والقوى الخارقة الاخرى ، وكذلك اساليب التضرع اليها والتماس العون منها ، لم تكن امرا غير مألوف عند الشعوب البدائية . ولم يدرك رجال الارساليات التبشيرية هذه الحقيقة في البدء ، غير انهم ما لبثوا ان اكتشفوا ان هناك بعض المشابهة بين المسيحية وبين المعتقدات والشعائر الوطنية ، ومما لا شك فيه ان هذا الاكتشاف ساعدهم في تضييق الفجوة بينهم وبين السكان المحليين . فقبائل الالجونكيان الشمالية سرعان ما قرنت اله المسيحيين بالكائن الاعلى الذي تؤمن به ، وذلك على الرغم من ان بعض الارساليات التبشيرية قاومت هذه الفكرة . وذكر لي بعض الهنود الحمر انهم لم يستطيعوا ان يفهموا لماذا لم يستوعب بعض المسيحيين فكرة التوحيد بين الالهين . ويقول بيجلهول في سياق حديثه عن سكان جزر هاواي :

« نشأ سكان هذه الجزر على طريقة في الحياة تقوم على تجنب عدد كبير من المحرمات وتبعث في نفوسهم شعورا بالقناعة والنجاح على الصعيدين الديني والدنيوي . ولذا كان من اليسير عليهم فهم دين جديد يقوم على الوصايا العشر ، وتقبل القطعية التي بشر بها المذهب البيوريتاني

(١٦) I. Schapera, ed., «Western Civilization and the Natives of South Africa; Studies in Culture Contact» (George Routledge and Sons. Ltd., London, 1934), p. 42. Reprinted by permission of the publisher.

الكلفيني . فمن الافكار التي كانت مألوفة عند السكان الوطنيين فـكرة الآلهة التي تكون قادرة على كل شيء ، وقوية يخشى بأسها ، تارة رحيمة وتارة شديدة العذاب » . (١٧)

وكان من جراء وعي البعض لاوجه المشابهة بين صفات الآلهة الوطنية وصفات القديسين في الكنيسة الكاثوليكية ان ظهرت محاولات للتوفيق بين المسيحية والمعتقدات الوطنية . (١٨) فالاساليب الكلامية (الصلوات) التي يلجأ اليها للتأثير في القوى الخارقة قد تقرن بالاساليب الكلاميـة السحرية (الرقى والتعاويذ) ، نظرا لان كلا النوعين يستخدم لتحقيق اغراض متماثلة . (١٩)

ومهما يكن من شيء ، فان تعلم معتقدات وطقوس دينية جديدة لا بد له من دافع يحركه . فالانسان في الاساس عملي ، ولذا يصعب علينا أن نفصل اعتقاده بوجود كائنات وقوى خارقة عن دوافعه . واذا اريد للعالم الخارق ان يكتسب دلالة حقيقية ، فلا بد له من ان يصمد للتجربة والاختبار . ولذا اتيحت للارساليات التبشيرية فرصة استغلال الحـالات التي بدا فيها ان ممارسة النشاط القائم على المعتقدات الوطنية لـم تعد بأية مكافأة على السكان الاصليين . ويعني ذلك ان بعض الارسـاليات التبشيرية استغلت حالات القلق والشك ، وعمدت الى تشجيع افراد من السكان الوطنيين على تعلم عقائد دينية جديدة . ويذكر هوجبن ان بعض الوطنيين انضموا الى احدى الارساليات التبشيرية العاملة في جزيرة الملك سليمان « بعد تعرضهم لسلسلة من النوائب التي اتسمت بسوء الطالع . واوضح الوطنيون ان ارواح اسلافهم خانت العهد ، وانهم بالتالي قرروا

---

(١٧) Beaglehole, «Some Modern Hawaiians», p. 14.

(١٨) Melville J. Herskovits, «African Gods and Catholic Saints in New World Negro Belief», «American Anthropologist», XXXIX (1932), 635-43.

(١٩) H. Ian Hogbin, «Experiments in Sivilization : the Effects of European Culture on a Native Community of the Solomon Islands». (London, 1939), p. 156; and also Chap. VIII, «Native Christianity.»

التوقف عن تقديم التضحيات لها » . [٢٠] ويذكر ايسلن ان نجاح الارساليات التبشيرية الاولى في افريقيا الجنوبية ربما يعود الى التزامن بين قدومهم وبين الحوادث الغريبة التي وقعت في المنطقة في ذلك الحين :

« كانت الحروب القبلية شائعة عند البانتو ، غير انها كانت تنشب على نطاق محدود دون ان يسفك فيها دم كثير . ولكن عندما بدأت الارساليات التبشيرية نشاطها ، كانت البلاد مسرحا لحرب قبلية ضروس كانت تدور رحاها بين قبائل كثيرة . وعانت قبائل الدولة الحرة والترنسفال الكثير من فظائع هذه الحرب ومن سنوات المجاعة التي عقبتها . فالناجون من هذه القبائل التي كانت فيما مضى عزيزة الجانب هاموا على وجوههم وهم في خوف دائم من الغارات التي كانت تشنها عليهم عصابات أكلة لحوم البشر ، او فروا الى المناطق الجبلية حيث عانوا شدائد كثيرة بسبب نقص المواد الغذائية . وكان من الطبيعي ، والحالة هذه ، ان ينظر هؤلاء المنكوبون الى رجال الارساليات التبشيرية كما لو كانوا ملائكة الرحمة اتوا لينقذوهم من موت محتم . وكان ايمانهم بآلهة الاسلاف قد تزعزع كثيرا حتى انهم اقبلوا بحماسة الى الاستماع الى رسالة المحبة والامل » . [٢١]

ومن جهة اخرى نلاحظ ان جميع القبائل التي خرجت مظفرة من اتون الحروب التي استعر اوارها في مطلع القرن التاسع عشر — الزولو والسوازي والاماندیبیل — لم تظهر في البدء استعدادا لاقامة علاقات ودية مع الارساليات التبشيرية .

وعلاوة على التخفيف من حدة القلق ، كان باستطاعة الارساليات التبشيرية استغلال دوافع اخرى عن طريق ارضائها بمكافآت يصطبغ

(٢٠) المصدر السابق نفسه ، ص ١٨١ — ٨٢ .

(٢١) Schapera, ed., «Western Civilization and the Natives of South Africa», p. 68. Reprinted by permission of the publishers.

بعضها بالصبغة المادية . ومما لا شك فيه اننا سنجني فوائد كبيرة من اي بحث منظم يجري على الطـرق المختلفة التي استخدمتهـا الارساليات التبشيرية ومدى نجاحها او اخفاقها من زاوية نظرية التعلم . فالاوضاع والاحداث المحلية التي استغلوها ، والفئات التي حـاولوا التأثير فيها ، والدوافع التي استنفروها ، والدوافع المكتسبة التي تعهدوها بالرعـاية والتنمية ، وانواع المكافآت التي شددوا عليها ، والمكافآت التي حصل عليها الوطنيون نتيجة اعتناقهم للمسيحية ــ هذه الامور كلها تلقي شعاعا هاديا على عملية التثقف .

كان التجار واعضاء الارساليات التبشيرية يهدفون الى ادخال اشياء او معتقدات او اساليب جديدة الى المجتمعات التي تعاملوا معها . ومع ان نشاطهم يمثل طليعة التوسع الاوروبي ، فانهم في المراحل الاولى لم يكونوا في وضع يمكنهم من ان يفرضوا بالقوة التغييرات التي ارادوها على حياة الشعوب التي احتكوا بها . وفي بعض الاحيان كانوا يعيشون ويعملون في وسط ينظر اليهم نظرة عدائية ويهدد حيـاتهم بالخطر . ولـذا كانوا يضطرون في معظم الاحيان الى وسائل الاقناع والترغيب . اما الاشخاص الذين تعاملوا معهم فكانوا احرارا في قبول الاشياء المعروضة عليهم او رفضها .

وواصل المد التوسعي الاوروبي اندفاعه حتى خلق اوضاعا ارغمت الشعوب الوطنية ، بصورة مباشرة او غير مباشرة ، على مجابهة اوضاع ثقافية جديدة من انواع مختلفة لم يكونوا مستعدين مطلقا للتكيـف عليها . وكانت هذه النتيجة حتمية ، نظرا لان اهداف التوسع الاوروبي كانت استعمار مناطق جديدة واستغلالها اقتصاديا وبسط سيادة الاوروبيين على الشعوب الاصلية القاطنة فيها . اضف الى ذلك ان الحركة التوسعية الاوروبية اقترنت بالفتوحات العسكرية او بالتهديد باستعمال القوة ،ولذا كانت مستعدة لمجابهة كل مقاومة والتغلب عليها . ويمكن القول ان هذه

الحركة كانت مشحونة بالصراع وبانماط من التفاعل الاجتماعي ادت في جميع الاحوال الى اخضاع الجماعات الوطنية لسيطرة الاجانب الدخلاء . وكان من جرائها ان هلك او تشرد خلق كثير ، وتسربت امـراض جديدة غريبة ادت الى انتشار الاوبئة الفتاكة في مناطق كثيرة،واضطربت الاوضاع المستقرة التي تكيف عليها السكان الاصليون منذ امد طويل ، وظهرت مشكلات جديدة اضطرت الشعوب الوطنية الى حلها اما بوسائلها الثقافية الخاصة واما بتعلم طرق جديدة في التكيف .

وبلغ هذا التكيف القسري الجديد ذروته حين اخذ الغزاة يكثرون من تأسيس مستعمرات لاستيطانهم ويقصون السكان الاصليين الى مـا وراء حدود المناطق التي استوطنها الاوروبيون او يفرضون عليهم الاقامة في مضارب او مخيمات خاصة مع فرض سيادتهم عليهم بوسائلهم النظامية . وهكذا اخضع الوطنيون لتشريعات السلطات الاوروبية المختلفة ولعقوباتها الجزائية ، واقترن هذا الاجراء في بعض المناطق بمحاولات عامدة للقضاء على بعض العادات القبلية (كأكل لحوم البشر ، وقطع الرؤوس والاحتفاظ بها ، والحروب القبلية ، والسحر) ، وسن قوانين وانظمة جديدة ، وفي حالات كثيرة تعيين موظفين حكوميين من الاجانب او الوطنيين . وعبر بعض الوطنيين في جزر الملك سليمان عن هذا الوضع الجديد بقولهم :

« انتم ، يا معشر البيض ، تصدرون اوامركم الينا ، اما نحن فلم يعد في وسعنا ان نصدر الاوامر الى انفسنا ، اذ علينا ان نمتثل لاوامركم . جاء الرجل الابيض ليخبرنا انه يتوجب علينا ان نتجاهل آباءنا ونسلـك كما يسلك ابوه ... وكنا ، قبل مجيء الاوروبيين ، نفعل هـذا الامر او ذاك ، دون ان نفكر كثيرا فيما اذا كنا على صواب أو خطأ ، فقـد كنـا نعرف ما نريد . أما اليوم فان كلا منا ، قبل ان يقدم على عمل ، يقول : سأقـوم بهذا العمل . ترى ما الموقف الذي سيتخذه الرجل الابيض ؟

هل سيقول انني اخطأت ويعاقبني على ذلك ؟ » [٢٢]

ووصف الكثيرون من الكتاب الاثر السلبي للثقافة الاوروبية في الأقوام البدائية او غير المتعلمة . ففي حالات كثيرة تعرضت هذه الاقوام لتغيير جذري في نسق حياتها حتى انها كادت تصطبغ كليا بالصبغة الاوروبية فلم يبق من طرق حياتها القديمة الا النزر اليسير . ويمكن اعتبار هذه النتيجة سلبية من حيث انها ادت الى انقراض نظام ثقافي كان مزدهرا في العهود السابقة للاحتكاك بالاوروبيين . ومن جهة اخرى يمكن اعتبارها ايجابية نظرا لانها تقيم الدليل على ان شعوبا مختلفة صمدت لتحدي الاوضاع الجديدة عن طريق عملية التثقف . ولكننا ، لسوء الحظ ، لا نعرف الكثير عن تفصيلات الخطوات التي مرت بها هذه العملية . ومن الاسئلة التي ما زالت بحاجة الى جواب : « ما هي المكافآت الخاصة التي عززت عملية التعلم ودفعت الشعوب الوطنية الى تبني وسائل ثقافية جديدة في ظل ظروف ارغمت فيها على التكيف القسري وعلى الخضوع لسلطة الفئات الغالبة ؟ هذه المشكلة معقدة ، وهي بحاجة الى استقصاء وتحر منتظمين قبل ان يتسنى لنا اعطاء جواب واف عنها .

ومن الواضح أن تعدي الاوروبيين على بلاد الشعوب المتخلفة خلق في كل مكان عددا كبيرا من الاوضاع المثيرة للقلق . وحبذا لو اجريت دراسة عن الدور الفعال الذي لعبته دوافع القلق ، على اختلاف انواعها ، في عملية التكيف الجديد ، فان مثل هذه الدراسة قد تنطوي على قيمة خاصة . ولعل اكثر الدوافع أثرا في السلوك الانساني هي تلك الدوافع المكتسبة التي تتصل بالدافع الاولي الذي يحمل الانسان على تجنب الالم او التهديد بالالم . ولهذا السبب تكتسب دوافع القلق اهمية خاصة في عملية التدرب الاجتماعي،وكذلك في عمل الكثير من الفروض والرخص الاجتماعية فالكائن البشري يتوصل ، من خلال عملية التكيف والاقتران

(٢٢) Hogbin, «Experiments in Civilization», pp. 153-54.

ونتيجة لخبراته الخاصة ، الى معرفة الاشياء التي تسبب له ألما جسميا او نفسيا والاعمال التي تستوجب العقوبة او التهديد بالعقوبة . فالمرض والموت ، مثلا ، قد ينظر اليهما كما لو كانا ضربا من العقوبات التي تنزلها الكائنات الخارقة او ينزلها اشخاص آخرون ردا على الجرائم او الاخطاء التي يرتكبها الفرد . وهكذا يمكن تسريب نوازع القلق الى الافراد من اجل دفعهم الى اداء انماط السلوك التي يقرها المجتمع . وفي المجتمعات المستقرة تكون دوافع القلق المكتسبة اجتماعيا محدودة نسبيا ، وتنحصر اهميتها الوظيفية في المحافظة على النظام الاجتماعي . وهناك اخطار خاصة واوضاع مهددة في العالم السلوكي للفرد ، كالالم او الازعاج الذي يخشى الوقوع فيه ، ولكنه يستطيع الانتفاع بالوسائل التقليدية المتوافرة لمعالجة مثل هذه الاوضاع . فالفرد علم كيف يسعف نفسه او يفرج عنها في حالات القلق التي قد يواجهها . ويعتبر هذا الاسعاف او التفريج ، من زاوية نظرية التعلم ، نوعا من المكافأة . فهو يساعد على تزويد الفرد بشعور من الاطمئنان . وقد تنشأ اوضاع تهدد قوما بالموت او المرض ، او ترغمهم على اللجوء الى مواطن سكن جديدة ، او تهدد موارد معيشتهم ، او تضطر افرادهم الى البحث عن الوان جديدة من النشاط الاقتصادي ، او تجبرهم على التخلي عن عاداتهم واساليبهم التقليدية وبالتالي تهدد طريقة حياتهم كلها بالانقراض . من الواضح أنه سينشأ في حالات كهذه الكثير من دوافع القلق الجديدة التي لا تمكن مكافأتها بالطرق الثقافية التقليدية .

غير ان نوازع القلق تمثل دوافع قوية للعمل ، لانها بحاجة الى التفريج عنها او التخفيف من حدتها . ترى كيف تصرفت الشعوب المتخلفة تحت وطأة هذا الضغط ، وكيف اثر سلوكها في عملية التثقف ؟ للاجابة عن هذا السؤال سنكتفي بالاستشهاد بامثلة قليلة . ان الطريقة الطبيعية

لمجابهة اي خطر هو مقاومته على افضل وجه ممكن . ومن الواضح ان ردات الفعل العدائية التي استثارها الاوروبيون لا تحتاج الى وثائق لاثبات وجودها . ففي بعض الحالات ادت مقاومة المجتمعات الوطنية الى ابادتها في الحال ابادة سريعة وتامة كما في هايتي وتسمانيا ، وهذا وحده يكفي لاقامة الدليل على الاخطار الحقيقية التي واجهتها هذه المجتمعات ولتفسير حالات القلق التي نشأت حتما من حركة الاستعمار الاوروبي . ومن جهة اخرى كانت هذه الحركة من اقوى الحوافز التي دفعت الاقوام الوطنية الى اقتناء الاسلحة النارية وتعلم كيفية استعمالها باقصى سرعة ممكنة ليتسنى لها الدفاع عن نفسها . ويمكن اعتبار هذا الاجراء ضربا من المكافأة التي خففت قليلا من حدة دافع القلق . ففي الولايات المتحدة الامريكية سرعان ما أتقنت بعض قبائل الهنود الحمر استعمال الاسلحة النارية ، وظهر منها محاربون شديدو البأس نجحوا في مقاومة زحف الرجل الابيض مدة طويلة . غير ان دوافع القلق في بعض المناطق الاخرى لم تخف ، بل ازدادت حدة بسبب تصرفات الحكومات المحلية . ففي منطقة المحيط الهادي الغربي ، مثلا ، حظر المندوب السامي البريطاني على الرعايا البريطانيين تزويد المواطنين الخاضعين لاشرافه بالبنادق . (٢٣) وكان من جراء تزويد بعض القبائل باسلحة نارية وحرمان البعض الآخر منها على الرغم من وجود هذه القبائل في منطقة واحدة (كما كان الحال في ميلانيزيا) ان اشتد التوتر القبلي ، نظرا لانه كان من اليسير على القبائل في الحالة الاولى ان تدحر اعداءها في كل مكان . وتعطي الملاحظة العرضية التالية التي اوردها كيسنغ فكرة حية وصادقة عن التوتر الشديد الذي قد ينشأ في مثل هذه الاوضاع : « اذا سار احد المواطنين في بعض المناطق في ميلانيزيا بدون بندقية ، فانه بعمله هذا كان يعرض نفسه لهلاك محتم .

(٢٣) Reed, «The Making of New Guinea», p. 103.

وظل هذا الوضع قائما حتى عهد قريب جدا . » (٢٤) وهذا يفسر لنا لماذا كان الرجل في غينيا الجديدة يعمل مدة سنتين او ثلاث سنوات بموجب تعهد يبرمه مع صاحب العمل من اجل تأمين ثمن سلاح يرفع من شأنه في المجتمع وينفع عشيرته او قريته في الحروب القبلية . ومن اليسير علينا ان ندرك ان هذه المكاسب تبرر القيام بمثل هــذه التضحية الكبيرة . (٢٥)

ومن مصادر القلق الاخرى التي خلقها التوسع الاوروبي الخوف من انتشار امراض مألوفة عند الاوروبيين وغريبة بالنسبة لامريكا الشمالية ومناطق البحار الجنوبية مثل الجدري والحمى القرمزية والحصبة والخناق الغشائي . ولم يملك الوطنيون علاجا لهذه الامراض التي كثيرا ما كانت تفتك في السكان فتكا ذريعا بسبب ضعف مقاومتهم الطبيعية لها . وبما ان المجتمعات الوطنية لم تجد سبيلا لتعلم طرق تطبيق الاساليب الطبيــة المستخدمة في الثقافة الغربية ، فانها عجزت عن تخفيف حدة قلقها عن طريق عملية التثقف.والملاذ الوحيد الذي لجأوا اليه هو تطبيق اساليبهم العلاجية الخاصة او اختراع اساليب علاجية جديدة.ومع ان الهنود الحمر الشماليين لا يزالون حتى يومنا هذا يشعرون بخوف شديد من الامراض الزهرية ، فان التسهيلات والاساليب الطبية الحديثة ما زالت غير متوافرة لديــهم . هذا مع العلم بان بعض اطبائهم المحليين ، حسب روايتهم ، قد اكتشفوا علاجا لهذه الامراض . وكانت قبيلة الموهاف في سالف الايام تملك علاجا للجراح التي تسببها السهام . ويقول ديفرو في هذا الصدد : « بعد ادخال الاسلحة النارية ، وقعت القبيلة في حيرة شديدة نظرا لان السحر الموجه لمداواة الجراح التي تسببها السهام لم يصلح لمداواة الجراح التي تسببها الاسلحة النارية . وظلــت المشكلــة بغير حل الى ان ادعــى احد كهنة

---

(٢٤) Felix M. Keesing, «The South Seas in the Modern World» (New York, 1941), p. 130.

(٢٥) Reed, op. cit., p. 102.

« الشامان » الوطنيين انه منح قدرة خاصة على معالجة الجراح التي توقعها الاسلحة النارية . » [٢٦] وبعبارة اخرى لم يملك الوطنيون ، ابان عهود التوسع الاوروبي ، وسائل لمعالجة الامراض الجديدة او الوقاية منها باستثناء السحر . وهكذا كان النقص في الطرق التي اتبعها الوطنيون في مكافحة الامراض الجديدة مصدر قلق شديد صعب عليهم العمل على تخفيف حدته .

ومن الواضح ان اي اضطراب يؤثر في الموارد التقليدية للمواد الغذائية يشكل تهديدا خطيرا ويؤدي حتما الى اثارة القلق في نفوس السكان . ولا تقتصر المشكلة على خطر الجوع او الحرمان ، انما تتصل ايضا بالشهية لانواع معينة من الطعام التي تعتبر جانبا مرضيا ومتكاملا مع الجوانب الاخرى للحياة الانسانية . وهذا هو السبب الذي من اجله تكتسب عادات الطعام عند الافراد والمجتمعات دلالة نفسية عميقة . حتى لو افترضنا ان الجهات المختصة اكتشفت مصادر جديدة للغذاء او انها عوضت عن اختلال التوازن بتوزيع مخصصات غذائية معينة ، فان الطعام الذي قد يعتبر وافيا من الناحية الغذائية قد لا يعتبر مجزيا من الناحية النفسية . وسبق ان ذكرت ان السكان الوطنيين قد يرفضون انواعا معينة من الطعام حتى لو اضطروا الى النوم على الطوى . اضف الى ذلك ان اضطراب الموارد الغذائية قد يتطلب تغيير الحرف او تعلم اساليب جديدة لكسب الرزق . ومن الامثلة الايضاحية المشهورة على الصعوبات الناجمة عن الاضطرار الى التكيف على حرف وعادات طعام جديدة ما حدث للهنود الحمر في منطقة السهول بعد اختفاء الجاموس من بيئتهم . كان الرجال ، قبل حدوث هذا التطور ، قد تعودوا حياة الصيد والحرب . وعلى الرغم من مختلف انواع الضغط التي تعرضوا لها ، فانه انقضى جيل

(٢٦) George Devereux, «The Mental Hygiene of the American Indian», «Mental Hygiene», XXVI (1942), 71-84.

او اكثر قبل ان يتكيفوا على الزراعة وتربية المواشي او ان يقتنعوا بانها من الحرف المجزية . ومما لا شك فيه انه نشأ صراع عنيف بين دوافع مختلفة وان معوقات التعلم كانت في البدء فعالة على الرغم من شدة القلق المرتبط بالغذاء والوضع الاجتماعي . ومهما يكن من شيء ، فان الفرص التي اتيحت لتحقيق التكيف الجديد لم تكن مجزية في نظر الهنود من سكان منطقة السهول . ان قصة هؤلاء الهنود الحمر تزودنا بمثال بارز على العلاقات المعقدة التي يمكن ان تنشأ في الثقافة بين الدوافع المكتسبة والمكافآت الخاصة بها .

واذا انطوى التفاعل الاجتماعي على فروق ملحوظة بين فئتين في القوة او السلطة ، فان الاستجابة لدوافع القلق الناجمة عن فقدان الاطمئنان في اوساط الفئة المغلوبة على امرها قد تتخذ شكل رغبة في التشبه بالفئة الغالبة . وفي هذه الحالة قد يلعب القلق دورا مهما في اثارة الرغبة في التعلم . فالسمات الخارجية للفئة القوية التي يمكن اقتباسها بسهولة ، كالملابس مثلا ، قد تعود بمكافأة مرضية ، غير ان هناك سمات اعمق واشمل قد تتناولها عملية المحاكاة . فالانتهازيون من الوطنيين الذين لا يشعرون باطمئنان في ظل نظامهم الاجتماعي الهرمي قد يسارعون الى اعتناق المسيحية ويشجعون غيرهم على اقتفاء اثرهم ، وبذلك يكتسبون تأييد البيض ويعززون مركزهم الاجتماعي . وتزودنا منطقة البحار الجنوبية بعدة امثلة على هذه الظاهرة . فبوماري في تاهيتي كان زعيما من المرتبة الثانية ولكنه نجح في التفوق على سادته السابقين عن هذه الطريق . وهكذا ظهر في بعض المناطق زعماء زودوا انفسهم بالبنادق والملابس الغربية والاثاث المنزلي وما شاكل ذلك من مظاهر السلطة والحياة عند الاوروبيين . ومن جهة اخرى نلاحظ ان هذا التهديد لوضع الزعماء التقليديين وسلطتهم كان مصدرا آخر للتوتر والقلق في بعض اوساط

الوطنيين . (٢٧)

وبدا لبعض الوطنيين ان قوة الرجل الابيض لا يمكن تفسيرها الا في ضوء مفهومات سحرية . فقراءة الكتب قد تكون سر تفوق الاوروبيين، وعلى هذا الاساس قد يميل بعض الوطنيين الى تعلم القراءة . وفيما يلي ما قاله احد الفتيان في جزيرة الملك سليمان للباحث هوجبن :

« يا معشر البيض ، لا فرق بيننا وبينكم ، فلكل منا ، كما لكل منكم ، عينان ويدان وقدمان . وانتم لا تمتازون عنا الا بالقدرة على قراءة الكتب . هذه القدرة هي التي تمكنكم من شراء الفؤوس والسكاكين والملابس والسفن والسيارات ... لو تعلمنا قراءة كتبكم لاصبح لدينا ما لديكم من اموال وممتلكات . » (٢٨)

ومن المعروف ان الاشخاص الذين يحتلون مرتبات دنيا في النظام الاجتماعي الهرمي يسعون ، عن وعي او غير وعي ، الى توفير الاطمئنان لانفسهم عن طريق محاكاة اولئك الذين يتفوقون عليهم في السلم الاجتماعي . وهذه الظاهرة مألوفة في الثقافة الغربية حيث تعتبر من العوامل المساعدة على التعلم . (٢٩) ويقابل هذه الظاهرة عندالكثير من المجتمعات المتخلفة نزعة الشباب الى تقليد البيض الاقوياء بدلا من تقليد شيوخهم . ولكن هذه الظاهرة تؤدي الى انهيار سلطة الشيوخ . وقد لاحظ الباحثون هذه النتيجة في معظم المناطق التي جرى فيها اتصال اجتماعي بين الوطنيين والبيض الاجانب . وقد يفسر هذا السلوك على اساس انه محاولة غير واعية لتأمين اساس جديد للاطمئنان الشخصي . وبما ان هذا الاطمئنان لا يتحقق دائما ، فانه قد يؤدي الى ظهور حالات جديدة

---

(٢٧) Keesing, op. cit., pp. 66, 149.

(٢٨) Hogbin, op. cit., pp. 180-81.

(٢٩) Miller and Dollard, «Social Learning and Imitation», pp. 188 et seq.

من القلق . ومن العوامل المهمة جدا شكل النسق النهائي للعلاقات التي تتبلور بين الاوروبيين والاقوام الوطنية ، فحيثما يتطور نظام قـائم على التمييز العنصري ، فان القيود المفروضة على طموح الوطنيين للاشتراك في الثقافة الغربية تخلق مشكلات نفسية واجتماعية تختلف عن المشكـلات التي تنشأ في المناطق التي لم يتطور فيها مثل هذا النظام . وبالنسبة لغينيا الجديدة يقول ريد :

« طالما ان السيطرة الاوروبية كانت تقوم على حماية السلاح ، فان مركز الرجل الابيض كان في مأمن من كل خطر او تهديد . أما الآن ، بعد نيل الوطنيين لحقوقهم وبعد استنكار استعمال القوة المسلحة ، فان الرجل الابيض يلجأ للنظم القائمة على التفرقة العنصرية ــ كالنظم المتصلة بالمحرمات واكتساب الحقوق والعقوبات القضائية ــ لضمان استمـرار مركزه المتفوق . » (٣٠)

حتى في الحالات التي لم تنشأ فيها حدود فاصلة وواضحة المعـالم بين الفئات العنصرية ، نلاحظ ان الفئات الوطنية التي تواصل التكـلم بلغاتها القومية وارتداء ازيائها التقليدية وممارسة بعض عاداتها الخـاصة قد تكتشف ان المحافظة على هذه الامور قد تؤدي الى نتـائج سلبيـة بالنسبة لعلاقاتها الاجتماعية مع البيض . فقد يتعرض افراد هذه الفئات لسخرية او لمقارنات جائرة ، وفي بعض الاوضاع قد يجدون انفسهم في مواقف لا تكون في صالحهم حين تقابل مع مواقف الفئة الغالبة . وعبر جيلن عن هذه الظاهرة بقوله انها تمثل « حالة القلق الناجمة عن الوضع الاجتماعي . » (٣١) ومع ان الموضوع يحتاج الى اجراء ابحاث على عدة مناطق ، فان بارنت توصل الى النتيجة التالية استنادا الى الدراسات التي

---

(٣٠) Reed, op. cit., p. 245.

(٣١) John Gillen, «Acquired Drives in Culture Contact», «American Anthropologist», LXIV (1942), 550-51.

اجراها على منطقة الساحل الشمـــالي الغربي : « ان الافراد الذين لم يتكيفوا على بيئتهم الاجتماعية او الافراد الذين ظل تكيفهم الاجتماعي ناقصا ، والافراد الذين عانوا من النبذ الاجتماعي او الكبت او الخيبة » وبوجه أخص « الهجن والارامل والايتام والعجزة والعصاة والمدمنون على تعكير صفو الامن ــ هؤلاء كلهم كانوا في طليعة الذين اقبلوا على تبني الانماط الجديدة .»(٣٢) أما الاشخاص الذين كانوا يحتلون مراكز رفيعة او كانت مصالحهم مرتبطة بالمؤسسات الوطنية ، فقد احجموا عن قبولها . ويبدو ان هذه النتيجة معقولة ، وبخاصة حين ننظر اليها من زاوية دوافع القلق والمكافآت التي قد يجنيها الافراد المعنيون من التكيف على اوضاع ثقافية جديدة .

وفي حــالات اخرى نلاحظ ان مظــاهر الحيرة والخيبة والظلــم الاجتماعي التي رافقت الاحتكاك بالاوروبيين لم تجد متنفسا لها في عملية التثقف ، بل وجدته في حركات وطنية ومحاولات واعية منظمة لاحياء جوانب معينة من الثقافة الوطنية الاصلية او المحافظة عليها . وقدم لنتون عرضا يشرح فيه هذه الظاهرة ويميز بين الاشكال السحرية والاشــكال العقلية . (٣٣) وكلا النوعين ينشأ في الازمات . وفي الحالة الاولى « لا يعمد المجتمع الى احياء العناصر المتداعية من ثقافته من اجلها ذاتها او توقعا لفوائد عملية . ان احياء مثل هذه العناصر هو جزء من صيغة ســحرية تستهدف تعديل بيئة المجتمع على نحو ينسجم مع ميوله .. فاذا انتهج اعضاء المجتمع سلوكا مماثلا لسلوك اسلافهم ، فانهم يشعرون بان هذا النهج ، على الرغم مما ينقصه من وضوح وتحديد ، يساعدهم على بعث

---

(٣٢) H.G. Barnett, «Year Book of the American Philosophical Society» (1941), p. 216; also, «Personal Conflicts and Cultural Changes», «Social Forces», XX (1941), 160-71.

(٣٣) Ralph Linton «Nativistic Movements», «American Anthropologist», LXV (1943), 230-40. See also B. Barber, «Acculturation and Messianic Movements», «American Sociological Review», VI (1941), 662-67.

الوضع القديم الذي عاش فيه اسلافهم » .

أما في حالة الحركات العقلية فان « العناصر الثقافية التي تختار للاستعمال الرمزي انما تختار على اساس واقعي وفي ضوء احتمال استمرارها في ظل الاوضاع القائمة » من اجل المحافظة على التماسك الاجتماعي « واعادة ثقة اعضاء المجتمع بانفسهم وتأمين استمرار هذه الثقة في وجه الظروف المعاكسة » .

وهناك مراجع كثيرة عن الحركات الوطنية المناهضة للغزو الثقافي الاجنبي . ولكن حسبنا في هذا المقام ان الحركات التي تتخذ طابعا سحريا قد تكافىء دوافع القلق عند الذين يشتركون فيها ؛ ولكنها في نهاية المطاف لا تؤدي الى تكيف جديد مرض . فالطريقة القديمة في الحياة لا يمكن ابدا احياؤها كليا . ومن جهة اخرى يلاحظ لنتون ان الحركات الاحيائية التي تقوم على اسس عقلية والتي تستهدف المحافظة على التماسك الاجتماعي قد تزود المجتمع بوسيلة للتكيف قد تعوض ، بطريقة ايجابية عن الشعور بالنقص الذي ينتاب افراد المجتمع .

ولا بد من الاشارة هنا الى ان جميع عمليات التكيف الجديد ما زالت جارية . ومما لا شك فيه ان اتساع نطاق الحرب العالمية الثانية زاد من حدة هذه العمليات بالنسبة للشعوب المتخلفة ، نظرا لان بلادها كانت في بعض الحالات مسرحا لعمليات عسكرية . ومهما يكن من شيء ، فان التغييرات الثورية التي طرأت على هذه الشعوب منذ بدء التوسع الاوروبي لا يمكن النظر اليها من زاوية صحيحة بدون الرجوع الى التغييرات الجذرية التي طرأت على الثقافة الغربية خلال المدة نفسها . ففي هذه المدة شهدت الثقافة الغربية تقدما جبارا في ميدان العلوم ، وانقلابا تكنولوجيا شمل مختلف انواع الاختراعات الآلية ، كما شهدت نشوء اقتصاد عالمي ، وحركة قومية تتسم بطابع حديث ، وحروبا طاحنة مدمرة لم يعرف التاريخ لها مثيلا . وكان من جراء هذه التطورات الخطيرة ان وضعت

قدرة الانسان الغربي على التكيف على اوضاع جديدة موضع الاختبار ، شأنه شأن الانسان البدائي الذي اضطر الى مواجهة الغزو الاوروبي . وفي المجتمع الغربي ايضا ترددت بين الحين والآخر اصوات الحنين « الى الايام المجيدة السالفة » ، القريبة منها والبعيدة . وسبق ان تساءلنا ما اذا كان استيعاب الشعوب البدائية للثقافة الغربية او لجوانب منها اكثر ارضاء لها من طرقها التقليدية ، ولعل هذا التساؤل ينطبق ايضا على الشعوب الغربية ومدى ارتياحها للتغيرات التي تطرأ على طرقها التقليدية في الحياة . وتجدر الاشارة هنا الى ان الكثيرين في الديمقراطيات الغربية عانوا في المدة الاخيرة قلقا مماثلا بسبب تخوفهم من احتمال تعرضهم لطريقة في الحياة تختلف عن طريقتهم التقليدية . ولكن المجتمعات الديمقراطية الغربية في وضع افضل من المجتمعات المتخلفة من حيث قدرتها على مواجهة التحدي وصوغ مستقبلها بايديها .

وبما ان حياة الانسان تمثل سلسلة متصلة الحلقات من عمليات التكيف التي لا تنفك تتجدد بوسائل ثقافية مختلفة ، فانه يتوجب على المعنيين بدراسة الانسان تكريس قسم مهم من جهودهم من اجل التوصل الى فهم ادق وافضل لطبيعة هذه الوسائل وعلاقاتها بالاداء الوظيفي السليم للكائن البشري . وعندما يتيسر لنا تطبيق معارفنا فان الانسان ، بوصفه خلاقا للوسائل الثقافية ، لابد من ان يستنبط اشكالا ثقافية تحقق للبشرية اقصى ما يمكن من الخير والرفاهية . ومما لا يرقى اليه شك ان اجراء المزيد من الابحاث عن الجوانب الاجتماعية والنفسية للثقافة سيسهم بمعلومات قيمة من النوع الذي يساعدنا على تحقيق ما نصبو اليه.

الأوضاع العالمية الحالية من وجهة النظر الثقافية

رالف لنتون

الازمات والشدائد ليست ظاهرة جديدة في تاريخ الانسانية ، فقد عانتها جميع الحضارات الماضية والحديثة . والازمة التي واجهها كل جيل كانت ، في نظره ، أشد الازمات التي عرفها التاريخ . أما الظاهرة الغريبة في عصرنا الحديث فهي تزايد عدد الافراد الذين يعتقدون ان الازمات ليست أمرا لا مفر منه ، وانه يمكن تجنبها بالتخطيط الواعي للمستقبل . هذا الموقف يبدو انه شيء غريب في تاريخ الانسانية . فهو ما كان لينشأ طالما ان الانسان كان يعتبر نفسه العوبة في يد الالهة او قطعة يحركها القدر كيفما شاء وانى شاء . وهو يعكس اشتداد نزعتنا الى الاقرار بان الانسان هو الذي يتحكم في مقدراته وهو الذي يستطيع ان يصوغ مستقبله على الشكل الذي يريده . ورافق هذا الاتجاه عزوف عن التفسيرات القديمة الساذجة للمشكلات والنكبات ، واشتداد الرغبة في تفهم الاسباب التي ادت اليها . فما من أحد اليوم ــ باستثناء الساذجين ــ يعتقد ان متاعبنا الحالية ناشئة من النزعة العدوانية الفاشية ، او ان مجرد القضاء على هذه النزعة سيعيد الينا تلقائيا « الايام المجيدة الغابرة». وينظر المفكرون الى النزعة الفاشية كما هي على حقيقتها ، اي باعتبارها عرضا يعكس اختلالا عميق الجذور ، ويتوقون الى معرفة طبيعة هــذا

الاختلال وكيفية معالجته . وهم يشعرون ان وراء قتام الحرب ستارا كثيفا من الشك والغموض يجعلهم يخشون ذيول الحرب اكثر من الحرب نفسها .

ومع ان الانسان اخذ يتعلم كيف يعتمد على نفسه ويتحكم في مصيره بنفسه ، فان ذلك لا ينقص من حاجته الى ما يبعث في نفسه الاطمئنان السريع . فالانسان ، في الماضي ، كان دائما يتطلع الى الآلهة بحثا عن تفسير للكوارث التي تحل به وطلبا للمشورة بشأن كيفية التخفيف من حدتها ، نظرا لان توافر هذين الشرطين كان يبعث شيئا من الاطمئنان في نفسه . أما اليوم فهو يتطلع ، بذات الايمان والاندفاع ، الى العلم ويتوقع منه كل ما كان يتوقعه الانسان من الآلهة في العصور الماضية . غير ان العلماء الحقيقيين الذين يكرسون جهودهم للبحث عن الحقائق العلمية لا يرتاحون كثيرا لهذا الايمان الاعمى بالعلم ، ذلك لانهم يدركون أكثر من غيرهم مبلغ النقص في معارفهم العلمية . والعلماء الاجتماعيون ،بوجه خاص ، يحجمون عن القيام بالدور الذي قام به الوحاة في العالم القديم . فهم يدركون انهم ما زالوا في بداية الطريق المؤدي الى فهم الكائنات البشرية على الصعيدين الفردي والمجتمعي . ومن سخريات القدر ان العلوم التي نحتاج اليها اكثر من غيرها في ازمتناالحاليةما زالتفي طفولتها، لا بل يمكن القول انها اقل العلوم تطورا . لقد زود العلم الانسان باسلحة جديدة كانت له نعم العون في كفاحه الدائم مع الطبيعة ، فاندفع — في فورة انتصاره الاولى — يلاحق المكاسب التي حققها في صراعه مع عدوه القديم حتى انه تجاهل كل شيء سواه . اما تطبيق الطرق العلمية على دراسة الانسان والمجتمع فهو حديث العهد نسبيا ، اذ لم يبدأ الا منذ قرن تقريبا . واذا استمر على سرعة تقدمه الحالية ، فان العلوم الاجتماعية ستحتاج الى سنوات كثيرة قبل ان تلحق بركب العلوم الاخرى .

وعلى الرغم من هذا التخلف ، فان العالم الاجتماعي يستطيع ان يشير الى بعض المنجزات الهامة التي تحققت في ميدانه . وهو يدرك ان مستقبل اي مجتمع او أية ثقافة لا يمكن التنبؤ به على النحو الدقيق الذي يتوقعه رجل الشارع . فالمستقبل يتوقف على تفاعل عوامل محددة كثيرة لا حصر لها . وهناك عوامل كثيرة لا يستطيع العالم الاجتماعي التحكم فيها ولا التحقق منها . ومن العوامل المحددة الهامة شخصيات الافراد الذين قد يرفعهم الحظ الى سدة الزعامة . فمع ان الكثيرين اعتقدوا ان الوضع في المانيا بعد الحرب العالمية الاولى كان مهيأ لظهور زعيم جديد ، فانه كان من العسير على اي شخص ان يتنبأ ان هذه الزعامة ستؤول الى شخص اسمه هتلر . وفي الوقت نفسه اخذ العالم الاجتماعي يدرك ان الاحداث التي تبدو عرضية تسير اجمالا وفق نظام عام . وهو يقر بان الاحداث التاريخية لا يمكن ان تتماثل تماثلا تاما من جميع الوجوه ، ولكنه يدرك ايضا ان انماط التنظيم وعمليات النمو والتغير كثيرا ما تتكرر على نسق واحد . ويمكن القول ، من هذه الزاوية على اقل تقدير ، ان الظاهرات الاجتماعية تسير في خط مواز للظاهرات البيولوجية . ففي الاشكال الحية نلاحظ ان نمط التماثل الثنائي الجانبي يتكرر في سلم الكائنات الحية من الديدان حتى بني الانسان . كذلك الامر بالنسبة للعمليات الفسيولوجية ، فهي ايضا يمكن تمييزها في جميع الحيوانات . ومع ان عمليات التطور انتجت اشكالا في غاية التنوع كالنملة والفيل والزعنفة والساق والجناح، فان العمليات نفسها يمكن تمييزها بوضوح في جميع الحالات . ويصدق القول نفسه على الثقافات القائمة وعلى الاحداث التاريخية الهامة ، فان وراء تنوعها الشديد وتعددها الهائل مبادىء اساسية تتعلق بالتنظيم والنمو . هذه المبادىء تتكرر المرة تلو الاخرى ، وذلك على الرغم من ان النتائج تتباين تبعا لتباين المواد التي تطبق عليها هذه المبادىء .

ومهما شددنا على اهمية هذه المبادىء لفهم الظاهرات الثقافية ،فاننا لا نوفيها حقها . فكل مجتمع يشكل ، مع ثقافته ، وحدة متصلة الحلقات تستمر عبر الزمن وتملك في كل مرحلة من مراحل تطورها ، عددا محدودا من الامكانات المحتملة . وهنا ايضا نلاحظ شبها بين المجتمعات والكائنات الحية . فاذا بلغ احد الانواع مرحلة معينة في تطوره ، فانه لا يستطيع مواصلة التطور الا في اتجاهات معينة . ونعني بذلك ان النوع العام للفيلة، مثلا ، يمكن ان يتطور الى عدة انواع فرعية خاصة ، ولكنه لا يستطيع ابدا ان يتطور الى حصان . وكذلك الامر بالنسبة للثقافات ، فان الواحدة منها تستطيع التطور في بعض الاتجاهات ولا تستطيع ذلك في البعض الآخر . وقد يقرر عامل الحظ اي اتجاه ،من مجموعة الاتجاهات المحتملة، سيسلكه التطور ، ولكن مجال الاختيار في هذه الحالة يظل محدودا . وثمة نقاط كثيرة قد يتحول عندها التطور من اتجاه لآخر ، ولكن لا يستطيع السير على غير هدى في مختلف الاتجاهات . وعلاوة على ذلك كله ، لا الحظ ولا التخطيط المتعمد يستطيع ان يعيد عجلة التطور الى الخلف . فالحضارات قد تنهار ، ولكنها لا تستطيع ابدا ان تستعيد عهودها المجيدة الغابرة . ولذا يتعين عليها ، بدلا من السعي الى احياء الماضي الغابر ، ان تسير قدما وتمهد الطريق لظهور عهود جديدة مجيدة . والمخططات التي تغفل هذه الحقيقة مصيرها الاخفاق ، مثلها مثل المخططات التي تغفل المبادىء الاخرى التي يقوم عليها النمو والتكامل الثقافيان . اما المخططات التي تقوم على فهم هذه المبادىء ، فلها امل كبير في النجاح .

ومن الضروري ، قبل الشروع في بحث هذه المبادىء ، ان نبين بايجاز الوظائف الاساسية لجميع الثقافات . من المفروض ان القارىء يفهم المعنى العام لمصطلح « الثقافة » ، لا سيما ان قسما هاما من هذا الكتاب خصص لبحث الجوانب المختلفة للثقافة . ان ثقافة اي مجتمع من

المجتمعات هي طريقة حياة اعضائه ، او بالحري مجموعة الافكار والعادات التي يتعلمونها ويشتركون فيها وينقلونها من جيل لآخر . وتزود الثقافة اعضاء كل جيل باجابات فعالة وجاهزة عن معظم المشكلات التي قد يواجهونها . وهذه المشكلات تنشأ بدورها من حاجات الافراد بوصفهم اعضاء في جماعات منظمة . ويمكن تقسيم حاجات الافراد الى نوعين : الحاجات العملية والحاجات النفسية . فاما النوع الاول فهو الذي يجب تلبيته من اجل ضمان استمرار البقاء بالنسبة لكل من المجتمع والاعضاء الذين يتألف منهم . واما النوع الثاني فهو الذي يجب تلبيته من اجل اشاعة السعادة والقناعة في نفوس اعضاء المجتمع . ويتوقف استمرار بقاء اي مجتمع على قدرة ثقافته على تلبية كلا هذين النوعين من الحاجات . غير ان طرق تلبية كل من هذين النوعين تتباين تباينا كبيرا تبعا لاختلاف المجتمعات .

اما تلبية ما اطلقنا عليه مصطلح « الحاجات العملية » فترتبط ارتباطا وثيقا بواقع الحياة الشاقة الذي تفرضه علينا خصائص نوعنا البشري والبيئة التي يعمل فيها المجتمع . فجميع الكائنات البشرية بحاجة الى الطعام والمأوى والارضاء الجنسي والحماية من الموت المفاجيء . وهذه الحاجات كلها ، باستثناء الدافع الجنسي ، يجب ان تلبى في اطار البيئة التي يعيش فيها المجتمع والاساليب التي طورها لاستغلالها . وكثيرا ما اغفل المتشبثون باهمية البيئة الحقيقية التالية ، وهي ان امكانات اية بيئة لا تعتمد على العناصر الاولية الموجودة فيها فحسب ، وانما ايضا على الطرق التي تعلمها المجتمع لاستغلال هذه العناصر . فرواسب الخامات الحديدية والفحمية لا تعني شيئا بالنسبة لمجتمع لم يتعلم كيفية صهر الحديد او سبكه . وتضم جميع المجتمعات السوية افرادا من كلا الجنسين ومن مختلف الاعمار ، وهذه الحقيقة يجب اخذها بعين الاعتبار عند تطوير اي جهاز علمي للتنظيم الاجتماعي . اضف الى ذلك ان واقع الحياة

الاجتماعية يفرض مشكلات معينة تتعلق بالاشراف والتوجيه وتوزيع العمل وتوزيع المنتوجات . هذه المشكلات يجب حلها كلها اذا اريد للمجتمع البقاء ، ولكن يلاحظ انها لا يمكن ان تحل الا بعدد محدود من الطرق . وهكذا نرى ان تلبية الحاجات العملية هي مشكلة مادية ودنيوية، وان امكانات حلها تحددها عوامل قد لا تخضع دائما لسيطرة المجتمع . وفي الوقت نفسه لا بد من سد هذه الحاجات اذا اريد للمجتمع ان يظل على قيد الحياة ولو لأمد قصير . ومن الطبيعي ان تعطى هذه الحاجات ، في وقت الشدائد ، الاولوية على سائر الحاجات الاخرى .

ويمكن سد معظم الحاجات العملية بانماط سلوكية بسيطة للغاية . والواقع ان معظم الافراد لا يدركون مدى بساطة هدف الانماط حتى يجابهوا اوضاعا يتبين فيها لهم ان الاستجابات الثقافية المحكمة التي تعلموها ابان الطفولة لا تعود عليهم باي فائدة . ونحن نلتقي في هذه الحاجات مع الانواع الاخرى من الرئيسات التي تنزع الى التجمهر او العيش في قطعان او اسراب . ولو ان حاجتنا اقتصرت على هذه ، لكان من المرجح ان يكون الشبه بيننا وبين الرئيسات كبيرا . غير اننا ننفرد بحاجات اخرى تتصل بالصفات الخاصة بعقل الانسان وشخصيته . وما زالت حركة استقصاء هذه الحاجات في مراحلها الاولى . ومهما يكن من شيء ، علينا ان ندرك ان جميع الافراد السويين يتطلبون اشياء معينة بالاضافة الى تلك التي تكفل لهم البقاء على قيد الحياة . فنزلاء السجون الحديثة ، مثلا ، يتمتعون بفرص للبقاء على قيد الحياة اكثر من معظم الاحرار ، ولكنهم اقل سعادة منهم . فنحن بحاجة الى ارضاء « الانا » او « الذات » الناشيء من الاستجابات المواتية التي نحصل عليها من الآخرين . نحن بحاجة الى نوع من التطمين حين يكتنف الشك نتائج الجهود التي نبذلها . ونحن ، على اقل تقدير ، بحاجة ايضا الى شيء من التجديد والتنوع في خبراتنا . أما منشأ هذا النوع من الحاجات فما زال

مثار جدل في اوساط علماء النفس ، ولا يتسع المجال هنا للخوض في تفصيلات المشكلة . حسبنا ان نقول في هذا المقام انه ليس لدينا ما يثبت ارتباط هذه الحاجات بالتوتر الفسيولوجي . ويبدو انها تنشأ في العقل ولا يمكن ارضاؤها الا عن طريق العقل . ومهما يكن من شيء ، فان ارضاءها ، حتى لو لم يكن ملحا كارضاء الحاجات العملية ، ضروري لتأمين خير الافراد والمجتمع لامد طويل .

اما دور هذه الحاجات بالنسبة للثقافة فهو معقد ، وما زال فهمنا له ناقصا جدا . ويبدو انها السبب الرئيسي لعدم استقرار الثقافات، ولنزعتها الى التغييرات والتعديلات المستمرة . وتستمر هذه التغييرات والتعديلات حتى حين يوفق المجتمع في التكيف على البيئة . والقول المأثور « الحاجة أم الاختراع » لا ينطبق الا على نوع خاص من الاختراعات التي يحتاج اليها المجتمع بصورة عاجلة . ويبدو ان اغناء الثقافة يسير قدما بخطوات اسرع في الظروف التي يسود فيها السلام والطمأنينة والازدهار الاقتصادي . ففي ظروف كهذه يتسع الوقت للتأمل والابداع ، فينصرف صاحب الحرفة الى اجراء تجارب جديدة يتلهى بها ، وقد تؤدي هذه التجارب الى اختراع اساليب جديدة ، كما ان الفضول قد يمهد الطريق الى اكتشافات جديدة . ولا بد ايضا من اعتبار الحاجات النفسية مسؤولة عن استبقاء تلك التفصيلات في السلوك التي تتجاوز ، في جميع المجتمعات ، مستوى التجهيز المعقد الذي يكفي لضمان البقاء على قيد الحياة . واذا نظر المراقب الغريب الى اية ثقافة نظرة عملية خالية من المشاركة الوجدانية ، فانه يندهش لكثرة الاشياء التي قد تبدو له غير ضرورية . فكل نمط ثقافي يكاد يكون مزيجا من الاعمال النافعة والاعمال التي تبدو في الظاهر غير نافعة ، ومع ذلك نلاحظ انه يمارس وينقل للاجيال اللاحقة باعتباره وحدة متكاملة . ووظيفة الاعمال « غير النافعة » بالنسبة للحاجات السيكلوجية لمجتمع معين لا تتضح للمراقب الا بعد

ان يكتسب معرفة وثيقة بثقافة ذلك المجتمع .

وليس من العسير ارضاء الحاجات الفسيولوجيـة للافراد ، على الرغم من صفاتها الدينامية . فجميع حاجات الفرد تتأثر بخبرته فتتخذ شكل دوافع موجهة نحو غايات معينة . فالحاجة الى الطعام، مثلا ، تتحول الى رغبة في انواع معينة من الطعام وتنعكس على السلوك الذي يحاول تأمين هذه الانواع . وكذلك الحال بالنسبة للحاجات السيكلوجية ، فان الخبرة تصوغها إيضا على شكل رغبات موجهة نحو تحقيـق اهداف معينة . فكل مجتمع يدرب اعضاءه على السعي لتحقيق هذه الاهداف دون سواها ، وعلى الشعور بالقناعة عند نجاحهم في تحقيقها . وفي الظروف العادية يسهم تحقيق هذه الاهداف في زيادة رفاهية الجماعة او ، على اقل تقدير ، لا يتعارض والجهود المبذولة لتلبية حاجاتها العملية . فالصانع الماهر يعمل على تحسين نوعية انتاجه لانه يعلم ان انتاجه الجيد سيحقق رغبته في ان يكون موضع اعجاب الآخرين وتقديرهم . ومما يجعل تلبية الحاجات السيكلوجية اسهل منالا ، ان العقل كثيرا ما يعجز عن التمييـز بين القيم الجوهرية والرمزية . فكل فرد يتدرب ، بصورة لا واعية ، على ان يعلق اهمية كبيرة على قيم رمزية مختلفة وان يعمـل على هديها . فالاوسمة ، مثلا ، حافز اقوى من المال في دفع الافراد الى الكد او حتى الى القتال . وما زالت الالقاب الفخمة ترضي طموح الافراد مع انها لا تتعدى كونها رمزا للقوة او السلطة . والمجتمع الناجـح حقا هو ذلك المجتمع الذي يدرب اعضاءه على ان يقنعوا بالرموز غير المؤذية وان يسعوا الى اهداف لا يعود تحقيقها باي ضرر على الآخرين .

ومع ان الحاجات السيكلوجية والعملية تزود المجتمع بالقوة الدافعة التي تمكن ثقافته من الاستمرار في اداء وظيفتها وتسهم في تغييرهـا وتنميتها ، فان مجرد معرفتها لا يساعدنا كثيرا على فهم تركيب الثقافة . والواقع ان الكثير من الانماط السلوكية التي ينقلها المجتمع الى اعضائه

هو من النوع الذي يسهم في ارضاء عدة حاجات في آن واحد . فالسبب العملي الذي يدفع الناس الى ارتداء الملابس هو رغبتهم في الاحساس بالدفء. وفي الوقت نفسه نلاحظ ان الافراد في جميع المجتمعات يحصلون على قناعة ذاتية كبيرة من مجرد الشعور بانهم يرتدون ملابس جميلة ، سواء كانت هذه الملابس بدائية او من احدث دور الازياء . وهكذا يمكن القول ان الافراد يرتدون الملابس ليس للاستمتاع بالدفء فحسب ،وانما للفت الانتباه او لخلق انطباع حسن في نفوس الآخرين . اما اي هذين الدافعين يغلب على الآخر ، فذلك يتوقف على الظروف السائدة . فالثقافة اذن تلبي حاجات المجتمع بصورة عامة ، ولكن العلاقات المتبادلة بين الحاجات هي من التعقيد والتشابك بحيث تتحدى التحليل .

أما تنظيم الثقافة فهو اصعب من ان نستطيع تشبيهه بامثلة منتزعة من خبرتنا اليومية . والواقع ان هذا التنظيم اقرب الى تنظيم عادات الفرد وافكاره ـ اي شخصيته ـ منه الى اي شيء آخر . فالثقافات ، شأنها شأن الشخصيات ، تمثل وحدات مرنة سائبة للتنظيم . فالثقافة تتألف من اجزاء تربطها علاقات متبادلة ، واذا اريد لها ان تنجح في اداء وظيفتها وجب ان يسود نوع من الانسجام بين اجزائها المختلفة . وفي الوقت نفسه لا تعمل هذه الاجزاء بالدقة ذاتها التي تتوقعها في الآلة . فالثقافات ، كالشخصيات ، تستطيع الاستمرار في اداء وظائفها على الرغم من وجود شيء من سوء التكيف او عدم الانسجام . ولكن اذا تجاوز سوء التكيف او عدم الانسجام حدا معينا ، فان ذلك قد يشلّ قدرة الثقافات على اداء وظائفها ويؤدي في النهاية الى انهيار عام . وبما ان وعي المجتمع لسوء التكيف لا يظهر عادة الا على شكل شعور غامض بالازعاج الذي يسببه ، فان حالات الانهيار ليست نادرة الوقوع . واذا وقعت مثل هذه الحالات في الثقافات المعقدة ، فانها تعرف في التاريخ بظاهرات الانهيار الحضاري .

وعلى الرغم من هذه الحدود النهائية ، فان الثقافة تستطيع دائما اكتساب عناصر جديدة واهمال اخرى قديمة دون ان يؤثر ذلك في سيرها. وهنا ايضا يمكن تشبيه الثقافة بشخصية الفرد النامي الذي يتعلم وينسى اشياء كثيرة دون ان يسبب له ذلك ازعاجا خطيرا . وفي الوقت نفسه نلاحظ ان تسرب اي عنصر جديد الى الثقافة يمهد الطريق لظهور سلسلة من التغييرات التى تطرأ على بعض العناصر القديمة. وتسهم هذه التغييرات في اعادة الانسجام او التوازن الى عناصر الثقافة المختلفة . ولعل المثال التالي ييسر للقارىء فهم ما يحدث في هذه الحالة . لنفترض اننا نقف بجانب بركة ماء مليئة بالنفايات العائمة . اذا اسقطنا في البركة الساكنة شيئا جديدا كقطعة من الخشب مثلا ، لاحظنا ظهور تموجات تغير وضع الاشياء الاخرى العائمة وتعيد ترتيب بعضها بالنسبة الى البعض الآخر . وعندما تختفي التموجات ، تظهر محتويات البركة مرتبة على شكل نمط جديد . هذا التشبيه قد يساعد على توضيح المشكلة ، ولكنه ليس دقيقا جدا . فسلسلة التغييرات التي تطرأ نتيجة لدخول عنصر ثقافي جديد لا تتم بهذه الطريقة الآلية البسيطة . فالكثير من عناصر الثقافة القديمة قد يتغير خلال عملية التكيف على النمط الجديد ، حتى ان البعض قد يتخلى عنه المجتمع كليا . أضف الى ذلك ان الحركات التي تنشأ في الثقافة نتيجة لعملية التغير لا تتوقف ابدا . فحالما تهدأ الحركات التي يثيرها عنصر جديد يظهر عنصر جديد آخر يتطلب اعادة التنظيم الثقافي . وهكذا لا تنفك الثقافات تسعى الى تحقيق نوع من التكامل المتوازن الجوانب، ولكنها لا تبلغه ابدا .

ولعل ابسط طريقة لتوضيح هذه العمليات هي الاستشهاد بالتطورات التي حدثت في اعقاب اختراع السيارة ودمجها مع العناصر الاخرى في ثقافتنا . عندما ظهرت السيارة لاول مرة كنا نعتقد ان وسائل النقل الاخرى المتوافرة لدينا ، كالعربات والقطارات ، تفي بالغرض .

ونظر معظم الناس آنئذ الى السيارة كما لو كانت العوبة يتلهون بها ، واعتقدوا ان امكانات استعمالها ستكون محدودة بسبب اخفاقها المتكرر وسوء الطرق والنقص في تسهيلات الصيانة خارج مناطق المدن الكبيرة . وعلى مر الزمن ادخلت تحسينات على السيارة ، وتبين للناس انه يمكن الانتفاع بها في اغراض مختلفة . وانتشرت الطرق المعبدة في المناطق الريفية ، واصبحت محطات الملء والصيانة من الظاهرات الشائعة في القرى والمدن الصغيرة . غير ان سلسلة التغييرات التي تعاقبت نتيجة لدخول هذا العنصر لم تقتصر على هذا المظهر العملي الواضح من مظاهر التكيف . فالمدن الصغيرة التي كانت مراكز تجارية ريفية اضمحلت وانقرضت ، في حين تضخمت المدن التي كانت متوسطة الحجم، وانتشرت اماكن ايواء السيارات ، والمنازل على الطرق ، واماكن الاستراحة والمرطبات في طول البلاد وعرضها . وانتشرت مخالفات السير وحوادث الطرق بسرعة مماثلة فحيرت رجال الامن التقليديين حتى انهم بدوا كما لو كانوا في غير زمانهم . حتى العرف الجنسي والتنظيم العائلي اصابهما شيء من التغيير بسبب التسهيلات التي توفرها السيارة للرجل للخروج مع حبيبته وبسبب الخلافات التي تنشأ بين افراد العائلة حول الشخص الذي توضع السيارة تحت تصرفه كل ليلة . وما الامثلة التي ذكرناها الا عينة عشوائية من سلسلة التغييرات التي عقبت انتشار استعمال السيارة ، وبامكان القارىء ان يضيف الى القائمة امثلة كثيرة اخرى من عنده . ومع اننا لم ننته بعد من تسوية المشكلات الناجمة عن دخول هذا العنصر الجديد ، فاننا نواجه الآن احتمال وقوع سلسلة جديدة من التغييرات نتيجة لاختراع طيارة الهليكوبتر وبدء انتشار استعمالها .

ان مثل هذه التغييرات ، مع ما ينشأ عنها من تفكك او من تكامل وتكيف جديدين ، تحدث في كل وقت وفي كل مكان . اما اثرها في المجتمعات التي تتعرض لها فيتوقف على عاملين : نوع العناصر الجديدة

التي تتسرب الى الثقافة وعدد العناصر الجديدة التي يضطر المجتمع الى مواجهتها في فترة معينة من تاريخه . ومن الواضح ان بعض العناصر الجديدة يسبب تفككا اكثر من البعض الآخر . فانتشار استعمال السيارة، مثلا ، تطلب تكيفا اوسع مـدى من انتشار استعمال محمصة الخبـز الكهربائية . ومن الواضح ايضا انه كلما ازدادت العناصر الجديدة التي يواجهها المجتمع ، ازداد انتشار حالات سوء التكيف في ثقافته . ومن الممكن لاي مجتمع ان يعاني من تخمة ثقافية اذا ما تقبل عناصر جديدة اكثر مما يستطيع استيعابه في الوقت الواحد . والمجتمع الامريكي يعاني اليوم من الاثر السلبي لكل من العاملين اللذين تقدم ذكرهما . فهو يتقبل عناصر جديدة اكثر مما تسمح به طاقته الاستيعابية ، والكثير من هذه العناصر هو من النوع الذي يتطلب دمجه في الثقافـة اجراء تغييرات اساسية في الطرق المعتمدة في المعيشة والتفكير . وسنعرض لهذه المشكلة بمزيد من التفصيل في مكان آخر من هذا المقال .

ننتقل الآن الى سمة اخرى من سمات الثقافة . ان الثقافات قلما تكون شاملة او متساوقة النمو في جميع جوانب تطورها . ويبـدو ان المجتمعات ، مثلها مثل الأفراد ، اشد اهتماما ببعض الاشياء منها بالبعض الآخر . وينتج من ذلك ان ثقافاتها تنمو وتتوسـع في الاتجاهات التي تستأثر باهتمامها . وقد يستقطب نشاط معين اهتمام احد المجتمعات ، فتراه يندفع في التوسع فيه على حساب النشاطات الاخرى . ويجري هذا التوسع بطريقة واضحة . فالمجتمع في حد ذاته لا يخترع ولا يقتبس عناصر جديدة ، انما اعضاؤه هم الذيـن يخترعون ويقتبسـون . والاختراعات المسايرة للاتجاهات التي تستأثر باهتمام المجتمع في فترة معينة هي التي تعود عليه باكثر المكافآت نفعا . قابل ، مثلا ، بين المكافآت التي يمنحها المجتمع الامريكي للشخص الذي يخترع قافية جديدة وبين تلك التي يمنحها للرجل الذي يخترع جهاز استقبال لاسلكي احدث واكثر

فاعلية من الاجهزة المستعملة . ونلاحظ ، علاوة على ما تقدم ، ان المجتمع يفضل الاختراعات التي تنسجم مع مواطن اهتمامه على الاختراعات التي لا تستأثر باهتمامه ، ويظهر استعدادا اكبر لقبولها ودمجها في ثقافته . ويشعر الناس ان اي تحسين على الاشياء التي تستأثر باهتمامهم ، مهما كان طفيفا ، يبرر الجهد الذي يبذل لاعادة تكييف العناصر الاخرى في الثقافة على الوضع الجديد . ويصدق القول نفسه على عملية اقتباس عناصر جديدة من المجتمعات الاخرى ، وهي من اهم عمليات النمو الثقافي . فالناس يقتبسون الاشياء التي يميلون اليها ، ويهملون الاشياء الاخرى التي قد تبدو للبعض انها اكثر فائدة لهم .

وهكذا يمكن القول ان الثقافات تنزع الى النمو بصورة غير منتظمة ، فتندفع في اتجاهات معينة وتتخلف في اتجاهات اخرى . وهذا يفسر لماذا تبدو الثقافة ، في كل مرحلة من مراحل تطورها تقريبا ، غير متساوقة في نموها ومواطن اهتمامها . والثقافات ، من هذه الناحية ،تشبه الاطفال في طور النمو ، حيث يختل التناسب بين طول الارجل والجسم تبعا لاختلاف مرحلة التطور . ويستطيع علماء الانثربولوجيا الاستشهاد على هذه الظاهرة بامثلة كثيرة منتزعة من الدراسات التي اجروها على الشعوب البدائية . ولكننا سنكتفي بضرب امثلة قليلة لتوضيح ما نرمي اليه : كان سكان اوستراليا الاصليون يملكون ابسط انواع التجهيزات التكنولوجية ويعيشون في ظروف تبدو لنا شاقة ومحفوفة بالمخاطر ، وعلى الرغم من ذلك كانوا سعداء وراضين بهذا النمط من الحياة . وفي الوقت نفسه نلاحظ انهم طوروا تنظيمات اجتماعية وقواعد للزواج بلغت من التعقيد مبلغا لم يعهده اي مجتمع آخر . وفي جزر المنطقة الغربية من المحيط الهادي طور البولينيزيون نظاما شديد التعقيد للرتب الاجتماعية وآداب السلوك والمعاشرة ، ولكن اهتمامهم بالدين غير جدي ويقتصر على مظاهر المجاملات الخارجية . وفي امريكا ركز المجتمع اهتمامه في

التطور التكنولوجي ، حتى ان منزل الامريكي العادي او متوسط الحال يعج بالادوات الآلية على الرغم من ان بعضها مشكوك في فائدته . ومن جهة أخرى نلاحظ ان الامريكيين ظلوا حتى عهد قريب جدا ــ على اقل تقدير ــ لا يكترثون للمشكلات الاجتماعيـة التي خلقها هذا التقدم التكنولوجي .

وهناك عاملان يحددان التطور غير المتكافيء او التطور الذي يسير في اتجاه واحد . اولهما اشتداد الاختلال في التوازن الناجم عن التوسع في جانب واحد من جوانب الثقافة واهمال الجوانب الاخرى الى حد لا يسمح لها بالاستمرار في اداء وظائفها على نحو مرض في ظل طغيان الجانب الذي يستأثر باهتمام المجتمع . ومن الامثلة على هذه الظاهرة اغفال الامريكيين لاهمية تطوير اساليب للتوزيع تجاري التقدم السريع في اساليب الانتاج . اما العامل الثاني الذي يمكن اعتباره من بعض النواحي مظهرا خاصا من مظاهر العامل الاول ، فهو ان اساليب الانتاج المألوفة لدى اي مجتمع تضع حدودا واضحة المعالم لتطور الثقافة في الاتجاهات الاخرى . فحاجة المجتمع الى الطعام والمأوى هي اشد الحاجات من الحاجات الاخرى . وطرق تلبية هذه الحاجة ترتبط ارتباطا وثيقا بالاساس الذي تقوم عليه كل ثقافة . فالمجتمع ،في سعيه الدائم لتلبية هذه الحاجة ،يكتشف الحقائق المتصلةببيئته الطبيعية وامكاناتها المحدودة. والعمليات التقنية ليست في الاساس اكثر استقرارا من اي جانب آخر من جوانب الثقافة . والواقع ان قسما كبيرا من تاريخ الانسانية يمكن كتابته في ضوء التحسن والنمو على الصعيد التكنولوجي . ومهما يكن من شيء ، فان الاهتمام بالتكنولوجيا ليس اكثر ثباتا من الاهتمام باي نوع آخر من انواع النشاط الذي يتميز به الانسان عن غيره من الكائنات الحية . فجميع التسهيلات التكنولوجية ، من وجهة نظر المجتمعات التي تمارسها ، تفي بالغرض طالما انها تلبي حاجات المجتمع المادية . وتقبل

المجتمعات الطرق التي تستخدمها منذ امد طويل في تأمين الغذاء وصنع الاشياء كما لو كانت من القضايا المسلم بها ، مثلما نقبل نحن الانماط الخاصة بالتنظيم العائلي في مجتمعنا . ولا يقتصر هذا الموقف ، باي حال من الاحوال ، على ما يعرف بالشعوب البدائية . فثمة حضارات معقدة ، كالحضارة الهندية مثلا ، ظلت قائمة آلافا من السنين دون ان تطرأ تغييرات مهمة على اساليبها التكنولوجية . وحتى يومنا هذا يستخدم الفلاح الهندي طرقا في الانتاج الزراعي ظلت على حالها منذ فجر التاريخ، كما ان الصانع الهندي الماهر يمارس فنه باساليب تعود الى عهود موغلة في القدم .

هذه الاساليب التكنولوجية المستقرة تعين الحدود التي يمكن لجميع الجوانب الثقافية الاخرى ان تتطور وتعمل ضمن نطاقها . واستعملت هنا عبارة « تعين الحدود » نظرا لان اي نظام تكنولوجي لا يفرض قيودا صارمة تفرض على المجتمع السير في خط تطوري واحد . فاي اساس تكنولوجي خاص يصلح لدعم اي من الصروح الثقافية المختلفة التي يمكن بناؤها عليه . ويقتصر اثر طبيعة الاساس على مجرد تحديد مدى الامكانات المحتملة . فالمجتمع الذي يعيش على الصيد ، مثلا ، قد يطور نظاما عشائريا معقدا او نظاما عائليا بسيطا ، وقد يكون نزاعا الى السلم او الى الحرب ، وقد يعبد الها واحدا عظيما او مجموعة من الارواح الحارسة الفردية . غير انه لا يستطيع ان يطور نظاما اقتصاديا قائما على الاسترقاق ، ولا انماطا قوية متماسكة من الاشراف السياسي المركزي ، ولا طبقة من الصناع او اصحاب الحرف الماهرين . واذا اخذ احد جوانب الصرح الثقافي يتطور الى مدى ابعد من الحدود التي يعينها التجهيز التكنولوجي الاساسي ، كما يحدث في بعض الاحيان ، فان التطور في هذا الاتجاه لا يمكن ان يسير الى غير نهاية . وفي بعض الاحيان قد يكون اهتمام المجتمع بهذا النوع الخاص من النشاط شديدا

جدا ، حتى انه قد ينساق في تيار هذا الاتجـاه علـى الرغـم مـن اختلال التوازن بين تطوره وتطور الاتجاهات الاخرى . في حالة كهذه يحدث انهيار في هذا الجزء من الصرح الثقافي تعقبه فترة من الارتباك لا تلبث ان تؤدي الى ظهور مجموعة جديدة من الانماط الثقافية المصممة على اسس اكثر تواضعا من الاسس السابقة . فقد يتمادى احد المجتمعات في تطوير طقوسه الدينية والاكثار من الاعياد بحيث لا يبقى لاعضائه وقت كاف لتلبية حاجاته العادية . والمضايقات الناجمة عن هذا الوضع تجعل الافراد يشعرون ان القوى الخارقة لا تقوم بواجبها ، فيتضاءل ولاؤهم لها ، وبالتالي يجد الكثيرون من الكهنة انفسهم بلا عمل .

وبما ان الافراد لا يقنعون ابدا باوضاعهم ، مهما كانت مرضية ، فان المجتمعات تنزع الى التأرجح من موطن اهتمام لآخر والى اختبار الحدود الثقافية التي تعينها اساليبهم التكنولوجية . وهي ، بالاضافة الى ذلك ، تعاود اختبار اساليبها المرة تلو المرة . وادرك قدماء الاغريق هذه الظاهرة دون ان يفهموا الاسباب الكامنة خلفها . فقد لاحظوا ان التنظيم السياسي لدولهم المدائنية كان يتأرجح من الديمقراطية الى الطغيان ومن الطغيان الى الديمقراطية ، وهكذا دواليك في حركة دورية مفرغة . امـا الشيء الذي لم يدركوه فهو ان الجوانب الاخرى من ثقافتهم ، وبخاصة تطورهم التكنولوجي البسيط ، وضعت حدودا من النوع الذي اعاق التطور في مجالات اخرى . وكان من الممكن ان يستقروا على احد انماط الحكم التي جربوها لو ان اهتمامهم وجد منافذ اخرى واغـناهم عن الانشغال بتكرار التجارب السياسية المختلفة . وبما انهم لم يعنوا بتطوير اساليبهم التكنولوجية ، فانهم ظلوا يدورون في حلقة مفرغة ، مثلهم مثل النمر المحتجز الذي لا ينفك يروح ويغدو في قفصه ليختبر المرة تلو المرة مدى قوة القضبان الحديدية التي تحول دون افلاته . والواقع انه لم يخطر قط ببال اي من الفلاسفة الاغريق ان يعنى بالجوانب التكنولوجية

من ثقافته . فالارستقراطيون الاغريق تركوا هذه الامور للعامة والعبيد ، اما هم فقد ظنوا انه من الطبيعي للمرء ان يعاني بعض المضايقات المادية التي لا يصبر عليها الانسان الحديث .

وطور فلاسفة الاغريق ، بناء على خبرتهم ، نظرية الطبيعة الدورية للتاريخ . وكانت هذه النظرية سليمة طالما ان الخلفية التكنولوجية للدورات التي تعيد نفسها لم تتعرض لاي تغيير . ومما يؤسف له ان بعض الفلاسفة والمؤرخين الحديثين تبنوا هذه النظرية وحاولوا تطبيقها على الاوضاع الراهنة . والجدير بالذكر ان هذه النظرية اقل انطباقا على العصر الحديث منها على اي عصر سابق باستثناء عصر واحد سنشير اليه فيما بعد . ومن السمات الهامة التي يتميز بها العصر الحديث سرعة التغيرات الثقافية الجارية وكثرتها وارتباطها الوثيق باهم الجوانب الاساسية للثقافة . لقد اكتشف الانسان الحديث كيف يولد القوة وكيف يطبق الطريقة العلمية على حل المشكلات التقنية ، وكان من جراء هذا الاكتشاف ان تزعزعت اسس الحواجز التي حددت امكانات التطور الثقافي عبر معظم عصور التاريخ المدون . غير ان هذا لا يعني اننا اصبحنا نتمتع بحرية كاملة ، انما يعني اننا اصبحنا نعمل ضمن حدود جديدة تزودنا بامكانات جديدة للنمو . واذا قيض للتاريخ ان يعيد نفسه في ظل هذه الاوضاع ، فان ذلك يتوقف ، في المكان الاول ، على ما اذا كنا نرغب في صوغ مستقبلنا على نسق الماضي .

سبق ان ذكرنا ان التكنولوجيا هي التي ــ في نهاية المطاف ــ تعين الحدود النهائية التي يمكن للثقافات ان تتطور ضمنها . ونستعمل مصطلح « التكنولوجيا » هنا بمعناه الواسع جدا للدلالة على الطرق التي طورها أي مجتمع لمعالجة بيئته الطبيعية . واهم هذه الطرق ، من زاوية التحديد الثقافي، هي الاساليب المتبعة في انتاج الطعام واللوازم الاساسية الاخرى. فجميع الجوانب الاخرى من الثقافة يجب ان تكون من النوع الذي لا

يمنع هذه الطرق من اداء عملها على وجه مرض . ولا بد من الاشارة هنا الى اننا يجب الا نخلط بين هذا النوع من الحتمية التكنولوجية والنظريات التقليدية الخاصة بالحتمية الاقتصادية ، اعني النظريات التي – في معظم الحالات – لا تميز بين اساليب الانتاج الفعلية وبين انظمة المجتمع التي تتحكم في الملكيةوالتوزيع .فايةمجموعةمن الاساليبالانتاجية قد لا ترتبط باي من الانظمة المتعددة للملكية والتوزيع . ومن الامثلة على ذلك في عالمنا الحديث الاختلاف بين النظامين الروسي والامريكي . فمع ان انماط الملكية والتوزيع تختلف اختلافا عميقا ، فان كلا المجتمعين يستعمل ذات المعدات التكنولوجية والطرق الانتاجية . وكذلك الحال في المجتمعات البدائية ، فان الاساليب الانتاجية ذاتها قد تقترن بانظمة اقتصادية مختلفة : بنظام الملكية الفردية او الجماعية ، او بالاقتصاد القائم على المال ، او بالنظام القائم على تبادل الهدايا ، او بالنظام الذي يعهد الى الزعيم مهمة توزيع الفائض من المنتوجات على وحدات القبيلة . ويبدو ان كلا من هذه الانظمة يؤدي وظيفته على نحو مرض طالما انه ينطوي على اجراءات تلبي الحاجات الاساسية لكل فرد .

واذا استعملنا مصطلح « التكنولوجيا » بهذا المعنى الواسع وتجاهلنا التغييرات والتحسينات الطفيفة التي طرأت على عمليات معينة ، تبين لنا ان التغييرات الاساسية التي حدثت في تاريخ الانسانية قليلة جدا نسبيا . ومن الظاهرات الغريبة التي ما زالت بحاجة الى تفسير ان المجتمعات التي تعيش في اجزاء مختلفة من العالم توصلت الى اختراعات متماثلة تقريبا في عهود مختلفة ، وذلك على الرغم من انفصال بعضها عن البعض الآخر . فهناك عدد كبير من المشابه في التطور الحضاري بين العالم القديم والعالم الجديد ، ومن المؤكد ان هذه المشابه لم تأت نتيجة للاحتكاك بين العالمين . وفي كل حالة وقعت فيها تغييرات اساسية على الصعيد التكنولوجي ، كانت تعقبها تغييرات سريعة وبعيدة المدى في

الجوانب الاخرى من الثقافة . ويبدو ان الوثبات التكنولوجية تلعب في التطور الثقافي دورا مماثلا تقريبا للدور الذي تلعبه الطفرات الاساسية التي تحدث من آن لآخر في تطور الكائنات الحية . فهي تزود المجتمع بمنطلق جديد للتطور والتنوع ، وهذان العاملان يؤديان بدورهما الى انتاج اشكال جديدة تختلف كثيرا عن الاشكال السابقة . ويبدو ان تاريخ الانسانية لم يشهد الا ثلاثا من هذه الطفرات الاساسية ، ولكن كل طفرة منها ادت الى نتائج بعيدة الاثر والمدى .

اما اولى هذه الطفرات فتعود الى عهد موغل جدا في القدم حتى ان معلوماتنا عن نتائجها المباشرة لا تخرج عن نطاق الحدس والتخمين . وتميزت هذه الطفرة بتطوير الادوات واستعمال النار . فهذان العاملان ساعدا الانسان على التحكم في بيئته التي ، رغم ما تبدو عليه من البساطة في نظرنا ، كانت اوسع كثيرا مما عرفه العالم حتى ذلك التاريخ . وتجدر الاشارة هنا الى ان الكثير من الحيوانات يستخدم الاشياء الطبيعية حين تكون متوافرة وتنشأ الحاجة اليها ، حتى ان بعض انواع الدبابير شوهدت تستخدم الحصى لسد الثقوب في اجحارها الترابية . غير ان الاهمية الجوهرية لاستعمال الادوات هي انها تساعد الانسان على صنع اشياء لاغراض معينة والاحتفاظ بها لاستخدامها ثانية عند الحاجة . والانسان هو الحيوان الوحيد الذي تقدم في هذا المضمار . اما بالنسبة للنار ، فان الجميع يعرف ان الانسان هو الحيوان الوحيد الذي يستعملها. وكان لاكتشاف اسلافنا للنار اثر كبير جدا في تطور حياتهم الثقافية . ونحن اليوم اعتدنا ان ننظر الى الفضل الرئيسي للنار على الانسانية في ضوء ما توفره لنا من نور ودفء وحماية من الحيوانات البرية . والواقع انه كان للنار اثر اهم في حل المشكلات المتصلة بتأمين اللوازم الغذائية . ففي حين يمكن اكل معظم الاغذية المشتقة من مصدر حيواني دون طبخ، نلاحظ ان معظم الاغذية المشتقة من مصدر نباتي يجب ان تطبخ كي

تصبح صالحة للاكل . ويصدق هذا القول بوجه عام على الحبوب الصلبة التي اصبحت الغذاء الرئيسي في معظم المناطق التي كانت تشكو من ندرة الطرائد والتي ما زالت تشكل الجزء الاساسي من طعام الانسان في معظم انحاء العالم . ونحن اليوم ما زلنا نتضرع الى الله عز وجل ان يمنحنا خبزنا كفافنا كل يوم ، ولكن يجب ان نذكر ايضا اننا لا نستطيع الحصول على الخبز بدون نار .

وبعد ان تسلح الانسان القديم بالنار والادوات ، استطاع ان يقتحم مناطق كان يخشى ارتيادها قبل ذلك التاريخ ، كما انه استطاع ان يتكاثر وينتشر على وجه البسيطة . غير ان هذه الخطوات الاولى لم تساعده الا على استغلال الموارد المتوافرة في بيئته على وجه افضل ، ولكنها لم تمكنه من زيادة هذه الموارد . واذا استثنينا بعض الاماكن المواتية للتجمع والاقامة، امكننا القول انه عجز ايضا عن العيش في جماعات تزيد الواحدة منها عن بضع عائلات ، كما انه لم يستطع الاقامة في مكان واحد اكثر من بضعة ايام في المرة الواحدة . وظلت هذه الاوضاع قائمة مئات الآلاف من السنين . واستطاعت المجتمعات المختلفة ان تطور في نطاق الحدود التي تحكمت فيها هذه الاوضاع ، مجموعة كبيرة من المؤسسات الاجتماعية وان تنمي مهارتها في استغلال موارد البيئة الى مدى بعيد يستلفت النظر . فمجتمع الاسكيمو، مثلا ، نجح في التكيف على الاوضاع الشاقة في بيئته الباردة وان يعيش فيها على نحو يكاد الاوروبي الحديث — على كل علمه — يعجز عن الاتيان بافضل منه . ومهما يكن من شيء ، فان اعتماد الانسان طيلة تلك الحقبة الطويلة من تاريخه على جمع الاطعمة البرية وضع حدودا واضحة المعالم لمدى تطور الثقافة ، وبخاصة فيما يتعلق بتكاثر السكان .

أما الطفرة الاساسية الثانية فكانت اختراع الزراعة . وحدثت هذه الطفرة عددا من المرات في اوقات واماكن متباعدة ، ويدل على ذلك

تباين النباتات الزراعية والحيوانات الداجنة في المناطق المختلفة . أما النظرية القائلة بان الانسان كان راعيا قبل ان يصبح مزارعا ، فقد اصبحت ضربا من الاساطير . واول من نادى بهذه النظرية فريق من العلماء الذين حاولوا ترتيب جميع الثقافات في تتابع تطوري واحد يقوم على المنطق وليس على الادلة المتوافرة . غير ان الواقع هو ان تطور انتاج المواد الغذائية لم يجر على هذا النحو المنتظم . وليس من المستبعد أن تكون بعض القبائل المتفرقة من صيادي الطرائد الكبيرة قد بدأت تلجأ الى حراسة قطعان الحيوانات التي كانت تلاحقها وبالتالي الى رعايتها ، ولكن يرجح ان هذه الظاهرة لم تقع الا في أجزاء قليلة جدا من العالم . وحتى يومنا هذا نلاحظ ان معظم المجتمعات البدائية التي تعيش على جمع الطعام تعتمد على النباتات اكثر من اعتمادها على الحيوانات . واذا كانت الجماعات البدائية تتحدث كثيرا في مجالسها عن اللحم ، فان ذلك يعود الى ندرته وافضليته عن الاطعمة الاخرى وليس الى وفرته في وجبات طعامهم . وفي معظم المناطق ، على ما يبدو ، بدأ انتاج المواد الغذائية عن طريق الاستنبات . أما الحيوانات فأتت في وقت لاحق ، وفي حالات كثيرة لم يتم تدجينها الا بعد ان تيسر للانسان ان ينتج من المحاصيل ما يمكنه من ان يعيش حياة مستقرة نسبيا . وكل شخص حاول ان يسوق قطيعا من الخنازير يدرك انه من العسير على اية جماعة ان تدجن هذه الحيوانات اذا كانت تقضي معظم اوقاتها في التنقل من مكان لآخر .

ومع ان الاثر النهائي للزراعة كاد يساوي اثر استعمال النار والادوات من حيث مداه البعيد ، فانه لم يلمس الا بعد انقضاء وقت طويل .فالزراعة في مراحلها الاولى لم تتعد كونها نشاطا مكملا للصيد او لجمع الطعام من الطبيعة . حتى في العهود التاريخية وجدت قبائل كثيرة كانت تزرع محصولا معينا وترحل عنه الى اماكن بعيدة لتعود اليه في موسم الحصاد وتجمع ما سلم من فتك الاعشاب والحشرات والآفات الزراعية الاخرى .

وعلى مر السنين تحسنت الاساليب الزراعية وازداد المردود ، فدفع ذلك الناس الى البقاء قرب حقولهم وتخصيص وقت اطول للعمل فيها . وعلى الرغم من هذا التقدم ، فان الناس لا بد انهم ظلوا اجيالا كثيرة يعتمدون على جمع الطعام من الطبيعة من اجل تأمين بعض العناصر الهامة في غذائهم . ولم يتم الانتقال الحقيقي من مرحلة جمع الطعام من الطبيعة الى مرحلة الانتاج الزراعي الا بعد ان تطور الانتاج الزراعي الى نقطة اصبح عندها يكفي لتوفير غذاء متوازن العناصر ، اي غذاء يحتوي على جميع العناصر اللازمة للحياة وسلامة الصحة . وفي العالم القديم الذي يعتبر المنبع الاصلي للقسم الاكبر من الحضارة الامريكية تحقق هذا التطور نتيجة للجمع بين الفلاحة وتربية الحيوانات . ولا بد من الاشارة ايضا الى التطور الخطير الذي عقب اختراع اساليب لانتاج الحليب ، فقد استفاد الانسان في العالم القديم من الابقار وجعلها تؤمن له موردا منتظما لمعظم العناصر الغذائية التي تفتقر اليها الحبوب . وفي بعض الاماكن عوض الانسان القديم عن النقص في فيتامين « ب » عن طريق الاستفادة من الحبوب في صنع نوع من الجعة شديد الشبه بالبيرة الرغوية التي كانت تصنع محليا في امريكا في العهد الذي حرمت فيه المسكرات . اما في العالم الجديد ، فان الانسان القديم لم يخترع قط اساليب لانتاج الحليب ، ولذا كان يعوض عن هذا النقص بتشكيلات متنوعة من الاطعمة ، اهمها الطعام الذي يتألف من الذرة والفول ونوع خاص من الفلفل الاحمر الحار .

وبعد ان نجح الانسان في انتاج غذاء متكامل ، انفتحت له آفاق واسعة للتطور الثقافي . ففي اجزاء كثيرة من العالم اصبح في مقدور الانسان ان يستقر ويعيش في المكان نفسه جيلا بعد جيل . وفي عهد البداوة كان الانسان مضطرا الى ممارسة حرف كثيرة لانه لم يستطع قط ان يتنبأ متى ستنشأ الحاجة الى مهارة معينة ، كما انه لم يكن واثقا من

امكان ايجاد الاخصائي اللازم عند الحاجة . ولكن بعد ان انتقل الانسان الى طور الزراعة والاستقرار ، اخذ الاخصائيون يظهرون باعداد متزايدة ويدخلون تحسينات مستمرة على حرفهم المختلفة . أضف الى ذلك ان حياة القرية المستقرة مهدت الطريق لتطور انماط من التنظيم الاجتماعي اشد صرامة من التنظيم السابق . ثم ان قلق المزارع الدائم بشأن المحاصيل والحالة الجوية جعله اكثر تدينا من اسلافه ، فادى ذلك الى بناء الهياكل والى تحول الاطباء البدائيين الى كهنة . وفي المناطق التي كانت التربة فيها غنية وقادرة على اعالة مجموعات سكانية كبيرة والتي تطورت فيها وسائل مناسبة للتنقل ، انتشرت ظاهرة جديدة ، وهي المدن . وسرعان ما اصبحت المدينة مركزا للنشاط التجاري والصناعي التخصصي ومكانا لتجمع عدد كبير من الناس ما لبث ان خلق مشكلات جديدة تتصل بالحكم والتنظيم الاجتماعي . والجدير بالذكر ان حياة المدن ظاهرة حديثة جدا في تاريخ الانسانية حتى ان نوعنا البشري لم يتكيف عليها بعد من الناحية الفسيولوجية . فالناس لا يتناسلون كما يجب في المدن ، ولذا تضطر كل مدينة الى الاعتماد على الريف لتنمية مواردها السكانية مثلما تعتمد عليه في تأمين الغذاء والمواد الخام . وأخذت اعداد كبيرة من الغرباء تتحرر من ارتباطاتها العائلية في الريف وتتدفق الى المدن وتفقد هويتها الاجتماعية الاصلية . وخلقت هجرة الناس من الريف الى المدن مشكلات جديدة لم تنجح المجتمعات بعد في حلها على الوجه الاكمل . ومما يزيد من تعقيد المشكلة ان المدن تجتذب عادة اليها الافراد الذين لا ينجحون في التكيف على مجتمعهم الريفي . فالفلاح الراضي بحاله يبقى في قريته ويفلح ارضه على سنة ابيه . اما الفلاح الناقم ، خبيثا كان او موهوبا ، فيقصد المدينة حيث يجد مجالا اوسع لاستغلال مواهبه في سبيل الخير او الشر .

ولعل اهم سمة تميز بها الوضع الجديد هي ظاهرة الفائض الاقتصادي الذي كان يتوافر سنة بعد سنة والذي اصبح من الممكن التنبؤ به بصورة

منتظمة . وكانت هذه الظاهرة حافزا قويا دفع الجماعات القوية المحاربة الى مهاجمة جماعات اخرى اضعف منها والاستيلاء على ما لديها من فائض . ومن جهة اخرى اصبحت هذه الظاهرة اساسا لتطور النظام الطبقي داخل المجتمعات الزراعية نفسها . وفي ظل الاوضاع الجديدة ظهر افراد اتخذوا من الحكم او الحرب حرفة اختصوا بها ، واستغلوا قوتهم للاستيلاء على الفائض الذي انتجه الفلاحون واصحاب الحرف . ومما سهل هذا الترتيب ان الفلاحين ، في معظم الحالات ، رضوا بهذا النظام في توزيع الاعمال واعتبروه من الامور المسلم بها ، فانصرفوا الى فلاحة الارض تاركين لسادتهم مسؤولية الحكم والحرب . وفي بعض الاوقات كانت اوضاع الفلاحين تسوء الى درجة لم يستطيعوا الصبر عليها ، فيدفعهم ذلك الى الثورة على سادتهم . ولكن حتى في هذه الحالات كانت الثورة تجهض في اول عهدها نظرا لان الفلاحين لم يعرفوا كيف يحكمون انفسهم او لانهم كانوا يحجبون ثقتهم عن اي فرد يبرز من صفوفهم ويحاول ان يستولي على الحكم .

وتبين من الاكتشافات الارخلوجية الحديثة ان الانسان تكيف بسرعة على الاوضاع الجديدة القائمة على الزراعة . ومما لا يرقى اليه شك ان المجتمعات البشرية ، في المراحل الاولى من هذا التكيف ، شهدت فترات من الارتباك الداخلي ومحاولات لاعادة تنظيمها الثقافي شبيهة بما نراه في عصرنا الحديث . غير ان معلوماتنا عن هذه الاوقات الحرجة قليلة جدا . ونحن اليوم نتساءل عن الشعور الذي احس به جامع الطعام حين اكتشف ان الارض التي كانت فيما مضى ضئيلة القيمة اصبحت شيئا ثمينا ومصدر قوة لصاحبها . والشيء الوحيد الذي نعرفه على وجه التأكيد هو ان تغييرات كثيرة طرأت على الثقافة خلال فترة قصيرة نسبيا .فالشرق الادنى الذي يعتبر من المنابع الرئيسية للحضارة الغربية شهد في غضون الف سنة انتقالا كليا من حياة بدائية مماثلة لحياة قبائل الصيادين في العصور

الحديثة الى حضارة متكاملة بلغت درجة عالية من التطور . ففي هذه المدة القصيرة نسبيا تعلم الانسان صهر المعادن والكتابة والحكم وسن الشرائع والتسليف وممارسة الاعمال المصرفية الاخرى ، وبوجه عام تعلم ان يعيش على مستوى يكاد يعادل مستوى حياة اسلافنا قبل مائتي عام فقــط . ويبدو ان العالم الجديد شهد تطورا مماثلا ، وان كانت الدلائل تشير الى ان التطور كان أسرع منه في منطقة الشرق الادنى . ففي المناطق الجنوبية الغربية من الولايات المتحدة الامريكية توصل الانسان القديم الى غذاء متوازن العناصر في غضون ثلاثمائة سنة ، وذلك نتيجة للتطور الزراعي والانتقال من حياة البداوة البسيطة الى الثقافة المعقدة التي امتازت بها قبائل البويبلوس .

وبعد ان استقصى الانسان القديم حدود التطور الثقافي الناشىء عن ادخال الزراعة ونجح في التكيف على اوضاعه البيئية الجديدة ، استقرت الحضارات المختلفة للمرة الثانية . واقتصرت التطورات الاضافية عــلى حركات متراوحة جرت ضمن هذه الحــدود التي ابقت معظم الانمــاط الحيوية الاساسية على حالها . ففي الشرق الادنى ظلت هذه الانماط قائمة حتى عهد قريب جدا . فمنذ ثمانية آلاف عام والفلاح يستعين بالثيران لحراثة ارضه والصانع يعمل امام دكانه الصغير . وظلت هذه الانماط قائمة طيلة هذه المدة التي شهدت ظهــور معتقدات دينية مختلفــة وازدهار امبراطوريات كثيرة وافولها . اما في اوروبا فقد تأخر ظهــور الحضارة كثيرا ، ولكنها هنا ايضا حافظت على انماطها الاساسية قرونا طويلة بعد تأسيسها . وعلق البعض ان جورج واشنطن ، لو قيض له ان يطفر فجأة عبر الزمن الى اثينا في عهد بركليس او حتى الى بلاط حمورابي ملك بابل في عام ٢٢٠٠ ق.م. لشعر ان الحياة في هذين العهديــن القديمين اقرب الى بيئته من الحياة في مدينة امريكية عصرية . هذه الملاحظة على جانب كبير

من الصدق . فاذا استثنينا عامل اللغة ، امكننا القول ان واشنطن ، لو قام بزيارته الى اثينا وبابل ، لرأى من مظاهر الحياة التي يألفها او يفهمها في هذين البلدين اكثر مما يمكن ان يألفه او يفهمه في مدينة امريكية عصرية . وما زال الكثير من هذه الانماط التي دامت مدة طويلة يشكل جزءا من ثقافتنا المعاصرة . بقي علينا ان نعرف نوع وعدد الانماط التي سيكتب لها البقاء في النسق الثقافي الجديد الذي اخذ يتشكل نتيجة للطفرة الثالثة التي تجري في عصرنا الحاضر .

هذه الطفرة الثالثة حديثة العهد جدا حتى ان التغييرات التكنولوجية الاساسية التي ادت اليها لم تصل بعد الى نهاية تطورها . وقد نشأت هذه الطفرة من اختراعين جوهريين : اولهما كيفية انتاج القوة وثانيهما الطريقة العلمية . ولا بد من الاشارة هنا الى ان استعمال القوة الطبيعية ، كالقوة المولدة من الساقية او الناعورة ، قديم جدا حتى انه يكاد يعود الى فجر الحضارة ، شأنه في ذلك شأن استعمال القوة الحيوانية . غير ان مقدار القوة المولدة من هذين المصدرين كان محدودا جدا . اضف الى ذلك ان القوة المولدة من الساقيـــة او الناعورة لم تتـــوافر الا في امـــاكن قليلة محظوظة . اما اكتشاف كيفية توليد القوة من الوقود فقد حرر الانسان من هذا التحديد وساعده على استخدام القوة بمقادير كبيرة أنى شاء ان يفعل ذلك . وهذا بدوره اثار الاهتمام بالبحث عن مصادر جديدة للقوة ، وما زال الانسان مجدا في البحث عن مثل هذه المصادر . ويمكن القول ان المساعي المبذولة لاستغلال الموارد الهائلة للطاقتين الشمسية والذرية ما زالت في طفولتها ، ولكن المشكلات المتصلة بهذه المساعي قـــد يمكن حلها . أما نتائج النجاح في هذا المضمار فيصعب تحديدها تحديدا دقيقا . ومما لا يرقى اليه شك ان اولى هذه النتائج ستكون فقدان بعض المناطق لاهميتها الحالية واكتساب البعض الآخر لاهمية جديدة . فاذا نجح الانسان في اطلاق الطاقة الشمسية من عقالها ، فان مراكز الانتاج ستنتقل تلقـــائيا

من المناطق التي يكثر فيها الوقود المعدني الى المناطق التي يكثر فيها نور الشمس . ومن الواضح ان تطورا كهذا سيفقد اوروبا الشمالية الكثير من اهميتها ويتركها تقبع وحدها تحت غطاء سحبها المنخفضة . كما ان تطوير طرق تصنيع المنتوجات الزيتية من المواد النباتية قد يؤدي في النهاية الى انتقال صناعات كثيرة الى المناطق الحارة حيث البيئة انسب لانتاج المحاصيل المطلوبة .

أما اختراع الطريقة العلمية فقد يكون ذا أثر انقلابي ابعد مدى من انتاج القوة من الوقود . ولا بد من التشديد على ان التوصل الى الطريقة العلمية يعتبر من الاختراعات الهامة . فالانسان ، منذ ان تعلم ايقاد النار بجذ الظران ، وهو يعنى بصفات الاشياء غير العاقلة ويستقصي امكاناتها . غير ان ما تعلمه في الماضي عن هذه الاشياء جاء ، في اغلب الاحيان ، عن طريق الصدفة ، كما ان معلوماته عنها كانت تنتقل من جيل لآخر دون نقاش أو جدل . فقد تعلم ان اسلوبا معينا يعطي نتيجة معينة ، ولكنه لم يعن بالاجابة عن اسئلة مثل : كيف ادى هذا الاسلوب الى هذه النتيجة ؟ او اي العناصر في الاسلوب المتبع اسهمت فعلا في اعطاء النتيجة المذكورة ؟ ونلاحظ حتى في عصرنا الحاضر ان الاساليب التي لم يتعرض لها العلم تشتمل على طقوس وحركات كثيرة غير ضرورية كما هي الحال في شؤون الطبخ . وتقوم الطريقة العلمية في جوهرها على عاملين : التجربة المتكررة ، والتسجيل الدقيق لنتائجها التي يجب ان تقاس بطرائق بعيدة ، الى اقصى حد ممكن ، عن الاستنتاجات الذاتية للمراقب الفردي . هذان العاملان يتساويان في الاهمية ، والدمج بينهما هو الذي مهد الطريق لظهور العلم . فالعالم الحديث لا يثق بالادلة التي توفرها له حواسه ولا بالافكار التي تجول في ذهنه الا بعد ان يتحقق منها اما بوسائل آلية واما بالاستعانة بملاحظات الآخرين . وهو ، في هذه الناحية ، يختلف عن قدماء الاغريق الذين بلغوا مرحلة التجربة بدافع من فضولهم ونزعتهم العامة الى

الاستقصاء والبحث ، ولكنهم لم يدركوا ان العقل ليس معصوما عن الخطأ . والواقع انهم اعتبروا العقل الملاذ الاخير لحسم جميع القضايا التي ثار حولها الشك والجدل . ولم يصبح الانسان عالما حقا الا بعد ان اخذ يشك في عصمة عقله . ومن سخريات القدر ان الكنيسة المسيحية ، باصرارها على عدم عصمة العقل بالمقابلة مع عصمة السلطة الدينية ، ربما اسهمت في تمهيد الطريق لتطور الطريقة العلمية . والشك الذي خلقه هذا الموقف اتسع اخيرا حتى شمل عصمة السلطة الدينية . وكان من جراء انتشار اليقظة والوعي في عصر النهضة وازدياد الاهتمام بالاشياء اليقينية ان اتجه اهتمام البعض الى القياسات والرياضيات والآلات . وعلى مر الزمن ارتفع مستوى هذه الابحاث واتسع نطاقها ، فمهدت الطريق الى ولادة العلم الحديث .

غير ان محاولات استقصاء الامكانات الكاملة للطريقة العلمية ما زالت في مهدها . ويصدق هذا القول حتى على التطور التكنولوجي . ومهما يكن من شيء فان الانسان ، على ما يبدو ، يحتمل ان يتمكن في النهاية من اصطناع اشياء مماثلة لما يجده في الطبيعة من مواد اخرى . هذا وان امكانات التحسين على الصعيد التكنولوجي ـ وبالتالي التسهيلات التي سيتيحها هذا التحسين لرفع مستوى المعيشة ـ هي من الاتساع بحيث يتعذر علينا ادراك الحدود التي ستتقف عندها . حتى لو افترضنا ان طرق التركيب الاصطناعي لن تواصل تطورها ، فان اساليب الانتاج على نطاق واسع تزود بعض الاقطار ، زمن السلم على اقل تقدير ، بوفرة من المنتوجات التي تحتار في امر تصريفها . فانتاج المصانع الامريكية ، مثلا ، يفوق قدرة الجهات المختصة على تصريفه للاشخاص الذين ما زالوا بحاجة اليه . وينشأ هذا الوضع المؤسف ، في المكان الاول ، من طغيان اهتمام الامريكيين بالتقدم التكنولوجي على اهتمامهم بالشؤون الاخرى . فمع ان الطريقة العلمية طبقت بحماسة على كل ما له علاقة بالتقدم المادي ،

فانها لم تطبق الا بصورة مبدئيـة ومتقطعة على المشكـلات الاجتماعية والنفسية التي خلقها هذا التقدم . ومع ان اي صاحب مصنع ، مهما كان محافظا ، يسارع الى الاستماع الى المشورة التـي يقدمها له المهندس او الخبير الكيمائي ، فان المشرع قلما يكترث للنتائج التي يتوصل اليها العالم الاجتماعي . وجاء في تعليق احد الكتاب ان المشرع لا يزال يطبق المعايير القديمة على عصرنا الحـديث الذي انتشرت فيـه الطيارات واجهـزة اللاسلكي .

ونحن لا ننكر ان العالم الاجتماعي ما زال عاجزا عن معالجة الكثير من المشكلات التي تواجهنا . فهو لم يبدأ الا حديثا في تطوير اساليب خاصة تصلح لدراسة فئة معينة من الظاهرات التي يعالجها . غير ان الارشاد الذي يستطيع اسداءه لنا ، مهما كان محدودا ، هو ذو قيمة كبيرة لنا في الظروف الحالية . فالقوى التي اطلقتها الطفرة الثـالثة من عقالها اخطر واضخم من ان تترك سائبة دون اي توجيه واع . واذا اطلق العنان لهذه القوى دون اي ضبط ، فمن المرجح ان يؤدي ذلك الى انهيار الثقافات التي عانت من وطأتها الاولى ، كالثقافتين الامريكية والاوروبية الغربية .

والعالم الاجتماعي ، اذ يدرك هذه الحقيقة ، لا يتمتع بمقدرة تنبؤية اكبر من تلك التي يمارسها الطبيب حين يتنبأ باحتمال انتشار وباء اذا لم تتخذ الاحتياطات اللازمة للوقاية منه . ويتضمن الوضع الحالي عـاملين متميزين يبعثان على التفاؤل . اولهما الطاقة الانتاجية الهائلة للصنـاعة الحديثة والزراعة العلمية . ومن الادلة على هذه الطاقة الهائلة ان الولايات المتحدة الامريكية استطاعت ان تخوض حربا عالمية ضروس لم يعـرف التاريخ لها مثيلا ، كما استطاعت في الوقت نفسه ان تؤمن الغذاء والكساء لسكانها على نحو افضل مما عهد حتى في بعض عهود السلم . والمجتمع الذي يملك مثل هذه الطاقة الاقتصادية الهائلة يستطيع ان يحتمل جانبا

كبيرا من سوء التكيف او الارتباك الثقافي دون ان يعرض اعضاءه لحالة من الحرمان المادي الفعلي . اما العامل المشجع الثاني فهو ان في المجتمعات الغربية افرادا كثيرين يدركون الحاجة الى التوجيه والتخطيط الواعي من أجل تطوير نظام اجتماعي جديد . ومع ان هذا الادراك لا يشمل جميع الفئات ، فانه ينمو بانتظام ولا بد من ان يؤدي في النهاية الى نتائج عميقة الاثر .

ومن السمات الهامة لعصرنا الحديث ان العقود الاخيرة شهدت محاولتين لاعادة تنظيم المجتمع الاوروبي والثقافة الاوروبية ، الاولى في روسيا والثانية في الاقطار التي قامت فيها نظم الحكم الفاشي . ومع ان المحاولتين كلتيهما تنكرتا للدين ، فانهما اقتبستا الكثير من مظاهر بعض الديانات المنظمة ، كانزال العقاب السريع بجميع الهراطقة الذين شكوا في سلامة المعتقدات التي قامت عليها هاتان الحركتان . ولم يستطع انصار هاتين الحركتين الاستعانة بالقوى الخارقة ، ولذا لجأوا الى تبرير موقفهم بالاستناد الى ما يسمى بحتمية التطور . وذهبوا الى ان الاجيال القادمة ستشهد نشوء انظمة جديدة على اعتبار انها تمثل مراحل حتمية في تطور الحضارة ، مراحل قد تتأخر بعض الوقت ولكنها آتية ، ما في ذلك ريب . واذا كانت معلوماتنا الحالية عن نمو الثقافة وتنظيمها تدل على شيء ، فانما تدل على انه ليس هناك ما يمكن ان نسميه « الحتمية » او « الجبرية » الثقافية . فالتقدم التكنولوجي الحديث ، شأن اي تقدم مماثل في الماضي ، يتيح امكانات واسعة لاعادة التنظيم الثقافي والاجتماعي ، ولم تنجح الشيوعية ولا الفاشية الا في استغلال عدد قليل من هذه الامكانات . وسبق ان بينا ان اية ثقافة ، اذا اريد لها النجاح او الدوام ، لا بد لها من ان تلبي حاجات الانسان النفسية بالاضافة الى حاجاته الفسيولوجية . وكلا النظامين ، الفاشي والشيوعي ، ينطوي على خصائص عديدة لا يقبلها

اولئك الذين نشأوا في ظل التقاليد الغربية القائمة على التسامح وعلى حرية الفرد في التفكير والعمل . هذه التقاليد اصبحت الآن عميقة الجذور في نفوس معظم الامريكيين حتى انهم لا يمكن ان يرضوا باية ثقافة موجهة لا تحسب حساب هذه التقاليد ولا تقر باهميتها . حتى لو عادت مثل هذه الثقافة ببعض الفوائد المؤقتة على الفئات الحاكمة الصغيرة ، فانها تحمل في طياتها من بذور السخط والحرمان النفسي ما يحول دون بقائها مدة طويلة . ولذا كان من المستبعد ان تجد الشيوعية او الفاشية موطىء قدم دائما لها في اوروبا الغربية . أما احتمال قيام مثل هذه الانظمة في امريكا فهو ضعيف جدا .

وثمة كلمة ختامية يجب ان نقولها في هذا المقام . لو افترضنا ان الشعوب الغربية ستظل خاضعة لسحر الاعيبها العلمية والآلية الجديدة وبالتالي عاجزة عن اجراء التكييف اللازم في الوقت المناسب ، فان ذلك لا يعني نهاية العالم . فعلى الرغم من انتشار الطيارات والمصانع ، فان سواد سكان العالم ما زال يعيش في ظل ثقافات متكاملة ومستقرة نسبيا ، ثقافات اقيمت صروحها على اساس الطفرة الثانية . ومع ان اثر الحضارة الغربية احدث بعض الارتباك في هذه الثقافات ، فانه لم يؤد بعد الى انحلالها . ويلاحظ ان معظم الشعوب النامية ، بخلاف الشعوب الغربية ، لا تتمادى في تركيز اهتمامها في التحسين التكنولوجي من اجل ذاته . ومن المرجح جدا ان تتمكن الشعوب النامية ، بعد تحررها من ضغط الامم الغربية ، من الاستفادة من اخطاء الغرب وادخال التكنولوجيا الحديثة بسرعة ابطأ وممارسة درجة اعلى من الانتقائية . وستهدف هذه الشعوب آنئذ ، عن وعي او غير وعي ، الى تكييف الآلة على متطلبات الانسان بدلا من تكييف الانسان على متطلبات الآلة . واذا قامت الحضارات على اي اساس آخر ، فمن المستبعد جدا ان يكتب لها الاستقرار والدوام .

الوضع الحالي لموارد العالم

هوارد أ. ميرهوف

درجت الحكومات ، منذ زمن طويل ، على تقدير قيمة المـوارد الطبيعية من وجهة النظر القومية ، وعلى السعي الى حيازة المواد الخام الرئيسية او اخضاعها لسيطرتها السياسية . ولم تستطع اية دولة كبرى ان تتحرر كليا من فلسفة الاكتفاء الذاتي . ولكن نظرة النازيين الى المشكلة تبرز بشكل أوضح نمط التفكير الذي ينبثق حتما من التعصب القومي المتطرف . فمن الاهداف الاولى التي سعى هتلر الى تحقيقها تحويل المانيا الى دولة تكفي نفسها بنفسها . وحيثما تعذر تحقيق هذا الهدف عن طريق استخدام ما توافر من الموارد الطبيعية المحلية ، وجّهت بـراعة الالمان ومهارتهم التكنولوجية نحو اصطناع منتوجات بديلة . واذ عجزت المهارة التكنولوجية عن تحقيق هذا الهدف من حيث الكم أو الكيف ، فان الهوس الذي اقترن بفكرة الاكتفاء الذاتي كان يظهر على شكل فلسفة سياسية تقوم على اذكاء نار العداوة بين الدول ذات الموارد الغنية والدول ذات الموارد الشحيحة . اما حيازة المانيا للفحم الحجري ــ وهو من أهم المواد الخام اللازمة للصناعة ــ فقد زعم النازيون انها ضئيلة الاهمية بالمقابلة مع النقص في الموارد الاخرى . ويبدو ان النازيين تجاهلوا الحقيقة التالية وهي انه لا يمكن لاية دولة اخرى أن تملك بمفردها تشكيلة كامـلة من

المنتوجات الطبيعية وان خاصة الاكتفاء الذاتي لا يمكن ان تنطبق الا على العالم باعتباره كلا متكاملا . وهكذا وضع النازيون نصب عيـونهم هدفا الزاميا تقيدوا به ، وهو محاولة بسط سيطرتهم العسكرية ـ وبالتالي اشرافهم السياسي ـ على جميع المواد الاساسية اللازمة للانتاج الصناعي . أما الحرب العالمية التي نشبت في نهاية العقد الرابع من هذا القرن فانها ، بالنسبة لالمانيا ، سرعان ما فقدت مظهرها الاولي الذي شدد على ضرورة حماية حقوق الاقليات الالمانية ، واندفع في تيار آخر يستهدف تأمين قوة صناعية دائمة لالمانيا ، أو بالحري تقرير مصير المانيا « لالـف سنة » .

ونجح النازيون في تطوير مفهومهم حتى اصبح يقرن بين القـوة البشرية وبين منتوجات الارض . ومما لا شك فيه ان النظم الجمـاعيـة الجديدة التي قامت في كل من اوروبا وآسيا سخرت السكان لخدمـة المصلحة العليا للدولة واعتبرتهم جزءا ملازما لاقتصادها الموجه ، شأنهم في ذلك شأن المحاصيل والحيوانات والمعادن . ومع ان المجتمع الامريكي قد ينفر من فكرة تسخير الناس لخدمة المصلحة العليا للدولة ، فان الجمع بين الشعـب والناتـج يمثـل مفهومـا اساسيـا في النظـريـات الجغرافية والسياسية التي نادى بها النازيـون او في نظريتهم الخـاصة بالمجال الحيوي الالماني . وبناء على هذا المفهوم لا تعتبر اصناف المواد الخام المختلفة الا مجرد دليل يشير الى وجود قوة كامنة غير مستغلة ، في حين تعتبر طريقة استغلالها المعيار الوحيد للتقدم الفعلي للامم والاجناس البشرية . ويذكرنا الموقف النازي بالسؤال الذي اثاره قدماء فـلاسفة الاغريق : اذا سقطت شجرة في برية قاحلة خالية من السكان ، فهل يحدث سقوطها صوتا ؟ اجاب النازيون عن هذا السـؤال في ضوء الاعتبارات العملية فقالوا : لا يحدث سقوط الشجرة صوتا الا اذا كانت هناك اذن بشرية تسمعه . فسقوط الشجرة يبعث تموجات جوية لا تترجم الى صوت الا عند اصطدامها بطبلة الاذن .

من المهم اذن ، عند دراسة الموارد الطبيعية التمييز بين الاحتياطي والانتاج ، ففي اي بلد تشكل النسبة بين الاثنين احصاء اقتصاديا حيويا ذا مدى واسع جدا حتى انه يتراوح بين الصفر واللانهاية . ولا مفر من ان يسرح فكر الصناعي ، وبالتالي خيال السياسي ، الى تلك الاجزاء من العالم حيث نسبة الاحتياطي الى الانتاج تكاد تبلغ اللانهاية . ويبين تاريخ شركة خليج هدسون او نمو الامبراطورية البريطانية الخطوات العملية التي قد تنبثق من هذا النوع من التفكير . وبعد انتهاء الحرب العالمية الاولى ساد الاعتقاد عند البعض ان الاحلام التي كانت تراود الدول في تأسيس امبراطوريات جديدة قد استنفدت اغراضها ، ولكن هذا الاعتقاد تحطم اثر ظهور الفاشيين ، ومن بعدهم النازيين الذين انتهجوا سياسة جريئة ، وكذلك اليابانيين المتطرفين الذين كانوا اجرأ حتى من النازيين . ويجدر بالشعوب الديمقراطية ان تستفيد الى اقصى حد ممكن من الدروس البناءة التي يستطيعون تعلمها من الدكتاتوريين . ومن هذه الدروس تتضح الاهمية الدولية لموارد الثروة في العالم .

وفي الانظمة الجماعية التي تحتكر جميع موارد الدولة لا تكتسب المواد الخام اهميتها الا باعتبارها وسائل للتوسع القومي . فهذه الانظمة لا تعلق اهمية كبيرة على الملكية السياسية الاصلية نظرا لان تطبيق « المبادىء الاشتراكية القومية » يشمل المالكين والاملاك على حد سواء . ونحن لا ننكر ان الانظمة الديمقراطية تحتاج الى ايضاح في بعض تفصيلاتها ، ولكنها واضحة ومحدودة بشأن النقطة المهمة التالية وهي : مع انها تصر على حرية الوصول الى الموارد الطبيعية بالنسبة لجميع الامم ، فان هذه الحرية في نظرها لا تنطبق الا على الفائض الذي يزيد عن الحاجات المحلية للاقطار التي تملك هذه الموارد . فالتدويل الاقتصادي هو من الاهداف المحددة لميثاق الاطلسي ، ولكن ذلك لا يعني تدويل المواد الخام بالمفهوم السياسي . ويحسن بنا أن نعالج مشكلة موارد الثروة في

العالم من هذه الناحية الاقتصادية الخاصة .

منذ الثورة الصناعية والعالم يتجه بانتظام نحو التخصص الاقتصادي . وقبل تطور وسائل فعالة للنقل كان مبدأ الاكتفاء الذاتي على الصعيد الوطني او الاقليمي اساسيا في النظم الاقتصادية التي كانت تسعى كلها الى تلبية الحاجة الاولية الى الغذاء والكساء والمأوى . وبعد تأمين هذه المتطلبات ، كان الاهتمام يتجه الى التجارة بالمنتوجات التخصصية على الصعيد الاقليمي . أما اليوم فقد انقلب الوضع رأسا على عقب . ففي الظروف العادية تستطيع المملكة المتحدة (بريطانيا) اهمال الارض والاعتماد على قيمة مصنوعاتها من اجل استيراد الغذاء لمجتمعها الصناعي. ويستطيع الارجنتينيون الاعتماد على قيمة ما يصدرونه من الحبوب واللحوم الى البلاد الصناعية مقابل استيراد ما يحتاجونه من المنتوجات الصناعية . واثر إنتعاش الروح القومية بعد الحرب العالمية الاولى في سير هذا الاتجاه بعض الشيء ، ولكنه اثبت بشكل قاطع ان سياسة الاكتفاء الذاتي ، اذا لم تقم على الموارد الطبيعية المحلية ، باهظة النفقات وغير اقتصادية . فالحملة التي شنها الفاشيون في ايطاليا لزيادة منتوج القمح في اراض اصلح لزراعة الزيتون والعنب منها لزراعة الحبوب ادت الى تخفيض المستوى المعيشي للايطاليين . والعبرة التي نخرج بها من الفلسفات القومية التي انتشرت في العقود الثلاثة الاخيرة هي ان الاكتفاء الذاتي الذي يقوم على أسس مصطنعة غير مجز من الناحية الاقتصادية .

وقام الاتحاد السوفييتي ، بدافع من نظرياته وطرقه الخاصة ، باستقصاء امكانات التخصص الى ابعد مدى ممكن . وتطرف في هذا الاتجاه المعاكس لاتجاه الفاشيين. ونزع الى تكبير وحدات الانتاج ، فبنى اكبر المصانع للجرارات والقاطرات والاحذية وهلم جرا . ولكن الامكانات الجغرافية المحدودة لعمليتي التوريد والتوزيع سرعان ما خلقت مشكلات شائكة أبطلت الكفاية النظرية لسياسة التخصص . والعبرة التي نخرج بها

من هذه التجربة هي خطأ التمادي في سياسة التخصص . وتشير العبرتان اللتان استخلصناهما من تجارب الفاشيين والشيوعيين الى ان هناك نهجا مثاليا يتطلب اتباع سياسة حكيمة في استعمال الموارد المحلية من اجل التخصص ، وان اهمال هذا النهج قد يؤدي بسرعة الى نتائج سلبية .

وتقدم لنا بريطانيا والارجنتين والاتحاد السوفييتي امثلة توحي بعدة تعميمات قد تصلح لان تكون مقدمات لتحليل موارد الثروة الطبيعية في العالم . ومع أن هناك نسقا علميا في التوزيع الطبيعي لانواع التربة والمناخ والنبات والحيوانات والصخور والمعادن التي تؤلف في مجموعها ثروة العالم الطبيعية ، فان التوزيع السياسي لهذه الموارد عرضي ولا يتقيد بنظام معين . فالدول التي حققت درجة عالية من الكفاية الذاتية النسبية ـ كالاتحاد السوفييتي ـ قليلة . أما الاغلبية الكبرى لدول العالم فتعتمد على مصادر خارجية في تأمين المواد الخام الاساسية التي تحتاج اليها للمحافظة على اقتصاد متوازن الجوانب في عهود السلم .

وأدى التوزيع العرضي لموارد الثروة الطبيعية الى وفرتها في بعض الحالات وشحها في البعض الآخر . فالمانيا ، مثلا ، تحظى باجود انواع الفحم الصناعي في اوروبا ، ولكنها لا تملك الا القليل من الثروة المعدنية اللازمة لاستكمال الحركة الصناعية . وتملك ايطاليا احتياطيا غنيا من الالومنيوم والزئبق والكبريت وموارد لا بأس بها من الرصاص والخارصين والمنغنيز ، ولكنها تفتقر الى البترول والفحم الحجري . وتستطيع اوروغواي أن تمون معظم بلاد امريكا الجنوبية بالقمح والذرة ولحم البقر . ولكنها تفتقر الى خامات الحديد والفحم الحجري ، ولذلك لا تستطيع صنع طن واحد من الفولاذ من المواد الخام المتوافرة محليا .

ان دراسة اسهام امم معينة في الاقتصاد العالمي تقودنا الى نتيجتين اساسيتين هما : اولا ، تنزع موارد الثروة الطبيعية في العالم الى ان يتمم بعضها البعض الآخر ، وهذا يتطلب اعادة توزيع بعض الموارد عن طريق

التجارة الدولية . وثانيا ، ان الدول التي تقترب من الاكتفاء الذاتي اكثر من غيرها انما تقترب منه بسبب اتساعها ومحالفة الحظ لهـا ، وليس بسبب اي تصميم مسبق . فالولايات المتحدة والامبراطورية البريطانية والاتحاد السوفييتي هي الدول الوحيدة التي تستطيع ان تدعي بحق انها حققت الاكتفاء الذاتي النسبي . فبريطانيا العظمى تسيطر على ١٣٣٥٥٠٠٠ ميل مربع ، اي على ٢٤ ٪ من مساحة سطح الارض البالغة ٥٥٨٨٥٠٠٠ ميل مربع . ويسيطر الاتحاد السوفييتي على ٨٣٤٨٠٠٠ ميل مربع ، اي على ما يقارب ١٥ ٪ من مجموع مساحة الارض . ومـن الطبيعي ان تضم الامبراطورية البريطانية التي تنتشر ممتلكاتها في جميع القارات كل نوع من انواع الاقاليم الطبيعية ، وان تملك بالتالي اكثر مـوارد الثروة كما وتنوعا . أما الاتحاد السوفييتي فيشكل وحدة متصلة الاجزاء ، ولـكن مزايا وحدته الجغرافية يقابلها تنوع محدود في الاقاليم الطبيعية وموارد الثروة . ومهما يكن الامر ، فان رقعته الواسعة تضم اقاليم كثيرة لـكل منها موارد طبيعية خاصة به ، وتشكل هذه الموارد في مجموعها الاجمالي ثروة كبيرة جدا . ولا بد من الاشارة هنا الى ان المجموع الاجمالي للمواد الخام في الاقاليم الطبيعية الكثيرة التي تضمها كل من هاتين الوحدتين السياسيتين الكبيرتين هو الذي يساعد على تحقيق الاكتفـاء الذاتي النسبي . اما اذا اخذنا كل اقليم على حدة ، تبين لنا انه لا يكفي نفسه بنفسه وانه ، من حيث اتساعه واعتماده على الاقاليم الاخرى ، يشبه احدى الدول التي لم تحقق درجة عالية من الاكتفاء الذاتي .

اما الولايات المتحدة الامريكية فتختلف عن الامبراطورية البريطانية والاتحاد السوفييتي في انها أصغر مساحة من أي منهما ، فمساحتها تبلغ ٣٧٣٤٠٠٠ ميل مربع أي ما يعـادل تقريبـا مساحـة كل من الصين (٣٧٥٦٠٠٠) وكندا (٣٦٩٥٠٠٠) والبرازيل (٣٢٨٥٠٠٠) واوستراليـا (٢٩٧٥٠٠٠) والدول الاوروبية مجتمعة (٣٦٩٥٠٠٠). ولكنها ، من حيث

موارد الثروة الطبيعية ، تعادل كلا من الامبراطورية البريطانية والاتحاد السوفييتي . ويجدر بنا ان نقف قليلا عند هذه الظاهرة لنتناولها بشيء من التحليل والايضاح. فالولايات المتحدة وممتلكاتها تعول حوالي ١٥٠ مليون نسمة في حين تعول اوروبا ٥٤٠ مليون نسمة والصين ٤٢٢ مليون نسمة . وحتى لو اخذنا بعين الاعتبار الفروق في مستويات المعيشة ، امكننا القول ان اوروبا والصين حققتا درجة اعلى من الانتاج الزراعي من الولايات المتحدة . أما المستوى العالي الذي تتمتع به الولايات المتحدة فيعود ، في المكان الاول ، الى انتاجها المعدني الذي يدعمه استغلال فعال للاراضي الزراعية والغابات والثروة الحيوانية . وكثافة السكان في الولايات اشد كثيرا منها في كندا والبرازيل واوستراليا ، وهذا يدل على انها تتمتع بمزايا اقليمية ومناخية بالمقابلة مع الاقطار الثلاثة الاخرى . ففي البرازيل توجد مساحات واسعة من مناطق الغابات الاستوائية الماطرة التي لا يمكن ابدا ان تصبح كثيفة السكان . وكذلك الحال بالنسبة لاوستراليا وكندا ، ففي الاولى مساحات واسعة من الصحارى المدارية الجنوبية ، وفي الثانية مساحات واسعة من المناطق القطبية او شبه القطبية . ويمكن القول ان الولايات المتحدة تتفوق على الاتحاد السوفييتي والامبراطورية البريطانية في مزاياها الاقليمية والمناخية ، فمعظمها يقع ضمن خطي العرض ٣٠ و ٥٠ شمال خط الاستواء ، في حين يقع القسم الاكبر من الاتحاد السوفييتي شمال خط عرض ٥٠ شمالا ، ويقع القسم الاكبر من الامبراطورية البريطانية خارج نطاق خطي عرض ٣٠ و ٥٠ شمالا .

ويشبه الاتحاد السوفييتي الولايات المتحدة في نقطة مهمة جدا . فهنالك تماثل جيولوجي بين المركز الذي يحتله الاتحاد السوفييتي في اوراسيا والمركز الذي تحتله الولايات المتحدة في امريكا الشمالية . ومع ان الاتساع الهائل لاوراسيا يوفر للروس مساحة اكبر من الارض ، فان

التركيب القاري لامريكا الشمالية المشابه لنظيره في اوراسيا يوفر للولايات المتحدة تنوعا مماثلا في الموارد والتشكيلات الارضية في منطقة تبلغ ٤٠ ٪ من مجموع مساحتها . وليس ثمة بلد آخر في العالم يتمتع بمثل هذا التنوع الفريد في التكوين الجيولوجي ، هذا مع العلم بان كندا واوستراليا تتمتعان بالكثير من مزايا التنوع الجيولوجي ولكنهما لا تبلغان درجة الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة . أما تنوع الموارد في الامبراطورية البريطانية فيعتمد بوجه عام على مجمل الثروة في مستعمرات وممتلكات متفرقة تنتشر في اجزاء متباعدة من الكرة الارضية. ومع أن الثروة الطبيعية المعروفة او المحتمل وجودها في هذه الامبراطورية المترامية الاطراف كبيرة، فان قيمتها تنقص بسبب افتقار هذه الامبراطورية الى الاتصال الجغرافي او الاندماج السياسي الذي تحقق على نحو اوثق في كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي . وباستثناء هذه الدول الثلاث ، لا توجد اية دولة في العالم تتمتع بعلاقات مماثلة بالنسبة للتركيب الجيولوجي للقارات المختلفة . ومن اليسير علينا ، في ضوء هذه الاعتبارات ، ان نفهم سبب تفوق هذه الدول الثلاث . ومن اليسير علينا ايضا ان ندرك اثر الوحدة الجغرافية والظروف المناخية المواتية في تقدم الولايات المتحدة الامريكية ، وسبب تفوقها على غيرها في استغلال ثروتها الطبيعية .

ومن العسير علينا اجراء مقابلة دقيقة بين التقديرات العالية التي نسبناها للامبراطورية البريطانية والولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي. والواقع انه يصعب الاتفاق على مقام مشترك يصلح اساسا لتقويم الثروة الطبيعية للدول المختلفة . فما من احد يستطيع اجراء مقارنة مباشرة بين الثروة الزراعية والحيوانية في الارجنتين وبين الثروة المعدنية في تشيلي . ومهما يكن من شيء فان تحليل الحركة التجارية في العالم يشير في الحال

الى ان المواد الخام ، ايا كان نوعها ، تعتمد اعتمادا كبيرا على مصادر القوة المحركة • حتى لو سلمنا بان المنتج والمستهلك يعتمد كل منهما على الآخر ، فان القوة المالية والصناعية ـ والقوة السياسية اجمالا ـ تتضاعف بسرعة فائقة في المناطق التي تتوافر فيها موارد للطاقة يمكن استخدامها في استغلال المواد الخام • ولذا يحسن بنا ان نستهل دراستنا للموارد الطبيعية في العالم بتحليل لموارد الطاقة التي تعتبر افضل دليل لتصنيف الامم ولوضع معايير تصلح للتقويم •

موارد الطاقة

يعتبر الفحم الحجري والبترول والغاز الطبيعي والماء من المصادر الرئيسية للطاقة الصناعية • وفي الولايات المتحدة يسد الفحم الحجري ما يعادل ٥٠ في المائة من حاجة البلد من الحرارة والقوة المحركة والطاقة اللازمة لاغراض التعدين والصناعة المعدنية • اما البترول فيسد ٣٠٪ تقريبا من هذه الحاجة ، في حين يشترك الغاز الطبيعي والطاقة الايدروكهربائية في سد ما تبقى من هذه الحاجة بنسبة ١٠٪ لكل منهما • وتختلف هذه النسب في الاجزاء الاخرى من العالم ، كما انها تختلف من ولاية لاخرى في الولايات المتحدة نفسها • واذا نظرنا الى البيانات الاحصائية لهذه المصادر الاربعة للطاقة في العالم كله ، تبين لنا انها كانت في عام ١٩٣٧[١] موزعة على النحو الآتي :

(١) اختير عام ١٩٣٧ لانه يمثل آخر عام قبل الحرب العالمية الاولى توافرت عنه بيانات احصائية كاملة ، ولان العمليات الصناعية كانت عادية وحسنة التوازن . فالصناعات الحربية تؤدي الى زيادة استهلاك الفحم الحجري دون ان يقابل ذلك زيادة متناسبة في انتاج مصادر الطاقة الاخرى . ويعود ذلك ، في المكان الاول ، الى ان الفحم الحجري هو الوقود الوحيد الذي يستجيب بسرعة للطلبات المتزايدة كما يعود ، في المكان الثاني ، الى اتساع نطاق الصناعات المعدنية .

مصادر الطاقـــــة	النسبة المئوية
الفحم الحجري	٦٢
البتـــرول	٢١
القوة المائية	١٢
الغاز الطبيعي	٥
	١٠٠

ومع أن الفحم الحجري يحتل المقـام الاول ويتفوق عـلى الموارد الاخرى باشواط بعيدة ، فان مركزه النسبي قد تغير كثيرا منـذ الحرب العالمية الاولى • ففي عام ١٩١٠ كان يسد حوالي ٨٦٪ من حاجة الولايات المتحدة الى الطاقة ، وحوالي ٩٠٪ من حاجة العالم الاجمالية . ولكـن التحسن الكبير الذي طرأ على وسائل النقـل اسهم في انتشار استعمال البترول بسرعة في اغراض مختلفة . فاستعماله لم يقتصر على المجالات التي يصلح لها اكثر من غيره من مصادر الطاقة ، انما اخذ يحـل محل الفحم الحجري حتى تحت الغلايـات الثابتة والمنشآت الاخرى حيث الوظيفـة الوحيدة للوقود هي توليـد الحرارة • وتنبأ البعض ان البترول ، عـلى افضل تقديـر ، سيحل محل الفحم الحجري في معظم اطـوار الصناعـة باستثناء صناعات التعدين • غير ان هذا التنبؤ لـم يأخذ بعين الاعتبـار الكفاية التي يمكن تحقيقها نتيجة لزيـادة فاعليـة طرق استعمال الفحم الحجري ، ولا الكميات المحدودة لاحتياطي البترول في العـالم • ومن المشكوك فيه ، على ما يبدو اليوم ، ما اذا كانت آبـار البترول الجديدة تستطيع ان تحقق اكثر مـن مجرد مسايرة المتطلبات الاساسية المتزايدة • وتبين ايضا ان استعمال البترول كوقود لتوليد الحرارة اغلى تكلفة مـن استعمال الفحم الحجري الا في المناطق التي تكـون فيها رواسب الفحم بعيدة المنال ، كما تبين في بعض الحالات ان هناك قيودا اقتصادية صارمة

تحول دون الاستعاضة عن الفحم الحجري بالبترول • واخيرا لا بد من ان نشير الى ان اكتشاف محدودية الموارد البترولية في العالم اقترن بتطور اصطناع المنتوجات البترولية من الفحم الحجري والزيت الخام والايدروجين •

هذا وان اختراع عمليات التركيب الاصطناعي للمنتوجات البترولية ييسر لنا تقويم المصادر المختلفة للطاقة بمزيد من الروية والدقة • ففي الولايات المتحدة لم يكن انتاج الفحم الحجري في عام ١٩٣٧ أقل منه في عام ١٩١٠ • أما الزيادة الهائلة في انتاج البترول والغاز الطبيعي والطاقة الايدروكهربائية فقد اقتصر دورها على تلبية الحاجات الاضافية الى الحرارة والقوة التي ما انفكت تتزايد بتسارع منتظم • وفي الاجزاء الاخرى من العالم ، حيث التطور التكنولوجي في استخراج البترول كان ابطأ منه في الولايات المتحدة ، ازداد انتاج الفحم الحجري بانتظام منذ عام ١٩١٠ • ويتضح من اية دراسة للتاريخ الصناعي الحديث ، مهما كانت سطحية ، ان الدول التي تمتلك احتياطيا كبيرا من الفحم الحجري هي اكثر الدول استهلاكا للبترول • فالمكسيك ، مثلا ، هي من اكثر الدول انتاجا للبترول في العالم ، فقد كانت فيما مضى تحتل المرتبة الثانية ، ولكنها هبطت الى المرتبة السادسة في عام ١٩٤١ • وعلى الرغم من ثروة المكسيك البترولية ، فان اسهامها في تعجيل التصنيع في هذا البلد كان معتدلا • ونلاحظ ، حتى في العهد الحالي ، ان البترول المستخرج من فنزويلا وكولومبيا وايران والعراق ورومانيا يصب في خزانات ناقلات البترول لتنقله الى اوروبا الغربية وأمريكا الشمالية حيث توجد اقطار متفوقة في تقدمها الصناعي، يمتلك معظمها ثروة كبيرة من الفحم الحجري•

أما المادة الخام الاساسية في البترول الاصطناعي فهي الليجنيت الذي يعتبر وقودا منخفض المرتبة في مجموعة الاصناف المختلفة للفحم الحجري• وتبلغ نفقات التركيب الاصطناعي ضعفين ونصف الى خمسة أضعاف

تفقات تكرير البترول الخام، ولذا يستبعد ان يحل هذا المنتوج الاصطناعي محل البترول الطبيعي الا بعد ان يصبح البترول الطبيعي اكثر ندرة مما هو عليه الان • ولكن عندما يأتي هذا اليوم ، سيجد العالم نفسه في وضع حرج بالنسبة لموارد الفحم الحجري ايضا ، نظرا لان الثروة البترولية تساير اجمالا احتياطي العالم من الفحم الحجري •

وكان الفحم الحجري وما زال المصدر الاساسي للحرارة والقوة • وسيظل كذلك حتى تصبح الطاقة الذرية ميسورة اكثر مما هي الان • وقد يقوم في بعض المناطق الفردية اقتصاد صناعي محدود على البترول او الغاز الطبيعي او القوة المائية • ولكن لما كانت القوة الاقتصادية والعسكرية تعتمد على الصناعات الثقيلة ولما كانت هذه الاخيرة تعتمد على صناعة الكوك من الفحم ، فان امكانات دولة من الدول يمكن قياسها استنادا الى ما تملكه من احتياطي الفحم الحجري • أما قوتها الفعلية فيمكن قياسها استنادا الى نسبة الاستعمال الى مجموع الاحتياطي • وقد تستعمل اشكال اخرى من الطاقة في صناعات هامة في بعض البلاد التي تفتقر الى الفحم الحجري ، ولكن هذا القول يصدق ، في المكان الاول ، على القوة المائية • ومهما يكن من شيء ، فان نسبة استهلاك موارد الطاقة الاخرى لكل شخص تبلغ اقصاها في الاقطار المتفوقة في ثروتها من الفحم الحجري•

ومن المعروف ان الفحم هو نبات متفحم ومتحجر ، ولذا ينتظر وجوده في طبقات الصخور الرسوبية • أما نوعية الفحم الحجري فتعتمد على درجة التفحم • وبما ان عملية التفحم تقترن جزئيا بالعصر الجيولوجي ، فان افضل انواع الفحم هي ، من الناحية الجيولوجية ، اقدمها ، ولذا يستخرج فحم الكوك من اكثر الرواسب قدما • ويمكن القول ان اليابان وايطاليا هما الدولتان الوحيدتان اللتان طورتا صناعة ثقيلة دون ان تتيسر لهما موارد كبيرة من وقود صناعي من صنف جيد . وتوجد رواسب لا بأس بها من الاصناف الجيدة من الفحم الحجري في

اوستراليا وغرب سيبيريا ، ولكن معظم الاحتياطي من هذه الاصناف يوجد في اوروبا والقسم الشرقي من امريكا الشمالية • اما الاصناف المنخفضة المرتبة كفحم الليجنيت والفحم القاري فتنتشر في انحاء مختلفة من العالم ، هذا مع العلم ان امريكا الشمالية تملك اكبر احتياطي من هذه الاصناف ، وان آسيا تحتل المرتبة الثانية بعد امريكا الشمالية • وقد اكتسبت بعض الاصناف المنخفضة المرتبة خصائص فحم الكوك ، بحيث يمكن استعمالها في الصناعات المعدنية • والواقع ان استعمال هذه الاصناف في الصناعة قد ازداد في العقدين او العقـود الثلاثة الاخـيرة ، وذلك بفضل التطورات التكنولوجية الحديثة في كل من المانيا وروسيا السوفييتية •

وتشمل الارقام في الجداول الآتية الكميات الاحتياطية والمنتجة من جميع انواع الفحم الحجري ، من الليجنيت الـى الانثراسيت ، وهي لا تتضمن تصنيفا لهذه الانواع بحسب جودتها او مرتبتها • ويتضح من هذه الجداول ان الطبيعة جادت بهذا المورد للطاقة في نصف الكرة الشمالـي وضنت به في نصف الكرة الجنوبي • ويتضح ايضا الاساس الثابت الذي يقوم عليه تفوق الولايات المتحدة الامريكية ، وكذلك المركز المهم الذي تحتله المانيـا والصين وروسيا السوفييتيـة وبعض الوحدات السياسية الداخلة في الامبراطورية البريطانية • وتحملنا هذه الجداول على الاعتقاد بان تطور القوة الصناعية سيظل من نصيب الاقطار المنتجة للفحم الحجري • ومع أن الاقطار الاخرى قد تحقق تقدما ملموسا في ميدان الصناعة ، فان افتقارها الى الفحم الحجري يشكل عاملا محددا لا يمكـن تجاهله عند التنبؤ بالمستقبل او التخطيط له •

ومن المعروف ان الاقطـار التي تملك كميات احتياطية كبـيرة من الفحم الحجري تتفاوت في مدى استغلالها لهذه الثروة • وتشير البيانات الاحصائية للانتاج ايضا الى ان هناك ٥٢ دولة تنتج الفحم الحجري وان بعضها ينتج كميات كبـيرة جداً نسبيا ، حتى انهـا تعرض نفسها لخطر

استنفاد الاحتياطي في مدة قصيرة . فاليابان ، مثلا ، تستخرج ٤١٩٠٠٠٠٠ طن في السنة من احتياطي يقدر بثمانية بلايين طن .

احتياطي الفحم الحجري في العالم

القارة	أطنان مترية (بالبلايين)	النسبة المئوية من المجموع
امريكا الشمالية	٤٥٠٠	٥٧،٥
آسيا	٢٢٥٠	٢٨،٨
اوروبا	٨٠٠	١٠،٢
اوستراليا	١٧٠	٢،٢
افريقيا	٧٠(أ)	٠،٩
امريكا الجنوبية	٣٠(أ)	٠،٤

احتياطي الفحم الحجري في الدول المختلفة

القطر	أطنان مترية (بالبلايين)	النسبة المئوية من المجموع
الولايات المتحدة	٣١٥٠	٤٠،١
الاتحاد السوفييتي	١٦٥٠	٢١،٢
كندا	١٢٠٠	١٥،٣
الصين	٨٠٠(ب)	١٠،١
المانيا	٤٢٥	٥،٤
المملكة المتحدة	١٩٠	٢،٤
اوستراليا	١١٧	١،٥
اقطار اخرى	٢٨٨	٣،٧

(أ) دلت الاعمال التنقيبية الحديثة على وجود رواسب اضافية في كل من افريقيا وامريكا الجنوبية . ومع ان الاكتشافات الجديدة قد تؤثر ايجابا في تقدير الاحتياطي في هاتين القارتين ، فان مركزهما بالنسبة للقارات الاخرى يظل على حاله ، كما ان النسب المئوية المختلفة لا تتأثر كثيرا .

(ب) التقدير الخاص بالصين ربما كان اكثر من الواقع ، وقد ينخفض بعد اخضاعه لمزيد من التدقيق .

والاقطار التي تتطرف في سرعة استغلالها للاحتياطي المتوافر عندها تعرض نفسها لخطر بعيد لا يلمس حاليا ، وهو امكان استنفاد هذا الاحتياطي خلال مائتي عام . اضف الى ذلك ان هناك صعوبات عملية تتصل بارتفاع نفقات الانتاج للطن الواحد . ففي معظم حقول الفحم الحجري ، لا يتيسر الوصول بسهولة الا الى جزء من الرواسب ، وهذا الجزء هو الذي يمكن استخراجه بنفقات قليلة . ومما لا شك فيه ان سرعة الاستغلال لا تلبث ان تتطلب القيام باعمال التعدين على مسافات اعمق او استخراج الفحم من طبقاتارق او الاضطرار الى قبول اصناف اقل جودة او الجمع بين هذه الامكانات الباهظة النفقات . ومن الممكن تخفيض النفقات بابقاء اجور العمال منخفضة ، ومن المعروف ان اليابان تطبق هذه السياسة المشكوك في سلامتها . ومهما يكن من شيء ، فان القاعدة العامة هي ان الصناعة لا يمكن ان تزدهر طويلا اذا كانت تقوم على طاقة يتطلب استخراجها نفقات باهظة . ومع ان نسبة الانتاج الى الاحتياطي لا تمثل دليلا دقيقا على تكلفة الوحدة ، فانها تزودنا بوسيلة مقبولة لتقدير النفقات النسبية التقريبية ، وذلك على الرغم من التباين في الاجور وفي مستويات المعيشة في الاقطار المنتجة للفحم الحجري .

انتاج الفحم الحجري ــ ١٩٣٧

القطر	أطنان مترية (بالملايين)	النسبة المئوية
الولايات المتحدة	٤٥٠	٢٩،٠
المانيا	٣٨٠	٢٤،٥
المملكة المتحدة	٢٤٤	١٥،٧
الاتحاد السوفييتي	١٢٧	٨،٢
فرنسا	٤٥	٢،٩
اليابان	٤٢	٢،٧

بولندا	٣٦	٢،٣
تشكوسلوفاكيا	٣٤	٢،٢
بلجيكا	٢٩	١،٩
الصين	٢٧	١،٧
الهند	٢٦	١،٧
اقطار اخرى	١١٠	٧،١
العالم	١٥٥٠	١٠٠

ومن الطرق المتبعة في تحديد المراكز النسبية للاقطار المنتجة للفحم الحجري تقدير ما يعرف بمصطلح « العمر المتوقع للاحتياطي » . ونقصد بالعمر هنا عدد السنوات التي سيعيشها الاحتياطي في قطر معين على اساس السرعة الحالية للاستغلال . هذا التقدير مفيد ، ما في ذلك ريب . ولكنه ابسط من أن يفي بالغرض ، لانه لا يعكس كفاية الانتاج الحالي . اضف الى ذلك انه يهمل حقائق مهمة اخرى . فاحتياطي ايطاليا من الفحم الحجري ، مثلا ، قدر له ان سيعمر ٧٥ سنة على اساس سرعة الاستغلال الحالي . ولكن لو افترضنا انه امكن استغلاله بسرعة تماثل سرعة استغلال الفحم الحجري في بريطانيا العظمى ، فانه سيستنفد بكامله خلال ٣١ اسبوعا فقط . واذا حسب الاحتياطي على اساس نصيب الشخص الواحد وليس على اساس العمر المقدر له ، فان الولايات المتحدة ستحتل المرتبة الثانية بعد كندا ، كما ان تعديلات هامة ستطرأ على ترتيب الاقطار الاخرى .

العمر المتوقع لاحتياطي الفحم الحجري

القطر	عدد السنين
كندا	٨٥٠٠٠
الصين	٣٠٠٠٠

الاتحاد السوفييتي	١٣٠٠٠
اوستراليـا	٨٠٠٠
الولايات المتحدة	٧٠٠٠
المانيـا	١٠٠٠
المملكة المتحدة	٨٠٠
اليابـان	٢٠٠
فرنسـا	١٩٠
ايطاليـا	٧٥

ويمكن القول ، في هذه المرحلة مـن تاريـخ البشرية ، ان الحمولة الاجمالية (بالطن) المتوافرة تجاريا في اجزاء مختلفة من العالم اكثر اهمية من التقدير المطلق للمرتبة النسبية التي تحتلها كل من الدول المنتجة للفحم الحجري . حتى لو اغفلنا الاستشهاد بتعداد السكان او بمرحلة التصنيع التي بلغها قطر معين ، فان تقديرات الكميات المتوافرة فعلا تشير بوضوح الى نوع الاقتصاد الذي يمكن تطويره او التمسك بـه . فمن الواضح ، مثلا ، ان مستقبل ايطاليا لا يكمن في الاتجاه نحو الصناعة الثقيلة ، وكلما وجه السكان الى مجالات اخرى تنطوي عـلى امكانات اوسع للانتاج ، ازداد امل ايطاليا في احتـلال مكانها اللائـق في الاقتصادين الاوروبي والعالمـي . ومن الواضح ايضا ان روسيا السوفييتية وكنـدا تملكـان امكانات للتصنيع لا حد لهـا ، وان العوائق الوحيـدة التي قد تقف في سبيل السير قدما في هذا المضمار هي الاحوال الطبيعيـة والمناخية مضافا اليها ــ بالنسبة لكندا ــ انخفاض مرتبـة معظم الاحتياطي مـن الفحم الحجري الذي يغلب عليه صنف الليجنيت . اما المركز المتفوق الفريد الذي تتمتع به الولايات المتحدة فهو واضح جدا بحيث لا يحتاج الا الى تعليق تحذيري واحد : ان تقديـر الاحتياطي هو مقياس دقيـق لكميات الفحم

الحجري التي يمكن استخراجها ، ولكنه لا يدل بالضرورة على الكميات التي ستستخرج فعلا . فالاهمال في عمليات التعدين ، وبخاصة في منطقتي ابلاش والينوي حيث الطبقات مركبة بعضها على البعض الاخر ، قد ينقص كثيرا كمية الاصناف الصناعية الجيدة من الفحم الحجري . والواقع ان احتياطي الولايات المتحدة من فحم الانثراسيت لن يدوم اكثر من ٤٠ الى ٥٠ سنة ، في حين يقدر ان يدوم الاحتياطي من الفحم القاري حوالي الف سنة . أما الموارد التي لا حد لها فتقتصر على فحم الليجنيت والفحم القاري من المرتبة الثانية . وقد حان الوقت لسكان الولايات المتحدة ان يدخلوا اجراءات تستهدف المحافظة على الفحم الحجري ، اذا هم ارادوا الافادة افادة كاملة من أهم مواردهم الطبيعية واكثرها قيمة .

ننتقل الآن الى احتياطي العالم من البترول . ونستهل بحثنا بالاشارة الى ان هذا الاحتياطي لا يمكن تقديره بالدقة ذاتها التي قدرنا بها رواسب الفحم الحجري ، نظرا لان طبقات الفحم صلبة وقابلة للقياس ، في حين لا يمكن قياس البترول السائل الا في مرحلة الانتاج . وما لم يعثر على البترول فعلا في احد الحقول ، فان من الصعب التوصل الى حكم جازم بشأن وجود البترول في المنطقة التي تجري فيها عمليات التنقيب . وما لم يجر بانتظام قياس الدفق من عدد من الابار في حقل بترولي ، فانه من الصعب الاهتداء الى طريقة دقيقة لتقدير المردود التقريبي لهذا الحقل . ولهذا السبب يجب ان تقوم تقديرات احتياطي البترول على اساس بيانات واقعية تجمع في فترة معينة من الزمن ، والولايات المتحدة هي القطر الوحيد الذي بنى تقديره للانتاج الاجمالي التقريبي في المستقبل استنادا الى البيانات التي حصل عليها من الآبار المحفورة فعلا . ومن المحتمل ان تعتمد طرق مماثلة بالنسبة للمكسيك ورومانيا ، كما اننا في سبيل الحصول على بيانات ادق عن احتياطي البترول في فنزويلا . اما بالنسبة للمناطق الاخرى فان التعبير « التقدير التخميني » الذي درجت مجلة

« تايم » على استعماله يصدق ، مع شيء من التساهل ، على البيانات الاحصائية الخاصة باحتياطي البترول .

ونأتي الآن على ذكر عـــدد من الحقائق الواضحة . كانت الولايات المتحدة في طليعة الدول المنتجة للبترول لعدة عقـــود خلت ، ومن المنتظر ان تظل كذلك في السنوات القليلة القادمـــة . وبفضل المعلومات الكاملة التي حصلت عليها الولايات المتحدة عن حقولها البترولية ، يمكـــن تقدير الكمية القابلة للانتاج الفعلي في المستقبل بـ ١٨ ـــ ٢٠ بليون برميل . واذا اخذنا بعين الاعتبار معدل الانتـــاج السنوي الحالي (١٥٠٥ مليون برميل في عام ١٩٤٣) فان هذا يعني ، مـــن الناحية النظرية ، ان احتياطي البترول في الولايات المتحدة سيستنفد في مدة تتراوح مـــن ١٢ الى ١٤ سنة . غير ان مـــن خصائص الحقـــول البترولية تناقص المردود عـــلى مر السنين ، ومعدل التناقص عامل ثابت يمكن تحديـــده بالنسبة لكـــل بئر بترولي . حتى لو افترضنا ، على سبيل التشاؤم ، انـــه لن تكتشف آبار جديدة في الولايات المتحدة ، فان بعض الآبار ستستمر في انتاج البترول مدة ثلاثين سنة اخرى . ومهما يكن من شيء ، فان الفجوة بـــين العرض والطلب ستزداد اتساعا سنة بعد سنة .

ولما كانت الولايات المتحدة اكثر دول العالم استهلاكا للبترول ، فان انظارها اتجهت الى اجزاء اخرى من العالم لتجد مصادر جديدة لهذه المادة الحيوية . وأقرب مصدر مهم منهـــا هو منطقة الخليـــج والبحر الكاريبي حيث تنتج فنزويلا وكولومبيا والمكسيك وترنداد كميات لا بأس بهـــا من البترول . غير ان الانتاج الاجمالي لهذه الدول مجتمعة لا يزيد عن ٢٠٪ من انتاج الولايات المتحدة . ومن المستبعد ان تتمكن هـــذه الدول مـــن زيادة انتاجها الى درجة تكفي لسد الفجوة المتوقعة بين الانتاج والاستهلاك في الولايات المتحدة . فالمكسيك بلغت ذروة انتاجها منذ مدة ، وليس ثمة اي مجال للزيادة . ويجري استغلال كل من فنزويلا وكولومبيا استغلالا

مركزا يعطي مردودا كبيرا ، ولكن يستبعد ان تتمكن هاتان الدولتان من زيادة انتاجهما زيادة كبيرة . وتملك ترنداد امكانات جيـــدة . ولكن هناك عقبات جغرافية تحول دون التوسع كثيرا في الانتاج . ولا يمكن لامريكا الجنوبيـــة ان تلعب دورا اهم في حل مشكلـــة الموارد البتروليـــة الا اذا اكتشفت حقولا بترولية جديدة في مناطقها الداخلية . ومع اننا لا نستطيع استبعاد اكتشاف منابع بترولية جديدة في هذه القارة ، فاننا لا نجد اساسا يسوغ لنا التنبؤ بأمكان تحقيق اكتشافات عظيمة الشأن في هذا الميدان . فالمعلومات المتوافرة عن الاحتياطي الموجود في امريكا الجنوبية ومنطقــة البحر الكاريبي تشير الى انه يمكننا ان نتوقع كمية اجمالية تتراوح بين ٥ و ٨ بلايين برميل ، ولكن هذه الكميـــة لا تكفي لـــد حاجة العـــالم مدة طويلة .

أما في نصف الكرة الشرقي فان افريقيا واوستراليا لا تسهمـــان الا بنزر يسير من انتاج العالم من البترول. وتنتج مصر كمية صغيرة ــ ولكنها آخذة بالزيـــادة ــ في المنطقـــة المحاذية للبحر الاحمر . وقد يكون مـــن الافضل ، بسبب موقع آبارها البترولية ، تصنيفها مع دول الشرق الادنى. وتشير البيانات الاحصائية ان الاجزاء الاخرى مـــن افريقيا انتجت ٢٧٠٠٠ برميل في عام ١٩٤٠ ، في حـــين لم تنتج اوستراليا ونيوزيلندة معا في ذلك العام اكثر من ٤٠٠٠ برميل . وفي الشرق الاقصى انتجت اليابـــان في عـــام ١٩٤٢ كمية صغيرة نسبيا قدرت بـ ٣٤٠٠٠٠ برميـــل ، وانتجت سخالين ما يربو قليـــلا على ٣٩٠٠٠٠ برميل . وجزر الهنـــد الشرقية هي المنطقـــة الوحيدة في الشرق الاقصى التي تستطيع ان تتباهى بالكميات التي تنتجها من البترول . واذا درسنا الزيادة المنتظمة في الانتاج منذ اكتشاف البترول في هذه الجزر حتى احتلال اليابانيين لها في الحرب العالمية الثانية ، امكننا استخلاص النتيجتين التاليتين : أولا ، ان هذه الجزر، سواء كانت خاضعة لهولندا او لبريطانيا ، يمكـــن ان تلعب دورا هاما لمدة طويلـــة اذا احسن

استغلال مواردها البترولية . وثانيا ، الاحتياطي ليس كبيرا ، وربما كـان اقل من ثلاثة بلايين برميل ، ولذا لا ينتظر ان تكـون هـذه الجزر من المصادر الكبـرى للبترول الا بالنسبة لاوستراليا والمناطـق الجنوبيـة والشرقية من آسيا .

وتنتشر في اماكن متباعدة من اوروبا منـابع بترولية ضئيلة المردود نسبيا . وتوجد هذه المنـابع في رومانيا والمانيا وبولندا وهنغاريا والبانيا وفرنسا وتشكوسلوفاكيا وايطاليـا . ورومانيا هي الوحيـدة من هـذه الاقطار الاوروبية التي تنتج كميات لا بأس بها من البترول ، ولكن مردود منابعها الرئيسية في بلويستي آخذة بالتناقص منـذ عدة سنوات . ولـم تستطع مهارة التكنولوجيين الالمان ، ولا الحاجة الملحة الى البترول خلال الحرب العالمية الثانية ، وضع حد للهبوط المستمر في معدل الانتاج الذي بدأ منذ عام ١٩٣٩ . ويبدو ان الحقل البترولي الكبير في رومانيا ، شأنه شأن نظيره في المكسيك ، يمر الان بمرحلة الاستنفاد التدريجي . وقـد يكون من الخطأ ان نقول ان سائر اجزاء اوروبا لا تملك امكانات افضل مـن التـي تـم تطويرها حتـى الان . وقـد ذكر بعـض العلمـاء الجيولوجيين الامريكيين ان الطرق الامريكية في الاستكشاف والتنقيب لم تطبق قط في اوروبا . وليس من المستبعد ان يكـون في اوروبا ثروة بترولية لا تقل شأنا عن الثروة البترولية في امريكا الوسطى . ومع اننا قد نسلم بوجاهة مثل هذا الافتراض فانـه لا يشكل اساسا لتقديـر الموارد البترولية في هذه القارة ، وذلك على الرغم من النتائج المشجعة للمحاولات التي بذلت في مقاطعة برم على السفوح الغربية لجبال الاورال في روسيا . ففي هذه المنطقة قامت الحكومة السوفييتية ـ بطريقتها الخاصة ـ بحفر الآبار ومد الانابيب وانشاء الخزانات ومعامل التكرير قبل المباشرة بانتاج البترول من الحقل الجديد الذي اكتشف . وادى نشوب الحرب مع المانيا في ٢٢ حزيران ١٩٤١ امـا الى ايقاف عمليات التوسع في الانتاج واما الى

فرض رقابة صارمة على النشاط البترولي في المنطقة كلها . ولذا لا نعرف شيئا عن امكانات الحقل الجديد . وكل ما نستطيع قوله هو ان الوضع البترولي قد يتحسن بالنسبة للقارة الاوروبية اذا كانت الثروة البترولية في هذه المنطقة معادلة للثروة البترولية في المناطق الوسطى من الامريكيتين .

أما المنطقة الوحيدة في نصف الكرة الشرقي التي ستنافس انتاج الولايات المتحدة وسجلها التاريخي في استخراج البترول فهي الشرق الادنى . وتبدأ هذه المنطقة من الساحل الغربي للبحر الاحمر في مصر وتمتد عبر شبه الجزيرة العربية الى الخليج العربي ومن ثم تتجه شمالا عبر العراق وايران حتى تبلغ جبال القوقاس . وتعتبر هذه المنطقة ، في نظر العاملين في الصناعة البترولية الذين ينزعون دائما الى التفاؤل ، مستودعا هائلا للثروة السائلة . ويبلغ احتياطي البترول في هذه المنطقة ، استنادا الى التقديرات المحافظة او المعتدلة ، من ١٦ الى ٢٠ بليون برميل. ويتمادى البعض في تقديراته فيدعي ان « الاحتياطي المحتمل » يتراوح بين ٥٠ و ٥٥ بليون برميل ، في حين يشتط البعض الاخر فيقدر « الاحتياطي الممكن » بكمية هائلة تتراوح بين ٨٠ و ٩٠ بليون برميل . صحيح ان مساحة هذه المنطقة تبلغ حوالي ٢٠٠٠٠٠٠ ميل مربع وان تاريخها الجيولوجي موات لتكون وتراكم كميات كبيرة من البترول المنخفض المرتبة. والجدير بالذكر ايضا ان ٩٠ ٪ او اكثر من الانتاج السوفييتي (٢٤٠٠٠٠٠٠٠ برميل في عام ١٩٤١) ومجموع الانتاج في ايران (٧٨٠٠٠٠٠٠) وفي العراق (١٥٠٠٠٠٠٠) ومصر (٨٠٠٠٠٠٠) والعربية السعودية (٦٠٠٠٠٠٠) والبحرين (٨٠٠٠٠٠٠) ، كل هذا ينتجه الشرق الادنى ويقيم الدليل على الثروة البترولية الهائلة التي تملكها هذه المنطقة . غير ان الآمال العريضة التي يعلقها الكثيرون على احتياطي الشرق الادنى قد لا تمثل الواقع ، اذ يبدو انه لا يتجاوز تقدير « الاحتياطي المحتمل » اي من ٥٠ الى ٥٥بليون برميل. واذا اعتبرنا الهند وبرما امتدادا لمنطقة الشرق الادنى ، فان ذلك يزيد من

الانتاج البترولي لهذا القسم من العالم . ولكن حتى لو كنا متفائلين وافترضنا ان جميع الآمال العريضة ستتحقق ، فان المناطق البترولية في الشرق الادنى والشرق الاوسط والشرق الاقصى لا تستطيع ان تضيف اكثر من ٤٠ سنة الى العمر المتوقع للموارد البترولية في العالم .

واذا اخذنا بالتقدير القائل بان احتياطي البترول في العالم لن يدوم اكثر من ٧٥ سنة ، امكننا القول ان الدول الصناعية تعيش ليومها وان المردود السنوي لا يكاد يجاري الطلبات المتزايدة . ولاول وهلة يبدو هذا الوضع مثيرا للقلق الشديد . والواقع ان الشؤون البترولية احتلت مكانا بارزا في السياسة الدولية والستراتيجية العسكرية منذ عام ١٩١٤ . وازدادت اهمية البترول بعد عام ١٩٣٩ ، وذلك على الرغم من ان اكتشاف الطرق التركيبية لاصطناع المنتوجات البترولية جرد مشكلة البترول من دلالتها السياسية . فالبترول يمكن الحصول عليه من الطين الصفحي الزيتي والرمال القارية بكميات تعادل الانتاج المحتمل للموارد البترولية الطبيعية . ويمكن اليوم ، بفضل تطور الادرجة في المانيا ، صنع المنتوجات البترولية من الفحم الحجري ، وبخاصة من الليجنيت الذي يعتبر ادنى انواع الفحم مرتبة . صحيح ان البترول المستخرج من هذه المصادر اكثر تكلفة من البترول الطبيعي السائل ، ولكننا لا نستطيع ان نغفل الحقيقة المهمة التالية وهي ان احتياطي العالم من البترول ، بفضل التركيب الاصطناعي ، سيجاري احتياطي الفحم . وقد يكون من المحبذ ، من وجهة نظر الاسعار العالمية والاستقرار الدولي ، استغلال البترول الطبيعي المنخفض التكلفة انى وجد ، والاستمرار على هذه السياسة حتى يصبح المردود السنوي منه غير كاف لتلبية الطلبات السنوية . وعندئذ يمكن اللجوء الى تطوير طرق باهظة النفقات نسبيا كتقطير البترول من الطين الصفحي الزيتي او صنعه عن طريق ادرجة الفحم الحجري . وهذه السياسة تغني الدول عن الاضطرار الى معاناة صعوبات اقتصادية قبل حلول أوانها.

ومن العسير علينا ان نقوّم اهمية الغاز الطبيعي باعتباره احد مصادر الطاقة في المستقبل ، نظرا لان تقدير الاحتياطي في هذه الحالة هو ضرب من التخمين او التكهن . ومع ان معظم الحقول البترولية تنتفع به بشكل او آخر ، فان استعماله على نطاق تجاري واسع تكاد تنفرد به الولايات المتحدة الامريكية . فهو ينتج في ٢٢ ولاية وينقل بواسطة الانابيب الى مراكز المدن في ٢٤ ولاية . ولا بد من الاشارة هنا الى ان توزيع الغاز الطبيعي بالانابيب لا يمكن تحقيقه الا حيث توجد مراكز كبيرة للاستهلاك تبرر توظيف الاموال في مثل هذا المشروع . ومن المعروف ان كميات كبيرة من البترول والغاز الطبيعي في العالم تنتج في مناطق تفتقر الى تجمعات سكانية كبيرة او الى التقدم التكنولوجي او الى الثروة الفردية او الجماعية اللازمة لاستغلال الغاز الطبيعي . والاتحاد السوفييتي هو القطر الوحيد خارج الولايات المتحدة الذي بلغ تطوره التكنولوجي وكثافته السكانية درجة تكفي لتبرير استعمال الغاز الطبيعي استعمالا فعالا . والواقع ان الروس تبنوا وطوروا اقتراحا امريكيا لتغويز طبقات فحمية رقيقة لا يمكن الانتفاع بها عمليا في الاحوال العادية . وقد يؤدي هذا التطور الى توسيع قاعدة الانتاج بالنسبة للغاز الطبيعي ، كما قد يؤدي في الوقت نفسه الى زيادة احتياطي العالم من الطاقة عن طريق الانتفاع برواسب كانت الى عهد قريب غير قابلة للاستعمال . والطريقة السوفييتية الجديدة حديثة العهد جدا حتى انه يصعب علينا سبر غور امكاناتها . ولا شك في ان نجاح الامريكيين في استغلال الغاز الطبيعي المستخرج من الحقول البترولية في سد ١٠ ٪ من حاجتهم الى الطاقة والتجارب الرائدة التي يجريها السوفييت على تغويز الفحم الحجري عن طريق التحكم في احتراق الطبقات الفحمية الرقيقة تحت الارض ، لا شك في ان هذين العاملين سيوسعان كثيرا الآفاق الصناعية في العالم ، وبخاصة بالنسبة للدول التي تملك البترول او الفحم الحجري ، وكذلك بالنسبة للدول

التي لا تملك من طبقات الفحم ما يبرر استغلاله تجاريا ولكنه يكفي لسد متطلبات التغويز . وعلى هذا الاساس يمكن تحقيق التصنيع على نطاق محدود في بعض المناطق التي لم تقم فيها صناعات في الماضي . ولكن يمكن القول بوجه عام ان الاقطار التي تملك رواسب فحمية بكميات تجارية تملك ايضا ، في اغلب الحالات ، طبقات فحمية رقيقة لا تصلح للاستغلال التجاري ولكنها تكفي لاغراض التغويز . ومهما اتسع نطاق استخـراج الغاز من الحقول النفطية او الفحمية وازداد بالتالي احتياطي العالم من الطاقة ، فانه من المستبعد ان يؤدي هذا التطور الى تغيير المعالم الجغرافية والسياسية الكبرى للنمط الصناعي المحلي .

وثمة نزعة في الولايات المتحدة الى المبالغة في تقدير اهمية الماء كمصدر من مصادر الطاقة .وتعود هذه النزعة ، في المكان الاول ، الى ان السياسة تسربت الى الشؤون الخاصة بالقوى المائية . والواقع ان المحاكم اصدرت سلسلة من القرارات حولت بموجبها معظم اماكن القوة المائية في البلاد الى امـلاك عامة . ويرى الموظفون المختصون في الدولـة اليوم ان الطاقة الايدروكهربائية يمكن او بالحري يجب توليدها في اماكن القوة المائية عن طريق توظيف جزء من الاموال العامة في سبيل الصالح العام . وبصرف النظر عن النقاط الوجيهة في الحجج التي يوردها البعض بصـدد هذه المشكلة ، يمكن القول ان هناك اربع حقائق أساسية يجب الا تغيب عن بالنا عند البحث في القوة المائية باعتبارها احد مصادر الطاقة . اولا ، ان القوة المائية تتجدد على الدوام ، ولذا يمكن القول انها غير معرضة للزوال. ثانيا ، انها لا تتوافر الا ضمن الحدود الضيقة التي تفرضهـا الاوضاع الاقتصادية الخاصة بالنقل والارسال . ثالثا ، لو سخرت كل القوة المائية في الولايات المتحدة لانتاج الطاقة ، فانها لن تسد اكثر من ٢٠ ٪ من حاجة البلاد العادية الى الطاقة . رابعا ، ان منفعتها الصناعية محدودة ، وفي حالات كثيرة لا تستطيع ان تنافس الاشكال الاخرى للطاقة من حيث التكلفة .

وليس الغرض من هذا التحليل الاستخفاف باهمية الطاقة الايدروكهربائية، وانما عرض امكاناتها المحدودة بقصد مساعدتنا على النظر اليها من زاويتها الصحيحة .

ومن دواعي الاسف الشديد ان الكثيرين من سكان العالم ليس لديهم الاستعداد للتكيف على الاوضاع المناخية والطوبوغرافية المواتية لتطوير القوى المائية على نطاق واسع . فمعدل سقوط الامطار يبلغ اقصاه في مناطق الغابات الاستوائية حيث الرجل الابيض لا يستطيع ان يعيش او يدير مشروعات صناعية . ولهذا السبب نلاحظ ان معظم مصادر الطاقة التي يمكن توليدها من القوى المائية في افريقيا وآسيا وامريكا الجنوبية ما زالت غير مستغلة . فالانهار الافريقية ، اذا استغلت ، تستطيع ان تنتج طاقة تقدر ب ٢٧٥٠٠٠٠٠٠ قدرة حصانية اي ما يعادل ٣٥ ٪ من المجموع الاجمالي للعالم المقدر بـ ٦٧٥٠٠٠٠٠٠ ، في حين يقدر ان الانهار الآسيوية يمكن ان تنتج ١٥٠٠٠٠٠٠٠ او ٢٢٪ ، وامريكا الجنوبية ٧٥٠٠٠٠٠٠ او ١١ ٪ وهكذا نرى ان مجموع الطاقة التي يمكن انتاجها من القوى المائية في القارات الثلاث يبلغ ٦٨ ٪ من احتياطي العالم . ولا بد من الاشارة هنا الى ان قسما صغيرا من هذه النسبة العالية يقع في مناطق ظروفها المناخية افضل من الغابات الاستوائية الرطبة ، ولكن هذه المناطق جبلية ووعرة المسالك جدا بحيث لا يتيسر استغلال قواها المائية بسهولة . وفي الاقطار المزدحمة بالسكان مثل اليابان ثبت عمليا انه يمكن التوسع في استغلال الانهار الصغيرة التي تنحدر من سفوح الجبال . ومن الظاهرات التي تستلفت النظر ان اليابان تستغل قواها المائية في توليد ٧٧ ٪ من مجموع الطاقة الكهربائية التي تولدها آسيا .

وفي الاجزاء الاخرى من العالم توجد اشد مساقط الانهار انحدارا في مناطق جبلية وعرة المسالك نسبيا . ومن المصادفات الحسنة ان شلالا

كشلال نياغارا يسقط ماؤه من ارتفاع ١٦٨ قدما ليصب في سهل منبسط نسبيا ، او ان نهر الدنيبر يتدفق في اخدود صخري تساعد طبيعته على اقامة السدود والخزانات . وفي بعض المناطق الجبلية تقع مراكز القوة المائية على مسافة قريبة نسبيا من المجتمعات التي تتجه الى الصناعة ، ولهذا يسهل نقل الطاقة الكهربائية اليها بنفقات معقولة . وينطبق هذا الوضع على ايطاليا حيث الانهار الالبية توفر الكهرباء للمدن الواقعة في وادي البو ، وعلى القسم الشرقي من كندا حيث الانهار تنحدر من المرتفعات اللورنشية المحيطة بخليج هدسون الى منطقة اوتاوا المزدحمة بالسكان والى المنخفضات المحيطة بنهر سانت لورنس . وهناك مناطق كثيرة من العالم تملك احتياطيا كبيرا من القوة المائية ، ولكن استغلال هذا الاحتياطي غير مجز الآن من الناحية الاقتصادية ، ويتوقف على استعداد الوكالات العامة واصحاب رؤوس المال الفردية للتنبؤ بحاجات المستقبل والمغامرة باقامة المنشآت اللازمة لسد هذه الحاجات . وتنطوي مثل هذه المشاريع الرائدة على شيء من المخاطرة كما ان مردودها قد يظل ضئيلا مدة طويلة ، ولذا يصعب على الشركات الخاصة التي تعمل على اساس الربح ان تقوم بها في الظروف العادية. اما الوكالات الحكومية فلا تخضع لذات الالتزامات التي تخضع لها الشركات الخاصة نحو المساهمين . ولا شك في ان السياسة الحكيمة التي اتبعت في توظيف الاموال العامة في مشاريع القوى المائية ساعدت كندا والاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة على تطوير بعض الاقاليم وتشجيع الاستيطان فيها ، كما انها ساعدت ايطاليا والمانيا واليابان على توفير المزيد من الطاقة للصناعات وتعزيز قدرتها على اتاحة فرص العمل للسكان الذين يتزايدون بسرعة كبيرة .

وكما هي الحال بالنسبة للبترول والفحم الحجري ، نلاحظ ان التوزيع السياسي لمصادر القوى المائية عرضي ولا يتبع نظاما معينا . اما

من الناحية التكوينية ، فقد سبق ان اشرنا الى ان الجانب الاكبر من كميات الاحتياطي يوجد في مناطق تعاني من ظروف مناخية او طوبوغرافية صعبة نسبيا . واما الاستغلال الفعلي للقوى المائية المتوافرة فيعكس نمطا مألوفا يمكن وصفه على النحو الآتي : بالاضـافة الى المظهر العرضي لتوزيع القوى المائية على التقسيمات السياسية المختلفـة ، نلاحظ ان الاقطار التي سخرت هذه القوى هي ، في اغلب الحالات ، الاقطـار ذاتها التي طورت صناعتها منذ البدء عن طريق استغلال الاشكال الاخرى للطاقة . وفي بعض الاقطار ، وبخاصة في ايطاليا والنرويج ، نلاحظ ان النشاط الصناعي الحالي يعتمد اعتمادا كبيرا على القوى المائية المحلية . اما معظم الاقطار الاخرى التي استغلت انهارها فان قوتها الاقتصادية تقوم ،في المكان الاول ، على الفحم الحجري . وليس من قبيل الصدفة ان تسعة اقطار في العالم تستأثر بـ ٨٥٪ من الطاقة الكهربائية المولـدة من القوة المائية ، مع انها لا تملك اكثر من ٢٥ ٪ من مجموع احتياطي العالم من هذه القوة . والجدير بالذكر ايضا ان ستة من هذه الاقطار التسعة تملك ٨٠ ٪ من احتياطي العالم من الفحم الحجري وتنتج ما لا يقل عن ثلثي الانتاج العالمي من هذه المادة ، وان اثنين منها ينتجان حوالي ثلثي انتاج العالم من البترول ، وان واحدا منها ينتج الجانب الاكبر من مجموع ما ينتجه العالم من الغاز الطبيعي .

توزيع الطاقة الايدروكهربائية بين القارات

	القدرة الحصانية	
	الاحتياطي المقدر	المستغل فعلا
افريقيا	٢٧٥٠٠٠٠٠٠	١٧٥٠٠٠
آسيا	١٥٠٠٠٠٠٠٠	٦٠٠٠٠٠٠
امريكا الشمالية	٧٧٠٠٠٠٠٠	٢٩٠٠٠٠٠٠

القدرة الحصانية

	الاحتياطي المقدر	المستغل فعلا
أمريكا الجنوبية	٧٥٠٠٠٠٠٠	١٣٠٠٠٠٠
اوروبا	٧٤٠٠٠٠٠٠	٢٧٥٠٠٠٠٠
اوستراليا	٢٤٠٠٠٠٠٠	٦٠٠٠٠٠
العالم	٦٧٥٠٠٠٠٠٠	٦٤٠٠٠٠٠٠

اكثر الاقطار استغلالا للقوى المائية

القدرة الحصانية

	المستغل فعلا	الاحتياطي
الولايات المتحدة الامريكية	١٩٠٠٠٠٠٠	٣٣٠٠٠٠٠٠
كندا	٨٠٠٠٠٠٠	٢٥٠٠٠٠٠٠
ايطاليا	٦٠٠٠٠٠٠	٦٠٠٠٠٠٠
فرنسا	٥٢٥٠٠٠٠	٦٠٠٠٠٠٠
اليابان	٤٢٥٠٠٠٠	٧٠٠٠٠٠٠
الاتحاد السوفييتي	٣٠٠٠٠٠٠	٧٠٠٠٠٠٠٠
النرويج	٣٠٠٠٠٠٠	١٦٠٠٠٠٠٠
سويسرا	٢٨٠٠٠٠٠	٣٦٠٠٠٠٠
المانيا	٢٥٠٠٠٠٠	٢٥٠٠٠٠٠

ومن السهل جدا التسرع في اصدار احكام عامة تستند الى العرض الذي قدمناه عن مصادر الطاقة . ولكن حتى لو تبصرنا في الامر ، لاحظنا ان هناك عددا من النتائج التي لا مفر من ان يتوصل اليها كل باحث :

١ . بلغ التقدم الصناعي ابعد شأو في الدول القليلة التي تملك ثروة كبيرة من الفحم الحجري ، هذا مع العلم انه انتشر ايضا في عدد من

البلاد المجاورة التي تستطيع استيراد الفحم الحجري دون ان تتكبد نفقات باهظة .

٢. هذه الدول هي ايضا اكثر دول العالم استهلاكا للبترول ، وذلك بغض النظر عن مصدره الجغرافي .

٣. هذه الدول نفسها هي ايضا اكثر الدول انتاجا للطاقة الايدروكهربائية والغاز الطبيعي .

٤. اذا استثنينا هذه الدول المحظوظة التي لا يزيد عددها عن ١٠ او ١٢ دولة ، امكننا القول ان الصين هي الوحيدة التي تملك امكانات واسعة نسبيا لتطوير اقتصادها الصناعي . اما الدول الاخرى فهي تفتقر الى الفحم الحجري ، ومن المحتمل ان يستنفد احتياطها من البترول والغاز الطبيعي خلال قرن . واذا لم تطور اشكال اخرى من الطاقة الصناعية ، فان القوة المائية هي الوحيدة التي لا يمكن ان تستنفد على مر الزمن .

٥. اذا استثنينا الصين ، امكننا القول ان الدول الصناعية قد وطدت مراكزها على اسس ثابتة . ومع ان مركز كل منها بالنسبة للاخرى قد يتغير ، فأنه من المستبعد ان يطرأ تغيير كبير على النمط السياسي والاقتصادي العام . وهذا لا يعني ان الدول الاخرى ستحتل مرتبة ثانوية ، وانما يعني ان اقتصادها سيظل يعتمد ، في المكان الاول ، على الزراعة او استغلال الثروة الحيوانية او على الصناعات الاستخراجية .

٦. المملكة المتحدة هي الدولة الوحيدة ، من بين الدول الصناعية الكبيرة ، التي كرست جهودها للصناعة والتجارة والنقل على حساب الاهتمام بالزراعة . اما في الدول الصناعية الاخرى ، فان الصناعات تتركز في اقاليم معينة ، في حين تمارس نسبة كبيرة من السكان نشاطا زراعيا او استخراجيا او نشاطا متصلا باستغلال الثروة الحيوانية . ويمكن القول بشيء من التحفظ ان عدد العاملين في الصناعة او في

بيع او تسليم المنتوجات الصناعية لا يتجاوز ٢٠٪ من عمال العالم ، وان نسبة كبيـرة من سكان العالم لم تمارس بعد نشـاطا يتصل بمنتوجات الصناعة .

الموارد المعدنية

قامت الصناعة الحديثة على الفحم الحجري او موارد الطاقة الاخرى. وثمة عامل اساسي آخر وهو المعادن ، فالانتاج الصناعي لا يمكـن ان يتحقق ما لم يجر تطبيق الحرارة والطاقة على المعادن . وفي المراحل الاولى من النهضة الصناعية الحديثة كان امتلاك المعادن لا يقل حيوية عن امتلاك الوقود . ولكن تطور وسائل النقل الحديثة غيّر الاهمية الجغرافيـة والسياسية للموارد المعدنية ، واصبحت النفقات تتحكم بشدة في مشاريع استغلال الخامات . ومن الامثلة عـلى ذلك ان خامات الحديد في تشيلي تنقل الى بلطيمور ليجري تحويلها الى فولاذ ، وان النحاس المستخرج من قلب افريقيا يباع في الولايات المتحدة بسعر اقل من النحاس المستخرج من شمال مشيجان . وبفضل وسائل النقل الحديثـة الفعالـة ، اصبحت خامات المعادن في العالم ، شأنها شأن البترول ، سهلة المنال بالنسبة للدول الصناعية . ومع ان استغلال بعض الرواسب المعدنية لا يزال يعتمد على سهولة الوصول اليها ، فان موقع صناعات معينة يعتمد ، في المقام الاول، على الموقع الجغرافي للوقود وعلى توفر وسائل نقل فعالة .

واقترن تحسن وسائل المواصلات بزيادة كبيرة في استهلاك المعادن . ويقدر الخبراء بالاحصاء المعدني ان كميات المعادن التي استخرجت منذ عام ١٩٠٠ تفوق كل ما استخرج منها قبل هذا التاريخ . وتحولت عمليات التعـدين من مشاريع صغيرة تقتصر على رواسـب من مرتبة عالية الى مشاريع استخراجية واسعة النطاق تشمل رواسب من اية مرتبة طالما انها متوفرة بكميات كبيرة . وانصب الاهتمام ، في عمليات التعدين والطحن ،

على استخراج المعادن مــن خامات منخفضة المرتبة ، وذلك في محاولات ناجحة لجعل الكميات الاحتياطية المعروفة تساير الطلبات التي ما برحت تزداد يوما بعد يوم . واتسع نطاق التنقيب عن المعادن على سطح الارض وتحته على اعماق بعيدة . واخذ استعمال المعدات الجيوفيزيقية يزداد بأستمرار بقصد الاهتداء الى الكنوز المعدنية المطمورة تحـت سطح الارض على اعماق يمكن ان تنفذ اليها الثقابة او المهواة .

وفي معظم الحالات نجحت المحاولات التي بذلت للبحث عن المواد الخام او لتطوير طرق اقتصادية لاستخراجها . وثمة معادن ، كالبيرليوم والراديوم ، لم يعثر عليها بكميات مركزة كبيرة تكفي لان تغطي الطلبات المنتظرة في المستقبل . غير ان هناك معادن اخرى عثر عليها بكميات وفيرة تفيض عن الحاجة ، كالفوسفات في وايومنج واداهو . اما بالنسبة للمعادن المنتشرة الاستعمال ، فيبدو ان هناك احتياطيا من الخامات يكفي لاستمرار سد الحاجات المتزايدة للصناعة لمدة طويلة ، وذلك على الرغم من خطأ بعض التقديرات او عدم التكافؤ في التوزيع الجغرافي . حتى الحرب العالمية الثانية لم ترهق طاقة المناجم الحالية ، الا بالنسبة لبعض المعادن الستراتيجية كالميكا . ولكن الزيادة الكبيرة في استغلال المعادن للاغراض الحربية ارغم الدول الصناعية ، وبخاصة الولايات المتحدة الامريكية ، على اعادة تقدير الثروة المعدنية المتوفرة للصناعة زمن السلم . وتبين مــن اعمال الاستكشاف الحديثة انه لا يمكن الاعتماد على التقديرات التي اجريت قبل الحرب العالمية الثانية .

ومن ناحية الحمولة ، تعطي الصناعات الحـديدية والفولاذ اكبر انتاج معدني ، وهي اكثر الصناعات استغلالا لاحتياطي المواد الخام . وعلى الرغم من ازدياد مزاحمة المعادن الخفيفة والبلاستيك للمنتوجات الفولاذية ، فانه من المستبعد ان تطمس المعادن الخفيفة البديلة اهميـة الفولاذ . ومما لا شك فيه ان المعادن الخفيفة البديلة ستشق طريقها الى

اوضاع جديدة كثيرة وستحل محل الفولاذ في بعض الصناعات . ولكن من المستبعد ان يؤثر هذا التطور في جسامة الانتاج الفولاذي . ولذلك تعنى جميع الدول الصناعية بضمان استمرار تدفق الحديد الخام والخردة والسبائك المعدنية .

وفي بدء الحرب العالمية الثانية كانت المناطق السبع التالية تنتج ما يقارب ٩٠ ٪ من مجموع انتاج العالم :

(١) منطقة بحيرة سوبيرير (مينسوتا ومشيجان ووسكونسن) .
(٢) اللورين في فرنسا .
(٣) كريفوي روج في اوكرانيا .
(٤) منطقة كيرونا في شمال السويد .
(٥) المنطقة الوسطى في انجلترا .
(٦) منطقة ماجنيتوجورسك في جبال الاورال الجنوبية .
(٧) منطقة برمنجهام في الباما .

رتبت المناطق المذكورة اعلاه حسب انتاجها الفعلي ، وبالتالي حسب اهميتها الحالية . غير ان اهميتها الحالية ليست دليلا على مقدارالاحتياطي الموجود فيها ، وانما على مواقعها الملائمة بالنسبة لمراكز الاستهلاك الكبيرة . ومما يستلفت النظر ان لا المانيا ولا المملكة المتحدة تستطيع ان تنتج من الحديد الخام ما يكفي لادارة مصانعها الفولاذية الكبيرة . ولذا تعتمد المملكة المتحدة كثيرا على الخامات الحديدية العالية المرتبة التي تستوردها من شمال السويد ومن منطقة بلباو في شمال اسبانيا . اما المانيا فتستورد خامات الحديد من اللورين والسويد لتسد النقص في انتاجها المحلي . واما الاتحاد السوفييتي فيكفي نفسه كليا ، وسيظل يكفي نفسه حتى في حالة التوسع في صناعاته الفولاذية . واغلب الظن ان تقديرات السوفييت لاحتياطي الحديد من المرتبة العالية في جبال الاورال هي اعلى من الواقع . ومهما يكن الامر، فان انتاج منطقة ماجنيتوجورسك

في جبال الاورال من الحديد المغناطيسي كان وحده كافيا لتأمين استمرار عمل الافران في الاتحاد السوفييتي ابان الحرب العالمية الثانية . ولم يتأثر انتاج الفولاذ الا بنسبة ضئيلة جدا نتيجة لاجتياح الجيوش الالمانية لمنطقة كريفوي روج عند منعطف الدنيبر في اوكرانيا .

ومع ان الولايات المتحدة الامريكية تستورد باتنظام كميات قليلة من الحديد الخام ، فان مواردها المحلية كانت ولا تزال تكفي لتغطية حاجاتها . ولكن الاحتياطي المعروف ، وبخاصة من الحديد الخام ذي المرتبة العالية ، تعرض لانهاك خطير حتى ان الاوساط المختصة اخذت تعرب عن قلقها بشأن الموارد المحلية في المستقبل . ومن العسير تكوين فكرة دقيقة عن الوضع الحالي نظرا لان السلطات المسؤولة في منطقة بحيرة سوبيرير التي تنتج ٨٥٪ من مجموع انتاج الولايات المتحدة من الحديد الخام تطبق سياسة خرقاء تشترط بموجبها فرض الضرائب على احتياطي الحديد . ولذا لا يشعر المعنيون بالامر بحافز قوي لمعرفة كميات الاحتياطي ولا للمحافظة على الاحتياطي الذي تم تحديده عن طريق التنقيب والاستكشاف . وفي عام ١٩٤٠ قدر الاحتياطي المعروف في منطقة بحيرة سوبيرير بـ ١٣٤٢٠٠٠٠٠٠ طن . واذا استمر معدل الانتاج على ما كان عليه في عام ١٩٤٠ ، فان كمية الحديد الخام الجيد (نسبة الفلز حوالي ٥٠٪) لن تدوم اكثر من ٢٠ عاما ، اما اذا ارتفع معدل الانتاج الى ما كان عليه في عام ١٩٤٣ ، فان هذه الكمية ستستنفد خلال ١٤ عاما . غير ان الواقع هو ان معدل الانخفاض في كمية الاحتياطي كان اقل من معدل الانتاج السنوي ، ولذا لا نغالي اذا قلنا ان احتياطي منطقة بحيرة سوبيرير من الحديد الخام الذي ترتفع فيه نسبة الفلز الى ٥٠٪ قد يكفي لاربعين سنة اخرى على اساس الحد الاعلى للاستغلال السنوي ، او لستين سنة اخرى على اساس الاستغلال العادي . اما الحديد الخام من المرتبات المنخفضة فهو اكثر وفرة ، ولكن قد يكون

من الافضل ان نستبعد من قائمة الكميات الاحتياطية تلك الخامات التي مواقعها واصنافها تجعل فائدتها محدودة او ثانويــة في ظل الاوضــاع الاقتصادية الراهنة .

هذا وان التقديرات المحافظــة للاحتياطي في اكثر المناطــق انتاجا للحديد في الولايات المتحــدة أثارت بعض القلق بشأن مستقبل صناعة الفولاذ في امريكا . ومن حــق المسؤولين ان ينظروا الى المشكلة نظرة جديــة وان يبذلــوا محاولات للمحافظة عــلى الاحتياطــي الموجــود ولاستكشاف موارد جديدة . ولكــن ليس ثمــة اي موجب للفزع . فاحتياطي الحديد في امريكا ، من وجهة عامة ، لا يزال هائلا ، وذلك على الرغم من انه لا يشكل اكبر احتياطي محلي في العــالم . ونثبت فيما يلي جدولا بتقديرات الاحتياطي في المناطق المختلفة :

المنطقــــة	كمية الاحتياطي مقدرة بملايــين الاطنــــان
منطقة بحيرة سوبيرير	٢٦٠٠
الولايات الجنوبية الشرقية (بخاصة في الباما)	١٩٠٠
الولايات الشمالية الشرقية (بخاصة في ولاية نيويورك)	٦٠٠
مناطق اخرى متفرقة	١٠٠
المجمــــوع	٥٢٠٠

ونستطيع ان نضيف الى هــذا المجموع مــا لا يقل عن ٤٠ مليــون طن من الحديد الخام الكندي الموجود في منطقــة بحيرة سوبيرير . وقــد يزداد تقدير مجموع الاحتياطي ٤٠ في المائة او اكثر اذا جاز لنا ان نأخذ بالرأي القائل ان الخامات من المستوى الادنى يمكن ان تخضع للاساليب الحديثة في الفرز والتعدين .

وتلــوح في الافق امكانات اخرى اوسع حين نأخذ بعين الاعتبار الموارد الاجنبية للحديد الخام التي تقــع على مسافة قريبة من الولايات المتحدة والتـــي يمكن شحنها اليهــا بالسفن بنفقــات منخفضة نسبيا . فاحتياطي الحديد في نيوفونلاند يقدر باربعة بلايين طن ، هذا مع العلم ان الانتاج الفعلي قد اقتصر حتى الان على كميات صغيرة نسبيا تكفي فقط لسد حاجات صناعة الفولاذ في سدني . ومنذ سنوات كثيرة وشركة بيت لحم لصناعة الفولاذ في سباروبوينت ، ماريلاند ، تستورد كميــات كبيرة من الحديد الخام مــن منطقة كوقمبو في تشيلي ، وكــانت ايضا تستورد كميات معتدلة من مقاطعة اورينتي في كوبا ، وهي الان في سبيل استغلال كميات من الحديد الخام الموجود في فنزريلا . وكان من نتائج التطورات التي حدثت ابــان الحرب ان اصبح احتياطي البرازيل المقدر بسبعة بلايين ونصف بليون طن جاهزا لتلبية ليس حاجة صناعة الفولاذ الناشئة في البرازيل فحسب ، وانما ايضا حاجة اي من المصانع الامريكية التي تستطيع استغلال الكميات التي ينتجها اكبر مناجم الحديد في العالم على اساس اقتصادي مربح . وهكذا نرى ان مجموع الموارد الاضافية التي يمكن اعتبارها في متناول الولايات المتحدة تجاريا لا تقــل عن ١٦ بليون طن . واذا اجريت تحريات اوسع نطاقا مــن السابق ، فان هــذه الكمية قد تزداد زيادة ملموسة . ومما لا شك فيــه ان استغلال هــذه الموارد الاجنبية سيؤدي حتما الى اقامــة افران عاليــة عــلى سواحل الاطلسي والخليج على مسافة قريبة نسبيا من مناجم الفحم الحجري في منطقة جبال الابلاش . ومهما يكن من شيء ، فانه من المستبعد ان يحدث تغيير واسع النطاق في التوزيع الجغرافي الحالــي لمصانع الفولاذ فــي الولايات المتحدة .

وتملك اوروبا الغربية ايضا ثروة كبيرة من الحديد الخام . ويوجد اكبر احتياطي منــه في منطقة اللورين في فرنسا التـــي يعتقد انها تملك

احتياطيا يزيد على مجموع الاحتياطي في جميع مناطق الولايات المتحدة . ونسبة الفلز في الخامات الموجودة في اللورين منخفضة ، والسبب الوحيد الذي يجعل استغلالها مجزيا من الناحية الاقتصادية هو قربها من مناطق الفحم الحجري في حوض الرور والسامبر والموز . وتملك المملكة المتحدة ٣ر١ بليون طن من الحديد الخام ذي المرتبة المنخفضة ، ولذا عمدت الافران البريطانية الى مزجه مع الاصناف الجيدة المستخرجة من السويد واسبانيا . وتعتمد المانيا ايضا على خامات السويد من اجل « تجويد » خاماتها . وهكذا يمكن القول ان صناعة الفولاذ في المانيا وبريطانيا وفرنسا ولكسمبورج تعتمد على اربع مناطق رئيسية منتجة للحديد الخام ، هي :

المنطقة	الاحتياطي مقدرا بملايين الاطنان
اللورين (مرتبة منخفضة)	٥٦٠٠
المنطقة الوسطى في بريطانيا (مرتبة منخفضة)	١٣٠٠
السويد (مرتبة عالية)	١٥٠٠
اسبانيا (مرتبة عالية)	٧٠٠
المجموع	٨١٠٠

وتستورد اوروبا من افريقيا الشمالية خامات من مرتبة عالية « لتجويد » اصنافها ، كما تستخرج كميات صغيرة تتراوح مرتبتها من المتوسطة الى العالية من الاحتياطي القليل الموجود في تشكوسلوفاكيا والمانيا والنمسا وبولندة . ومع ان هذه الاقطار تظهر في البيانات الاحصائية للانتاج ، فانها لا تكاد تستحق الذكر في تقديرات الاحتياطي .

اما الاحتياطي في الاتحاد السوفييتي فهو ، على اقل تقدير ، يعادل مجموع الاحتياطي في اوروبا الغربية . ويدعي البعض ان الاحتياطي الثابت وجوده في الاتحاد السوفييتي يعادل مجموع الاحتياطي في

سائر الاجزاء الاخرى من العالم . ولكن هـذا الادعاء يكتنفه الشك . ومنذ مدة طويلة والروس يستخرجون خامات مماثلة للصنف الموجود في منطقة بحيرة سوبيرير من منطقة كريفوي روج الواقعة عند منعطف نهر الدنيبر على مسافة ٢٤٠ ميلا تقريبا الى الغرب من مناجم فحم الكوك في حوض الدونتس . امـا الحديد المماثـل للحديد السويدي مـن حيث الصنف والجودة فينتشر بكميات كبـيرة في اماكن متباعـدة في مناطق جبـال الاورال ، وبخاصة في المنطقـة الواقعـة بـين سفردلوفسك وماجنيتوجورسك . ولكن فحم الكوك من النـوع الجيد ليس قريب المنال ، ولذا قامت صناعة الفولاذ عـلى الفحم الحجري الذي يمكـن توفيره من منطقة واسعة تمتد مـن مراكز الصناعات الثقيلة في جبـال الاورال حتى منطقـة نوفوسبرسك قرب حوض كوزنتسك حوالـي ١٢٠٠ ميل الى الشرق من جبال الاورال .

ومع ان التقديرات الاخيرة للاحتياطي من خامات الحديد في الاجزاء الاخرى مـن نصف الكرة الشرقي ربما كانت اقل مـن الواقـع ، فاننا لا نغالي اذا قلنا ان مجموع الاحتياطي في هذه الاجزاء لا يكاد يعـادل الاحتياطي في اي من المناطق الكبرى المنتجة للحديد في اوروبا . ونجحت اليابان في اقامة صناعة للفولاذ ، ولكن مردودها لا يكاد يعـادل نفقات الانتاج ، كما ان الخامات الحديدية المستخرجة مـن منشوكوان لا تفي تماما بطلبات هذه الصناعـة . ولذا اضطرت اليابان الى الاعتماد عـلى الحديد الخام المستورد من الفلبين لتحسين نوعيـة خاماتها ، كما انهـا لجأت الـى شراء واستعمال الخردة بكميات كبـيرة . وشهدت الحرب العالمية الثانية محاولات لاستغلال الخامات الحديدية المحلية لسد حاجات الصناعات الفولاذية في اوستراليا والمنطقة الشمالية الشرقية مـن الهند واتحاد جنوب افريقيا . وهناك دلائل تشير الى وجود خامات من انواع تجارية تكفي لتلبية طلبات مصانـع الفولاذ والحديد في هذه الاقطـار

الثلاثة . ومهما يكن من شيء ، فانه من المستبعد ان يؤدي توزيع احتياطي الحديد في العالم الى تغيير النمط الجغرافي الحالي لتوزيع الصناعة الثقيلة في العالم ، نظرا لان هذا النمط يعتمد على رواسب الفحم الحجري في شرق الولايات المتحدة وغرب اوروبا والاتحاد السوفييتي . وستواصل مصانع الحديد والفولاذ الاستفادة من مناجم الحديد الخام القريبة منها ، ولكن ذلك لن يمنعها من استيراد الحديد وسبائك الحديد من مصادر بعيدة . والشرط الوحيد الذي ستراعيه هذه المصانع هو ان تكون النفقات الاجمالية للمواد الخام على مستوى يصمد للمنافسة .

ومنذ اكتشاف البوكيست (*)، خام الالومنيوم، اصبحت فرنسا من اهم الدول المنتجة لهذه المادة ، ولكنها لا تحتل المركز ذاته بالنسبة لاستخراج فلز الالومنيوم من البوكسيت . والبوكسيت هو من اشد الخامات مقاومة للصهر . وتتطلب ازالة الماء المتحد كيميائيا حرارة عالية ، في حين تتم ازالة الاكسجين بعملية كهربائية ــ كيميائية تتطلب توفر قوة ايدروكهربائية بمقادير وفيرة ورخيصة . ولذا يعتبر التوزيع الجغرافي لخام البوكسيت عاملا ثانويا في صناعة الالومنيوم . ويصدق هذا القول اليوم اكثر من اي وقت مضى في تاريخ تطور صناعة الالومنيوم الذي يعتبر قصيرا بالنسبة لتاريخ تطور الصناعات الاخرى . فالخام المستخرج من اركنساس وسورينام يصل في النهاية الى المصانع الكيميائية ــ الكهربائية الواقعة شمال وغرب نيويورك . وتصدر الخامات الفرنسية والهنغارية واليوغسلافية والايطالية الى مراكز القوة الايدروكهربائية في جبال الالب والجبال الاسكندنافية . اما الالومنيوم البريطاني فيسير في رحلة دائرية طويلة قبل ان يصل الى انجلترا ، فقد يبدأ الخام رحلته من

---

* نسبة الى Baux في فرنسا .

غيانا البريطانية ثم ينقل لتجرى عليه عمليات الاختزال في المنطقة الجنوبية الشرقية من كندا حيث القوة الكهربائية متوفرة بمقادير كبيرة تفيض عن الحاجات الصناعية والمنزلية .

غير اننا اذا دققنا النظر في التوزيع الحالي لمناطق تعدين البوكسيت، تبين لنا ان الموقع الجغرافي عامــل لا يمكن اغفــاله كليا . فالرواسب الموجودة في مناطق نائية في الهند وافريقيا والبرازيل مهملــة بسبب ميل الدول الصناعية الى تفضيل الخامات القريبة من مراكز القوة الكهربائية والاسواق المستهلكة . وقد اكتشف العلماء مؤخرا انــه يمكن تكوين سبائك من المغنسيوم والالومنيوم ، وانه يمكن الحصول على المغنسيوم بنفقات معقولة عن طريق اختزاله من الاملاح او المحاليل الملحية او بعض أنــواع الصخور الواسعة الانتشار . وارتاح الصناعيون كثــيرا لهذا الاكتشاف ، اذ ادركوا انهم يستطيعون الانتفاع بفلز تجاري جديد يمكن الحصول عليه بسهولة من خامات محلية .

وكــان من نتائج الحرب العالميــــة الثانيــة ان استنزفت موارد البوكسيت في المناجم التي تقع في مواقع جغرافية قريبة من مراكز القوة الكهربائية والمراكز الصناعيــة . ولذا بذلت جهود كبــيرة لاستكشاف موارد جديدة ليس للاغراض الحربية فحسب ، وانما لتلبية الطلب المتزايد على المنتوجات المعدنية الخفيفة . وليس ثمة سبب يحملنا على الاعتقــاد بان تغييرا كبيرا سيطرأ عــلى النمط الحالي الواضح للتوزيع الجغرافي لصناعة الالومنيوم . ومن المرجح ان يبذل كــل جهد ممكن لاكتشاف طرق تجارية لاستخراج الالومنيوم من خامات نسبة الفلز فيها اقل منها في خام البوكسيت ، وذلك بدلا من العمل على توسيع عمليات التعدين بحيث تشمل المناطق النائية في العالم . فالالومنيوم اكثر المعادن وفرة في العالم . فهو موجود بكميات هائلة في كل تربة طينية وفي معظم انــواع الصخور الواسعة الانتشار . ودفعت حاجــات الحرب المسؤولين الــى

اعتماد مخصصات مالية كبيرة لاجراء تجارب على الخامات التي تحتوي على نسبة منخفضة من الالومنيوم ، واذا ارتفعت نفقات الشحن بالسفن، فان ذلك قد يشجع الكثيرين على استخراج الالومنيوم من اشيع الخامات المتوافرة محليا .

اما الفلزات القاعدية فهي اندر كثيرا من الحديد والالومنيوم . ولا يمكن استغلال هذه الفلزات استغلالا مجزيا من الناحية التجارية الا حيث نشأت احوال جيولوجية خاصة تسمح بتجمع كميات كبيرة مركزة في مناطق معينة . ويصدق هذا القول حتى على الفلزات القاعدية التي تعتبر اكثر وفرة من غيرها كالنحاس والرصاص والزنك . وأنشئت مشاريع لاستخراج واحد او اكثر من هذه الفلزات في مناجم غنية بعيدة نسبيا عن مراكز الصناعة ، ككاتنغا في افريقيا الوسطى ، ويونان في جنوب الصين وشوقيكاماتا في جبال الانديز في تشيلي . غير اننا اذا درسنا تطور صناعة الفلزات القاعدية من النواحي التاريخية والجغرافية والاقتصادية ، تبين لنا انها هي ايضا تسير في ذات الاتجاه العام الذي لاحظناه في مشاريع استغلال الحديد والالومنيوم . فالتكلفة هي العامل الذي يتحكم في الامر . والرواسب الموجودة في مناطق نائية لا تستغل الا اذا توافرت شروط معينة كوجود اصناف ممتازة او كميات كبيرة ، او انخفاض اجور العمال ، او سهولة الشحن بنفقات معقولة . ولذا نلاحظ ان عمليات التعدين قرب المراكز الصناعية في العالم اكثر منها في المناطق النائية . ويؤدي الاستغلال المركز للمناجم القريبة الى استنزاف مواردها المعدنية ، وهذا ما حدث فعلا في مناجم الرصاص والزنك القديمة في منطقة جالينا في الينوي وايوا ووسكونسن في الولايات المتحدة الامريكية .ويندر ان يتمكن اي راسب فلزي من الصمود طويلا بمفرده في وجه الاستغلال المركز ؛ وان كان يبدو ان مناجم ريوتنتو في اسبانيا زودت موسوليني بكميات من النحاس لا تقل عن الكميات التي وفرتها

لاسلافه الرومان او للقرطاجنيين والفينيقيين قبلهم .

ولا بد من الاشارة هنا الى ان المناجم التـــي مضى على استغلالها زمن طويل هي الان في سبيل الاستنفاد . والواقع انـــه كانت في اوروبا الوسطى ثروة معدنية هامـــة زمن اجريكولا (١٤٩٠ ـــ ١٥٥٥) الذي وصفها وصفا شائقا في كتـــابه **De re metallica** ، ولكن هذه الثروة استنفدت حتى قبل بدء النهضة الصناعية الحديثة . واشتهرت شبه جزيرة كيويناو في شمال مشيجان مدة طويلة بمناجمها الغنية بالنحاس ، ولكن ثروة هذه المناجم اوشكت على الاستنفاد . ويتوقع خبراء التعدين قرب استنفاد مناجم الرصاص والزنك في ميسوري في الولايات المتحدة الامريكية ، وفي بلجيكا والمانيا في اوروبا . وسيضطر العاملون بالتعدين، من اجل سد النقص الناجم عن استنزاف بعض الموارد الحاليـــة ، الـــى توسيع النطاق الجغرافي لعملياتهم الحالية . والمهم في الامر هو ان هـــذا التوسع لا يمكن ان يتجاوز حدودا معينـــة بالنسبة للحديد والالومنيوم والنحاس والرصاص والزنك . ولكنه قـــد يتجاوز هذه الحدود بالنسبة لخامات الفلزات النفيسة مثل القصدير والتنجستن والبلاتين والراديوم . والجدير بالذكر ان انفس المعـــادن واندرها وجودا هي الوحيدة التـــي تستدرج النـــاس الى استخراجها في اماكن بعيـــدة عن مراكز الصناعة الرئيسية في العالم او تكبد نفقات عالية نسبيا في سبيل الحصول عليها . فملاءمة الموقع الجغرافي وسهولة الوصول اليه هما من الامور النسبية . اما المراكز الصناعية فهي قليلـــة ومحددة بسبب ارتباطها بوجـــود الفحم الحجري . وقـــد تتطور المراكز الصناعيـــة او تتعرض لبعض التغييرات الاخرى ، كما ان تطور وسائل النقل قد يؤثر في سرعة الانتاج ونفقاته . اما العقبات الجغرافية المرتبطة بالمسافات والاحوال المناخية والطوبوغرافية فهي ثابتة لا يمكن تغييرها ، ولا بد من النظر اليها من هذه الزاوية عند بحث موارد الثروة في العالم . وعندما تستنزف بعض الموارد المعدنيـــة ،

تبذل الجهود لاستكشاف موارد جديدة واستغلالها ، ولكن من المرجح ان تكون مواقع الموارد الجديدة ضمن ذات المجال الاقتصادي او الجغرافي الذي تعمل فيه المناجم الحالية . ولعلنا نغالي في التفاؤل اذا اخذنا بالرأي القائل بانه سيجري في المستقبل القريب استغلال الثروات المعدنية الهائلة التي يقال انها موجودة في المناطق القطبية من سيبريا او في الهضاب الداخلية في منطقة جبال الهملايا . فارباب الصناعة ، الذين يمتازون بنظرتهم الواقعية العملية ، يؤثرون التحري عن موارد بديلة قريبة المنال على تكبد نفقات باهظة في سبيل استغلال موارد في مناطق نائية .

وبناء على ما تقدم ، يجدر بنا ان ننظر الى الموارد المعدنية المتوافرة للاستغلال بعد الحرب العالمية الثانية من زاوية واقعية وعملية . ومما لا شك فيه ان الحرب استنزفت مقادير كبيرة من الاحتياطي الموجود في مواقع ملائمة من وجهة نظر المراكز الصناعية الحالية . وتعرضت الولايات المتحدة لاكبر خسارة من هذا القبيل بالنسبة لكل معدن . ولكن ، لحسن الحظ ، هنالك كميات كبيرة من الخردة والخامات المختزنة فوق سطح الارض تكفي لتسيير مصانعها حتى يتسنى لها اتخاذ الخطوات اللازمة للاستفادة من موارد الثروة المعدنية في نصف الكرة الشرقي . وستحتاج المراكز الصناعية في الولايات المتحدة الى استيراد المزيد من الحديد من نيوفونلاند والباما ومنطقة البحر الكاريبي والقسم الشمالي من امريكا الجنوبية ، وبالتالي الى تخفيض اعتمادها على منطقة بحيرة سوبيرير بالنسبة ذاتها . ويتوقع ان تستورد الولايات المتحدة ايضا المزيد من الالومنيوم من منطقة البحر الكاريبي ، وان يقل اعتمادها على اركنساس. اما النحاس الامريكي فانه لن يفقد مكانته الحالية في امريكا لصالح النحاس المستخرج من افريقيا وامريكا الجنوبية الا بعد صراع عنيف .

وازمة الموارد المعدنية اخف حدة في اوروبا منها في الولايات

المتحدة الامريكية . ويعـود الفضل في ذلـك الى وفرة خامات الحديد والبوكسيت في اوروبا . وتشكو اوروبا نقصا خطيرا في ثروتها النحاسية، ولكنها تستطيع سده باستيراد ما تحتاج اليه مـن النحاس من القـارة الافريقية . ومع ان معدل استهلاك الزنك والرصاص للفرد الواحد اقل كثيرا في اوروبا منه في الولايات المتحدة ، فان معظم الرواسب الاوروبية من هذين المعدنين قد بلغت مرحلة ابعـد في طريقها نحو الاستنفاد . ففي الاتحاد السوفييتي تطورت ثلاثة مراكز كبيرة للصناعة الثقيلة في حوض الدونتس وجبال الاورال وحوض الكوزنتسك . وادى هذا التطور الى مضاعفة الجهود المبذولة في مشاريع استخراج المعادن محليا وفي الاقطار المجاورة للاتحاد السوفييتي . واذا استثنينا المنغنيز في نيكوبول ، امكننا القول ان روسيا الاوروبية ليست غنية بالمعادن ، وذلك علـى الرغم من كثرة المناجم الصغيرة المنتشرة في اماكن متفرقة . ويلاحظ ان منطقة جبال الاورال تتجه الى التخصص في استغلال معـادن معينة ، نخص بالذكر النحاس والبلاتين . اما الموارد الرئيسية للفلزات القاعدية التـي تعتمـد عليها الصناعة السوفييتية فهي المناطق المحيطة باعالي انهار اوب ـ ارتش وينسي بالقرب من حدود سنكيانج وفي منطقة بحيرة بلكاش. وفي الاجزاء الاخرى من العالم قامت مشاريع تعدين في مناطق متباعدة لتزويد مصانع اقليمية صغيرة بما تحتاج اليه من المعادن كما هي الحـال في هونشو ـ شنغهاي وسدني ـ ملبورن وكلكتا وجوهانسبرج ـ بريتوريا . كذلك قامت محاولات لاستخراج المعادن النفيسة في مناطق بعيـدة عن المراكز الصناعية نظرا لان استغلالها يعتبر من المشاريع المربحة بصرف النظر عن مكان وجودها . ومن الامثلة على ذلك مناجم الذهب في وتواترسراند ، والرصاص والزنك والفضـة في بروكن هل في اوستراليا ، والبتشبلند الفضي في منطقة بحيرة غريت بير في كندا .

واذا كانت معرفتنا باحتياطي الفلزات ـ باستثناء الحديد ـ تقع ،

على ما يبدو ، خارج فئة العلوم الدقيقة ، فان ذلك لا يعني وجود نقص خطير في كمية هذا الاحتياطي . لا بل يمكن القول ان عدم المبالاة بشأن قوائم الموجودات دليل على كفايــة الاحتياطي . والواقع ان العــالم في الاوقات العادية يعاني من كثرة العرض بالنسبة لاشياء كثــيرة ، في حين تبدي بعض الدول الفردية قلقا بالنسبة لنقص بعض المواد الخام الحرجة. وليس ثمة سبب علمي واضح يفسر لماذا حبت الطبيعة ماليزيا بكميات من القصدير تبلغ ٨٠٪ من مجموع احتياطي العالم من هذا المعدن ، او لماذا وضعت ٨٠٪ من مجموع الانتيمون في الصين ، وذات النسبة تقريبا من النيكــل في اونتاريو ، وحوالــي ٨٥٪ مــن مجمــوع المولبيدنوم في كولورادو . واذا كانت الكميات المتوافرة من هــذه المعــادن صغيرة في الكثير من الدول ، فان ذلك لا يعنــي ان هذه المعادن غــير مهمة او ان الدول التي لا تملكها لا تحتاج اليها . والواقع ان الحاجة الى هذه المعادن تؤكد انه ما من دولة في العالم تستطيع ان تكفي نفسها بنفسها من الناحية المعدنية . حتى الاقتراب من درجة الاكتفاء الذاتي لا يمكــن ان يتحقق الا في بعض المناطق الصناعية الواسعة .

الموارد الغذائية

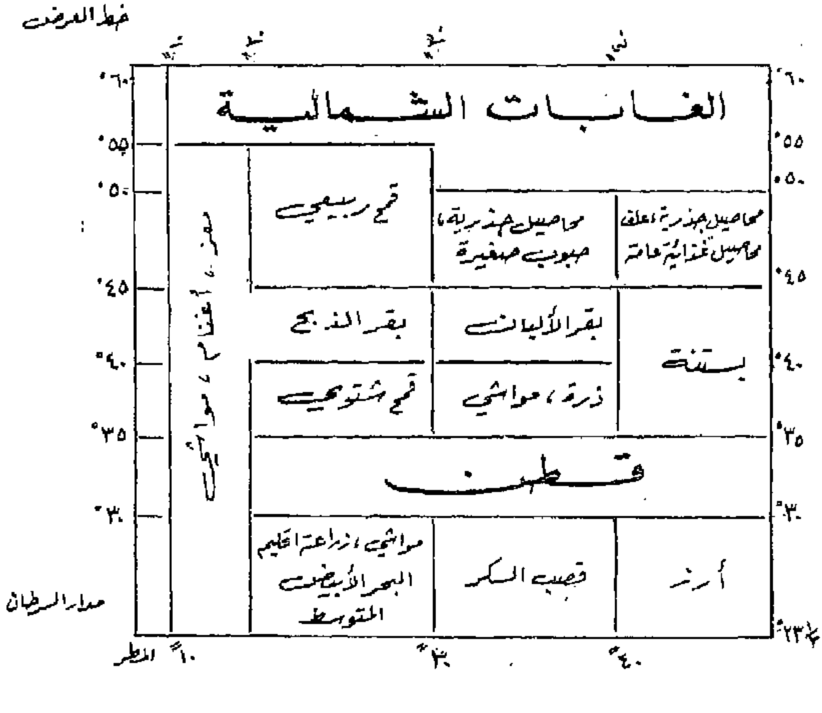
خصصنا القسم الاكبر مــن هذا المقــال لدراسة الخامات المعدنية اللازمة للصناعة . وقد يبدو ان اهتمامنا بهذا الجانب مــن موارد الثروة يفوق اهميته النسبية ، ولا سيما ان عدد الذين يؤمنون معيشتهم عــن طريق العمل المباشر في الصناعة لا يتجاوز ٢٠٪ من مجموع سكان العالم. ولكن هذه النسبة الصغيرة التي تكيفت على المتطلبات الصارمة للمصانع والمحركات والآلات هي التي اخذت تؤثر في اتجاهات الاغلبية وتصوغ شكل اقتصادهــا وعاداتهــا ، حتى وسيكلوجيتها . وبالنسبة للمــواد الغذائية اصبحت المجتمعات الصناعية تعتمد على نمط حديث نسبيا من

الزراعة التخصصية . اما الزراعة العامة التي تحاول تأمين مختلف الحاجات الغذائية المحلية فقد اخذت تنحسر وتقتصر على الاماكن النائية، لا بل هي في سبيل الزوال في نصف الكرة الشرقي . والواقع ان استعمال الارض اخذ هو ايضا يكتسب نمطا موجها صارما ، وذلك على الرغم من انه قد يبدو للمزارع او صاحب العزبة انه ما زال يحتفظ بفرديته . فالتعبير عن الذات في النشاط المتصل بالزراعة او تربية الحيوانات قد لا ينطوي على درجة عالية من الحرية الفردية ، شأنه في ذلك شأن الحرية الفردية التي يمارسها الرجل في اختيار الزي المناسب للاشتراك في وليمة تقيمها احدى الغرف التجارية . وليس المقصود هنا اتهام الناس بالاستعداد للمطاوعة . ولكن المزارع يتعرض حتما للافلاس اذا هو لم يجار متطلبات موسم الانبات وسقوط المطر وطوبوغرافية الارض والتربة . صحيح ان لديه شيئا من الحرية في اختيار بعض المحاصيل الثانوية ، ولكن حريته محدودة جدا في اختيار المحاصيل التجارية . ومما يستلفت النظر ان الزراعة التخصصية قد بلغت درجة عالية من الانتظام والكفاية في الولايات المتحدة حتى انها اصبحت انموذجا يحتذى في الكثير من افضل الاراضي الزراعية في نصف الكرة الجنوبي . وادخل نظام الزراعة التخصصية والموجهة في اغنى الاراضي الزراعية في اوراسيا، وذلك ضمن نطاق برنامج المزارع الجماعية الذي طبقه ستالين في اوكرانيا والمناطق الشرقية من روسيا الاوروبية والمناطق الغربية من سيبريا . وهكذا يمكن القول ان الزراعة والعناية بالثروة الحيوانية اخذتا تكتسبان بعض خصائص الصناعة .

ومن حق اي خبير بالاقتصاد المعدني ان ينظر الى مشكلة استغلال الارض بشيء من الوجل ، نظرا لان هذا الميدان من البحث حديث جدا حتى انه لم يتجاوز بعد مرحلة الجدل العنيف بين انصار النظريات . ومهما يكن من شيء ، هناك مبادىء اساسية ثابتة لا تقبل النقاش . فمن

الثابت ، مثلا ، ان طول موسم الانبات يختلف تبعا لاختلاف الاقاليم وخطوط العرض . وما من احد يستطيع ان يجادل بشأن الحد الادنى من الرطوبة اللازمة لمحاصيل معينة ، هذا مع العلم بان الرطوبة المتوافرة قد تختلف باختلاف كمية المطر ، وكذلك باختلاف التوزيع الموسمي للمطر ومعدل التبخر وتركيب التربة وتضاريس الارض وطوبوغرافيتها ومستوى الماء الباطني وتركيب الصخور التي تكسوها التربة .

واذا اخذنا بعين الاعتبار هذه العوامل المتغيرة المهمة ، امكننا ان تتقصى نمط استغلال الارض ، خاصة في المنطقة المعتدلة . ففي المناطق



نمط استغلال الارض في المنطقة المعتدلة

القطبية هناك عوامل مناخية صعبة تحدد موسم الانبات تحديدا شديدا . اضف الى ذلك انه لا توجد اتربة بالمعنى الزراعي العلمي . فالصقيع هو العامل الوحيد الذي يسبب التعرية او التفكك ، والقطع الصخرية التي تنتج من هذه العملية لا تؤدي الى ظهـور اتربة صالحة . وقـد اقيمت مشاريع لتربية حيوان الرنة في اقليم التندرا ، ولكنها كانت على سبيـل التجربة ، ولم يتضح بعد ما اذا كان هذا النوع مـن الرعي سيكتسب اهمية تجارية . ومن الواضح ان دولة كالاتحاد السوفييتي ستعنى بمثل هذه التجربة اكثر من كندا ، نظرا لان الاولى مأهولة اكثر من الثانية .

وتبدأ الزراعة التجارية باشجار التايكا او باقليم الغابات الشمالية الصنوبرية القريب من الدائـرة القطبية . واذا اتجهنا مـن هذا الاقليم جنوبا ، تبين لنا ان كل منطقة كبرى تكاد تصلح للزراعة او للرعي على اساس تجاري بشرط ان يزيد سقوط المطر على ١٠ بوصات في السنة . وفي امريكا الشمالية اتبع استغلال الارض نمطا يكاد يكـون مثاليا في انتظامه ، وهذا النمط يتكرر ، بشيء من التعديل او بدون اي تعديل ، في اجزاء اخرى من العالم . هذا وان وجود الجبال او المرتفعات والهضاب قد يحطم انتظام هذا النمط . وهناك تعديلات اقليمية في درجة الحرارة كالتي تنشأ من أثر تيار الخليج في سواحل اوروبا الغربية ، وهذه بدورها قد تدفع النطاق الزراعي خمس درجات شمـالا . اضف الـى ذلك ان تقلبات الحدود السياسية والعادات القومية قد تطمس بعض معالم هذا النمط ، ولكنها لا تبطل الاساس الذي يقـوم عليه . فقد اثبتت الخبرة الشاقة الطويلة ان هذا النمط هو افضل طريقة لاستغلال الارض ، وان كان لا يمثل الحدود التي تفرضها الطبيعة على زراعة المحاصيل . فالذرة، مثلا ، يمكن ان تستنبت في اقليم القطن ، ولكن زراعة القطن في الاقليم الخاص به يعطي افضل مردود مباشر . وكذلك الحـال بالنسبة للقمح ، فهو ايضا يمكن استنباته في اقليم الذرة . ولكن القاعدة العامة هي ان

زراعة المحصول في الاقليم الذي يصلح له من حيث خط العرض ومعدل سقوط الامطار هي افضل توظيف لاموال وجهود المزارعين .

وفي المناطق المدارية لم تطغ الزراعة التجارية بعد على مساحات واسعة من الارض . ولا يزال السكان يعمدون كثيرا الى زراعة المحاصيل الغذائية اللازمة لسد الحاجات المحلية حيثما تتوافر احوال مناخية ملائمة للاستقرار . وفي معظم الحالات كانت الزراعة التجارية مرادفة للاستغلال الاجنبي او توظيف رؤوس الاموال الاجنبية . وفي جهات كثيرة من العالم اسهم نظام المستعمرات الزراعية الحديثة عرضا في استصلاح بعض الاراضي والنهوض بالمستوى الاجتماعي وتحقيق الاستقرار الاقتصادي . ولكن لهذا النظام جوانب قاتمة ، فهو المسؤول عن شرور كثيرة كانتشار اقنان الارض وتدمير الغابات وانهاك التربة . وليس في نيتنا في هذه المقالة استنكار هذا النظام او الدفاع عنه . وحسبنا ان نقول انه يخضع الناس والاقطار التي تتبناه لقيود صارمة ، كما انه كثيرا ما يزعزع الكثير من القيم التقليدية . ومن جهة اخرى اتاح هذا النظام فرصا للتحسين الاجتماعي والاستخدام الدائم ، واليه يعود الفضل في الحصول على مردود اكبر من الارض . والشرق الاقصى هو المنطقة الوحيدة التي استطاع فيها صاحب الارض او المزارع الحصول على اقصى فائدة ممكنة من كل فدان من الارض بدون اللجوء الى الاساليب المتبعة في نظام المزارع الحديثة . ففي هذه المنطقة ادى ضغط السكان وغزارة الامطار الى زراعة الارز زراعة مركزة. ولم تقف العوامل الطوبوغرافية ولا النباتات الطبيعية عقبة في سبيل استغلال الاراضي الزراعية استغلالا كليا . فالقوة البشرية المتوافرة كبيرة جدا حتى انها تستطيع القيام باعمال جسيمة كانشاء المدرجات وازالة اشجار الغابات التي لا تفتأ تنمو بسبب غزارة الامطار ، والمحافظة على الماء والتربة والحيلولة دون ضياع اية كمية منهما سدى . ويدفع السكان في

هذه المنطقة ثمنا باهظا مقابل ازدحامهم الشديد ويكون هذا الثمن على شكل جهد بشري ، ولكن المكافأة التـي يجنونها صغيرة نسبيا . ومهما يكن من شيء ، فقد اثبت هؤلاء السكان للرجل الابيض الذي لا يكاد يصدق ما يرى ، انه يمكن التحكم حتى في الغابات الاستوائية الرطبـة ويمكن تحويلها الى مناطق مأهولة اذا ما بذلت فيها جهود كبيرة .

ولن نقوم هنا بمحاولة لوصف الزراعة المدارية والاستوائية على النحو المنتظم الذي اتهجناه بالنسبة لمنتوجات المنطقة المعتدلـة . واذا استثنينا سلاسل الجبال العالية ، امكننا القول ان موسم الانبات دائم في المنطقة الحارة . والتفاوت في الارتفاع عن سطح البحر يضمن التعديلات في درجة الحرارة التي قد تحتاج اليها بعض المحاصيل كالبن . أما هطول الامطار فيختلف تبعا لاختلاف خط العرض . فاكبر صحاري العالم توجد في المناطق الواقعة علـى مداري السرطان والجدي . وكلما اتجهنا نحو خط الاستواء ازداد هطول الامطار الفصلية ، وهو في اقـاليم السفانا المدارية يكفي لنمو الحشائش واشجار الغابات . اما الاراضي القريبة من خط الاستواء فتتعرض لامطار غزيـرة جدا حتى ان الاشجار الكثيفـة المتشابكة تغطي سطح الارض ولا تفتأ تنمو بسرعة غريبـة ، فلا تترك مجالا لنمو المحاصيل الزراعية ما لم تبذل جهود جبـارة متصلة لحمايتها من طغيان الادغال واشجار الغابات الاستوائية .

ويتضح من نظام توزيع الامطار ان الانسان يستطيع الاستفادة من المنطقة الحـارة الـى اقصى حد ممكن في اقليمين يوازيـان تقريبا خط الاستواء ، وهما الاقليمـان اللذان تهطـل فيهما امطـار تكفـي لنمو الحشائش والسفانا ولكنها ليست غزيـرة جدا بحيث تؤدي الى نشوء الادغال الكثيفة . وتعتبر الصحاري التي تأتي بعد هذين الاقليمين باتجاه القطبين عديمة الفائدة . ولكن منطقة الحشائش تصلح لازدهار اقتصاد قائم على الرعي والثروة الحيوانية . وتوجد في مناطـق السفانا المدارية

مواقع تصلح لاستنبات قصب السكر ، كما تصلح الجهات المرتفعة منها لزراعة البن وبعض المحاصيل التخصصية الاخرى . ويمكن القول ، على وجه الاجمال ، ان الغابات الاستوائية الرطبة تتحدى عـادة محاولات الانسان للاستقرار فيها على نطاق واسع او لاستغلال اراضيها . ولكن يجب ان نستثني من هـذا التعميم قسما مـن منطقة الملايو واندونيسيا الذي يزدحـم بالسكان عـلى الرغم من وقوعه ضمن نطـاق الغابات الاستوائية الرطبة . وانشئت في هذه المنطقـة ، زمن الحكم البريطاني والهولندي ، مزارع كبيرة حديثة نجحت في تطوير زراعة اشجار المطاط والكينا وجوز الهند واستغلال محاصيلها تجاريا حتى انها احتكرت انتاج المطاط والكينين ولباب جوز الهند المجفف في العـالم . وفي بعض الجزر والمناطق القريبـة منها علـى البر الاسيوي اجتثت اشجـار الغابـات الاستوائية واستغلت الاراضي المنظفة في زراعة الارز المركزة ، وبخاصة على المرتفعات التي تتحدى المحاولات التي تبذل لادخال الزراعة الآلية .

ويلاحظ ان ظاهرة الازدحـام السكاني في الملايو واندونيسيا لا تتكرر في جهات اخرى من منطقة الغابات الاستوائية الرطبة . فالاراضي الساحلية في منطقة البحر الكاريبي ، وبخاصة في امريكا الوسطى ، قليلة السكان نسبيا ، وهي التي تزود اسواق الولايات المتحـدة بالموز الذي يضطر الاهالي الى تبديل مواقع زراعتـه بسبب فتك الآفات في المزارع التي يتقادم عليها العهد . وقد خسرت البرازيل شهرتها بصناعة المطاط . اما الجهود الكبيرة التي بذلت ابان الحرب العالمية الثانية لمضاعفة العناية بالمطاط في البرازيل وليبريا فلم تنته الى نتائج قاطعـة ، غير انها اثبتت الحقيقة التالية وهي ان المطاط البري لا يمكن ان يزاحم مطاط المزارع الحديثة الكبيرة من حيث الفاعلية في جمع عصارة شجر المطاط . فشجرة المطاط ، سواء كانت من انتاج الطبيعة او من انتاج الانسان ، لا تعطي مردودا الا حيث يكثر العمال النابهون الذين يقبلون باجور منخفضة .

ويبدو ان الموقع الجغرافي ثانوي الاهمية طالما ان وسائل النقل ميسورة. وهناك ادلة كثيرة اليوم تشير الى ان اقليم الغابات الماطـرة ، بخـلاف الاقاليم المناخية الاخرى ، يمكن استغلاله الى ابعـد حدود الفاعلية اذا ما اقيمت مشاريع لتصريف المياه الفائضة . ويبـدو ان التلال وسفوح الجبال انسب لزراعة المحاصيل الغذائية والتجارية ، نظرا لامكان تصريف المياه الفائضة او التحكم فيها بسهولة . اما عـلى السهول فمن الصعب التحكم في المياه التي قد تحول دون فلاحة الارض ، كما انها قد تودي بحياة الكثيرين وتوقع اضرارا جسيمة في الثروة الحيوانية والنباتية عن طريق الامراض الفطرية والبكتيرية والاوبئة التي تنقلها الحشرات .

واذا استثنينا مناطق الغابات الحارة الماطـرة ، امكننا القول ان السهول ووديان الانهار كانت ولا تزال موضع اهتمـام الشعوب التي تعيش على الزراعة والرعي ومحور نشاطها . ومن الامثلة علـى هـذه السهـول والوديان حوض الدانوب وسهول اوكرانيـا ووادي البو في اوروبا ، ووديـان المسيسيبي وميسوري والنهر الاحمر في امريكـا ، وبتاغونيا واوستراليا، ووديان السند والغانج وينغتسي ـ كيانغ وهوانغ ـ هو في آسيا . فالانسان ادرك منذ زمن بعيد ان الجهود التي يبذلها لتأمين معيشته تحقق اكبر نجاح لها في السهول التي ترويها الانهار والتي يدوم فيها فصل الانبات مدة طويلة . وباستثناء بعض الحالات ، يمكن القول ان الانسان استوطن هـذه السهول منـذ اقدم العصور التاريخيـة ؛ وتنعكس هذه الظاهرة على كثافة السكان الحالية التي تبلغ نسبا عالية مروعة في وديان الانهار في الصين والهند ، ويليها مبـاشرة وادي النيل الضيق الذي يعول معظم سكان مصر . وفي اوروبا نلاحظ اتجاها مماثلا في سهول البو والدانوب الاوسط واوكرانيا . وفي جميـع هذه المناطق من العالم القديـم ادى ازدحـام السكان والتقسيم الوراثي المتكرر للاراضي الزراعية الى نشوء الملكيات الصغيرة التـي تتطلب استغلالا

مركزا من اجل انتاج المحاصيل الغذائية الاساسية . وينتظر الاهالي ان يعطي الفدان في هذه المناطق مردودا يكاد يعادل ما ينتجه الفدان من اراضي الارز في جافا وجنوب الصين . ولا يمكن استخلاص هذا المردود العالي من الارض الا بتسميد التربة وتعهدها بالعناية المستمرة والقيام باعمال اخرى تتطلب جهودا جسمية مضنية .

والاتحاد السوفييتي هو القطر الوحيد في العالم القديم الذي اخضع الانماط الزراعية في السهول لاصلاحات وتجديدات جذرية . فقد طبقت السلطات المسؤولة نظام المزارع الجماعية الذي « حرر » الفرد من اعباء الملكية الخاصة وأنشأ وحدات زراعية كبيرة من المتاهة المعقدة من الملكيات الخاصة الصغيرة . واثار نظام شيوع الملكيات الزراعية ، من حيث المبدأ والتطبيق ، عاصفة من الاستنكار والاستحسان في آن واحد . ومهما كان الموقف الذي يتخذه البعض من المبدأ الذي يقوم عليه هذا النظام او من طرق تطبيقه ، فان العالم الجغرافي قد يستعرض النتائج استعراضا موضوعيا وحياديا من وجهة نظر الاقتصاد الزراعي ويخلص الى القول بان برنامج المزارع الجماعية قد حقق نجاحا كبيرا . فالمزارع الصغير كان ، قبل تطبيق هذا البرنامج ، عاجزا عن العناية بالتربة ، فكان مردود الفدان منخفضا جدا . وادى برنامج المزارع الجماعية الحديثة الى المحافظة على خصب الارض او تحسينه والى زيادة معدل مردود الفدان الواحد ، كما ادى تجهيز المزارع بالمعدات الميكانيكية الى زيادة الانتاج والدخل ، وذلك على الرغم من انخفاض عدد المستخدمين فيها . اما البرنامج الجديد للعناية بالثروة الحيوانية فقد اخفق اخفاقا ذريعا . وهكذا يمكن القول ان البرنامج الزراعي الجديد في الاتحاد السوفييتي نجح في جانب واحد فقط ، وهو الجانب الذي يقترب كثيرا من نظام الملكية الخاصة للوحدات الزراعية الكبيرة التي تنتشر في سهول الولايات المتحدة الامريكية والارجنتين واوروغواي .

أثبتت التجربة السوفييتية ، بوضوح لا يتطرق اليه اي شك ، تفوق الاساليب الآلية الحديثة في المزارع الواسعة على الاساليب القديمة التي كانت مطبقة في المزارع الصغيرة الخاصة . ولكن من المشكوك فيه ما اذا كان من الحكمة تطبيق النظام الجديد في سهول اوروبا وشمال الهند وشمال الصين . فالتجهيز بالمعدات الآلية يوفر عددا كبيرا من العمال . والسؤال الذي يتبادر الى الذهن هو : ماذا سيفعل العاطلون عن العمل من المزارعين الذين لم يتلقوا تدريبا تكنولوجيا في حوض الدانوب ووادي البو وشمال الصين ، واي عمل سيتخذونه بديلا عن الزراعة لكسب معيشتهم ؟ لقد وجد ستالين مناجم ومصانع جديدة يسرت له سبل اعادة استخدام الفلاحين الذين استغنى عنهم في ظل النظام الزراعي الجديد . وما لم تتوافر في المناطق الاخرى من العالم القديم امكانات مماثلة لاعادة استخدام الفلاحين في اعمال جديدة فانه من الضروري ، على ما يبدو ، الابقاء على النظام الحالي بسيئاته المعروفة حيث يكد الفلاح في وسط فقير مزدحم ليؤمن لعائلته مستوى معاشيا منخفضا ، وبذلك يمكنها من البقاء على قيد الحياة والتكاثر ، وبالتالي انجاب الكثيرين من الافراد المستعدين للعمل باجور منخفضة والسير ثانية على نهج آبائهم وأجدادهم .

واثبت الهولنديون والبريطانيون ،على نحو مماثل ،المزايا الاقتصادية لتنظيم صناعة المطاط وتجهيزها بالمعدات الآلية . غير انهم نجحوا في الوقت نفسه في توفير العمل للملايين من سكان الريف ، ويعود بعض الفضل في ذلك الى طبيعة صناعة المطاط نفسها . ويلاحظ ان الهولنديين والبريطانيين لم يدخلوا تجديدات على زراعة الارز الذي يعتبر الغذاء الرئيسي للشعوب التي كانت خاضعة لسيطرتهم في جنوب شرق آسيا. وقد يشعر البعض بشيء من الارتياح حين يدرك ان الغذاء بالنسبة لنصف سكان العالم سيظل الى حين ينتج بمشقة كبيرة ، اي ببذل جهد

انساني مضن للغاية . وقد اكتشف الامريكيون ، بفضل براعتهم التكنولوجية ، انه يمكن تطبيق الاساليب الالية الحديثة على زراعة الارز في السهول الطمية في لويزيانا واستخدام هذه الاساليب لتلبية المتطلبات الكثيرة لهذا النوع من الزراعة . غير ان هذه الاساليب الامريكية لا يمكن تطبيقها على الاراضي الوعرة في جنوب شرق آسيا ، كما انها لا تستطيع مزاحمة الاجور المنخفضة للعمال في هذا الجزء من العالم .

خاتمة

قد يبدو العرض الذي قدمناه عن المواردالطبيعية مغاليا في التفاؤل ، وخاصة بالنسبة لاصرارنا على ان العالم غير مهدد بقرب استنفاد اي من المواد الخام الرئيسية . فبالنسبة لموارد الطاقة تبين ان احتياطي الفحم الحجري يكفي لقرنين آخرين وان عمر الكميات الاحتياطية المنتشرة في اماكن مختلفة تمكن اطالته عن طريق استخدام الطاقة الايدروكهربائية التي تتجدد على الدوام . ويكفي احتياطي العالم من البترول السائل مدة لا تقل عن جيلين ، ومن المحتمل اطالة عمره بتحسين فاعلية الاحتراق. ولكن حتى لو افترضنا ان العالم قد اقترب من مرحلة استنفاد احتياطي البترول ، فان هناك من الادلة ما يثبت امكان استخراج البترول ومشتقاته من الحجر الزيتي او البتوميني والرمل القاري والنبات السريع النمو في المناطق الاستوائية الماطرة . أما بالنسبة للمعادن ، فان الشكوك لا تحوم الا حول الاحتياطي الموجود في مواقع ملائمة او قريبة من مراكز الصناعة . ويحتمل ان تشهد الولايات المتحدة تحولا في المصادر الرئيسية للحديد والالومنيوم ، وينتظر ان يكون هذا التحول سريعا بالنسبة للالومنيوم ومتدرجا بالنسبة للحديد الذي يتوقع ان يعمر جيلين او ثلاثة

اجيال . ويحتمل ايضا ان تواجه الولايات المتحدة تعديلات مماثلة في طرق تلبية ما تحتاج اليه من النحاس والرصاص والزنك . ومن الواضح ان الولايات المتحدة لم تعد تكفي نفسها بنفسها كما كانت حتى عام ١٩٣٨ ، غير ان الكميات الاحتياطية الهائلة التي تملكها من الفحم الحجري وتسهيلاتها التكنولوجية المتفوقة لا تدع مجالا للشك في انها ستظل تحتفظ بمركزها القيادي في القرن القادم .

وأدى التخصص في الصناعة والتجارة في بعض الدول والمناطق الى تخصص مماثل في الزراعة وتربية المواشي والعناية بالغابات في مناطق اخرى . كذلك ادى التخصص الى زيادة منتظمة في المشاريع التي تقوم على اساس الاستغلال التجاري والتي تحتاج الى تجهيز بالمعدات الآلية . ويلاحظ ان هذا الاتجاه بلغ ذروة تطوره في تلك الاجزاء من العالم التي تعتبر « جديدة » من وجهة نظر التاريخ البشري . وهنالك اراض صالحة للزراعة الآلية في المناطق المعتدلة وبعض المناطق الحارة ، وبخاصة السهول والهضاب المنخفضة والمنبسطة . وأدت قابلية هذه المناطق للزراعة الآلية الى زيادة الاهتمام بها . اما المناطق الجبلية التي توجد عادة على اطراف القارات فقد بطل استغلالها جزئيا او كليا لاغراض الزراعة ، واخذت اهميتها تقتصر على توفير المعادن والقوى المائية . وكان من جراء تطبيق الاساليب الزراعية الآلية على السهول في الولايات المتحدة الامريكية ان اصبح في مقدور حوالي ٤٠٪ من السكان ان يوفروا المواد الغذائية للنسبة المتبقية وقدرها ٦٠٪ ، وان ينتجوا نصف ما يحتاج اليه العالم كله من القطن . وكان من نتائج تطوير الزراعة في السهوب الرطبة في روسيا ان اصبح بالامكان توفير المواد الغذائية لـ ١٨٠٫٠٠٠٫٠٠٠ نسمة على الرغم من الانخفاض التدريجي في عدد العاملين في قطاع الزراعة .

وينصب الاهتمام في كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي على تلبية حاجات الاعداد الكبيرة من السكان المحليين . اما في نصف الكرة الجنوبي حيث تقل كثافة السكان فان الحاجات المحلية يمكن سدها بسهولة ، ولذا ينتج الاهالي فائضا كبيرا للتصدير الى الخارج . ويصدق هذا القول بوجه خاص على القمح والابقار والاغنام والصوف . وتقل كثافة السكان بشكل ملحوظ في الارجنتين وأوروغواي وباراغواي واوستراليا ونيوزيلندة والى حد ما في افريقيا الجنوبية . أما في نصف الكرة الشمالي فتقل كثافة السكان بوجه خاص في كندا . وقامت هذه الاقطار ولا تزال تقوم بسد النقص في اوروبا المزدحمة بالسكان وتلبية بعض حاجات آسيا التي تزدحم بالسكان ايضا . هذا وان قدرة هذه الاقطار على سد النقص في الاقطار الاخرى المزدحمة بالسكان يدل على قدرتها على استيعاب المزيد من السكان . ومن المنتظر ان تشهد هذه الاقطار استمرار تدفق المهاجرين اليها وأن تبلغ درجة الاشباع في مدة تعتبر قصيرة من وجهة النظر التاريخية . وكلما ازداد السكان في هذه الاقطار ، ازدادت نسبة ما تستهلكه من منتوجاتها الغذائية المحلية ، وضعفت قدرتها على سد النقص في المناطق المزدحمة من السكان . ومن المحتمل ان يؤدي هذا الوضع الى انتشار الزراعة الآلية بصورة منتظمة في جميع سهول اوروبا ومنها الى سهول آسيا والمناطق المدارية والاستوائية . فالزراعة تعكس تناقضا ظاهريا ، وهو ان الاقلية المزودة بمعينات آلية تستطيع أن توفر من الغذاء للاغلبية اكثر مما تستطيع الاغلبية ان توفره لنفسها .

واذا صدقت هذه النبوءة ، فان هناك من الاسباب ما يحملنا على التفكير في ازمة البطالة التي قد تنشأ من استمرار التقدم التكنولوجي ،

اي في مشكلة توفر كل شيء ما عدا فرص العمل . وهذه هي الورطة التي جابهتها الولايات المتحدة في العقد الرابع حين اخذ انصار الفلسفة الانهزامية يندبون وجود حدود وقفت في وجه استمرار عمليات التوسع والاستيطان في مناطق متاخمة تستطيع استيعاب العاطلين عن العمل من الامريكيين . ولو افترضنا ان وظيفة المناطق المتاخمة كانت استيعاب العاطلين عن العمل ـ وهو افتراض لم تثبت صحته قط ـ فان مثل هذه الامكانية ما زالت موجودة . وكل ما في الامر ان هذه الامكانية انتقلت من الولايات المتحدة نفسها الى مناطق اخرى . اضف الى ذلك ان طبيعة هذه الامكانية تغيرت نظرا لان المشكلة لم تعد تقتصر على تحويل القفار الى اراض زراعية ، وانما اصبحت تشمل ايضا توفير الغذاء لعالم جائع وتزويد الحضارة الصناعية الحديثة بما تحتاج اليه من المواد الخام . واخذ المسؤولون في كل من كندا والاتحاد السوفييتي يتحرون عن امكانات الاصقاع القريبة من الدائرة القطبية . وبدأت البرازيل وباراغواي والارجنتين تستغل السهوب ومناطق السفانا شبه المدارية . وتتجه انظار ارباب الصناعة في اوروبا وامريكا اليوم الى امكان استيراد المواد الخام من مناطق نائية والى ايجاد اسواق خارجية جديدة لاستهلاك منتوجاتهم الصناعية . وسيؤدي توسيع الآفاق الى ما وراء الحدود السياسية الى اتاحة الفرص للافراد لتوسيع مجال نشاطهم في الاتجاه ذاته . ولا يعني ذلك بالضرورة مزاحمة رعايا الدول الاجنبية ، نظرا لان هذه الدول تحتاج في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية الى منتوجات وخدمات جديدة لم يسبق لرعاياها ان تعاملوا بها .

وقد ينشأ ارتباك محلي خطير في الدول الصناعية نتيجة لاتساع الافاق واتجاه الانظار الى اسواق الاقطار الاجنبية ومواردها الخام . فبالنسبة للشعوب التي كانت منطوية على نفسها واعتادت في السابق

ان تكفي نفسها بنفسها ، كالامريكيين مثلا ، قد تسير عمليـة التكيـف السيكلوجي على الخدمات الخارجية ببطء وقد تستغرق بالتالي بعض الوقت قبل ان تتحقق . ولكن يجب ان تأخذ بعين الاعتبار الاوضاع التي نشأت بعد الحرب العالمية الثانية والتي تمتاز بكثرة متطلباتها وتعدد مشروعات التأهيل والتعمير واعادة البناء . هذه المتطلبات والمشروعـات تستطيع استيعاب القوى العاملة المتوافرة اذا ما تيسرت لها العبقـريـة التنظيمية التي تملك القدرة على التوفيق بين العمال ومتطلبات المشروعات التي لا بد من انجازهـا .

مشكلات سكانية

كارل ساكس

بناء على رواية رئيس أساقفة أشر خلق الانسان في عام ٤٠٠٤ ق.م. ولو افترضنا ان رئيس الاساقفة كان مصيبا في ما رواه ، وأن بندورا لم تطلق مختلف الشرور من عقالها لتزرع بذور الهلاك والفساد بين بني البشر، وان الهة الأرض سيريس زودت الانسان بموارد لا حد لها من المواد الغذائية ، وان الانسان كان قادرا على الانتقال بحرية في جميع أنحاء الارض ، لو سادت هذه الاوضاع كلها ، لكان في مقدور ذرية آدم وحواء أن تضاعف سكان العالم مرة كل ٢٥ سنة . ولنفترض من جهة أخرى أن معدل تكاثر السكان كان مساويا للمعدل الذي بلغه الانسان الحديث في القرن التاسع عشر حين تضاعف عدد سكان العالم مرتين خلال مائة عام على الرغم من الامراض والمجاعات والحروب . ولو أن سكان العالم كانوا يتكاثرون حتى بهذه السرعة المعتدلة نسبيا ، لبلغ عددهم في عام ١٠٠٠ ق .م. ٢١٠٠ مليون نسمة ، أي ما يعادل تقريبا عددهم الحالي . ولو استمر التكاثر بهذه النسبة الفرضية ذاتها حتى عام ٦٠٠ ق.م. لبلغت كثافة السكان في العالم كله في ذلك التاريخ ٧٠٠ نسمة تقريبا في الميل المربع ، أي ما يعادل الكثافة الحالية ، في أشد الاقطار الاوروبية ازدحاما بالسكان . ولو واصل سكان العالم تكاثرهم بذات

النسبة ، لبلغت كثافتهم ٤٣٠٠٠ نسمة في كل ميل مربع في بداية العهد المسيحي ، ولبلغت في عام ٨٠٠ ب .م. حدا يتعذر عنده ايجاد مكان لوقوف الجميع على سطح الارض .

ومن المعروف الآن أن جنس الانسان « الهومو » يعيش على هذه الأرض منذ عدة مئات الآلاف من السنين ، وأن نوع الانسان العاقل يعيش عليها منذ ما لا يقل عن ٤٠٠٠٠ سنة . ومما لا يرقى اليه شك ان المراحل الاولى من تاريخ الانسان على الارض كانت محفوفة باشد الاخطار ، فقد كانت الامراض والمجاعات والاصابات المفاجئة تودي بحياة الكثيرين . وأغلب الظن أن الانسان كان يتكاثر بالسرعة التي سمحت بها أوضاعه البيولوجية والبيئية . ولكن تعداد سكان العالم لم يبلغ بليون نسمة الا حوالي عام ١٨٢٥ . وبعد مرور قرن أصبح عدد السكان زهاء ضعفي ما كان عليه في عام ١٨٢٥ . ويعود الفضل في هذه الزيادة السريعة الى تطبيق الاساليب العلمية على الزراعة والصناعة والطب ووسائل النقل . ويلاحظ أن معدل التكاثر هبط في الكثير من أجزاء العالم خلال الخمسين سنة الأخيرة ، ولكن مجموع السكان في العالم عامة كان وما زال يزيد بمعدل واحد في المائة في السنة ، أي انه يصبح ضعفين كل سبعين سنة[1] . وفي بعض المناطق يتكاثر السكان بسرعة ، وفي البعض الآخر تنزع سرعة التكاثر الى الانخفاض . وهذا التفاوت في سرعة التكاثر وكثافة السكان بين أجزاء العالم المختلفة من شأنه أن يخلق مشكلات تؤدي الى النزاع الاقتصادي والعسكري بين الشعوب المختلفة .

— ١ —

صاغ مالثوس ، قبل اكثر من ١٥٠ سنة ، القوانين الاساسية التي تتحكم في نمو السكان[2] ، فقال في هذا الصدد : « اعتقد انني لا أجانب

(١) R. Pearl, «The Natural History of Population» (New York, 1939).

(٢) T.R. Malthus, «An Essay on the Principle of Population» (1809).

الحقيقة اذا سلمت بصحة المبدأين الآتيين : أولا ، ان الطعام ضروري لوجود الانسان . وثانيا ، ان العاطفة بين الجنسين ضرورية وستظل على وضعها الحالي دون أي تغيير يذكر . ويبدو أن هذين القانونين كانا ، منذ أقدم العصور التي نعرفها ، وما زالا من القوانين الثابتة في الطبيعة . وبما أننا لم نلحظ حتى الآن أي تغير يذكر فيهما ، فليس لنا أن نفترض احتمال تعرضهما لأي تغير في المستقبل . »

وبين مالثوس بعد ذلك أن هناك ميلا عند جميع الكائنات الحية ، بما فيها الانسان ، الى زيادة أعدادها الى مدى أبعد مما تسمح بهالوسائل المتوافرة لضمان معيشتها وبقائها ، وأن هناك في جميع الحالات «ضوابط» تعمل على الحد من التكاثر الزائد . ومن الضوابط التي عملت في الماضي على الحد من التكاثر الزائد للانسان المجاعات والامراض والحروب وقتل الأطفال ، وما زالت هذه الضوابط تلعب دورا كبيرا في جميع أنحاء العالم . ومما لا شك فيه أن العلم خطا خطوات واسعة في محاولاته الرامية الى قهر المرض ، ومن الادلة على ذلك أن متوسط عمر الانسان في الكثير من الاقطار يكاد يبلغ ضعفي ما كان عليه في العصور الوسطى . وقد يتجنب الانسان الحروب اذا ما أدرك أنها لا تعود عليه بأية فائدة . أما قتل الأطفال فلم تعد المجتمعات المتحضرة تسمح به . وأخذت وسائل تحديد النسل تنتشر في أجزاء كثيرة من العالم ، ولكن استعمالها لم ينتشر بعد في بعض المناطق التي تعتبر أشد مناطق العالم ازدحاما بالسكان. ويمكن القول ان الموارد الغذائية هي أهم العوامل الاساسية الفعالة في تحديد التكاثر .

تقدر مساحة سطح الارض بحوالي ٥١ مليونا من الاميال المربعة . أما مساحة الاراضي الصالحة للزراعة او الرعي الفعال فلا تزيد على ٦٥٠٠ مليون فدان ، أي حوالي ٢٠٪ من مجموع مساحة سطح الارض[٣] ،

(٣) «Two Billion People», «Fortune», Frebruary, 1944.

وهذه المساحة يجب أن تعول سكان العالم في المستقبل اذا ما ظل الانسان يعتمد على الزراعة من أجل تأمين موارده الغذائية . ونحن الآن نستغل ٤٠٠ مليون فدان من الاراضي الزراعية لاعالة سكان العالم الذين يبلغ تعدادهم ٢١٠٠ مليون نسمة ، أي بمعدل فدانين للشخص الواحد . وحتى مع توافر هذه المساحة من الاراضي الزراعية ، نلاحظ أن حوالي نصف سكان العالم يعيش على مستوى لا يكاد يعلو على المستوى الادنى من القوت الذي يمسك به الانسان رمقه ، وان المجاعات المتكررة تودي بحياة الكثيرين . واذا أخذنا بعين الاعتبار متوسط المردود الزراعي ، تبين لنا أننا نحتاج الآن الى ٢،٥ فدان من الاراضي الزراعية للشخص الواحد لنضمن له مستوى مقبولا من الغذاء والكساء والضرورات الأخرى[٤] . واذا نجحنا في استغلال جميع الاراضي الصالحة للزراعة ، فان حصة الفرد من الاراضي الزراعية ستزيد قليلا على ثلاثة أفدنة . وقد ينجح الانسان في استصلاح بعض الاراضي التي تعتبر الآن غير صالحة للزراعة وفي توسيع عملياته الزراعية بحيث تشمل الاصقاع الباردة من العالم . وفي هذه الحالة سيرتفع مجموع مساحة الاراضي القابلة للزراعة الى ١٠ ملايين فدان أي بمعدل خمسة أفدنة تقريبا للشخص الواحد[٥] . ولكن من الواضح أن قسما كبيرا من المساحة الاضافية المستصلحة سيكون أقل انتاجا من الاراضي المستغلة حاليا . يتبين مما تقدم أن الانسان لن ينجح طويلا في التوفيق بين تكاثر نسله ، حتى بالسرعة الحالية ، وبين رغبته في توفير مستوى معاشي عال نسبيا لجميع شعوب العالم .

واذا ظل الانسان يعتمد على الزراعة من أجل تأمين لوازمه الغذائية، فان العامل الاساسي الذي سيتحكم في نمو السكان هو القدرة الانتاجية

---

(٤) P.E. Brown, «Land and Land Use», «Science», LXXXIII (1936).

(٥) W.S. Thompson, «Population Problems» (New York, 1935).

للاراضي القابلة للزراعة . وقد يتمكن العالم الكيميائي من انتاج انواع من الغذاء من الهواء أو الفحم أو النشارة ، كما قد ينجح العالم الفسيولوجي في تطوير انتاج الغذاء بطرق التركيب الضوئي دون اللجوء الى النباتات الحية . ولكن يبدو أننا مضطرون ــ بالنسبة للمستقبل القريب على أقل تقدير ــ الى الاعتماد على الزراعة . ولا شك في أن الاساليب الفنية الحديثة والاصناف المحسنة من البذور ستزيد من الانتاج الزراعي ، ولكننا يجب الا نبالغ في تقدير أثر هذه التجديدات . وتبذل محاولات لانتاج الخميرة والاستفادة منها في تأمين المواد البروتينية والفيتامينات اللازمة لغذاء الانسان . وتبشر هذه المحاولات بنتائج مشجعة . ولكن السكر والدبس اللذين يستعملان في انتاج هذا النوع يعتمدان على النباتات الخضراء الحية . ويتنبأ البعض بأن الخميرة يمكن ان تنتج بنفقات قليلة نسبيا وان تباع بسعر ١٠ سنتات للباوند الواحد . ولكن يبدو هذا التنبؤ مغالاة في التفاؤل ، ولا سيما أن الاسعار الحالية بالمفرق هي دولار تقريبا للباوند الواحد من خميرة الخباز ودولاران تقريبا للباوند الواحد من خميرة الجعة . ويتحدث الصحفيون بشيء من الثقة والتفاؤل عن امكان زيادة الانتاج بطرق الاستنبات المائي وبطرق اصطناعية اخرى تعجل في الاثمار . غير ان انتاج المحاصيل بطريقة الاستنبات المائي ينطوي على نقائص واضحة من الناحيتين البيولوجية والاقتصادية . اما الطرق الاصطناعية للتعجيل في الاثمار ففائدتها الاقتصادية مشكوك فيها ، ومع انها اكتشفت في الولايات المتحدة الامريكية قبل الحرب الاهلية ، فانها لم تستعمل بعد الا في روسيا .

اذا اردنا ان نقدر مساحة الارض الضرورية لانتاج الكساء والغذاء اللذين تحتاج اليهما مجموعة سكانية معينة ، وجب علينا ان نأخذ بعين الاعتبار عاملين متغيرين : قدرة التربة الانتاجية ومستوى المعيشة . ويتباين هذان العاملان تباينا شديدا من قطر لآخر . ففي اليابان واجزاء من الصين

يعول الفدان الواحد شخصين او ثلاثة اشخاص ، ولكن معدل المردود للفدان الواحد عال ومستوى المعيشة منخفض . وهناك اقطار في اوروبا تتفوق على غيرها في قدرتها الانتاجية كانجلترا والمانيا وفرنسا . ويكفي الفدان من الاراضي الزراعية في هذه الاقطار لاعالة شخص واحد ، هذا باستثناء المواد الغذائية التي تستوردها هذه الاقطار من الخارج(٦) ويبلغ مردود الفدان في هذه الاقطار حوالي ٥٠٪ اكثر من معدله في العالم كافة . ومن العوامل التي تساعد المزارعين على انتاج هذا المردود العالي المناخ المواتي والزراعة المركزة والتربة الخصبة . وفي ايطاليا ايضا يكفي محصول الفدان الواحد لاعالة شخص واحد ، ولكن التربة في هذا القطر فقيرة نسبيا ومستويات التربة منخفضة . وفي الولايات المتحدة تبلغ حصة الشخص الواحد من الاراضي الزراعية اكثر من ثلاثة افدنة ، اما معدل المردود للفدان الواحد فلا يزيد الا قليلا عن متوسط المردود في العالم عامة . وتبلغ التغذية اعلى مستوياتها في الولايات المتحدة الامريكية وكندا واوستراليا ونيوزيلندة . ولا بد من الاشارة الى ان الفدان الواحد لا يكفي لاعالة اكثر من شخصين الا في المناطق التي يمكن فيها استنبات محصولين في السنة والتي لا يرتفع مستوى المعيشة فيها كثيرا عن المستوى الادنى اللازم لبقاء الانسان على قيد الحياة وسد رمقه.

ونذكر في هذا المقام ان كثافة السكان في الولايات المتحدة تكاد تعادل كثافة السكان في العالم أجمع وأن مردود الفدانلا يزيد الا قليلا عن متوسط مردوده في العالم . ولذا قد يكون من المفيد ان نجري تحليلا للانتاج الزراعي والاستهلاك في هذا القطر . يستغل الامريكيون ثلاثة افدنة من الاراضي الزراعية لاعالة الشخص الواحد ، وعلى الرغم من ذلك فان المستويات الغذائية ليست كافية بالنسبة للكثيرين من السكان . فقد جاء في الكتاب السنوي الذي اصدرته

(٦) J.D. Black, «Food Enough» (Lancaster, Pa., 1948).

دائرة الزراعة في عام ١٩٤٠ أن تأمين مستوى غذائي جيد لجميع العائلات في الولايات المتحدة يتطلب زيادة محصول الطماطم (البندورة) ، والحمضيات بمقدار ٧٠٪ ، وزيادة الخضروات بمقدار ١٠٠٪ ، وربما ايضا مضاعفة الاستهلاك الحالي لمنتوجات الألبان . وذكر اللواء هرشي من دائرة التجنيد ان الفحص الطبي الذي اجري على اول مليون من المجندين أدى الى رفض ثلثهم بسبب امراض تعود الى سوء التغذية . ويعود سوء التغذية ، في المكان الاول ، لعوامل اقتصادية ، ولكن الاغذية الوقائية تتطلب نفقات باهظة نسبيا في كل من عمليتي الانتاج والتوزيع . وليس ثمة مجال كبير لزيادة مساحة الاراضي الزراعية لان الاراضي القابلة للزراعة والتي يمكن استغلالها على أسس اقتصادية سليمة تبلغ حوالي ٣،٣ فدان للشخص الواحد . وبناء على ما ورد في الكتاب السنوي لدائرة الزراعة لعام ١٩٣٨ يمكن استغلال ٣٤٠ مليون فدان من الاراضي الزراعية الحالية واخضاعها لافضل الاساليب الزراعية الحديثة ، كما يمكن اضافة ١٠٨ ملايين فدان واستخدامها لاغراض الرعي او التحريج او التحطيب . وثمة مناطق اخرى يمكن استصلاحها عن طريق الري او تصريف المياه . غير ان قسما كبيرا من هذه الاراضي الاضافية يتطلب استصلاحه وقتا طويلا ، وجهدا كبيرا .

تساعد الطرق الزراعية الحديثة والاصناف المحسنة على زيادة معدل مردود الفدان الواحد . ولكن هناك عامل يؤثر تأثيرا معاكسا لهذا الاتجاه الى الزيادة ، وهو هبوط قدرة التربة الانتاجية بسبب انجرافها وانهاكها[٧] . ويقدر الدكتور تشارلز كيلوج ، رئيس قسم التربة في دائرة الزراعة ، أن التسميد المناسب واستخدام الطرق الزراعية الحديثة الاخرى قد يؤديان الى زيادة في المردود لا تتجاوز ٢٥٪[٨] . ومهما يكن

---

(٧) United States Department of Agriculture, «Yearbook» (1938)

(٨) Black, op. cit.

من شيء ، يجب أن تدرك أن الزراعة المكثفة قد تزيد النفقات بنسبة تفوق الزيادة في المردود. ويجدر بالذكر أن جانبا كبيرا من زراعتنا كان استغلاليا في طبيعته ، وأن طرق المحافظة على التربة التي يجب اتباعها في اي نظام زراعي دائم لا بد من أن ينقص مساحة الاراضي المزروعة فعلا ويزيد من نفقات الانتاج .

واذا استمرت عاداتنا الغذائية على النحو الذي كانت عليه قبل الحرب العالمية الثانية ، فاننا سنحتاج الى حوالي ثلاثة أفدنة من الاراضي الزراعية للشخص الواحد من أجل تأمين ما نحتاج اليه من المواد الغذائية. وبما ان انتاج الغذاء على شكل لحوم يحتاج الى مساحة من الارض تبلغ ٤ ــ ١٠ أضعاف المساحة لانتاج الانواع الاخرى من المحاصيل الغذائية الاساسية ، فانه من الممكن تخفيض استهلاكنا للحوم وتأمين كمية كافية ومناسبة من الغذاء باستخدام مساحة لا تزيد عن فدانين للشخص الواحد[٩] . واذا خفضنا مستوياتنا الغذائية الى المستوى الغذائي عند الاوروبي العادي ، فان ذلك يعني امكان انقاص المساحة المطلوبة الى ١،٥ فدان تقريبا للشخص الواحد . واذا بدا لنا ان نعتمد في غذائنا على الحبوب والخضروات ، كما هي الحال عند الكثير من الاسيويين ، فان باستطاعتنا توفير المقدار المطلوب من الكالوريات والبروتينات من استغلال ما معدله نصف فدان للشخص الواحد على اساس مستويات الانتاج الحالية . اضف الى ذلك ان هذه الكمية تفي بالغرض من الناحية الغذائية اذا ما دعمت بفيتامينات اصطناعية ومواد معدنية . ولكن تخصيص نصف فدان فقط للشخص الواحد يتطلب استهلاك جميع الاغذية المنتجة ولا يترك اي احتياطي للسنوات العجاف ، كما ان هذه المساحة المحدودة لا تستطيع ان تزودنا بما نحتاج اليه من المنتوجات النباتية والحيوانية اللازمة للكساء

(٩) R.P. Christensen, «Using Resources to Meet Food Needs» (Bureau of Agricultural Economics, Washington, D.C., 1943).

والضرورات الاخرى . ومهما يكن من شيء ، فانه من المستبعد جدا ان نضطر الى تخفيض المستوى الحالي للتغذية .

وثمة عامل اخر يجب اخذه بعين الاعتبار . ففي الولايات المتحدة حيث انتشرت الزراعة الآلية على نطاق واسع لا يمارس الزراعة الا حوالي ٢٠٪ من مجموع السكان العاملين . والواقع ان ١٦٪ من مجموع السكان العاملين في الولايات المتحدة يستطيعون انتاج ما يحتاجه الامريكيون من المواد الغذائية . وفي اوروبا يعمل حوالي ثلث السكان في الزراعة ، وذلك على الرغم من ان كميات كبيرة من المواد الغذائية تستورد من الخارج . اما في آسيا فان ٧٥٪ من السكان العاملين مضطرون الى امتهان الزراعة ، وعلى الرغم من ذلك فان الكميات التي ينتجونها من المواد الغذائية قليلة نسبيا ولا تكفي لتأمين مستوى معاشي مقبول(١٠) .

ولعل هذا العامل هو من اهم المشكلات التي ستواجه الحضارة العالمية في المستقبل . وكثيرا ما تجاهله بعض الذين يغالون في تفاؤلهم ويعتقدون ان قدرة العالم على انتاج المواد الغذائية لا حدود لها . ويشير تاريخ البشرية الى ان التقدم الحضاري كان يعتمد على مدى تحرر الانسان من عبء اطعام نفسه . ففي المجتمعات البدائية التي كانت تعيش على صيد الطرائد والاسماك او على الطرق الاخرى لجمع الطعام ، كان الانسان يكرس معظم وقته للبحث عن الطعام الضروري لتأمين كل وجبة على حدة . ومن الواضح ان اختراع الزراعة كان خطوة جبارة في مسيرة الانسان من الهمجية الى الحضارة ، نظرا لان مزاولة الزراعة مكنت قسما من السكان من انتاج مواد غذائية تكفي للجميع . وهكذا تيسر للقسم الآخر ان يتحرر من النشاط المتصل بجمع الطعام او انتاجه وان يكرس نفسه للفنون والآداب والحرف اليدوية والعلوم ، اي الاسس التي يقوم

(١٠) Thompson, «Population Problems».

عليها صرح الحضارة . ولكن اذا استمر تكاثر السكان في الحضارات الزراعية بدون اي قيد او تحديد ، فان ذلك سيؤدي الى الاضطرار الى فلاحة اراض قليلة الخصب واستخدام طرائق قليلة الفعالية من ناحية الجهد الانساني المبذول ، وبالتالي الى الزيادة المطردة في نسبة السكان الذين يضطرون الى العودة الى مزاولة النشاط القديم المتصل بانتاج المواد الغذائية . ويمكن القول ان المجتمعات الزراعية التي تشتد فيها كثافة السكان ليست احسن حالا ولا اكثر اسهاما في التقدم الحضاري من المجتمعات البدائية التي تعتمد على صيد الطرائد والاسماك .

— ٢ —

اذا استعرضنا المشكلات السكانية في المناطق الجغرافية الكبرى من العالم ، تبين لنا انها تكاد تطابق المشكلات السكانية للاعراق العنصرية الكبرى للجنس البشري . اي للاعراق الثلاثة الآتية : الابيض والاصفر ــ البني والزنجي ــ الاسود . وخلال القرون الثلاثة الاخيرة ازداد السكان البيض بمقدار ٧٠٠٪ ، وازداد العرق الاصفر ــ البني بما يربو قليلا على ٢٠٠٪ ، في حين لم يزد السكان الزنوج الا بمقدار ١٠٠٪ تقريبا[١١] .

وما كادت اوروبا تخرج من عصورها المظلمة حتى بدأ سكانها يتكاثرون بسرعة حتى ان تعدادهم بلغ في عام ١٨٠٠ ، ٢٠٠ مليون نسمة تقريبا . واذا اخذنا الظروف الحالية بعين الاعتبار ، بدا لنا ان سرعة تكاثر السكان كانت اكثر من الزيادة في الموارد الغذائية وانه لم يمكن الحد منها الا عن طريق المجاعات والامراض والحرب . ولكن على الرغم من الزيادة المطردة في عدد السكان استطاعت اوروبا تجنب معظم عواقب قانون مالثوس بالطرق الثلاث التالية : اولا ، زيادة الموارد الغذائية عن طريق تحسين الآليات الزراعية وادخال اساليب الزراعة الحديثة . ولا بد من

(١١) المصدر السابق نفسه .

الاشارة هنا الى ان التصنيع اسهم كثيرا في زيادة الانتاج وتحسين وسائل النقل ، فيسر بذلك سبل استيراد المواد الغذائية مقابل المنتوجات الصناعية المصدرة . ثانيا ، هاجر عدد كبير من الاوروبيين الى الامريكتين والى اجزاء اخرى من العالم ، فساعدت هذه الهجرة على تخفيف وطأة الضغط السكاني في اوروبا . ويكاد عدد السكان القاطنين خارج اوروبا ممن ينحدرون من اصل اوروبي يساوي نصف العدد الحالي لسكان اوروبا .

اما العامل الثالث والاهم الذي ساعد على حل المشكلة السكانية في اوروبا فهو تحديد النسل بطرق اصطناعية . ففي معظم اقطار اوروبا الغربية انخفض معدل الولادات خلال الستين سنة الاخيرة من ٣٠ الى أقل من ٢٠ في الالف . والجدير بالذكر هنا ان الوسائل المضادة للحمل عرفت منذ ما لا يقل عن عدة آلاف من السنين ، ولكن الوسائل الفعالة لم تصبح متيسرة ومعروفة على نطاق واسع الا حوالي عام ١٨٨٠ . وانتشرت عادة استعمال الوسائل المانعة للحمل في الاقطار البروتستانتية والكاثوليكية على حد سواء ، وذلك على الرغم من القيود القانونية والحظر الديني واشكال التحريم البدائية وتحذيرات رجال الدين والسياسة ونصائحهم . ففي انجلترا وفرنسا والمانيا والنمسا والسويد ادى تحديد النسل الى انخفاض معدل الولادات حتى الى دون مستوى التعويض عن الوفيات ، وفي معظم الاقطار الاوروبية الاخرى يكاد معدل الولادات ينخفض الى مستوى التعادل . والشعوب السلافية هي الوحيدة في اوروبا التي بلغ معدل الولادات فيها ٤٠ في الالف ، وروسيا هي القطر الوحيد الذي يملك موارد كبيرة تكفي لاعالة عدد اكبر من السكان . ونلاحظ حتى في روسيا ان معدلات الولادات في بعض المدن الكبرى اخذ في احتذاء حذو اقطار اوروبا الغربية . وينتظر ان ينخفض معدل الولادات في الاتحاد السوفييتي تبعا لتحسن الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية .

اما الامريكتان فليس من المنتظر ان تواجها المشكـلات المتصلـة بالضغط السكاني في المستقبل القريب . فكندا والولايات المتحدة تملكان موارد تكفي لاعالة اعداد اكبر مـن السكان . واذا استمر تكاثر السكان بسرعته الحالية ، فان تعدادهم في الولايات المتحدة قد يبلغ من ١٥٠ ــ ١٦٠ مليون نسمة في عام ١٩٧٥ . اما بعد ذلك التاريخ فينتظر ان يستقر عـدد السكان عند هذا الحد الاقصى او ان يميل الى الهبوط . وكذلك الحـال بالنسبة لكندا فان عدد سكانها ينتظر ان يزيد بذات النسبة . ولكن من المستبعد ان يواجه اي من القطرين كثافة سكانية عاليـة تتطلب مضاعفة الجهد المبذول في الزراعة او تخفيض مستوى المعيشة . ويتكاثر السكان في اقطار امريكا الوسطى بسرعة . واذا استمر النمو السكاني في هـذه الاقطار بسرعته الحالية ، فان عدد سكانها سيتضاعف خلال ٢٥ او ٣٠ سنة . وما لم تبذل جهود للنهوض بمستوى المعيشة في بعض هذه الاقطار، فان الضغط السكاني قـد تشتد وطأته بعد بضعة اجيـال . وفي امريكا الجنوبية حيث يتكاثر السكان ايضا بسرعة ، هناك اراض كثيرة للتوسع الزراعـي ، ولكـن الاستقرار في حوض نهر الامازون يتطلب حل بعض المشكلات المتصلة بالظروف المناخية والصحية الصعبة .

والمشكلة السكانية بالنسبة للجنس الابيض في اوستراليا تكاد تكون فريدة في نوعها . فالنمو السكاني يكاد يكون مستقرا في هذا القطر الذي يملك امكانات كبيرة لاعالة عدد اكبر كثيرا من العدد الحالي .

ويلاحظ ان الجنس الابيض قد استحوذ على قسم كبير من العالم . فهو يحتل او يبسط نفوذه على القسم الاكبر من المناطق الشحيحة السكان او المناطق التـي لم تطـور بعد . اما المناطق المزدحمة بالسكان فمعدل الولادات فيها منخفض ويميل عدد السكان الى الانخفاض او الى الوصول الى درجة التعادل ، في حين نلاحظ معدل الولادات في المناطـق الشحيحة السكان عال وان مجموع السكان ينمو بسرعـة . ومن المستبعد اذن ان

تواجه الدول الغربيـة مشكلات سكانية خطيرة ما لـم يتبن زعماؤهـا السياسيون او الدينيون سياسة تهدف الى اقناع شعوبهم بضرورة الدخول في سباق سكاني مـع آسيا او بعضها منع البعض الآخر . والواقـع ان المشكلة السكانية بالنسبة للكثير من هذه الاقطار في المستقبل قد تنحصر في ابقاء السكان على افضل مستوى يستقرون عليه .

ومع ان افريقيا كـانت مسرحا لبعض حضارات الجنس الابيض في بعض العصور القديمة ، فانها ما زالت متخلفة في تطورها وقليلة السكان. وتنتمي اغلبية سكانها الى الاعراق الزنجيـة . ويلاحظ ان تكاثر السكان الوطنيين من الزنوج في افريقيا كـان بطيئا ، وذلك على الرغم مـن وفرة الموارد الطبيعية في افريقيا الوسطى . ويعود البطء في النمو السكاني الى عوامل مختلفة نخص بالذكر منها : الهجرة القسرية للملايين مـن الزنوج الى خارج افريقيا خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، واستغـلال الجنس الابيض للاعداد المتبقية من الزنوج في افريقيا ، وعجز السكان عن حل المشكلات المناخية في افريقيا الوسطى . ويمكن القول ان المشكلات السكانيـة للزنـوج في افريقيا ترتبط ارتباطا وثيقا بمشروعات التنميـة الاقتصادية والاجتماعية .

ويعيش اكثر من نصف سكان العالم في آسيا حيث لا يتسع المجال كثيرا لتخفيف الضغط السكاني عن طريـق الهجرة او التصنيع او تحديد النسل . وتتفاوت كثافة السكان من قطر لآخر ، فهي اربعة اشخاص تقريبا للفدان الواحد من الاراضي الزراعية في اليابان ، واثنان في الصين وحوالي شخص واحد للفدان الواحد في الهند . وهناك اراض يمكن استصلاحها زراعيا في بعض انحاء آسيا ولكنها لا تكفي للتخفيف مـن وطأة الضغط السكاني . وليس ثمة مجال لزيادة الانتاج الغذائي زيادة كبيرة نظرا لان معدل الانتاج الحالي للفدان عال بسبب الزراعة المركزة . ولكـن معدل

الانتاج بالنسبة للشخص الواحد منخفض جـدا ، فالمزارع الصيني ينفق جهدا كبيرا مدة ثمانين يوما لاستغلال فدان واحد في زراعة الارز واعطاء مردود معدله مليونان من الوحدات الحراريـة[١٢] ، في حين يستطيـع المزارع الامريكي انتاج كمية من الذرة تحتوي على مليوني وحدة حرارية اذا اشتغل اربعة ايام ، ويستطيع انتاج ذات المقدار من الوحدات الحرارية اذا اشتغل يومين في انتاج القمح ، وثلاثة ايام في انتاج فول الصويا[١٣] . يتضح مما تقـدم ان المزارع الامريكي ينتج مـن المواد الغذائية عشرين ضعفا مما ينتجه المزارع الاسيوي على الرغم من تساوي الجهد الانساني في الحالتين . ويعود الفضل الاول للفاعلية العالية للمزارع الامريكي الى استعمال الآليات الزراعية الحديثة . والواقـع ان المزارع الامريكي قـد يستهلك طاقة معادلة للطاقة التي يستهلكها المزارع الشرقي او ربما اكثر منها ، ولكن الامريكي يحصل على معظم الطاقـة التي يحتاج اليهـا من الغازولين والبترول . واذا طبقت الطرق الزراعية الحديثة في آسيا ، فانها لن تؤدي الى زيادة كبيرة في المردود ، ولكنها ستتيح الفرص للكثيرين من السكان لتكريس جهودهم للعمل الصناعي .

ولن يؤدي التصنيع الى زيادة الموارد الغذائية في آسيا الا بمقـدار الاغذية التي تستورد من الدول التي تنتج فائضا مـن المحاصيل الزراعية مقابل المنتوجات الصناعية التي يمكن ان تستوردها من آسيا . غـير ان معظم الاقطار التي تنتج حاليا فائضا من الاغذية ، بما في ذلك روسيا وكندا والارجنتين ، تشهد نموا سريعا في اعداد سكانها ، ولذا يتوقع ان تحتاج بعد بضعة اجيال الى جميع المواد الغذائية التـي تستطيع انتاجها . اضف الى ذلك ان هذه الاقطار قامت ولا تزال تقوم بتطوير صناعاتها الخاصة ،

(١٢) Pei-sung Tang, «Helios and Prometheus : a Philosophy of Agriculture» (1944).

(١٣) Christensen, «Using Resources to Meet Food Needs».

ولن تحتاج الا الى استيراد السلع التي لا تستطيع مصانعها انتاجها على اساس اقتصادي سليم .

اما مجال الهجرة الى الخارج بالنسبة للاسيويين فهو محدود جدا نظرا لان الجنس الابيض يحتل او يبسط نفوذه على القسم الاكبر من المناطق الاخرى في العالم . ومن المستبعد ان تعمد اوستراليا او كندا او الولايات المتحدة او اقطار امريكا الجنوبية في المستقبل الى الترحيب باعداد كبيرة من الاسيويين او الى تغيير سياستها تجاه هجرة الاسيويين اليها . وليس ثمة سبب اخلاقي يدفع هذه الاقطار التي تتحكم في تحديد نسلها من اجل الحفاظ على مستوى عال من المعيشة ، ليس ثمة سبب اخلاقي يدفع هذه الاقطار الى ايواء الفائض من سكان الاقطار الاخرى التي تسمح بالتكاثر السريع دون ان تتبصر في العواقب الاجتماعية والاقتصادية.

ان الحل المعقول الوحيد للمشكلة السكانية في آسيا هو تحديد النسل . فاذا استمر معدل الولادات بنسبة ٤٠ في الالف وانخفض معدل الوفيات الى المستويات الاوروبية ، فان العالم كله لن يستطيع اعالة سكان آسيا لاكثر من بضعة اجيال . واذا لم يتبن الشرقيون سياسة تحديد النسل ، فانهم سيظلون يعانون من الضوابط الاخرى التي تحد من التكاثر كالمجاعات والامراض والحروب وقتل الاطفال . غير ان انخفاض مستويات المعيشة قد يقف عائقا في وجه المحاولات التي تبذل لتطبيق سياسة تحديد النسل على نطاق واسع ، نظرا لان التحديد الطوعي لا يبدأ الا بعد بلوغ مستوى معاشي وثقافي معين . فالانسان ، حين يعيش في مستوى منخفض لا يزيد كثيرا عن الحد الادنى اللازم للبقاء ، لا يبالي كثيرا بعواقب التكاثر الذي لا يخضع لاي ضابط . غير ان الشرقيين لا يؤمنون بالعقيدة المسيحية القائلة بان « الانسان يحمل في الخطيئة ، ويولد في الاثم » . ولذا يتوقع ان يكون موقفهم من الوسائل المانعة للحمل اكثر منطقية من الغربيين الذين يعيشون في اوضاع اقتصادية مماثلة . ومن المعروف ان

اليابانيين اقبلوا ، الى حد ما ، على استعمال الوسائل المانعة للحمل ، فانخفض معدل الولادات عندهم قبل الحرب العالمية الثانية الى ٢٨ في الالف . وقد تنتشر عادة منع الحمل في جميع انحاء آسيا ، اذا ما توافرت للسكان وسائل فعالة ورخيصة واذا ما ارتفع مستوى المعيشة مؤقتا نتيجة لتطوير الصناعة .

— ٣ —

استطاع الجنس الابيض ، كما أسلفنا ، أن يتجنب النتائج الخطيرة لقانون مالثوس . غير أن تحديد النسل أدى الى مشكلات أخرى تهدد رفاهية الشعوب الغربية . ففي جميع الاقطار التي انتشر فيها تحديد النسل ، نلاحظ أن نسبة التناسل عند الطبقات الفقيرة اقتصاديا وثقافيا أعلى منها عند الطبقات التي تعيش في مستويات اجتماعية واقتصادية جيدة . ولعل الوضع في الولايات المتحدة الامريكية يمثل الاتجاه الحالي في معظم الاقطار الغربية . فقد تبين من التحليل الذي اجري على البيانات الاحصائية لمعدل الولادات في مجتمعات المدن في عام ١٩٣٥ أن نسبة التناسل عند عائلات البيض التي زاد دخلها السنوي على ٣٠٠٠ دولار بلغت ٤٦٪، أي ما لا يزيد عن نصف عدد الأطفال اللازم لابقاء عدد السكان على حاله . وارتفعت النسبة الى ٧٠٪ عند العائلات التي تراوح دخلها السنوي بين ١٥٠٠ و ٢٠٠٠ دولار ، والى ٩٣٪ عند العائلات التي لم يتجاوز دخلها السنوي ١٠٠٠ دولار . أما الفئات الوحيدة من مجتمعات المدن التي تجاوزت فيها النسبة المستويات اللازمة للتعويض ، فهي تلك التي كانت تعتمد على الاغاثة والتي ارتفعت فيها النسبة الى ١٫٤٣[١٤] . ولوحظ اتجاه مماثل بالنسبة للمستويات الثقافية المختلفة . فنسبة التناسل

(١٤) F. Lorimer, E. Winston, and L.K. Kiser, «Foundations of American Population Policy» (New York, 1940).

عند خريجي الجامعات بلغت ٥٧٠، وعند خريجي المدارس الثانوية ٧٧٠، وعند الذين لم ينهوا الصف السابع ١٨ر١ . ونلاحظ حتى في الاوقات العادية أن أقل السكان قدرة ، من الناحية الاقتصادية ، على توفير مستوى عال من الغذاء والكساء والتعليم لاطفالهم ــ ويقدر عددهم بثلث مجموع السكان ــ هم الذين ينجبون ثلثي الجيل الذي يلي جيلهم. أما معدلات الولادات في المجتمعات الريفية فهي أعلى من المستويات اللازمة للتعويض السكاني ، ولكننا نلاحظ هنا ايضا علاقة مماثلة بين حجم العائلة ووضعها الاقتصادي .

هذا وان الاعتماد على الطبقات الفقيرة والجاهلة في انجاب القسم الاكبر من أجيال المستقبل لا يتلاءم كثيرا والمصلحة العليا للفرد أو الامة . واذا كان الفقر والجهل ناجمين عن عوامل وراثية سلبية ، فان الارتفاع الشديد في معدل الولادات عند الفئات الفقيرة والجاهلة سيخفض متوسط القدرة في الامة . واذا كانا ناجمين عن أوضاع اقتصادية وبيئية سيئة ، فان النتائج هنا أيضا لا تبعث على الارتياح ، نظرا لأن الآباء الفقراء والجهلة لا يستطيعون تهيئة الظروف المؤاتية لتنشئة أطفالهم . ويعود التباين في التطور العقلي والجسمي للفرد لعاملي الوراثة والبيئة كليهما ، ولكن لما كان هذان العاملان متداخلين ويؤثر كل منهما في الآخر ، فانه من العسير علينا أن نحدد الدور النسبي لكل منهما . وهناك دلائل تشير الى وجود بعض العلاقة بين القدرة الفطرية والوضع الاقتصادي والاجتماعي[١٥] ، ولكن هذه العلاقة ليست وثيقة ، فهي تتناول على الاغلب الحالات المتطرفة . ويبدو ان انجاز الفرد وتحصيله ، بالنسبة للاغلبية الكبرى من السكان ، يعتمدان ــ في المكان الاول ــ على عوامل بيئية بما في ذلك الاثر الخفي للعائلة والتقاليد الدينية والعرقية .

---

(١٥) G. Schweizinger, «Heredity and Environment» (New York, 1933).

ويعتبر العامل البيئي اليوم أخطر جوانب التفاوت في معدل الولادات بين الطبقات الاجتماعية والاقتصادية المختلفة . ففي حالات كثيرة يقترن الفقر والجهل بنقص في المسؤولية الاجتماعية والفردية يورّث للاجيال اللاحقة كما لو كان تقليدا عائليا . وفي ظروف كهذه يبدأ الاطفال ـ حتى الذين يتمتعون بذكاء متوسط او متفوق ـ حياتهم وهم يعانون من معوقات خطيرة ، فلا ينجح الا عدد محدود منهم في التغلب على أثر البيئة السيئة . وبما أن البيئة العائلية هي من أهم العوامل المؤثرة في تطور الطفل ، فانه من الصعب ايجاد تكافؤ حقيقي في الفرص المتاحة للاطفال . ويتعذر في الواقع تحقيق تكافؤ الفرص بالنسبة لذكاء الآباء وأوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية . ولعل الوسيلة الوحيدة لايجاد بيئة موحدة ومتسقة نسبيا هي تنشئة جميع الاطفال في مؤسسات ومعاهد . غير أن أغلبية الناس تجمع على ان الغاء النظام العائلي هو ثمن باهظ جدا بحيث لا يعادل الفائدة التي قد نجنيها من تحقيق درجة أعلى من الاتساق أو التوحيد في البيئة(١٦) .

حتى لو نجحنا في توفير بيئة متسقة ومواتية للجميع ، فان الافراد سيظلون يتفاوتون في الذكاء والقدرة بسبب الفروق في تكوينهم الوراثي . فمهما ارتفع مستوى التعليم والتدريب الذي نوفره للافراد ومهما كانت البيئة ملائمة لعملية التنشئة ، فان ذلك لا يعوض تماما عن النقائص الجسمية والعقلية التي تأتي بسبب عوامل وراثية متأصلة . ويجب أن ندرك أيضا أن أثر البيئة المتفوقة ليس وراثيا ، ولا يمكن نقله مباشرة الى الاجيال اللاحقة . ولو كان النجاح الاقتصادي والتقدم الثقافي يرتبطان دائما بالقدرات الفطرية ، لظلت ظاهرة الفقر أو الجهل ملازمة للذين تحل بهم . ويبدو أن الآمال العريضة التي نعلقها على امكان تأمين مستوى عال

(١٦) S.J. Holmes, «Human Genetics and Its Social Import» (New York, 1936).

من المعيشة لجميع بني البشر بعيدة المنال ، وأغلب الظن انـه لا يمكـن تحقيقها الا في مجتمع مثالي خيالي يعمل على اساس المبدأ الماركسي الذي ينادي « بأن نستفيد من كل فرد بحسب قدرته وان نعطي كل فرد بحسب حاجاته » . ومن المستبعد ، على ما يبدو ، ان نستطيع ان نبلغ هذه المثالية المسيحية في ظل الوضع الحالي للتطور الاجتماعي . اضف الى ذلك أن أيا من المذاهب الاجتماعية او الدينية التي تقوم على قوة السلاح او الارهاب لا يمكن ان يعمر طويلا في المجتمعات السكانية المثقفة .

ويبدو ان اي تحسين دائم للجنس البشري لا بد من ان يعتمد على البنية الجينية او الوراثية للفرد . وفي المجتمعات البدائية لم يستطع الافراد المتخلفون عقليا ان يعمروا طويلا لأن الطبيعـة كانت تملك وسائل كثيرة فعالة للفتك بذوي العاهات العقلية والجسمية . وبعـد ان قطع الانسان شوطا في تقدمه الحضاري اصبح ذوو العاهات العقلية ضربا مـن الترف الذي شق على المجتمعات احتماله . وعلى الرغم من ذلك فقد استمر انجاب المتخلفين عقليا . وازداد انجابهم في ظل الاوضاع الحديثة التي تتفاوت فيها معدلات الولادات وتشتد فيها النزعة الى الانسانية . ويقـول احد علماء النفس المشهورين « ان البلاهة تنزع من الناحية البيولوجية الـى القضاء على نفسها »[١٧] سواء في المجتمع البدائي او في الحضارة الحديثـة . ويبدو ان هذه العبارة لا تستند الى اي اساس مـن الصحة . فالعـالم هالدين ، وهو من اقوى أنصـار النظرية التي تشدد عـلى أثر البيئة في الانسان ، يقر بأن متوسط حاصل الذكاء قد يتجه الى الهبوط بمعدل ١٪ أو ٢٪ كل جيل مـا دام التفاوت الحالي في معدل الولادة بـين الطبقات الاجتماعية قائما[١٨] . وهذا يعني ان المتخلفين او المتأخرين عقليا سيستمر

(١٧) «A Holy War» (National Catholic Welfare Conference, Washington, D.C., 1942).

(١٨) J.B.S. Haldane, «Heredity and Politics» (New York, 1938).

انجابهم . واذا عقم جميع المتخلفين عقليا ، فان ذلـك قـد ينقص عددهم بمقدار ١٠٪ في الجيل القادم ، مع احتمال انخفاض عددهم بنسب أقل في الاجيال اللاحقة . ولكن لا يمكن التخلص منهـم كليا نظرا لأن الكثيرين من الافراد الاسوياء يحملون جينات تنطوي على امكانات التخلف العقلي، ولأن نظام التزاوج العشوائي سيظل ينتـج افرادا متخلفـين او متأخرين عقليا . وما زلنا في وضع لا يساعدنا مـن الناحيتين العلمية والاجتماعية ، على اتخـاذ اجراءات فعالـة لتحسين التركيب الجيني للجنس البشري . فالافراد الذين يشكون من عاهات جسمية وعقلية خلقيـة بحيث يعجزون عن التكيف حتى على اكثر البيئات الاجتماعية مواتاة لهم ، هؤلاء الافراد يجب اما تعقيمهم واما منعهم من الانجاب بوسائل اخرى . صحيح ان هذه الاجراءات ستحرم المجتمع من الكثيرين من الافراد الاسوياء ، أو عـلى اقل تقدير من الكثيرين من الافراد الذين يستطيعون التكيف على بيئتهم الاجتماعية . ولكن يجب ان نذكر هنا ان الآباء من ذوي العاهات العقلية او الجسمية لا يستطيعـون ان يوفروا البيئة المناسبة لتنشئة أطفالهـم ، وينبغي لنا ان لا نعتمد على مثل هذه العناصر في بناء اجيال المستقبل ، ايا كان النظام الاجتماعي الذي ستعيش في ظله هذه الاجيال . ومهما يكن من شيء ، فان اي تقدم حقيقي في الجهود التي تبذل لتحسين التركيب الجيني للجنس البشري يجب الا يقتصر عـلى مجرد منـع التدهور الجيني في المجموعة السكانية ، اذ يجب في مقدورنا مع الوقت أن نرفع من مستوى القدرة الجينية للجنس البشري . ولكن يتوجب علينا ، بادىء ذي بدء ، ان نحصل على معلومات أوفى عن مشكلات الوراثة وان نتخذ من مشكلات الجنس والتناسل موقفا اكثر منطقية من موقفنا الحالي .

ومن الظاهرات الطبيعية ان معدل التناسل يفوق كثيرا الامكانات المتوافرة للبقاء ، ولكن هذه الظاهرة تكتسب قيمة تطورية بسبب ظاهـرة اخرى هي ظاهرة الانتقاء الطبيعي . وثمة علماء يعتقـدون بان المعدلات

العالية للولادات عند الانسان تنطوي علـى قيمة تطورية . ويبـدو انهم يعنون بذلك ان عملية الانتقاء الطبيعي لن تبقي الا اقوى الافراد واكثرهم ميلا الى العدوان . غير أن التخلص مـن بعض الافراد بهذه الطريقـة لا يستند الى اعتبارات اخلاقية في المجتمعات الحديثة المتحضرة ، وقد يعود باضرار اجتماعية في البيئة الاصطناعية التي يمتـاز بها عصرنا الحديث . فاللياقة البيولوجية في عالمنا الحديث تختلف عن تلك التي عرفت في البيئات البدائية . فالكثير من نباتاتنا الزراعية وحيواناتنا الداجنة لا يستطيـع ان يعمر طويلا في بيئة بدائية طبيعية ، ولكنـه اكثر استعدادا للتكيف عـلى بيئتنا الاصطناعية الحديثة من الحيوانات والنباتات البرية . وهكذا يمكن القول ان القيمة البيولوجية البقائية في العالم الحديث ليست مقياسا سليما للقيم الانسانية .

وثمة جانب أوسع لظاهـرة التفاوت في الخصب التناسلي وأثرها في المقومات العرقية والسلالية للمجموعات السكانية . ويبرز هذا الجانب بشكل واضح في مناطق معينة من العالم . ففي اوروبا كانت نسبة السكان المنحدرين من أصل سلافي ٣٤٪ في عام ١٨١٠ . وارتفعت هذه النسبة الى ٤٦٪ في عام ١٩٣٠[١٩] ، ويتوقع ان تواصل ارتفاعها نظرا لأن روسيا هي القطر الوحيد في اوروبا الذي يملك موارد طبيعية تكفي لاعالة اعداد اكبر من السكان . اما اقطار اوروبا الغربية فتنزع اعداد سكانها الى الهبوط ، اذ ان متوسط نسبة التناسل اقل من ١ر٠ في حـين حافظت روسيا قبـل الحرب العالمية الثانية على نسبة لم تقل عن ٥ر١[٢٠] . واذا استمر هذان الاتجاهان ، فان عدد سكان اوروبا الغربية سيتناقص ، في حين ينتظر أن يصبح عدد سكان روسيا في اقل من جيلين ضعفي ما هو عليه الآن . وليس من المهم من الناحية البيولوجية ما اذا كانت هـذه الفئة العرقية او تلك

---

(١٩) Holmes, op. cit.

(٢٠) A.M. Carr-Saunders. «World Population» (Oxford, 1936).

ستهيمن على اوروبا . فالاثر المحتمل لاتساع السيطرة الروسية لا ينطوي على اهمية الا في ضوء الاعتبارات الخاصة بالمذاهب الدينية ومبادىء النظم الفلسفية الاجتماعية .

وكذلك الحال بالنسبة لكندا فان التفاوت في معدل الولادات بين الفئات السلالية قد يؤدي الى بعض المضاعفات الاجتماعية . فنسبة التناسل عند السكان الناطقين بالانجليزية تقل عن ١٫٠ ، بينما تزيد على ١٫٥ عند الكنديين الناطقين بالفرنسية . ولن يمضي وقت طويل حتى يزيد عدد الكنديين الفرنسيين على عدد الكنديين الانجليز .

ويبلغ عدد سكان بورتوريكو زهاء مليوني نسمة . ويعيش هؤلاء في جزيرة طولها ١٠٠ ميل تقريبا وعرضها ٣٥ ميلا . والموارد الطبيعية في هذه الجزيرة محدودة ، كما ان الموارد الزراعية لا تكاد تكفي لاعالة السكان الحاليين . وعلى الرغم من ذلك نلاحظ ان عدد السكان يزيد بمعدل ٢٫٣٪ كل سنة ، وينتظر ان ينمو بسرعة اكبر اذا توافرت الاغذية الكافية والخدمات الطبية ولكن حتى لو استمر تكاثر السكان بالسرعة الحالية ، فان مجموعهم سيتضاعف خلال ٣٠ عاما . والجدير بالذكر ان حوالي ٩٠ الف من سكان بورتوريكو هاجروا الى نيويورك خلال فترة الكساد الاقتصادي ، وان حوالي ٦٠ الفا كانوا يعتمدون على مخصصات الاغاثة في عام ١٩٣٨[٢١] . وكان علماء الاقتصاد وما زالوا يحاولون ايجاد حل للمشكلات السكانية في بورتوريكو ، ولكن لم يبد لأي منهم ان يقترح تحديد النسل وهو الاقتراح المنطقي الوحيد لحل هذه المشكلة.

— ٤ —

والسؤال الذي يتبادر الى الذهن الآن هو : لماذا كان أقل الناس قدرة على توفير الغذاء والكساء والتربية والتعليم لاطفالهم ، لماذا كانوا

---

(٢١) Lee, Hager, «Too Many People» (Houston, Texas, 1943).

اكثر الناس انجابا للاطفال ؟ اجرى المرحوم الدكتور بيرل دراسة على ٣٠ ألف امرأة في مستشفيات الولادة في بعض مدن الولايات المتحدة . وتبين من هذه الدراسة انه لا يكاد يوجد أي فرق في الخصب الطبيعي بين الفئات العرقية او الدينية أو الثقافية او الاقتصادية المختلفة[٣٢] . وتبين كذلك أن الفروق في المعدلات الفعلية للولادات تعود في الغالب الى فروق في مدى انتشار وفعالية الوسائل الاصطناعية المانعة للحمل ، كما تعود الى حد بسيط الى سن الزواج والى عادة الاجهاض الجنائي . اما فيما يختص بالنساء البيض اللواتي كان لديهن اكثر من طفل واحد ، فقد اكتشف دكتور بيرل ان ٨٣٪ من الامهات الغنيات او الميسورات الحال كن يستعملن وسائل مانعة للحمل وان متوسط معدل الولادات لكل مائة سنة من فرص الحمل كانت ٦٦ . أما بالنسبة للامهات ذوات الدخل المتوسط ، فان ٦٢٪ منهن كن يستخدمن الوسائل المانعة للحمل في حين بلغ المعدل النسبي للولادات ١٠٩ . واما بالنسبة للامهات ذوات الدخل المحدود ، فان نسبة اللواتي كن يستخدمن الوسائل المانعة للحمل لم تزد عن ٥٠٪ في حين ارتفع معدل الولادات عندهن الى ١٣٢ . واكتشف الدكتور بيرل ايضا أن ٣٥٪ فقط من الامهات الفقيرات جدا استعملن او حاولن ان يستعملن وسائل مانعة للحمل وان المعدل النسبي للولادات عندهن كان ١٥٣ . ومن الطريف ايضا ان الدكتور بيرل لاحظ الاتجاه نفسه بالنسبة للفروق في التحصيل العلمي . فعند الامهات اللواتي اقتصر تعليمهن على المرحلة الابتدائية ، كانت نسبة اللواتي استعملن وسائل مانعة للحمل اقل من ٥٠٪ ، بينما ارتفعت هذه النسبة الى ٧٦٪ عند الجامعيات.

وثمة فوارق في معدلات الولادات بين الفئات الدينية والعرقية الكبرى ولكن يمكن عزوها في اغلب الحالات الى فوارق مقابلة بين

---

(٢٢) Pearl, «The Natural History of Population».

المستويات الثقافية والاقتصادية لهذه الفئات . وقد تبين من الدراسة التي اجراها الدكتور بيرل ان نسبة الامهات اللواتي استعملن الوسائل المانعة للحمل بلغت ٦٧٪ عند اليهود ، و ٤٥٪ عند البروتستانت ، و ٣٣ بالمئة عند الكاثوليك ، و ١٧ بالمئة عند الزنوج[٢٣] . اما الوضع الثقافي لهذه الفئات فقد تبين من نسبة خريجي المدارس الثانوية والكليات - البروتستانت ٤٨ بالمئة ، اليهود ٤٤ بالمئة ، الزنوج ٣٠ بالمئة ، الكاثوليك ٢٤ بالمئة . ويلاحظ قلة استعمال الوسائل المانعة للحمل عند الزنوج ، وقد يعود ذلك الى عدم الشعور بالمسؤولية الذي نتج من اوضاع الزنوج الاقتصادية في الماضي والحاضر . وليس ثمة شك في ان الكاثوليك الذين يتمتعون بوضع اقتصادي وثقافي عال يستعملون الوسائل المانعة للحمل بنسبة تكاد تعادل ما نجده عند البروتستانت . اما ارتفاع معدل الولادات عند الكاثوليك وعند المتدينين من الطوائف البروتستانتية المختلفة ، فيمكن عزوه في المكان الاول الى انخفاض المستويات الاقتصادية والثقافية لهذه الفئات . ولا يمكن اعتبار الكنيسة عاملا في تفاوت معدل الولادات الا بقدر ما يمكن ان تسهم في تخفيض المستويات الاقتصادية والاجتماعية عن طريق تمجيد الجهل والفقر . ومع ان عادة استعمال الوسائل المانعة للحمل منتشرة في اوروبا واميركا ، فانها لا تستعمل على نطاق واسع او فعال في اوساط الفئات الجاهلة والفقيرة . وتعود هذه الظاهرة الى عوامل متعددة منها الجهل بالوسائل المانعة للحمل ،هذا مع العلم بانه يتيسر لكل شخص يهمه الامر ان يحصل على المعلومات التي يريدها ، ويصدق هذا حتى على الولايات المتحدة حيث يصنف قانون كومستوك مثل هذه المعلومات مع الأدب

(٢٣) Pearl «Contraception and Fertility», «Human Biology», VI (1943), 355-401.

البذيء ، ويحظر ارساله بالبريد . وثمة عامل آخر هو الخرافات التي تحوم حول الجنس والتناسل والتي نشأت مـن العقيدة المسيحية القائلـة بان « الانسان يحمل في الخطيئة ويولد في الاثم » . ولعل اهم عامل هو نقص الشعور بالمسؤولية وعدم الاكتراث بالعواقب التي قد تنشأ من عدم تحديد النسل . ويبدو ان فلسفة اللامبالاة هذه قد نشأت من الاعتقاد بأن الله أو نظام الحكم القائم سيقوم بتلبية حاجات الاطفال بصرف النظر عن الجهود التي يبذلها اباؤهم .

ومن مفارقات عصر العلم الحديث تفاوت الوضع الحالي للمعلومات المتوافرة عن الوسائل المانعة للحمل . ويمكن القول ان الاغلبية الكبرى من الاوروبيين والامريكيين تدرك التحكم في معدل الولادات وتقر اهميـة نشر المعلومات المناسبة عن هذا الموضوع . ولكن هنـاك اقطـار كثيرة ما زالت تطبق قوانين واشكالا مـن التحريـم البدائي تهدف الى تقييد استعمال الوسائل المانعة للحمل . حتى في الولايات المتحدة لا تزيد نسبة من يستعملون الوسائل الموثوقة التـي تنسبها العيادات الخاصة بتحديد النسل لا تزيد على ٥ في المائة ، في حين تبلغ نسبة الذيـن يحصلون على معلوماتهم من التـوراة (سفر التكويـن ٣٨ : ٨و٩)[٢٤] ٢٠ في المائـة . واكد هذا الوضع المرحوم الدكتور بيرل حين قال : « تحصل هـذه الفئة من النساء على معظم معلوماتها عن الوسائل المانعة للحمل من الامهات أو الازواج أو الاصدقاء العاملـين في الصيدليات ، وهؤلاء بـدورهـم يستقونها من مصادر مماثلة ، وهكذا دواليك حتى نعود الى عهد نوح . » حتى الاطباء ترددوا حينا من الدهر في الاعتراف باساليب منـع الحمل . والجدير بالذكر ان مجلة الجمعية الطبية الامريكية لم تقبل نشر اي مقال

(٢٤) Pearl, «Contraception and Fertility».

عن هذا الموضوع قبل عام ١٩٤٣ .

والكنيسة الكاثوليكية هي الجهة القوية الوحيدة التي تعارض اليوم استخدام اساليب لتحديد النسل ، هذا مع العلم ان هذه الكنيسة عدّلت من موقفها التقليدي بان سمحت بتحديد النسل بطرق طبيعية تقوم على « اعتبارات زمنية » . اما لماذا تعتبر الطرق الاصطناعية غير أخلاقية والطرق الطبيعيةالقائمة علىالدورات الطمثيةاخلاقية، فهذا أمر فوقمستوىادراك العالم البيولوجي ، لا بل هو فوق مستوى ادراك الذين يتخصصون بدراسة الاخلاق من غير رجال الدين . ولعل السبب الحقيقي هو ان الطرق القائمة على الدورات الطمثية لا يمكن الاعتماد عليها كليا . ومع ان الكنيسة اجازت التحديد الطبيعي للنسل منذ عام ١٩٣٢ [٢٥] ، فان موظفيها وممثليها لا يزالون يتشبثون بان « تحديد النسل مخالف لسنة الله » [٢٦] . ولحسن الحظ هناك الكثيرون من اعضاء الطائفة الكاثوليكية ممن لا يقرون زعماءهم الدينيين على هذا الرأي . فاستخدام الوسائل المانعة للحمل منتشر منذ مدة طويلة في فرنسا والنمسا ، وقد اخذ ينتشر ايضا في ايطاليا واسبانيا والبرتغال وبلجيكا . اما في الولايات المتحدة الامريكية فان ٧٠ في المائة من النساء الكاثوليكيات اللواتي تتراوح اعمارهن بين ٢٠ و ٣٥ يعتقدن ان المعلومات المتعلقة بتحديدالنسل يجب ان تيسر لجميع النساء المتزوجات ، وذلك بناء على استفتاء حديث نشرته مجلة فورتشن [٢٧] . وتشيرالبيانات التي نشرها الدكتور بيرل الى ان الكاثوليك يستعملون وسائل اصطناعية تكاد تعادل وسائل

---

(٢٥) Editors of «Fortune», «The Accident of Birth» (New York, 1938).

(٢٦) See the works of Haldane and Holmes, referred to above, and see also F.W. Mansfield, «Birth Control Is Against God's Law» (Boston, 1942); «Knights of Columbus Resolution,» «Boston Globe», May 13, 1942.

(٢٧) «The Accident of Birth».

البروتستانت الذين يعيشون في وضع اقتصادي واجتماعي مماثل . ومع ان اكثر من ٨٠ في المائة من سكان الولايات المتحدة يؤيدون فكرة نشر المعلومات المناسبة عن اساليب منع الحمل فان هناك قوانين بالية ومحرمات بدائية لا تزال تقيد نشر هذه المعلومات وتجعل التعامل بالوسائل المانعة للحمل في مصاف المهن التي لا تتمتع بصفة شرعية كاملة .

— ٥ —

لم يبذل الانسان بعد جهودا واعية كثيرة لحل المشكلات المتصلة بنمو السكان وتوزيعهم . ويستطيع الجنس الابيض الآن تنظيم اوضاعه السكانية وفق موارده ، ولكن الفضل في هذا التقدم يعود الى المبادأة الفردية وليس الى سياسة مخططة لمعالجة المشكلات السكانية . فالزعماء السياسيون والدينيون والاقتصاديون كانوا يحبذون زيادة عدد السكان في بلادهم . ولكن هذا الموقف ليس له ما يبرره الا في بلاد ناشئة وقليلة السكان . فالزيادة الكثيرة في عدد السكان لا تنسجم مع المصالح العليا لنظام الحكم أو الاقتصاد الوطني . ومن العوامل التي أسهمت في خلق الرغبة في زيادة السكان في الاقطار المختلفة الاعتزاز بالولاء القومي والعرقي ، اذ ساد الاعتقاد احيانا أن الامة التي لا تتوسع في عدد رعاياها أو في مساحة ممتلكاتها تسير في طريق الانحطاط والشيخوخة .

واذا كتب للحروب أن تستمر ، فقد تكون هناك بعض المبررات لتكاثر السكان الى مدى أبعد من الحد الأمثل . ولكن الكثرة السكانية في الحروب الحديثة لا تؤمن بالضرورة القوة العسكرية . فسكان الهند والصين يعدون عشرة أمثال سكان اليابان ، ولكن اليابان كانت في وقت ما اقوى عسكريا من الدولتين معا . ومن الشروط الاساسية التي يجب توافرها في الحروب الحديثة التعليم والمهارة الفنية عند المدنيين

والعسكريين على حد سواء .

وكانت الامم في الماضي تلجأ الى الحروب لتضم اليها ممتلكات جديدة وتكسب موارد جديدة . اما في العصور الحديثة فان الحروب التي تشن لهذا الغرض لا تعود بأية فائدة تذكر . فاحتلال قطر مزدحم بالسكان لا يمكن ان يؤدي الى زيادة المجال الحيوي للفاتح الا اذا ابيد سكان القطر المحتل . اما اذا لم تتم ابادة السكان ، فان القطر المحتل لا يستطيع أن ينتج مواد لنفسه او لفاتحيه اكثر مما ينتج في اوقات السلم . واغلب الظن انه سينتج اقل من اوقات السلم بسبب سخطه على حكم الفاتحين .

ولعل أشد المفارقات غرابة في السياسات القومية في عصرنا الحديث هي المناداة بضرورة زيادة السكان في اقطار تشكو من كثافة سكانية عالية . فهتلر وموسوليني وتوجو دعوا كلهم الى زيادة معدلات الولادات في اقطارهم في الوقت الذي كانوا يشكون فيه من ازدحام السكان في اقطارهم وحاجتهم الى التوسع الاقليمي . وعندما اتيحت الفرصة لالمانيا وايطاليا واليابان لأن تستعمر مناطق في الخارج ، لم يهاجر الى المستعمرات الا عدد قليل نسبيا . ويلاحظ ان اليابان هي البلد الوحيد الذي بذل جهودا كبيرة لاعانة المهاجرين منها الى الخارج وتمويلهم ، وكان ذلك قبل لجوء البلاد المصدرة للقوى البشرية او المستقبلة لها بفرض قيود على الهجرة .

ومن المعروف ان رئيس الوزراء البريطاني ونستون تشرتشل نادى ايضا بضرورة زيادة معدل الولادات في انجلترا . ولم يكن لهذه السياسة اي مبدأ الا رغبته في ارساء الأوضاع السكانية في انجلترا على قواعد مستقرة بحيث لا تنخفض عن مستواها الذي كان قائما آنئذ ، او على اساس رغبته في زيادة سكان كندا واوستراليا ونيوزيلندة عن طريق تشجيع الهجرة من انجلترا . ولا ننكر ان هذه الاقطار الثلاثة تستطيع اعالة سكان اكثر وتحتاج الى مهاجرين جدد . اما اذا كان تشرتشل يهدف الى زيادة

سكان انجلترا نفسها ، فانه كان مخطئا في سياسته . فانجلترا تستطيع توفير مستوى جيد لسكانها الحاليين لا لسبب الا لأنها تملك مجتمعا بلغ درجة عالية من التطور الصناعي ولأن الامبراطورية البريطانية توفر لها ما تحتاج اليه من مواد خام وأسواق . غير أن انجلترا لا تستطيع ان تحتكر طويلا التصنيع او المهارة الفنية ، وسيأتي وقت تنجح فيه المستعمرات والاقطار الاخرى في تطوير صناعاتها الخاصة . وعندما يحين هذا الوقت ستجد انجلترا انها مضطرة لاعالة سكان اكثر مما تسمح به مواردها الزراعية ، وستكتشف ايضا انها لا تملك ميزات صناعية تضمن لها كميات كافية من الاغذية المستوردة . ومن الطريف ان نذكر هنا ان مالثوس تنبأ بامكان نشوء هذا الوضع في انجلترا قبل اكثر من مئة وخمسين عاما . وكان لدى رئيس الوزراء البريطاني وليام‌بت من‌البصيرة النافذة ما مكنه من الاعتقاد بان مالثوس كان على صواب . وكان وليام بت في البدء يعتقد ان كل رجل ينجب اطفالا كثيرين « يغني بلاده » ، ولكنه غير آراءه بعد قراءة رسالة مالثوس المعروفة بعنوان « مقال عن السكان » فسحب مشروع قانونه للفقراء لعام ١٨٠٠ وأعلن في مجلس العموم البريطاني انه انما فعل ذلك بناء على آراء « لم يسعه الا ان ينظر اليها بعين الاحترام » .

وكان التعصب القومي والعرقي ولا يزال من العوامل التي تثير الحروب والاعمال العدوانية . ومن الطبيعي ان تعتقد كل أمة ان شعبها او عرقها قد اختاره الله خصيصا ليحمل مشعل الحضارة . ويعتقد معظم الغربيين ان النمو والتوسع السريع للجنس الابيض كانا من الامور المحبذة في العالم . ولكن يجب الا يغيب عن بال الغربيين ان الكثيرين من اليابانيين يعتقدون ايضا أن حضارتهم وعرقهم كتب لهما ان يتوليا زمام القيادة في العالم . ومهما يكن من شيء ، فليس ثمة أي تبرير بيولوجي لاسطورة التفوق العرقي . فجميع الاجناس البشرية اسهمت في التطور الثقافي والاقتصادي في الحضارة العالمية . اما ازدهار الامبراطوريات والحضارات

وانهيارها خلال عصور التاريخ المختلفة فلا يمكن عزوهما لازدهار او انهيار مقابل في متوسط القدرة الفطرية للمجموعات السكانية . واغلب الظن أن هلاك الكثيرين من الأقوياء وذوي الميول العدوانية في الحروب المتكررة قد اضعف أمما كثيرة ، وقد تعكس الرباعية التالية التي نشرت في مجلة سبكتيتر اللندنية جانبا من الحقيقة :

يكتشف العلم طرقا بارعة لاهلاك الاقوياء من الرجال ، وابقاء
الضعفاء والمرضى على قيد الحياة ، كي ينجبوا ذرية سقيمة
أفقر من ان تجمع منها الضرائب ، وكثيرة جدا بحيث يصعب
توفير الغذاء الكافي لها .

ولكن بالنظر للبنية الجينية للبشر يستبعد ، على ما يبدو أن تكون الحروب أو الآفات الأخرى قد سببت ضعفا كبيرا في القدرة العقلية الفطرية للاجيال المنصرمة . ولذلك يجب أن نعزو نشوء الامبراطوريات وسقوطها الى عوامل أخرى .

وتتباين الاجناس البشرية الكبرى في خصائصها الشكلية الخارجية وسماتها السيكلوجية مثلما تتباين الانسال المختلفة للحيوانات الداجنة في أمزجتها ونسبها الجسمية . ولكننا ، في هاتين الحالتين كلتيهما ، لا نستطيع أن نجزم ما اذا كانت هناك فروق فطرية في الذكاء . وثمة ناحية لا ينطبق عليها هذا التشبيه ، وهي أن أعراق الانسان متباينة الازدواج أكثر من أنسال الحيوانات الداجنة التي خضعت في تطورها لعمليات الانتقام الصارم والتوليد الداخلي . وثمة أسس جينية تحملنا على الافتراض بان الفوارق العرقية في الذكاء يمكن أن تنشأ حتى لو كانت جميع الاعراق منحدرة من أصل واحد مشترك . فقد يحدث في تاريخ البشرية أن تنعزل فئة عرقية ويتناقص عددها . وفي مجموعة سكانية ضيقة كهذه ، قد يهبط معدل تردد بعض الجينات الى مستوى منخفض جدا قد يؤدي الى فقدها. ويكون الأثر الناجم مماثلا لاثر التوليد الداخلي الاصطناعي ، وقد يؤدي

تراكم هذا الاثر الى استقرار الفئة على وضع ربما كان أفضل أو أسوأ من أوضاعها السابقة ، وذلك تبعا للطبيعـة الجينية للعناصر الباقيـة . وأغلب الظن أن الوضع الذي تستقر عليه الفئة يكون أسوأ من الاوضاع السابقة. غير أن التباين الجسمي الواسع بين الاجناس البشرية الكبرى يقيم دليلا كافيا على أن الجينات عامة لم تتعرض لمثل هذا التحديد الشديد ، هذا مع العلم بانه وجد عدد قليل من الجماعات الصغيرة المنعزلة التي عانت من قلة فرص تكرر بعض الجينات . ويلفت هالديـن انتباهنا الـى ان انتشار الوسائل الحديثة للمواصلات وازدياد فرص الانتقـال والاختلاط بـين الشعوب يسهمان بنصيب كبير في ابطال أثر الجينات الضارة[٢٨] .

واذا كـانت الاختبارات أو مستويات الاداء مقيـاسا للذكاء ، فان الجماعات البشرية المختلفة تتباين في هذه الناحية . ويعتمد الذكاء النسبي بدوره على الوراثة والبيئة . وتبين من نتائج الاختبارات التي أجريت في الولايات المتحدة ان الامريكيين الذين هاجروا من اوروبا الجنوبية حصلوا على علامات منخفضة نسبيا . ويصدق هذا القول أيضا عـلى المكسيكيين والزنوج[٢٩] . وبما أن هذه الجماعات لم تتح لها فرص كافية للتعليم ولا أوضاع بيئية مواتية ، فمن الطبيعـي ألا تتمكن مـن منافسة الامريكيين الذين ولدوا في الولايات المتحدة أو المهاجرين الذين قدموا مـن أوروبا الغربية حيث توجد بيئات متقدمة من الناحيتين الاجتماعية والاقتصادية . أما في الولايات الجنوبية فان البيض يحصلون على نتائج أفضل من نتائج الزنوج ، ولكن الزنوج في مدن الولايات الشمالية يتفوقون على البيض في بعض المناطق الجنوبية .

ويجب ان نأخذ بعين الاعتبار ان اية جماعـة بشرية تحتاج الى أن تعيش في بيئة خارجية مواتية عدة أجيال قبـل ان تستطيع تدارك النقائص

(٢٨) Haldane, «Heredity and Politics».

(٢٩) E.M. East, «Mankind at the Crossroads» (New York, 1923).

التي قد تنجم عن مواقفها العرقية التقليدية . ولكــن المشكلة معقدة اكثر مما تبدو لأول وهلــة . ففي الولايات المتحدة الامريكيــة يعزى التخلف الاقتصادي للزنوج الى التمييز العنصري الذي لا يتيح لهم فرصا اقتصادية وتعليمية مماثلــة للفرص المتاحــة للبيض . ولكننا نلاحظ ان الزنوج في البرازيل متخلفون ايضا من الناحية الاقتصادية وذلك على الرغم مــن ان التمييز العنصري يكاد يكــون معدوما في هذه البــلاد . ومن المفارقات الغريبة ان التخلف الاقتصادي للزنوج في البرازيل يعزى الى انهم ينعمون بوضع اجتماعي مماثل لوضع السكان البيض وانهــم لا يشعرون بحافز قوي يدفعهم الى تحسين وضعهم الاقتصادي(٣٠) ومع ان الفرنسيين في كندا لا يختلفون عن اخوانهم في الوطن الام مــن حيث الاصل السلالي والاساس الثقافي ، فان تطورهم الاجتماعي والثقافي والعلمي لم يجــار تطور الفرنسيين في فرنسا . اما الكنديون الذيــن ينحدرون مــن اصل انجليزي فقد حافظوا على التقاليد الثقافية والاقتصادية البريطانية في العالم الجديد . ويلاحظ ان الصينيين واليابانيين في الولايات المتحدة يحصلون على نتائج جيدة في الاختبارات العقلية وان مستواهم لا يقل عن مستوى الامريكيين الذين ولدوا في امريكا(٣١) ، وذلــك على الرغم مــن انهم تعرضوا للتمييز الاقتصادي والاجتماعي ذاتــه الذي تعرض له الايطاليون والمكسيكيون والزنوج . ومن المحتمل ان يكون الانتقاء الطبيعي الصارم في آسيا قد رفع المستوى العقلي الفطري للسكان ، ولكن يرجح ان جميع هذه الفروق العرقية يمكن عزوها الى فروق في ردود الفعل تجاه البيئة أو الى الاختيار غــير العشوائي للعينات السكانية أو الى تقــاليد وعــادات الاعراق المختلفــة . ومن الثابت الآن ان ليس ثمــة اي تبريــر بيولوجي

(٣٠) E. Pierson, «The Brazilian Racial Situation», Scientific Monthly, March, 1944.

(٣١) Holmes, «Human Genetics and Its Social Import».

لأسطورة التفوق العرقي .

واذا صحت الرواية القائلة بأن وظيفـة الانسان الرئيسية في هـذا العالم هي تصدير الارواح الى العـالم الآخر ، فقد يكون هنـاك بعض التبرير للحملة التي يشنها رجال الدين ضد تحديد النسل . ويقول رجال الدين ان «الاطفال هبة من الله» وأنعلينا ان نرحب بهمجميعا بغضالنظر عن الاوضاع الوراثية او الاقتصادية للعائلات التي تنجب هؤلاء الاطفال . وكتب المرحوم الكاردينال هايس في سياق حديثه عـن مشيئة الله في هذا الموضوع :

« قـد يتأثر بعض الاطفـال برذائل آبائهم أو بعاهاتهم الجسميـة والعقلية ، وقد تبدو هذه المخلوقات الصغيرة البريئة مشوهة ومرعبة ، وقد يعتبرها البعض وصمة تشين المجتمع المتحضر . ولكن يجب الا ننسى ابدا المبدأ المسيحي القائل بأن وراء هـذا الوجه الخارجي المشوه تكمن روح خالدة لا بد من انقاذها وتمجيدها لتعيش ابدا مـع الذين وسعتهم رحمة الله في ملكوته » .(٣٢) ولا يسعنا الا أن نبدي مزيدا من الدهشة عنـد قراءة البيان الذي اصدره المرحوم الكاردينال اوكنل في عام ١٩٤٢ ، اي بعد عشر سنوات من تاريـخ المرسوم الذي اصدره البابا بيوس الحادي عشر والذي فيه اجاز للكاثوليك استخدام الطريقـة الطبيعية القائمة على الدورات الطمثية لتحديد النسل . قال الكاردينال في بيانه ما يلي : « من تعاليم الكنيسة التي اثبت التاريخ صحتها ان استخدام الطرق الاصطناعية لتحديد النسل يؤدي حتما الى عواقب وخيمـة للفرد والعائلـة والامـة باسرها »(٣٣) . ولنقابل الآن ، على سبيـل المثال ، بـين شعوب اوروبا

---

(٣٢) J.H. Dietrich, «The Ethics of Birth Control» (First Unitarian Society, Minneapolis, 1930).

(٣٣) Cardinal O'Connell in the Boston «Herald», Oct. 22, 1942.

الغربية وبين شعوب الهند والصين واليابان سواء في زمن السلم او الحرب. ويستشهد البعض عادة بفرنسا للتمثيل على النتائج المروعة لتحديد النسل في حين يمدح البعض الآخر ايطاليا بوصفها مثالا على التوسع السكاني . صحيح ان فرنسا لم تكن مستعدة للحرب العالمية الثانية ، ولكنها في عهود السلم سبقت دول العالم الاخرى في تطور سكانها الثقافي والاجتماعي . وعلق بيرل على الوضع في فرنسا قبل الحرب العالمية الثانية فقال : « ان من يظن ان فرنسا كانت بائسة وتعيسة قبيل الحرب لهو جاهل وسخيف في آن واحد . » ولو ان الاقطار الاخرى في اوروبا خفضت معدل ولاداتها في ذات الوقت الذي فعلت فيه فرنسا ذلك لما كانت هنالك ذريعة للعدوان بالنسبة للامم الاخرى . وشدد مؤتمر الشؤون الكاثوليكية الوطنية ، في رسالة نشرها في عام ١٩٤٢ بعنوان « حرب مقدسة » ، شدد على ضرورة زيادة عدد السكان على اساس المتطلبات العسكرية . ومما يثير الاستغراب حقا ان يعمد افراد ممن نصبوا انفسهم لينطقوا بلسان أمير السلام الى التشديد بمثل هذه القوة على متطلبات اله الحرب مارس .

ويميل بعض رجال الدين الى ان يقرنوا الفقر والجهل بالتنمية الروحية ، والثروة والعلم بالحضارة المادية ، وبذلك يجدون مبررا لازدياد عدد السكان الى مدى ابعد من الموارد العائلية او الوطنية . غير ان الحقائق لا تدعم هذه المدرسة الفلسفية . فالعمال الذين يضطرون الى أن يكدوا من الفجر حتى مغيب الشمس لسد رمقهم لا يملكون الفرصة ولا الميل لتنمية ثروتهم الروحية . وقد يجد هؤلاء ملاذا في دين الانهزامية ، ولكن يجدر بنا ان تتأمل في القول التالي لهوشيه : « ان هذه الفلسفة المخدرة للنفس لهي اشد مادية من البيوت القذرة التي يعيش فيها هؤلاء القوم ، لا بل هي اشد مادية من الغذاء الهزيل الذي يقتاتون به ومن الطين والخشب اللذين يصنعون بهما اشكال آلهتهم » .(٣٤) ولا ريب في ان

(٣٤) Hu Shih, «The Civilizations of the East and the West», in «Whither Mankind,» ed. Charles A. Beard (New York, 1928).

افضل طريقة لتنمية روح الانسان هي تنمية معرفته وقدرته على التحكم في الطبيعة وزيادة تقديره وتفهمه لزملائه مـن بني البشر ، فالتنمية الروحية لا تأتي عن طريق التخلي عن التفكير المنطقي او المس في الدين .

وكان ارباب الصناعـة في الماضي يحبذون تكاثر السكان مـن اجل زيادة القوى العاملة والاسواق المستهلكة . فوجود فائض من العمال كان يعني في نظرهم أجورا اقل وارباحا اكثر . اما اليوم فقد اخذ رجال الاعمال يدركون ان رفاهية السكان كافة يجب ان تؤخذ بعين الاعتبار في برامـج التنمية الصناعيـة . فالصناعة الحديثة تتطلب عمـالا اذكياء وسليمـي الاجسام . ومن الواضح أنه لا يمكن بلوغ مستوى عـال مـن التعليم والصحة الا برفع مستويات المعيشة . هذا وان ازدياد فاعلية العمال يغطي النفقات الناجمة عن زيادة الاجور ، وفي الوقت نفسه يزيد قدرة السكان على الشراء . ولكن يجب ان ندرك أن زيادة الانتاج هي السبيل الوحيد للازدهار . ولذا يتوجب على أرباب العمـل والعمال ان يتخلوا عن المبدأ الذي ينادي بانتاج أقل ما يمكن وبيعه باقصى سعر ممكن .

ويمكن القول ان الزعماء الدينيين والسياسيين لم يلاقوا نجاحا كبيرا في سياستهم الرامية الى زيادة معدلات الولادات . ولكن ما زالت هنالك طرق فعالة يستطيعون اللجوء اليها لتحقيـق اهدافهم . فاذا ظهر دكتاتور سياسي او ديني في المستقبل وبدا له ان يدعو الى رفع معدل الولادات ، فان كل ما يحتاج اليه هو ابقاء شعبه فقيرا وجاهلا ، ذلك لان الفقر والجهل كانا وما زالا يقترنان بارتفاع معدلات الولادات . ولضمان زيادة مجموع السكان ، يجب ان يكون مستوى المعيشة عاليا بحيث يكفي للحيلولة دون ارتفاع معدل الوفيات . ومما يلفت النظر ان اليابان اثبتت انه ليس مـن الضروري ان يكون هذا المستوى عاليا جدا ، وان كـان من المستحسن ضمان مستوى معين من التدريب الفني بالنسبة لجماهير العمال . ويحتاج القائمون على الامر ايضا الى دعاية فعالة او تنظيم ديني لضمـان خضوع

الناس للنظام الجديد . ولكن لا بد من الاشارة هنا الى ان الدعاية السياسية او الدينية تحدث اثرا فعالا حتى في المجتمع المثقف .

هذا وان المحافظة على الوضع السكاني الأمثل قد ينطوي على مشكلة خطيرة في المستقبل القريب في الكثير من اجزاء العالم . وستنشأ الحاجة في المستقبل القريب نسبيا الى وضع حد لتناقص الولادات في الولايات المتحدة ومعظم الاقطار الاوروبية . ولكن يحتمل ان يستمر هذا المعدل في الهبوط في هذه الاقطار . فاذا تحسنت الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية بالنسبة للمواطن العادي ، كما هو متوقع في المستقبل ، فان هذا العامل وحده كفيل بان ينقص معدل الولادات . ويلاحظ ان الرأي العام اخذ ينحاز بقوة الى فكرة نشر المعلومات الخاصة بالوسائل المانعة للحمل ، ولا شك في ان انتشار هذه المعلومات سيعمم تحديد النسل في جميع الاوساط باستثناء اكثر الافراد جهلا واقلهم احساسا بالمسؤولية . ومن العوامل التي ستؤثر حتما في معدل الولادات ازدياد الاستقلال الاقتصادي للنساء . فالمرأة الحديثة قد تكتفي بطفلين او ثلاثة لاشباع غريزة الامومة عندها ، وقد تمتنع عن انجاب المزيد من الاطفال . وقد اجرت مجلة فورتشن حديثا دراسة على عدد من النساء الامريكيات الشابات اللواتي تراوحت اعمارهن بين ٢٠ و ٣٥ سنة . وتبين من هذه الدراسة ان متوسط عدد الاطفال الذي تقنع به العائلة الامريكية هو ٢ر٦ . واذا اخذنا بعين الاعتبار نسب الزواج والوفيات ، فان المتوسط ٢ر٦ طفل للام الواحدة يكفي لابقاء عدد السكان على حاله دون زيادة او نقصان . ولكن ليس ثمة ما يضمن ثبات عدد السكان على حاله بدون تأمين بعض المساعدات لذوي العائلات الكبيرة . ومن المعروف انه تبذل محاولات في اوروبا لزيادة معدل الولادات عن طريق المخصصات العائلية وقروض الزواج والبرامج المختلفة لرعاية الامومة . ولكن هذه المحاولات لم تصادف نجاحا كبيرا .

ان المشكلات السكانية في العالم معقدة ومتناقضة . واذا لم تفرض قيود لتحديد النسل ، فان تكاثر السكان لا يمكن ضبطه الا عن طريق ارتفاع معدل الوفيات . والواقع ان هذا الوضع ظل قائما حتى عهد قريب. وما زال قائما في معظم انحاء آسيا . اما اذا كانت معدلات الولادات تعتمد على الابوة الطوعية ، فقد يكون من الصعب المحافظة على العدد السكاني الامثل لاغراض السلم او الحرب . وتواجه اقطار كثيرة اليوم هذه المشكلة التي قد تزداد حدة ما لم تبذل محاولات جدية لحلها .

وفي العالم اليوم متسع لمزيد من السكان . اما مدى الزيادة السكانية الممكنة فيعتمد على مستوى المعيشة الذي ترغب الاغلبية في بلوغه . وقد يكون في مقدور الانسان ان يؤمن مستوى عاليا من المعيشة لثلاثة بلايين نسمة . اما اذا بلغ عدد سكان العالم ثمانية بلايين نسمة ، فانهم قد يجدون ما يؤمن المستوى الادنى الذي يكفي لبقائهم على قيد الحياة ، وذلك على اساس الموارد الزراعية الحالية والموارد الاخرى التي يمكن استغلالها في المستقبل .

ويحتل الجنس الابيض او يبسط نفوذه على القسم الاكبر من قارات العالم باستثناء آسيا . ولديه مجال للتوسع السكاني ، ولكن معدل الولادات عنده يميل الى الهبوط حتى انه في بعض المناطق لا يبلغ المستوى اللازم للتعويض عن الوفيات . اما الجنس الاصفر ــ البني فهو محصور في آسيا ، وهو يعاني من التضخم السكاني ومن ارتفاع معدلات الولادات والوفيات ، اضف الى ذلك انه لا تتاح له فرص كثيرة للتوسع في الخارج. واما المشكلة السكانية بالنسبة للجنس الزنجي ــ الاسود فهي ترتبط بالجنس الابيض الذي اما يعيش معه على اساس الاشتراك معه في المواطنة واما يخضعه لنفوذه الاستعماري .

وليس ثمة اي مبرر للمحاولات التي تبذل لحل المشكلات الناجمة عن الضغط السكاني عن طريق غزو اقطار مجاورة تشكو هي نفسها من ازدحام السكان . فالشعوب المغلوبة على امرها ، اذا لم تتم ابادتها ، لا تسهم ابدا في حل مشكلة الضغط السكاني . اضف الى ذلك انه ليس ثمة اي مبرر بيولوجي للغزو الخارجي على اساس التفوق العرقي . صحيح ان الاعراق البشرية تتباين في سماتها الجسمية واوضاعها التعليمية ، ولكن ليس ثمة اي دليل على انها تتباين في ذكائها الفطري او قدراتها العقلية الكامنة . أما الفروق الثقافية والاقتصادية والعقلية التي توجد الان فيمكن عزوها ، في اغلب الحالات ، الى الفروق البيئية .

ويعتبر تحديد النسل اليوم منالاجراءات الضرورية في معظم اجزاء العالم ، وهو منتشر فعلا في جميع الاقطار التي بلغت مستوى معاشيا عاليا . ولكننا نلاحظ ، حتى في هذه الاقطار ، أن هناك علاقة بين عادة استعمال الوسائل المانعة للحمل وبين الوضع الاقتصادي والثقافي للافراد. فالاطفال يقلون عند العائلات الميسورة الحال والقادرة ، من الناحية الاقتصادية ، على تنشئة عدد اكبر منهم ، ولكنهم يكثرون عند العائلات الفقيرة التي تنجب اكثر مما تستطيع ان تعول . ومن الواضح ان نتائج هذا التفاوت في معدل الولادات ليس في مصلحة التطور الفردي والقومي، وذلك بغض النظر عن العوامل المسؤولة عن التفاوت في الاوضاع الاقتصادية والثقافية بين الآباء . وتلعب العوامل البيئية اليوم دورا مهما جدا في التطور البشري وفي النهوض بمستوى التحصيل والانجاز ، ولكن يتوجب علينا مع الوقت الاعتماد على المبادىء الجينية والوراثية اذا اردنا ادخال اي تحسين دائم على الجنس البشري .

فهرست المحتويات

ف. ب. (١٧٩)

١٩٦٧

إهـــــــداء٢٠٠٩

اسرة المرحومة الدكتورة / ثناء السيد محمد

جمهورية مصر العربية

هذا الكتاب

« ان علم الانثربولوجيا حديث العهد نسبياً ؛ وحصيلته من المعلومات تتزايد بسرعة كبيرة جداً حتى ان الكثير من اكتشافاته لم يصل بعد الى الباحثين في العلوم الاخرى ، بله رجل الشارع. ولا بد لنا من الاشارة ، في الوقت نفسه ، الى ان بعض هذه الاكتشافات ينطوي على اهمية كبرى بالنسبة للتخطيط الواعي للنظام العالمي الجديد الذي يبدو الآن امراً حتمياً ، كما انه ضروري جداً لتنفيذ أيّة خطة قد يضعها الانسان في المستقبل. ولا ريب في ان بُناة هذا النظام سيخفقون في عملهم اذا هم عجزوا عن فهم امكانات وحدود المادة البشرية التي يخططون لها . وثمة عامل آخر يكاد يعادل العامل السابق في الأهمية ، وهو ضرورة معرفة الاتجاهات التي تلعب دورها خلال فترات زمنية طويلة وادراك المشكلات التي يستطيع الاخصائي التنبؤ بها قبل وقوعها او تمنعها قبل ان تشتد حدتها ويتطلب حلها اجراءات جذرية عنيفة » .

كتاب جدير بالقراءة

المكتبة العصرية ، صيدا - بيروت

الثمن : ٨٥٠ ق.ل.